اللسانيات

بين منجزات الحداثة وهواجس التأصيل

الكتاب: اللسانيات

بين منجزات الحداثة وهواجس التأصيل

المؤلف:

الطبعة الأولى: ٢٠١٦

تصميم الغلاف: أمينة صلاح الدين

طباعة . نشر . توزيع

دمشق/ جوال: ٠٩٤٤٦٢٨٥٧٠- ٠٠٩٦٣

Email: akramaleshi@gmail.com
Fecebook:Dar Tamoz

اللسانيات

بين منجزات الحداثة وهواجس التأصيل

بسم الله الرحمن الرحيم

((يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَات ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)) ، سعياً لإدامة التنمية الفكرية يقيم قسم اللغة العربية / كلية التربية للبنات / بغداد ـ مجموعة من الندوات والمؤتمرات العلمية والحلقات الدراسية وورش العمل على مدار السنة ، ووجدنا أن درس اللسانيات موضوع واسع يفرض على المؤسسة العلمية المتخصصة أن تفرد له مساحة واسعة من الاهتمام ، لأنّ اللسانيات علم العلوم ، أو علم العصر ؛ فهي تدرس اللغة دراسة علمية بعيدا عن الانطباعات القيمية التي انتشرت في العصور السابقة ،ولعل الاهتمام باللسانيات في العصر الحديث مردّه إلى رغبة الإنسان في تلمُّس أسرار اللغة والوقوف على تجلياتها ، فهي قنطرتنا للتواصل والأنسنة ، وبها نعبّر عن أفكارنا وننسج مشاعرنا ، وهي الوسيط في التبادل العلاماتي. كانت ومازالت هي الشغل الشاغل للإنسان ، فتراه دائب البحث في أعطافها ويستلهم معاشه منها ، ويتوق إلى اقتناص أسرارها.

إن ما قدمه العصر الحديث من معارف لغوية سمح لنا أن نشرع بفتح أبواب التسؤلات على المنجز اللغوي العربي القديم ، وننظر إليه بعدسة الحداثة ، ويمكننا إيجاد حلاقات المواشجة بين المعارف العربية القديمة والعلوم الوافدة الحديثة ، ويمكن أن تقدم في هذا المجال دراسات وبحوث ورسائل لتغني هامش الإجابة عن الأسئلة الملحة في هذا الحيز ، ومن جهة أخرى قدمت إلينا الدرس اللساني وهو يشمل علوم عدّة متفرعة من بعضها ومتداخلة من حافات كثيرة.فاللسانيات ليست علمًا واحدًا ، بل مؤتلفة من عُلومٌ مختلفةٌ تفرّعتْ عنِ الدّراسةِ العلميّةِ للغة ، فأصبح الآن لكلِّ فرعٍ منها علماء ومتخصصون في هذا الفرع أو ذاك من هذا العلم ، بل لقد أصبح لكلِّ

فرعٍ منها اليوم دراساتُهُ وأبحاثُه وكتُبُه ودوريّاتُه التي تصدرُ بالآلاف في شتّى أنحاء العالمِ كلَّ عام ، حتى بات من العسيرِ على المتخصص في هذا العلمِ أو أحدِ فروعِه أن يتابعَ كلَّ جديدٍ يصدر في قضاياهُ وموضوعاته.

وهناك صلاتٌ وثيقةٌ بين فروعِ هذا العلَم ؛ بحيثُ لا يجد الباحثُ أو العالمُ في أيِّ فرعٍ من فروعه بُدًّا من معرفة بقيّة الفروعِ الأخرى ، ليحقق تقدُّمًا أو يصدرَ أحكامًا عن بيّنة في فرعِ تخصُّصه. فعالمُ الأصوات ـ مثلا ـ لا بدّ أن يكونَ على معرفة واعية بالفروعِ الأخرى ، ولاسيما الصرفَ والنحوَ والدلالة ، ومثل ذلك عالمُ النحوِ لا بد له أن يعرف علمَ الأصوات والفنولوجيا والصرف والدلالة وهكذا ؛ لأنّ تحليلَ البنيةِ اللغويّة يخضعُ في نهايةِ الأمر لنظامٍ واحدٍ يجمعُ بين أنظمةِ اللغةِ الأخرى المتمثلةِ في الأصواتِ والصرفِ والنحو والدلالة.

وأصبحت التخصصات في هذه العلوم أكثر دقة ففي مجال علم اللغة العام او (النظري) تنوعت علوم الأصوات ، فهناك علْمُ الأصْوات النُّطْقِ ، وعِلْمُ الأصْواتِ الأكوستيكي ، وعِلْمُ الأصْواتِ السّمْعِي ، وعِلْمُ الأصْواتِ التّجْريبي أوعلم الأصوات المعملي ، وكلها تتصل من جهة بعلم الفونيمات ، وكذلك علم الصرف ، ومن جانب آخر يتوسع علم النحو من النحو التقليدي إلى التوليدي والتحويلي ، أوالوظيفي البنيوي ، ويتصل علم اللغة التاريخي بعلم المفردات وينفتح على علم اللهجات من جهة ، وعلم صناعة المعاجم من جهة أخرى. وهنان علوم لغوية أخرى تدرس بمناهج مختلفة كالوصفية ، والمعيارية والمقارنة ، والمقابلة ، والإحصاء ، ويزداد الأمر تخصصا عندما تسحب دراسة بعض العلوم على وفق هذه المناهج ، ومثال ذلك علم الجرافيمات أو (الكتابة) ، وإذا أردنا التوسع يدخل علم الدلالة وضمنه يدعم اللسان بقدرات التعبير غير اللسانية.

ويطمح الباحث من الإفادة من العلوم النظرية في مجال البحث التطبيقي ، كما في علم اللغة الجغرافي ، أو في علم اللغة النفسي ، أو علم الأسلوب ، أو علم أمراض الكلام ، أو علم اللغة الاجتماعي.

وإن الجهود المكثفة في مجال ترجمة هذه العلوم خلّفت لنا مشكلات ، أهمها

مشكلة المصطلح اللساني وعدم استقراره ، ومن ذلك ترجمة مصطلح اللسانيات الاجتماعية ، إذ جاء في معجم مفاتيح العلوم الإنسانية للدكتور خليل أحمد خليل مصطلح(لسانة ناسية) أو ناسية لسانية (**sociolinguistique** أو اللسانيات الاجتماعية **Ethnolinguistique**)

ويصعب التفريق الواضح بين اجتماعيات اللسانة والناسيات اللسانية ، لكن هذين العلمين لا يدرسان المجتمعات نفسها : فالناسيات اللسانية تهتم بالمجتمعات بسيطة التركيب - أي العريقة والبدائية والأولى. أمّا اجتماعيات اللسانة فتدرس المجتمعات المركبة أو المتحضّرة. ومردفات اللسانيات الاجتماعية كثيرة في العلوم الإنسانية ، ومنها:

- اللسانة الاجتماعية. **sociolinguistique**
- اللسانة الإناسية.**linguistique anthropologique**
- اجتماعيات اللغة. **sociologie langage**

واللسانيات الاجتماعية تخصص علمي يجمع كل من علم اللسانيات ، وعلم الاجتماع وعلم السلالات ، وعلم الجغرافيا البشرية ، وعلم اللهجات. ولذلك نود تنبيه الباحثين على توجيه الجهود في المستقبل نحو توحيد المصطلح اللساني ، والتعاون مع مؤسسات علمية أخرى في العراق مثل مؤسسة المأمون للترجمة ، والمجمع العلمي العراقي ، وأقسام الترجمة في كلية اللغات / جامعة بغداد. فضلا عن الأقسام العلمية المتخصصة في الترجمة ودراسة اللغة في الكليات الأخرى. ونود أيضا أن نقترح وضع نظام عمل يشرع بتشكيل فرق عمل على إعداد مشاريع علمية موسوعية ، أو فهرسية ، أو معجمية ، ببيليوغرافية مناهج البحث العلمي أو تأسيسية ، أو نقدية ، ولا سيما في حقل لسلنيات النص الذي نجده بحاجة لبحوث ودراسات كثيرة لإغناء المكتبة العربية.

الدكتورة عواطف محمد حسن

رئيسة قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم
مشروع كتاب قسم اللغة العربية رقم (١)

ليست المعرفة والثقافة في العراق من إنتاج المؤسسات الثقافية والنقابية التي تعودنا عليها ، فما يزال في مخيلة القارئ العراقي والعربي ارتباط إنتاج الكتاب ـ سواء أكان قصة أم رواية أم شعرا أم مسرحية أم دراسة نقدية ـ من اختصاص وزارة الثقافة العراقية واتحاد الأدباء أو بعض المؤسسات الثقافية ،وأعتقد أن هذا الأمر مغلوط ويحتاج إلى مراجعة ، فلا بد من القناعة بأن إنتاج الثقافة ليست من اختصاص بعض المؤسسات ،فاشتراك المؤسسة الجامعية يضفي على العمل الدقة والحصانة العلمية والأكاديمية ، لذلك جاء هذا المشروع الرائد ليؤسس العتبة العلمية الصحيحة التي يمكن أن تبنى عليها أركان الهيكل المعرفي في مجال الدرس اللساني في المؤسسة الأكاديمية وفي الساحة الثقافية العراقية بشكل عام.

يأتي هذا الكتاب ضمن رغبة قسم اللغة العربية(في كلية التربية للبنات/جامعة بغداد) ، في الشروع نحو هدف ثقافي كبير يسهم في تعزيز الصلة بالقارئ الذي تعود على استقبال إنتاج الثقافة والكتاب من خارج أسوار الجامعات ،بحيث يؤدي هذا الى عدم انحسار الدرس الأكاديمي داخل القاعات المغلقة التي لا تنتج إلّا منظومة صوتية من التلقي ، ويقابلها تسجيل حرفي يقوم به الطلبة ، فالجامعات تنتج المعرفة وتقدم كثيرا من الأفكار والرؤى والتصورات ، وبذلك فإن مشروعا من هذا النوع يفضي إلى هدف أكبر يسعى إليه قسم اللغة العربية في كليتنا ، وهو مشروع انطلق من تلك الندوة التي أقيمت في قسمنا عام ٢٠١٥ حول إشكاليات الدرس اللساني ، وهي ندوة

أخذت أهميتها من ذلك الارتباط الكبير مع مشروع تأسيس جمعية اللسانيين العراقيين ،على النحو الذي حقق صلة كبيرة بين الشروع بالفكرة وتطبيقها عن طريق الأبحاث وأوراق العمل المشاركة في الندوة ، وهذا ما دفع القسم إلى تبني أبحاث الندوة وأوراق العمل ضمن فكرة مشروع كتاب قسم اللغة العربية ،وسنحاول من خلال هذا المشروع تبني الأعمال التي تتميز بالجدة والفرادة والتميز ،بحيث إن أي عمل ينوي صاحبه طبعه ضمن هذه السلسلة لابد أن يؤمن أن المشروع سوف يحال لمجموعة من خبراء القسم للبت في أهميته لكي يستقر ضمن هذه السلسلة...

إن مشروعا ضخما من هذا النوع يؤشر ذلك الانفتاح الذي شرع به قسم اللغة العربية على كل الأوساط الثقافية والإعلامية في الانفتاح والقناعة بالحوار ،فثمة طاقات تسعى إلى رفد الأوساط الجامعية بما يعزز من مكانتها وتتقبل كل الحوارات على نحو إيجابي وفعال.

أ.م.د.أثير محمد شهاب

كلية التربية للبنات/جامعة بغداد

اللغة بين الحداثة والتأصيل

أ.د علي حاتم الحسن
عميد كلية دجلة الجامعة الأهلية

نعم اللغة عامل مهم في تطور العلوم الإنسانية بيد أنها تصدرت هذه العلوم في خلال القرن العشرين بسبب أنها انحازت كثيراً إلى التوجه العلمي الذي قّربها من العلوم الصحيحة. ومن جهة أُخرى استفادت اللغة من العلوم الاجتماعية الأخرى كالتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس ثم انتهت إلى بلورة مناهج علمية أثّرت في تلك العلوم وأصبحت رائدة في مجالها.

من هنا أصبح التفاعل بين اللسانيات والعلوم الأخرى أمراً بارزاً دخل مرحلة التلاقي والتداخل فكانت اللسانيات الاجتماعية ، واللسانيات النفسية ، واللسانيات الإعلامية.

ومن الطبيعي أنْ نجد العلوم على اختلافها تتنافس فيما بينها أعني التنافس الايجابي الذي يفرض على أصحاب هذهِ العلوم الإطلاع على منتج كل منهم وتبادل الرأي فيه على نحوٍ يتيح التعرف والاستزادة العلمية والمعرفية في حين صار التنافس بحسب – مفاهيمنا هو القطيعة بين اللسانيين فلا أحداً منهم يهتم بما يكتبه الأخر الأمر الذي جعل اللسانيات في ثقافتنا العربية متروكة للإجتهادات الفردية وهذا يعني بحسب – الطب البكوش – ضعفاً في الوعي العلمي وليس تنافساً بل هو نقص في

الأخلاق العلمية ، وأجد أنَّ السبب الرئيس الكامن وراء هذه الإختلافات العلمية المتدنية هو الإنغلاق على الذات وما تختزنهُ من تعصبٍ أعمى للتراث ، التعصب الذي لا يستند إلى التفكير العلمي. وهذه العقلية المرضية موجودة بكثرةٍ في النخبة العربية. كما أنَّ التنافس بدلاً من أنْ يكون عاملاً مؤثراً في الإبداع والإنتاج انقلب إلى صراع بين الحديث والقديم وبهذا الوصف تبدو قضية الحديث والقديم في الوعي اللغوي العربي كانت ولازالت محط خلاف وصراع لم تنتبهِ إلى هذهِ اللحظة.

وقد يكون الصراع تحول من صراع معلن وصل إلى حد الاتهام والشتيمة إلى صراع أصبح أكثر هدوءاً في صورتهِ الخارجية لكنهُ يستبطن الحقد والرفض الذي أصبح متجذراً وعميقاً. ولكن للأسف الشديد فأنَّ هذا الصراع لا يستندُ إلى عمقٍ فكري وثقافي بسبب التراجع المخيف للوعي الثقافي العربي الذي أختار أنْ يكونَ حبيساً لمعطيات القدماء ومن هنا بدأت الكارثة. بمعنى إننا قمعنا تراثنا المليء بالعطاء والثراء والغِنى فأغلقنا الأبواب عليه لننغلق نحن معه بقصد أو من غير قصد.

وأستطيع أنْ أؤشر هنا إنَّ القصدية مفقودةٌ أيضاً لأنَّ وجود الوعي بالأشياء وهو ما نفتقده الان وهو ما يؤكد عدم القصدية لعدم وجود الوعي الحقيقي في النظر إلى الأشياء أو محاكمتها على أُسس ثقافية علمية. وفي تقديري أنَّ واحداً من الأسباب المهمة في هذه القضية هو إننا نتعامل مع المعارف والعلوم والثقافات على نحوٍ فوضوي لا يستند إلى التنظيم إذ أنَّ الهرمية العلوّية في التعامل مع المعارف إلى الإرتباك وعدم الاستفادة من هذهِ المعارف بمعنى أنَّ مؤسستنا المعرفية — إذا كانت لديها مؤسسات — لم تهيئ نفسها على أساس البناء القاعدي الذي يجب أنْ يهيئ الموارد البشرية حتى ولو كانت فردية التي بدورها تستدعي مقتضيات ومتطلبات البحث العلمي المتصاعد وصولاً إل الهرم.

في حين ما أجدهُ في المؤسسات التعليمية في عالمنا العربي قائم على التعامل من أعلى إلى أسفل وقد يكون وراء هذا النوع من السلوك أسباب منها إننا أستفقنا متأخرين بل أستطيع أنْ أقول عاجزين عن مواكبة الحركة الثقافية العالمية المتسارعة. الأمر الذي جعلنا نتخبط في التعامل مع هذهِ المعارف والثقافات المتعددة.

ومن جهةٍ أخرى فإن الاسترخاء الاقتصادي في الدول العربية النفطية دفعنا إلى محاولة شراء هذه المعارف على الرغم من رفضنا المستمر لها بدلاً من أنْ يكون عاملاً مؤسساً لثقافة واعية. أعني إننا توهمنا أنَّ شراء التكنولوجيا بأنواعها المختلفة يمكننا أنْ نؤسس ثقافةً مستقلة متناسين أنْ الأهم في الموضوع بناء العقل العربي سواء كان على مستوى الأفراد أو المؤسسات فإن نتيح لمثقفنا في مؤسساتنا وجامعاتنا الفرصة في أنْ يستدعي هو عن طريق ما يطرحهُ من أفكار وأراء كل ما تقتضيه هذه الأفكار من تكنولوجيا على مستوياتها المختلفة وقد ينتج هذا السلوك كما هو معروف في العالم تفرداً معيناً يصبح في ما بعد امتيازاً لهذهِ المؤسسة أو تلك أما أنْ تتدخل مؤسساتنا التعليمية والثقافية بفرض مناهجها وتقنياتها المستعارة من دون تهيئة العقول للتعامل مع هذه التقنيات والمعارف فهو يقتضي أنْ نضع أمامه أكثر من علامة استفهام.

المهم إننا بحاجةٍ إلى تنوير لعقلٍ يبدو أنهُ مصر على الرفض الناتج عن طغيان الفكر المحافظ وقد تكون إشارة—الدكتور الفاسي الفهري—في أنَّ التراث الغني بأفكارهِ وأدواتهِ جعل من الصعب اقتراح بديل لهُ على المستوى الإجرائي في حين أنَّ غنى التراث اللغوي العربي – كما أرى – كان يجب أنْ يكون عاملاً مشجعاً في استيعاب الآخر والتعامل معهُ ثم الاستفادة منهُ وهذا ما لم يحصل.

ويقفز إلى الذهن هنا سؤال مهم هو هل إنَّ هذا الصراع بين اللسانيات الحديثة والتراث اللغوي العربي هو صراع حقيقي؟

اعتقد أنهُ صراع وهمي زائف لأنَّ الصراع الحقيقي يجب أنْ يكون بين طرفين متكافئين وهذا ما لم يحصل في واقع الأمر لأنَّ طرفاً ثالثاُ دسّ نفسهُ بديلاً مزيفاً متحدثاً بأسم التراث ورافضاً لكل ما هو حديث. في حين إنني على يقين في إنّ صاحب التراث الذي كتبهُ وأنتجهُ هو. لو امتلك عصى موسى السحرية ليكون حاضراً اليوم لأستوعب الحديث ووظفهُ مستفيداً وفيداً في ان واحد.

وبهذا المعنى يجب أنْ ننظر إلى التراث على أنهُ مرحلةً تأسيس وتمدد وانفتاح لنتمكن من النظر بزوايا متعددة دون أنْ ننغلق على نحوٍ فاضح. فتقديس التراث عند بعضهم يقودهم إلى إنَ ما جاء بهِ الأوائل كافٍ شافٍ ولسنا في حاجةٍ إلى إعادة

القراءة من منظور أحداث يستفد من النظريات والاكتشافات الحديثة. ومن نتائج هذا التقديس أو من مظاهرهِ استهجان المستويات الدارجة من العربية والترفع عن دراساتها. الأمر الذي جعل الإهتمام بالدراسات اللهجية قاصراً على نحوٍ مخيف. وقد يكون الحذر من هذه الدراسات هو اهتمام المستشرقين بها وهو موقف ليس خاطئاً فقط بل يثير التساؤل؟ ويبدو إنَّ هذا الحذر إنتقل إلى أنْ يصبح موقفاً متشدداً من قبول الدرس اللساني الحديث ليتساوق مع الموقف من الآخر وقبوله.

ولكن ومن أجل فك الإشتباك بين القديم والحديث لابد أنْ نؤشر الأساسيات التي تخفف من هذا الالتباس والخلط. فلظروف الإنتاج والموضوع والهدف والمنهج – كما أشار- إلى ذلك الدكتور أحمد المتوكل تحديد خط الشروع في التفكير اللغوي. بمعنى إنّ لكل من المحددات الأربعة أثر في توجيه التفكير اللغوي. ومن ثم تحديد نوع وطبيعة المنتج اللغوي. فظروف الإنتاج تستندُ إلى المحيط العلمي والاستفادة من مختلف العلوم وهو ما لم يتح للدرس اللغوي القديم.

أما موضوع الدراسة فلم يجاوز الفكر اللغوي القديم حدود اللغة الواحدة والتقعيد لهذه اللغة الواحدة في حين أنَّ موضوع اللسانيات هو اللغات على اختلاف أنواعها.

أما المنهج في النحو القديم يستند إلى أوصاف متفرقة لأبواب مختلفة. في حين أنَّ منهج اللسانيات يقوم على بناء نماذج خاضعة لقواعد الإستنباط وقوانين الصورنة العلمية.

اللسانيّات في العراق / رؤية مستقبليّة

أ.د كريم حسين ناصح الخالديّ
أمين عام جمعية اللسانيين العراقيين

لم تجد الدراسات اللّسانيّة في العراق مناخاً ملائماً للنمو والاتساع إلابحدود ضيّقة جداً في النصف الثاني من القرن العشرين ، وكانت الدراسات العربيّة القديمة ومحاولات التيسير والتجديد فيهاهي السائدة في أقسام اللّغة العربيّة في الجامعات العراقيّة ، ولم تنتشر الدراسات اللّسانيّة انتشارها في مصر والمغرب العربيّ وسورية والأردن وعدد من دول الخليج.

وكانت محاولات عدد من الباحثين من أساتذة الجامعات العراقيّة قليلة لاترقى إلى مستوى أن تكون تيّاراً أو اتجاها في الدراسات اللّغويّة واقتصرت على ما يورده عدد من الأساتذة الذين درسوا في أوربا من آراء تتعلّق بالمنهج وبالدراسات المقارنة أو الإشارة إلى الدراسات الوصفيّة كمحاولات الدكتور إبراهيم السامرائيّ والدكتور علي جواد الطاهر والدكتور مصطفى جواد والدكتور داود سلّوم والدكتور عبد الجبار المطلبي والدكتور عناد غزوان والدكتور هادي الحمدانيّ رحمهم الله وآخرين غيرهم وكانت السمة العامة على دراساتهم أنّها لم تتبنّ النظريات الحديثة أو توسعها شرحاً أو توجد اتجاهات خاصة بأيّ منهم أو بمجموعة منهم ولم يشيعوا الدرس اللّسانيّ في الجامعات العراقيّة بل كانت مباحثهم في اللّسانيّات قليلة.

وكان لأقسام اللّغة الإنكليزيّة في الجامعات العراقيّة نشاط مميّز في ترجمة عدد من

كتب اللّسانيات إلى اللغة العربيّة كالدكتور مجيد الماشطة والدكتور باقر جواد وغيرهما غير أنّ أقسام اللّغة الإنكليزية والأقسام الأوربيّة التي افتتحت في كلية الآداب في جامعة بغداد والجامعات الأخرى لم يكن لها أثر واضح في إشاعة الدرس اللّسانيّ في العراق لانغلاق ثقافتهم على أقسامهم وبلغات اختصاصاتهم.

والسبب الأهمّ في قلة هذه الدراسات عدم إرسال بعثات دراسيّة إلى الدول الأوربيّة وأمريكا من الطلبة الراغبين بدراسة اللّغة العربيّة في خارج العراق لتتيح لهم الإطلاع على المناهج اللّسانيّة الحديثة ، على نحو ما حدث في البلدان العربيّة الأخرى كالبعثات المصريّة أوبعثات المغرب العربيّ ودول الخليج العربيّ.

وقد سافر عدد من طلبة الدراسات العليا إلى مصر لإكمال دراستهم وكان أكثرهم من المدرسين الذين يدرسون على نفقتهم الخاصة في السبعنيّات والثمانينيّات من القرن الماضي وكانت الدراسات اللّسانيّة في مصر شائعة لوجود أساتذة أكملوا دراساتهم في الدل الأوربيّة كابراهيم أنيس وأحمد مختار عمر وتّمام حسّان وغيرهم فاكتسب طلبة العراق من أساتيذهم ثقافة لسانيّة كالدكتور علي زوين وغيره.

وحاول عدد من أساتذة اللّغة العربيّة دراسة اللّغة الإنكليزيّة في الدراسة المسائيّة في عدد من جامعات العراق كالدكتور مالك المطّلبي والدكتور غالب المطّلبي وغيرهما مّمن درس في أقسام اللغة الإنكليزيّة المناهج اللّسانية الحديثة.

وأشاعت كتب المصريّين والمغاربة المختصة بالدراسات اللسانيّة بين الباحثين ثقافة لسانيّة ، ووعياً بأهميّة الدرس اللّسانيّ سواء أكانت تلك الكتب اللّسانيّة مؤلّفة أم مترجمة من لغات أوربيّة.

وبفضل الأساتذة الذين درسوا اللّسانيات عن طريق الترجمة أو كتب المصريّين والمغاربة بدأت في جامعاتنا حركة لتدريس اللّسانيّات في الدراسات الأوليّةفي أقسام اللّغة العربيّة من خلال درسي فقه اللّغة ، وعلم اللّغة في المرحلتين الرابعة والثالثة ، وفي الدراسات العليا من خلال دروس المناهج اللّغويّة الحديثة الأمر الذي شجّع الطلبة على اختيار موضوعات لسانيّة لرسائلهم الجامعيّة وأطاريحهم مّما أتاح المجال لظهور

تدريسيّين اختصوا باللّسانيات المعاصرة وصار عددهم يزداد بمرور الزمن.

غير أنّ هذه الدراسات ما زالت تفتقر إلى العمق في البحث ، والاستقلاليّة في الرأي والتوجّه إلى تكوين الاتجاهات اللّسانيّة واضحة المعالم ، وما زالت هذه الدراسات في العراق تعتمد على النقل عن الغربيّين من غير سعي إلى التطوير والتجديد. وأرجو أن يتخطى الباحثون اللّسانيون مرحلة استيعاب الفكر اللّسانيّ الغربيّ إلى مرحلة الإبداع والتطوير والإفادة من التراث العربيّ في خلق تيّارات لسانيّة جديدة.

التفكير في مستقبل اللّسانيّات في العراق :

يتّضح من هذا الإيجاز في بيان واقع الدراسات اللّسانيّة في العراق أنّها دراسات لا تجري بحسب تخطيط ممنهج ، ولا تسير على وفق خطة مدروسة ؛ بل هي دراسات فرديّة لا تمتلك مقوّمات الدرس اللّسانيّ الذي ينبغي أن يكون أساساً متيناً لبناء نظريات متطوّرة تساير تطوّر الدرس الأوربيّ والإقليميّ المعاصر ، وتنطلق إلى تطوير التفكير اللّسانيّ في ضوء الإرث اللّسانيّ العربيّ.

وفي ضوء ما تقدّم أرى أنّ الدرس اللّسانيّ أمام أمرين:

الأول: البقاء على ما نحن فيه من تخبّط وفوضى في المناهج وطرائق التفكير ، والبحث والإنتاج لاقتصار الحركة على المسار الفرديّ.

الآخر: تغيير واقع اللّسانيات في العراق والانتقال إلى مرحلة التفكير في إنجاز توجّهات لسانيّة صحيحة تحرق مراحل التطوّر التي مرّت بها أقطار عربيّة سبقتنا في هذا الميدان وذلك باستيعاب مراحل تجاربهم اللّسانيّة وتمثّلها بكشف عيوبها لتجنّبها ، وعدم الوقوع فيها ، ومعرفة وجوهها المشرقة للإفادة منها في بناء تجربتنا الجديدة المستندة إلى التفكير السليم ، والتخطيط الصحيح ، لتكوين اتجاهات لسانيّةجديدة عراقيّة وعربيّة تتجاوز حالة التخبّط في التفكير والعمل والممارسة البحثيّة.

وأقول واثقاً إنّنا في العراق لا نجد اتجاهاً متميّزاً في الدرس اللّسانيّ ، وليس لدينا تجارب لسانيّة بارزة سوى محاولات فرديّة ، ولا توجد في بلدنا مؤسّسات بحثيّة تخطّط

وتنتج بمجموعات بحثيّة ، ومناهج مستحدثة.

وتكاد دراساتنا اللّغويّة تنحصر في ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: يتّبع المنهج القديم في الدرس اللّغويّ يتعصب له ويرفض كلّ تطوّر سواء في التيسير أم في التجديد أم بإدخال المناهج اللّسانيّة الحديثة.

الاتجاه الثاني: اتجاه ينغلق فيه عدد من الباحثين على الدراسات اللّسانيّة الغربيّة المترجمة ، المنقولة عن الغربيّين من غير زيادة أو تغيير ، ورفض النظر في التراث العربيّ لسببين:

الأول قلة اطلاعهم على التراث العربيّ واقتصارهم على كتب تعليميّة ،وعدم غورهم في أعماق أمّات الكتب النحويّة واللّغويّة ، وجهلهم بالاتجاهات الأصيلة للفكر اللغويّ.

السبب الآخر: انبهارهم بالنظريات اللّسانيّة الحديثة ، وشغفهم بحفظ المصطلحات الغربيّة وأسماء علماء الغرب ظانّين أنّ ذلك من عناصر الثقافة الجديدة التي ينبغي أن تسود المؤسّسات الجامعيّة.

الاتجاه الثالث: يحاول التوفيق بين الدراسات اللّغويّة العربيّة ، ومناهج البحث الغربيّ ، بإيجاد مقابلات في الفكرين على أساس المشابهة والمقاربة لا على أساس التأصيل لتلك المناهج ، وهو اتجاه يتبع محاولات لسانيّة عربيّة في المغرب العربيّ كمحاولات الدكتورالطيّب البكّوش ، والدكتور عبد الرحمن الحاج صالح ، والدكتور عبد القادرالفاسي الفهريّ ، والدكتور عبد السلام المسدّي ، وعدد من أساتذة سورية ولبنان والأردن ومصر وقد أّلفتُ كتابي نظريّة نحو الكلام ـ رؤية عربية أصيلة ـ في ضوء هذا الاتجاه ولكن بحسب رؤيتي الخاصة ،وحاولت في هذا الكتاب أن أعرض الأنموذج العربي لدراسة الكلام ـ الجملة ـ بسبر غور التراث العربيّ الأصيل وتقديم رؤية خاصة لبناء الكلام والعلاقات بين أجزائه ، والمعايير العربيّة في بنية الكلام ،كما عرضت رؤية عربيّة لدراسة كلّ من النصّ والكلام من غير الأخذ بالرؤى والآراء الأجنبيّة بل أعطيت التصوّر العربيّ لتلك القضايا قبل أكثر من ألف عام وكأنّه تصوّر معاصر.

وأرى أنّ هذا الاتجاه الذي يستضيئ بالمناهج الحديثة ويبني رؤاه على أساس التراث العربيّ وتوجّه الباحث المنهجيّ هو السبيل الأقوم للدراسات اللّسانيّة العراقيّة التي نستطيع من خلالها مخاطبة العقل الأوربيّ ومحاورته لا الاكتفاء بالنقل من آرائه ومقولاته.

وقد ذهب الطيّب البكّوش إلى مثل ذلك وأكّد على أنّه جرى بإجماع عليه قال "وحدث نوع من الإجماع على أهميّة إعادة قراءة التراث بآليّات بحث لسانيّة حديثة بشكل يثري اللّسانيّات العامة ويطوّر المعرفة اللّغويّة التقليديّة"[١]

ولاأجد اتفاقاً بين الباحثين على الانخراط في هذا الاتجاه أو ذاك من هذه الاتجاهات الثلاثة ، لنحكم على وجود مجاميع متّفقة اتفاقاً منهجيّاً ؛بل ألمس من تعدّد توجهات الباحثين ما يجعلني أعتقد أنّنا ما زلنا نتخبّط خبط عشواء في دراساتنا الفرديّة لأنّنا في العراق لانؤمن بالتفكير الجمعي أو التوجّه المنهجيّ ، ولاتوجد مؤسّسات ترعى التوجّه الجمعيّ أو المنهجيّ في العراق لعدم اهتمام المؤسّسات في العراق بالدراسات اللّسانيّة ، أو تنمية المناهج الفكريّة ، لأنها لا تثير اهتمام المسؤولين لا من قريب ولا من بعيد ، وبذلك تظهر الحاجة إلى تحرّك مجاميع الباحثين نحو خلق وعي لسانيّ يضغط على المؤسّسات لتبنّي الأفكار اللّسانيّة وتنمية التوجّه الجماعي لتطويرها.

التخطيط لمستقبل اللّسانيات في العراق :

لاشكّ في أنّ التخطيط للمستقبل يقتضي استحضار تفصيلات الحاضر وقراءة مجريات الماضي قراءة متفحّصة لا مراء فيها لبيان جوانبها المشرقة وجوانبها القاتمة ، ودراسة التجارب المماثلة لأخذ ما أفرزته من نتائج مثمرة ، لبناء تصوّر عن خطوات عقلانيّة موحّدة الرؤى لآفاق مستقبل واضح المعالم والاتجاهات.

ويستند التخطيط إلى أهداف أهمّها:

١ـ تجاوز مرحلة التجارب العربيّة السابقة لتجربة العراق والبناء على محصّلاتها النهائية باستقراء تجارب علماء البلدان ذات الشأن في الدراسات اللّسانيّة والإفادة

من خلاصات تجاربهم لتخطّي الأخطاء والهنات وتبنّي النتائج المثمرة.

٢ـ إيجاد الآليّات الصحيحة للانتقال من مرحلة الاستيعاب الشامل للمناهج اللّسانيّة الحديثة بمفهومها النظريّ ومفهومها التطبيقيّ إلى مرحلة إيجاد مناخات الابداع والتطوير والمشاركة الجادّة في الفكر اللّسانيّ.

٣ـ تحديد السبل الواضحة للتفكير اللّسانيّ في العراق في ضوء الموقف من التراث اللّسانيّ العربيّ الأصيل.

وفي ضوء هذه الأهداف لابدّ من وضع الستراتيجيّات اللّسانيّة الملائمة لواقعنا لتجاوز العقبات والحالات السلبيّة للوصول إلى المرحلة الجديدة المرسومة.

ولإيجاد أطر هذه الستراتيجيّات ينبغي أن يكون العمل جماعيّا لافرديّاً تشارك فيه المؤسّسات الآتية:

١ـ وزارة التعليم العالي والبحث العلميّ ممثلة بمديريّة البحث والتطوير ، والهيآت القطّاعيّة المسؤولة عن تطوير المناهج الدراسيّة في أقسام الكليّات المتناظرة.

٢ـ المجمع العلميّ العراقيّ بعد إصدار قانونه الجديد ، وتعديل رؤيته المستقبليّة للدراسات اللّغويّة ، وإدخال العناصر المؤهّلة لإدارة لجانه الجديدة ممّن يؤمنون بأهميّة التطوير ومسايرة العصر ، وبناء ثقافة عراقيّة جديدة متطوّرة.

٣ـ أساتذة الجامعات العراقيّة المختصّون بالدراسات اللّسانيّة من خلال المؤتمرات والندوات وورش العمل التي يحدّدون عناوينها ومحاورها بحسب التصورات المستقبليّة للدراسات اللّسانيّة.

٤ـ جمعيّة اللّسانيّين العراقيّين وهي الجهة المسؤولة عن تطوير آفاق البحث اللّسانيّ في العراق ؛فضلاً عن المؤسّسات الأخرى ذات الاهتمام بهذا الموضوع كوزارة الثقافة ، واتحاد الأدباء والكتّاب ، وجمعية المترجمين العراقيّين.

تصوّرات للتخطيط اللّسانيّ :

تستلزم مسؤوليّة وضع التصورات المستقبليّة عقد اللّقاءات التشاوريّة المستمرة لمناقشة المستجدّات ودراسة الأفكار الجديدة ، وتقويمها ، بغية الاستئناس بها ، أو تبنّيها

ومحاولة خلق تجمّعات لسانيّة متناظرة الرؤى والأفكار والمنهج ؛لاستشراف مستقبل المجموعة وتطوير رؤاها ، كما تستلزم أن تكون الندوات والمؤتمرات وورش العمل موضوعيّة تبتعد عن فكرة قراءة خلاصات البحوث وتتوجّه إلى الحوارالعلميّ والأكاديميّ لمناقشة المناهج والموضوعات وطرائق التفكير اللّسانيّ.

ولتحقيق جوانب من ذلك ينبغي مراعاة ما يأتي:

١. التخطيط السليم لإشاعة الفكر اللسانيّ ، وتنوّع موضوعات الدرس اللّسانيّ في الجامعات العراقيّة ، في الدراستين الأوّليّة والعليا ، لإعداد خرّيجين يؤمنون بضرورة الإفادة من النظريّات والمناهج الحديثة في تطوير الدرس اللّسانيّ.

٢. تشجيع البحوث والدراسات التي يكتبها اللّسانيّون في موضوعات التخطيط الستراتيجيّ لمستقبل الدراسات اللّسانيّة في العراق ، ومناقشتها في ورشات عمل جادّة تنظّمها الجامعات العراقيّة والجهات الأخرى التي أشرت إلى علاقتها بذلك.

٣ـ دعوة الحكومة العراقيّة إلى التوجّه بجدّ ومسؤوليّة إلى معالجة الإشكالات والمعوّقات في واقع الدرس اللّسانيّ ، وذلك بإصدارأوامر تأسيس المؤسّسات الآتية التي يفتقر إليها العراق على الرغم من تأسيسها في بلدان عربيّة مجاورة ومنها:

أ. إنشاء كليّة مختصّة بالدراسات اللّسانيّة تجمع بين النظريّة والتطبيق في الدروس اللّسانيّة توجّه تلك الدراسات إلى خدمة المجتمع على غرار كليّة الأمير سلطان الأهلية في المملكة العربيّة السعوديّة التي تضم أقسام: اللّسانيات التطبيقيّة (التربوية)وقسم اللّسانيّات الحاسوبيّة والمعلوماتيّة ، وقسم الترجمة من العربيّة وإليها.

ب ــ إنشاء أقسام أو فروع لسانيّة في كليّات التربية والآداب أو اللّغات في الجامعات العراقية تختصّ بالدراسات التطبيقيّة.

ت . إنشاء بنك للمصطلحات اللّسانيّة في إحدى الجامعات لخزن المصطلحات اللّسانيّة ومرادفاتها ودلالاتها على غرار البنوك الإصطلاحيّة في المغرب العربيّ.

ث ـ إنشاء معاهد للتعريب والترجمة من اللّغة العربيّة وإليها ، لإعداد مترجمين يتقنون اللّغة العربيّة واللّغة الأخرى.

ج ـ إنشاء معاهد تختصّ بالدراسات الرقميّة التفاعليّة لتطوير الكفايات العراقيّة في هذا الجانب الحيويّ لإشاعة المكتبات الرقميّة في الجامعات العراقية ، والمؤتمرات المرئيّة ، والقاعات المرتبطة ، والتعليم عن بعد وغيرها من الفعاليّات الرقميّة ، وتطوير الأدب التفاعليّ.

٤ـ إشتراك اللّسانيّين العراقيّين في التخطيط لوضع الخطط المستقبليّة لتوحيد الرؤى في الأمور الآتية:

الأول: توحيد الرؤى في كيفيّة النظر إلى الدرس اللّسانيّ في الجامعات والمؤسّسات ذات العلاقة من خلال هيأة أو وحدة إداريّة مسؤولة عن توحيد الرؤى وتكوين رأي مشترك في قضيّة الأصالة في الفكر اللّغويّ ، والتبعيّة إلى الفكر الأجنبيّ ، وذلك برصد جدوى البحوث التي تنقل الآراء الغربيّة ، من غير أن يكون للباحث العراقيّ اتجاه أو توجيه لتكوين هويّة بحثيّة عربيّة إنْ لم أقل عراقيّة له.

وقد أوضح الدكتور أحمد علوي أهميّة التمسّك بالهويّة العربيّة في قوله "إنّ مشكلة العربيّة مع العرب ليست تقوم على تأخّرهم التكنولوجيّ والعلميّ ولكنّها تتمثّل في فقدانهم لهويتهم النوعيّة ومحاولتهم المتكرّرة ترجمة هويتهم إلى هويّات الآخرين النوعيّة ، إنّ الحفاظ على الهويّة العربيّة واللّغة العربيّة ليس إلّا تعلّقاً بالهويّة البشريّة ومن العار أن نعترف بكلّ الهويّات إلّا بالهويّة العربيّة"(٢)

الثاني: إيجاد رؤية مشتركة في النظر إلى التراث اللّسانيّ العربيّ ، وبيان الرأي في إلغائه والاستعاضة عنه بالمناهج اللّسانيّة الحديثة كما يذهب إلى ذلك الجاهلون بتراثهم من العرب ، أو في المقاربة بين التراث العربيّ الأصيل ، ومناهج البحث اللّسانيّة الحديثة.أوفي القول بأنّ التراث اللّسانيّ العربيّ مصدر وأساس للفكر اللّسانيّ وهو ما لايقرّه التأصيل التاريخيّ.

والمهم هو التشاور والتفكير المشترك لتوحيد الرؤى في ذلك.

الثالث: إيجاد رؤية مشتركة في قضيّة ترجمة المناهج والأفكار والمصطلحات

اللّسانيّة المعاصرة ، وهي قضيّة معقّدة لكون المترجمين غير مختصّين باللّغتين ؛ بل يختصّون في الأغلب الأعم باللّغة الأجنبيّة ويجهلون مفردات اللّغة العربيّة وأبنيتها وطرائق بنائها وأساليب التعبير عن معانيها ، لذا تأتي الترجمات مرتبكة ومهلهلة وغير دقيقة في نقل الأفكار والمعاني.

ولحلّ هذا الإشكال ينبغي التفكيربتأسيس معاهد للتعريب بإشراك متخصّصين باللّغة المترجم منها ، ومتخصّصين باللّغة المترجم إليها ، كماينبغي إرسال أساتذة متخصّصين باللّغة العربيّة في بعثات لدراسة اللّسانيات باللّغات الأجنبيّة.

الرابع: إيجاد موقف مشترك من المصطلح اللّسانيّ ، وفهمه فهماً دقيقاً وصحيحاً ، وتعيين سبل تداول المصطلح وفرزه من المصطلح المخل بالمعنى وغير الشائع.

الخامس: العمل بجدّ لإشاعة اللّسانيات التطبيقيّة بفروعها المتعدّدة ، وذلك بتشويق طلبة الدراسات العليا للتخصّص بها ومنها:

تطويع الحاسوب لخدمة اللّغة العربيّة بإيجاد الآليّات للتعاون بين مهندسي المعلوماتيّة والرقميّة ، وأساتذة اللسانيّات لنقل الأفكار الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة والدلاليّة إلى إيقونات بأنظمة رياضيّة دقيقة ، وتطوير أنظمة المكتبات الرقميّة ، والافادة من العلوم الطبيّة في علاج حالات النطق المرضيّة وتطويع العلوم النفسيّة والاجتماعيّة والبايولوجيّة والهندسية لتطوير الدراسات اللّسانيّة في العراق.

كما ينبغي إشاعة الدراسات التي تهتم بإعادة تنظيم لوحة الحاسوب تنظيماً جديداً يلائم استعمال حروف اللّغة العربيّة بحسب حاجات المستعمل العربيّ لا الأجنبيّ ، وإيجاد أنظمة لتصحيح التعبير العربيّ بحسب مقاييس الفصاحة والبلاغة وتأشير الأخطاء الأسلوبيّة والنحويّة والصرفيّة ، وإشاعة أساليب جديدة تعين في مقابلة المخطوطات في نسخها المتباينة ، والمقابلة بين الدواوين الشعريّة متعدّدة الروايات بإزالة الزيادات وغيرها من آفاق العمل التطبيقيّ.

السادس: توحيد الرؤى في النظر اللّسانيّ وربطه برؤى النقّاد والبلاغيّين العرب ، وذلك بإيجاد قنوات مشتركة لاختصاصات متداخلة كالمزاوجة بين الدراسات النقديّة واللّسانيّة كما هو الحال في دراسات نحو النصّ أو علم النصّ ، وذلك من خلال

إشراك مواد دراسيّة نقديّة مع المواد التي تُدرّس في مرحلتي الماجستير والدكتوراه لدارسي العلوم اللغويّة القديمة والحديثة ،وكذلك الحال في مناهج طلبة النقد والبلاغة وإيجاد حلول للمشكلات الناجمة عن تأليف النقّاد في قضايا لسانيّة كالتداوليّة وعلم النصّ ، والسيميائيّة لما يفتقر إليه أكثرهم من ثقافة لغويّة.

السابع: الانتقال من مرحلة التلقّي في الدرس اللّسانيّ إلى مرحلة الإبداع والتفكير المستنيرلا المقلّد ، وذلك بالاتفاق على ضرورة عدم الاندهاش أمام ضخامة النتاج اللّسانيّ الغربيّ ، فكثير منه أدنى قيمة من كثير ممّا أورثه لنا علماؤنا القدماء.

يقول الدكتور أحمد العلوي "القليل الأساسيّ هو الحقيق بالعناية ، أنظر إلى أعمال اللّغويّ الأمريكي هارس أبي التحويليّة يمكن الاستغناء عنها كلّها ولا يتأثّر علمنا بفقدانها وكذلك أعمال الآخرين في اللّغويّات الغربيّة.

وقال العلوي "تخرّج المطابع الأوربيّة كلّ سنة تسعين في المائة من الاجترارات العالميّة ، حظّنا إذن من من المجترّ قليل ، ولا ينبغي الإندهاش أمام ضخامة الانتاج الغربيّ.(٣)

وأرى أن توحيد الرؤى في هذه الأمور أمر مستحيل ؛ لتنوّع الثقافات وتعدّد منابع تلك الثقافت ، والتفاوت في النظر إلى الغايات من دراسة اللّسانيات ، وهذا أمر متوقّع لتنوّع المشارب في الدراسات الغربيّة لذا تغدو الدعوة إلى توحيد الرؤى مجرّد حلم بعيد التحقيق ولكنّي واثق من أنّنا لو وضعنا الأسس الصحيحة لبناء الفكر اللّسانيّ في العراق واتفقنا على الأطر العامة لتوجيه تلك الدراسات إلى خدمة المجتمع في المجالات المختلفة ، وبنينا المؤسّسات والمعاهد العلميّة التي تساهم في تخريج الأساتذة المتعمّقين في الدراسات اللّسانيّة العارفين بالمناهج التي تخدم لغتنا وتحديد الأهداف من دراسة اللّسانيات هل هي مناهج تخدم التعليم وتطوّره ، أو أنّها نظريات فكريّة جدليّة ، أو أنّها مناهج تجمع بين التعليم والارتقاء بالتفكير اللّسانيّ.

وأستطيع القول إنّ القرن الحالي سيشهد انتقالاً في التفكير اللّسانيّ العربيّ لاسيّما العراقيّ منه ، كما يشهد انحداراً في التفكير اللّسانيّ الأوربيّ والأمريكيّ لأنّه استنفد طاقاته ، ولكونه لايمتلك الاحتياطيّ الفكريّ واللّسانيّ في حين سيشهد هذا

القرن قفزات في التفكير اللّسانيّ العربيّ لاسيّما التفكير العراقي لكونه ما زال يمتلك طاقات كامنة تؤهّله للإبداع والتطوير بتطويع التراث اللّسانيّ العربيّ لبناء نظريّات جديدة ، واستيحاء الأفكار المتجدّدة من الخزين الفكريّ العربيّ.

وأرى أنّ العلماء العراقيّين هم الأقدر على فهم التراث العربيّ ، والاستيحاء منه لكون الدراسات الجامعيّة العراقيّة في خلال القرن الماضي قد أنضجت فكراً لغويّا عراقيّاً شارك في بنائه علماء أفذاذ ما زال الوطن العربيّ ينهل منه كعطاء الدكتور مهدي المخزوميّ والدكتور مصطفى جواد والدكتور أحمد عبد الستار الجواريّ والدكتور ابراهيم السامرائيّ والأب أنستاس الكرملي والأب مرمجيّ والدكتورفاضل السامرائي وعشرات غيرهم ممّن أرسوا دعائم فكر معاصر عربيّ أصيل يستمد جذوره من التراث العربيّ الأصيل ، لا نجد له نظيراً في الدراسات اللّغويّة في الدول العربيّة الأخرى التي توزّعت جهودها بين نظرات سطحيّة في التراث العربيّ ومتابعة تقليديّة للفكر الغربيّ.

وفي ضوء هذا الفهم لكنوز الدرس اللّغويّ العراقيّ أتوقّع أن يحقق أساتذة اللّسانيّات نتائج مذهلة في العراق إذا تحقّقت لهم مناخات التفكير الصحيح ، وبنيت لهم صروح الدراسة من معاهد وكليات وجامعات تهتمّ باللّسانيّات ، وتوافرت لهم الإرادة الحقيقيّة عند المؤسّسات الرسميّة لتنفيذ الخطط السليمة ، ووضع الباحث اللّسانيّ في موضع المشرّع والمبدع والمصدّر.

وأنا أثق ثقة مطلقة بأنّ علماء اللّسانيّات العراقيّين الذين يملكون الحماسة والاندفاع فضلاً عن البحث الجاد والعميق سيكونون فرسان الدرس اللّسانيّ في العالم في المستقبل القريب إذا توافرت لهم المؤسّسات المختصّة باللّسانيّات والمشجّعة لتوجّهاتهم الإبداعيّة ، والإسناد المادّي والمعنويّ غير المحدودين ، والمناخ العلميّ السليم.

إشكاليات المصطلح اللساني العربي ومرجعياتها في ضوء ثوابت علمية اللسانيات

أ.م.د.حيدر غضبان محسن الجبوري
كلية الآداب- جامعة بابل

ملخص البحث:

" اعلم أن مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك"

(مقدمة ابن خلدون:٥٣١)

يعد مشروع الكتابة في إشكاليات المصطلح اللساني ومرجعياتها نتاجَ التنقيب في المنجز اللساني ، وينطلق المشروع من محاولة المقاربة بين(علمية اللسانيات) ، التي تَعدُّ دقة المصطلحات واختصارها وضبط مفاهيمها من أهم شروط تحققها ، و(خصائص المصطلح اللساني) بوصفه ميدانا لتحقق علمية اللسانيات.

فقوام المشروع إذن هو المقاربة بين ما هو نظري وهو ما يتجلى بـ(علمية اللسانيات) ، وبين ما هو ميدان لتطبيق ما هو نظري الذي يتجلى بـ(صوغ المصطلح اللساني) والكشف عن (خصائصه وإشكالياته) ، وينتهي البحث بعد تلك المقاربة وتشخيص(الخصائص والمشكلات) إلى وضع المقترحات والحلول في سبيل النهوض بواقع الدراسات اللسانية وصوغ مصطلحاتها.

والحمد لله رب العالمين.

علمية اللسانيات (النشأة ، والمفهوم ، والمتغيرات ، والثوابت):

تعد اللسانيات علما غربيَّ النشأة[١] ، وتعرّف في مصادر نشأتها ، وعلى نحو مختصر ودقيق ، بأنها: "الدراسة العلمية للغة"[٢]. والمقصود بالعلمية هنا ، كما سنّته آخر عبارة وردت في محاضرات سوسير ؛ "أن اللغة تدرس في حد ذاتها ومن أجل ذاتها"[٣]. وذات اللغة هنا هو "ما يتكلمه الناس بالفعل لا ما يجب أن يتكلمه الناس"[٤].

لقد مالت اللسانيات منذ سوسير إلى سنّ مجموعة من الضوابط لتحقق سمة العلمية (scientific). ويجد المتفحص في تلك الضوابط خلافات كبيرة وحادة بين علماء اللسانيات الغربيين في ماهية تلك الضوابط وعددها ، ولعل السبب في تلك الخلافات هو اختلافات الانتماءات الفلسفية التي يتبناها علماء اللسانيات[٥] ، بحيث نستطيع أن نقول أن العلمية اليوم هي مصطلح نسبي المفهوم تبعا لمرجعيات المدارس اللسانية الفكرية.

ويزداد الخلاف حدة في تأطير نشأة العلمية في الدراسة اللغوية ، فلا يجتمع المتخصصون على رأي واحد في بداية اللسانيات بمعناها العلمي ، فقد اختلف المؤرخون والدارسون في نشأتها عند الغرب ، فمنهم من يرجعها إلى ما قبل بدايات القرن التاسع عشر فالدراسات قبل ١٨٠٠ أي قبل ميلاد علم اللغة التاريخي والمقارن لم تكن علمية بل كانت نوعا من الفلسفة والميثولوجيا ودراسات حول نشأة اللغة ، ورأى

---

(١) ظ: في علم اللغة، د.غازي مختار طليمات، واللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة: ٦٧.

(٢) ظ: نظرية تشومسكي اللغوية، جون ليونز: ٣٩. والتعريف بعلم اللغة، ديفد كرستال: ١٧. واللغة واللغويات، جون ليونز: ٥٦.

(٣) علم اللغة العام، فردينان دي سوسير: ٢٥٣.

(٤) علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د.محمود سعران: ٥١ وما بعدها. ودراسات في علم اللغة، القسم الأول، د.كمال بشر: ١١. وعلم اللغة بين القديم والحديث، د.عبد الغفار حامد هلال: ٦٧ – ٦٨.

(٥) مدخل إلى اللسانيات، د.محمد محمد يونس: ٤٣.

اخرون أنها وجدت منذ عهد أفلاطون وأرسطو والهنود[١] ، يقول جورج مونان: "حسب وجهة النظر التي نتخذها فإن الألسنية نشأت حوالي القرن الخامس قبل الميلاد ، أو سنة ١٨١٦ مع بوب أو سنة ١٩١٦ مع سوسّور أو سنة ١٩٢٦ مع تروبتسكوي أو سنة ١٩٥٦ مع تشومسكي"[٢].

وعلى أية حال يرجع أغلب الباحثين تاريخ علمية دراسة اللغة إلى أواخر القرن التاسع عشر[٣] ، فقد اتخذت الدراسات اللغوية لنفسها "طريقا جديدا يتمثل في إخضاع هذه الدراسة لمناهج البحث العلمي بغية الوصول إلى القوانين التي تخضع لهذه الظواهر اللغوية"[٤]. وقد كان اكتشاف اللغة السنسكريتية عاملا من العوامل الرئيسية التي أدت إلى تطور علم اللغة المقارن في القرن التاسع عشر هذا التطور الذي أدى إلى بروز اللسانيات بصفتها العلمية[٥] ، وقد طوّر هذا الاتجاه العلمي الجديد مجموعة من اللغويين في ألمانيا عُرفوا باسم النحاة الجدد أو الشبان[٦].

ومع بداية القرن العشرين ظهرت محاولات لتأطير علمية اللسانيات بأسس نظرية وشروط محددة لتحققها ، ويعد العالم السويسري فرديناند دي سوسير المنظر الأول والحقيقي للسانيات بمعناها العلمي[٧] ، وذلك في مقولته الشهيرة في تحديد اللسانيات بأنها: دارسة اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها[٨].

ومع تلك الخلافات في ماهية علمية اللسانيات بين اللسانيين الغربيين ، إلا أن ثمة

---

(١) ظ: مدخل إلى اللسانيات، برتيل مالبرج: ٣٢٧.
(٢) مفاتيح الألسنية، جورج مونان: ٢٩.
(٣) ظ: علم اللغة بين القديم والحديث، د.عبد الغفار حامد هلال: ٦٧.
(٤) أصول تراثية، د.كريم زكي حسام الدين: ٣٠.
(٥) ظ: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د.محمود السعران: ٣٣٤ – ٣٣٥. وفي الفكر اللغوي، د.محمد فتيح: ٩٤. ومبادئ اللسانيات، د.أحمد محمد قدور: ١٧.
(٦) ظ: أصول تراثية، د.كريم زكي حسام الدين: ٣٠.
(٧) ظ: أعلام الفكر اللغوي: ٢ / ١٢. وفي علم اللغة، د.محمد فتيح: ٩٤. وأصول تراثية، د.كريم زكي حسام الدين: ٣١. ومبادئ اللسانيات، د.أحمد محمد قدور: ٢١.
(٨) ظ: وأصول تراثية، د.كريم زكي حسام الدين: ٣١. وعلم اللغة بين القديم والحديث، د.عبد الغفار حامد هلال: ٦٧.

معايير ثابتة في تحقق تلك العلمية ، تلك المعايير نستطيع ان نعدها من المسلمات البدهية في أي بحث أكاديمي اليوم. ومن تلك المسلمات التي لها صلة وثيقة ببحثنا هذا:

١- الموضوعية:

التجرد من كل المعتقدات والأفكار والانطباعات الذاتية والتعصب العرقي أو الديني أو المذهبي أو القومي ، والنظر إلى الظاهرة المدروسة لذاته ومن اجل ذاتها. وكلما تجرد الباحث اللغوي من كل ما مر كلما ازداد عمله علمية[١].

٢- الاقتصاد:

وصف الظاهرة المدروسة بأقل عدد ممكن من المصطلحات[٢] ، وأرى زيادة إلى ذلك أن يكون صوغ المصطلحات أكثر اقتصادية و مختصرا ووافيا.

٣- الدقة والوضوح واليقين:

وتتحقق بأمور نذكر منها ما يتعلق بصوغ المصطلحات وهو ؛ تحديد معنى المصطلحات تحديدا دقيقا[٣].

٤- الثبات[٤] أو الاتساق[٥] أو التماسك[٦]:

والمقصود بتلك المصطلحات غياب التناقض بين الحقائق الكلية(القواعد) ، بأن يكون هناك توافق وانسجام بينها وبين الظاهرة المدروسة أيضا[٧].

---

(١) ظ : اللغة واللغويات، جون ليونز : ٥٧.

(٢) ظ: في الفكر اللغوي، د.محمد فتيح: ٩٣. وعلم اللغة المعاصر مقدمات وتطبيقات، أ.د.يحيى عباينة: ١٣. وفي اللسانيات العامة، د.مصطفى غلفان: ١٩٦.

(٣) ظ: محاضرات في علم اللغة العام، د.البدراوي زهران: ١٥.

(٤) ظ: في الفكر اللغوي، د.محمد فتيح: ٩٣.

(٥) ظ: علم اللغة المعاصر مقدمات وتطبيقات، أ.د.يحيى عباينة: ١٣.

(٦) ظ: في اللسانيات العامة، د.مصطفى غلفان: ١٩٦.

(٧) ظ: في الفكر اللغوي، د.محمد فتيح: ٩٣. وعلم اللغة المعاصر مقدمات وتطبيقات، أ.د.يحيى عباينة: ١٣. وفي اللسانيات العامة، د.مصطفى غلفان: ١٩٦.

وفيما يتعلق بالشق الثاني من مشكلة بحثنا وهي(علمية المصطلح) أو(علم المصطلح) ، نود هاهنا أن نشير إلى تجذر الصلة بين(العلمية) وبين (المصطلح) ، فـ(علم المصطلح)-كما يعرفه الدكتور علي القاسمي-هو ؛ "الدراسة العلمية للمفاهيم وللمصطلحات التي تعبر عنها في اللغات الخاصة. وغرض علم المصطلح إنتاج معاجم مختصة ، وهدفه توفير المصطلحات العلمية والتقنية الدقيقة التي تيسر تبادل المعلومات ، وغايته نشر المعرفة العلمية لإيجاد مجتمع المعرفة القادر على تحقيق التنمية الإنسانية الشاملة ، من أجل ترقية حياة الإنسان ورفاهيته ، ولهذا يعد عنصرا أساسيا من عناصر التخطيط اللغوي والسياسة اللغوية للأمة"(١).

إن المقاربة الميدانية بين المنجز الاصطلاحي اللساني العربي وبين المسلمات البدهية في ضوابط علمية اللسانيات تجعلنا نضع مؤشرات عديدة وخطوط حمراء أمام تلك المسلمات وأمام مدى تحققها في الجهاز الاصطلاحي للسانيات.

ولعل أول ما يمكن أن تتوصل إليه النظرة السريعة للجهاز الاصطلاحي اللساني العربي هو غياب الضوابط العلمية في صوغ المصطلحات واجتراحها وتحديد مفاهيمها وأقسامها ، وهو ما يسعى بحثنا هذا إلى الكشف عنه.

إشكالية المصطلح اللساني:

يعاني الجهاز الاصطلاحي في اللسانيات من جملة اشكاليات ظلت مرافقة له إلى يومنا هذا ، ومن أهم تلك الإشكاليات ما يأتي:

١- تعدد المصطلحات:

وهي مشكلة تعاني منها اللسانيات الغربية فضلا عن العربية. وأبرز الأمثلة على ذلك مرادفات مصطلح اللسانيات في اللسانيات العربية ، فبينما لا نجد لهذا المصطلح في اللسانيات الغربية سوى مصطلحين هما (**Linguistics**) و(**science of language**)(٢) ،

---

(١) علم المصطلح، د.علي القاسمي: ٩.

(٢) ظ: معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، د.حسن محمد باكلا وآخرون: ٦٤ و٥١.

نجد لهذا المصطلح في اللسانيات العربية خمسة وعشرين مصطلحا مترجما ، ثلاثة وعشرون مصطلحا أحصاها الدكتور عبد السلام المسدي في قاموس اللسانيات هي ؛ (اللسانيات ، والألسنية ، والألسنيات ، واللِّسّنِيّات ، علم اللسان ، علم اللسان البشري ، علم اللسانة ، علم اللغة ، علم اللغة الحديث ، علم اللغة العام ، علم اللغة العام الحديث ، علم اللغات ، علم اللغات العام ، وعلم اللغويات الحديث ، اللغويات الجديدة ، اللغويات ، علوم اللغة ، الدراسات اللغوية الحديثة ، الدراسات اللغوية المعاصرة ، النظر اللغوي الحديث ، اللانغويستيك ، فقه اللغة ، علم فقه اللغة)[1] ، مع مصطلحين وجدناهما في كتب اللسانيات ولم يشر إليهما الدكتور المسدي في دراسته المذكورة ، والمصطلحان هما (اللسانية)[2] و(اللسانة)[3].

ويرى بعض الباحثين أنّ ليست العبرة بتعدد المصطلحات ، بل العبرة بالمفهوم مادامت اللسانيات على اختلاف اصطلاحاتها هي الدراسة العلمية للغة دراسة مستقلة عن العلوم الأخرى[4]. وهذا الكلام دقيق فيما لو كانت المصطلحات محدودة ومضبوطة أما أن تطلق جزافا في دراسة تتصف بالعلمية فليس بالمقبول.

ومن نماذج التعدد الاصطلاحي المصطلحاتُ التي اطلقها العرب على صوتي (ــَو) و(ـــَي) الواو والياء المسبوقتين بحركة غير ملائمة لهما ، إذ أحصى الباحث عشرين مصطلحا للدلالة عليهما هي: (أشباه أصوات اللين ، أنصاف أصوات اللين ، العلة المركبة ، والعلة المزدوجة ، والعلة المركبة ، وأنصاف العلل ، وأنصاف الحركات ، وأنصاف الصوامت ، وأنصاف الصوائت ، والحركات المزدوجة ، والصوت المزدوج ، والشبيه بالحركة ، والصائت القصير ، ونصفا حركة ، ونصفا ساكن ، ونصف المد ، وصوت مد مركب ، والطليقات المركبة ، والأصوات المصروفة ، والانزلاقيات)[5].

---

(١) ظ: قاموس اللسانيات، د.عبد السلام المسدي: ٧٢.

(٢) ظ: معجم اللسانيات، جورج مونان: ٣٧٠.

(٣) ظ: اللسانة الاجتماعية، جولييت غارمادي.

(٤) ظ: مدخل إلى علم اللغة، د.إبراهيم خليل: ٧٩.

(٥) ظ: الأصوات المفردة عند أبي حيان الأندلسي في ضوء الدراسات القديمة والحديثة، حيدر

وأمام تعدد هذه المصطلحات لا نجد لهذين الصويتن غير ثلاثة مصطلحات تدل عليهما في اللغة الإنكليزية وهي[(١)]:

- Diphthong.
- Semi vowel.
- Complex vowel.

٢- تداخل المصطلحات وتقسيماتها:

ومن إشكاليات المصطلح اللساني المعقدة هي تداخل المصطلحات اللسانية وتقسيماتها ، وتكاد تكون هذه الإشكالية ظاهرة بارزة في البحث اللساني تقف بموازاة تعدد المصطلح اللساني ، ومن نماذج ذلك دلالة مصطلح (الوصف) فمرة نجده يدل على(اللسانيات الخاصة) التي تقابل(اللسانيات العامة) ، ووجهة نظر تقسيم اللسانيات إلى (عام) و(خاص) قائمة على أساس العموم والخصوص أو الاتساع والتضييق[(٢)].

ويسمي الباحثون اللسانيات العامة بـ(علم اللغة النظري) أو(علم اللغة)[(٣)] بلا تقييد.أما اللسانيات الخاصة فيسميها بعض الباحثين بـ(اللسانيات الوصفية) أو (علم اللغة الوصفي)[(٤)].

فاللسانيات العامة أو علم اللغة العام ، "ذو وظيفة عامة ، من شأنه وضع المبادئ والأسس والمناهج التي تتبع في دراسة اللغة الإنسانية بعامة"[(٥)] ، وبهذا يمكن تحديد مفهومه بأنه: العلم الذي يهدف إلى وضع نظريات كلية تصلح لأن تطبق على أية لغة ، فاللسانيات العامة تقدم فروضا نظرية ، أما اللسانيات الخاصة فالمقصود بها تجريب

غضبان محسن، رسالة ماجستير، كلية التربية- جامعة بابل، ٢٠٠٣: ٢٨٠- ٢٨٤.

(١) ظ: م. ن: ٢٧٩- ٢٨٠.

(٢) ظ: مدخل إلى علم اللغة، د.إبراهيم خليل: ٢٥.

(٣) ظ: علم اللغة الحديث، د.محمد حسن عبد العزيز: ٧٩.

(٤) ظ: اللغة واللغويات، جون لوينز: ٥٣.

(٥) التفكير اللغوي بين القديم والجديد، د.كمال بشر: ٢٦.

تلك الفروض على لغة معينة [١].

في حين نجد استعمالا آخر للـ(الوصف) بدلالته على المنهج الوصفي أو (اللسانيات الوصفية) وهي اللسانيات القائمة على دراسة اللغة في زمان محدد ومكان محدد وفي مجتمع محدد ، وعلى أسس الفلسفة التجريبية التي تبناها سوسير في أوربا وبلومفيلد في أمريكا ومن تبعهما[٢].

بل إن المشكل يزداد شقة وتعقدا في حالة الدخول في دلالة اللسانيات الوصفية بمعناها الأخير المذكور في أعلاه إذ إننا نجد خلافا حادا بين اللسانيين فيما يقع ضمن مصطلح الوصف من المناهج اللسانية ، فمنهم من يقصر المصطلح على المدارس الأوربية المنبثقة من سوسير بالإضافة إلى المدارس اللسانية المنبثقة من أفكار بلومفيلد في أمريكا ويخرج المدرسة التوليدية التحويلية من المدارس الوصفية[٣] ، ومنهم من يدخل المدرسة التوليدية التحويلية ضمن (اللسانيات الوصفية)[٤].

٣- عدم تحديث المصطلحات:

بات من المعلوم أن اللسانيات من أكثر العلوم الاجتماعية تطورا وتحديثا ، فما زالت المدارس اللسانية تتناسل بعضها من بعض أو يخلق بعضها من معارضة للمدارس السابقة عليها.

وينبغي علينا مواكبة ذلك التطور من خلال تحديث مفاهيم المصطلحات واجتراح أخرى جديدة تتلاءم والتطور الذي تمر به اللسانيات.

والملاحظ أن بعض الدراسات اللسانية اليوم أنها ما تزال تجتر ما أكل الدهر عليه

---

(١) اللغة واللغويات، جون لوينز: ٥٣.

(٢) ظ: معجم اللسانيات الحديثة: د.كريم زكي حسام الدين وآخرون: ٣٦. وموسوعة مرجعية لمصطلحات علم اللغة النفسي، د.جلال شمس الدين: ١١٧.

(٣) ظ: دراسات لسانية تطبيقية، د.مازن الوعر: ٣٢. وصلة التراث اللغوي العربي باللسانيات، مقال في مجلة التراث العربي، ع٤٨، س١٢، ١٩٩٢، منقول من الأنترنيت.

(٤) ظ: المنهج الوصفي في كتاب سيبويه: ٢٧- ٢٩.

وشرب في اللسانيات ، فما يزال بعض اللسانيين يطلقون على اللسانيات مصطلحا مرادفا لها هو اللسانيات الوصفية[1]

والذي عليه واقعنا هو أن اللسانيات مرت بمراحل وانقلابات عديدة أدت إلى تغيير مفاهيمها بل اتساعها أيضا.

تلك المراحل يمكن إيجازها بما يأتي:

أ. الدراسة التاريخية المقارنة في القرن١٩.

ب. الدراسة التزامنية ؛ سوسير وبلومفيلد بداية القرن العشرين.

ت. اللسانيات التوليدية التحويلية ، ١٩٥٧م.

ث. اللسانيات التداولية: ونشأت بداياتها على يد جون أوستن عام ١٩٥٠ ، وبول غرايس ١٩٥٧ ، وكارناب في أواخر الستينيات ، ويذهب بعض الباحثين إلى أن بداياتها كانت في بداية السبعينيات[2].

ج. لسانيات النص ، ١٩٧٠.

٤- تعارض المفاهيم وتناقضها.

وهو أمر شائع في الاصطلاح اللساني ، وخير دليل على ذلك دلالة مصطلح (فقه اللغة) في الدراسات العربية الحديثة.

إذ نجد لمصطلح فقه اللغة أكثر من مفهوم[3] كما هو مبين بالنقاط الآتية:

أ. فقه اللغة= اللسانيات(الدراسة العلمية اللغة)

ب. فقه اللغة = اللسانيات الخاصة.

ت. فقه اللغة= تحقيق النصوص وترجمتها.

ث. فقه اللغة= الدلالة الاصطلاحية القديمة التي تعني متن اللغة وصناعة

---

(١) ظ: اللغة واللغويات، جون ليونز: ٦٧- ٧٤.

(٢) ظ: الخطاب القراني دراسة في البعد التداولي، د.مؤيد آل صوينت: ٢٤- ٢٥.

(٣) قاموس اللسانيات، د.عبد السلام المسدي: ٥٨- ٥٩.

المعاجم.

ومن أمثلة اختلاف مفاهيم المصطلحات دلالة مصطلح اللسانيات التطبيقية. إذ استعمل مصطلح اللسانيات التطبيقية بدلالتين:

الدلالة الأولى:

هو العلم الذي يفيد من نتائج اللسانيات النظرية لتطبيقها على ميادين غير لغوية انسانية او علمية صرفا[١]. فهو "فرع من علم اللغة يبحث في التقابل اللغوي ، وتحليل الأخطاء ، وتعليم اللغات ، وعلم اللغة النفسي ، وعلم اللغة الاجتماعي ، وعلم اللغة الآلي ، وصناعة المعاجم ، والترجمة"[٢].

الدلالة الثانية:

يحصر بعض الدارسين اللسانيات التطبيقية بمجال تعليم اللغات فقط. فهي مرتبطة عندهم بعلم التربية. وهدفها بهذا المنظور الضيق هو تعليم اللغة بالوسائل التعليمية السمعية والبصرية التي تساعد الفرد على سرعة التعلم وكفاءته إلى غير ذلك من أمور تتعلق بتعليم اللغات والتخطيط لذلك[٣].

مرجعيات إشكالية المصطلح:

١. غياب العمل المؤسساتي في اجتراح المصطلحات وتحديد مفاهيمها. وغياب الرقابة الأكاديمية على المنجز اللساني وصوغ المصطلحات. ولعل المصطلح اللساني الوحيد الذي خضع في اجتراحه للعمل المؤسساتي هو مصطلح (اللسانيات) ، إذ أقر هذا المصطلح جملة من علماء المشرق العربي ومغربه في أول ندوة عربية نظمها مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية

---

(١) ظ: محاضرات في علم اللغة العام، البدراوي زهران : ١ / ١١.

(٢) معجم علم اللغة التطبيقي، د.محمد علي الخولي : ٥. وينظر للتفصيل في مجالات علم اللغة التطبيقي : علم اللغة الحديث، د.محمد حسن عبد العزيز : ١٠٠ وما بعدها.

(٣) ظ: معجم اللسانيات الحديثة، د.سامي عياد حنا وآخرون : ٨ – ٩.

التابعة للجامعة التونسية في ديسمبر ١٩٧٨م[١]. ومع هذا لم يكتب لهذا المصطلح الاستقرار ، فسرعان ما نقض المؤتمرون ما اتفقوا عليه وراحوا ينتقون لأنفسهم اصطلاحات أخرى غير مصطلح(اللسانيات) في دراساتهم.

٢. غياب المرجعيات الفلسفية في البحث اللساني العربي.

٣. تغييب البحث اللساني وتماهيه في اللسانيات الغربية ، وعدم وجود مدارس لسانية منبثقة من فلسفة عربية مستقلة عن اللسانيات الغربية والفكر الغربي. شأنها في ذلك شان الفكر العربي عموما[٢].

٤. تدفق المصطلحات اللسانية الغربية وتوالدها بشكل لافت للنظر ، بحيث يجعل من الصعب على اللسانيات العربية مواكبتها وترجمتها وتحديد مفاهيمها بالشكل المضبوط[٣].

٥. الاختلاف في منهاجية وضع المصطلحات: فهناك من يفضل في اجتراح المصطلحات استعمال الاشتقاق والمجاز ، في حين نجد بعضهم يميل إلى الاقتراض والتعريب[٤].

٦. التباين في لغة المصدر: فبينما يستعمل علماء المشرق العربي المصادر الانكليزية على نحو التغليب ، نجد علماء المغرب العربي يعتمدون على المصادر الفرنسية في بناء نظرياتهم واصطلاحاتهم[٥].

٧. ترحيل الإشكالية الاصطلاحية من المصدر[٦] ، من ذلك ما نجده في إشكالية دلالة مصطلح الوصف ، والبنيوية ، فالمصادر الغربية مختلفة في تحديد مفاهيم

(١) كلمة افتتاح أشغال ندوة اللسانيات في خدمة اللغة العربية التي ألقاها الأستاذ محمد فرج الشاذلي: ١١. وقاموس اللسانيات:٧١.

(٢) ظ: علم المصطلح، د.علي القاسمي: ١٩١.

(٣) ظ: م. ن: ٢٣٣.

(٤) ظ: م. ن: ٢٣٣.

(٥) م.ن:١٩٧ و٢٣٤.

(٦) ظ: علم المصطلح، د.علي القاسمي: ٢٣٤.

تلك المصطلحات وتقسيماتها.

٨. تداخل الاختصاصات:

نظرا لانفتاح اللسانيات على علوم عديدة وتداخلها بتلك العلوم أدى ذلك إلى صعوبة الإلمام بمصطلحات هذه العلوم ودقة مفاهيمها[١].

٩. عدم استيعاب النظريات اللسانية الغربية وتقبلها بالشكل الصحيح ،

إذ كثيرا ما يتسرع الباحثون في اطلاق الاحكام والتقسيمات والحدود بناء على قراءات متعجلة للنظريات اللسانية الغربية ، وهو ما نجده في دراسات بعض الباحثين أمثال الدكتورة صافيّة زفنكي التي ذهبت إلى أن اللسانيات الوصفية تشتمل على (البنيوية ، والتحويلية ، ومدرسة القوالب ، ومدرسة براغ الوظيفية)[٢].

١٠. التعامل مع المصطلحات الموجودة في التراث العربي:

ويندرج ذلك التعامل في نقطتين:

أ. استعمال المصطلح القديم بدلالته القديمة.

ب. استعمال المصطلح القديم بدلالة جديدة "إذ توضع أحيانا مصطلحات جديدة لمفاهيم قديمة سبق أن وُضِعت لها مصطلحات عربية مبثوثة في كتب التراث"[٣].

النتائج والمقترحات:

تبين لنا بعد هذه الرحلة مع إشكاليات المصطلح اللساني العربي ومرجعياتها بموازنتها بثوابت علمية اللسانيات ما يأتي:

---

(١) ظ: المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، د.خليفة الميساوي: ٢٦.

(٢) ظ: التطورات المعجمية والمعجمات اللغوية العامة العربية الحديثة: ٢٤- ٢٥.

(٣) علم المصطلح، د.علي القاسمي: ٢٣٤.

١. عدم إخضاع اجتراح المصطلح اللساني العربي وصوغ مفاهيمه وتقسيماته لضوابط ثوابت علمية اللسانيات.

٢. وجوب إخضاع اجتراح المصطلحات للعمل المؤسساتي وعد الاجتراحات الفردية للمصطلحات مقترحات ومحاولات غير سارية وغير ملزمة ، ويجب قبل إقرارها أن تعرض على لجنة علمية تابعة لمؤسسة بحثية معترف بها.

ومن هذه النقطة يمكننا ان نستثمر رابطة اللسانيين العراقيين التي أسسها أستاذنا الدكتور كريم حسين ناصح بوصفها مؤسسة أكاديمية تابعة لوزارة التعليم العالي العراقية ، لتكون المنطلق للعمل المؤسساتي في البحث اللساني واجتراح المصطلحات اللسانية ، من خلال المقترحات الآتية:

أ. تشكيل مختبرات بحثية تعالج موضوعات لسانية بكر.

ب. تشكيل لجان بحثية تعمل على رصد المصطلحات وإيجاد الحلول لها.

ج. تشكيل لجان بحثية تهتم برصد النتاج اللساني العراقي وتقويمه.

د. نشر دورية باسم الرابطة.

ه. توثيق الصلات بالمجمع العلمي العراقي وبيت الحكمة والمؤسسات والمراكز البحثية الجامعية.

و. الانفتاح على المختصين باللسانيات في اللغات الأخرى والإفادة من خبراتهم في الترجمة والبحث.

ز. حصر العمل بالمختصين باللسانيات والنقد الأدبي الحديث.

مظان البحث

- **أشغال ندوة اللسانيات في خدمة اللغة العربية،الجامعة التونسية، مركز الدراسات**

والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ٢٣- ٢٨، نوفمبر، ١٩٨١، سلسلة اللسانيات، ع٥، المطبعة العصرية، تونس، ١٩٨٣.

- الأصوات المفردة عند أبي حيان الأندلسي في ضوء الدراسات القديمة والحديثة، حيدر غضبان محسن، رسالة ماجستير، كلية التربية- جامعة بابل، ٢٠٠٣.
- أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، د.كريم زكي حسام الدين، الرشاد للطباعة، ط٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- أعلام الفكر اللغوي، مجموعة باحثين، تعريب: د.أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ط١، ٢٠٠٤م.
- التطورات المعجمية والمعجمات اللغوية العامة العربية الحديثة، صافيّة زفنكي، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٧.
- التعريف بعلم اللغة، دايفد كريستل، تر: حلمي خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، ط١، ١٩٧٩.
- التفكير اللغوي بين القديم والحديث، د.كمال بشر، دار الثقافة العربية، القاهرة.
- الخطاب القراني دراسة في البعد التداولي، د.مؤيد آل صوينت، مكتبة الحضارات، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠١٠.
- دراسات في علم اللغة (القسم الأول)، د.كمال محمد بشر، دار المعارف، القاهرة-مصر، ١٩٦٩م.
- دراسات لسانية تطبيقية، د.مازن الوعر، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط١، ١٩٨٩.
- صلة التراث اللغوي العربي باللسانيات، مقال في مجلة التراث العربي، ع٤٨، س١٢، ١٩٩٢، منقول من الأنترنيت.
- علم اللغة بين القديم والحديث، د.عبد الغفار حامد هلالي، مطبعة الجريسي، القاهرة، ط٤، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- علم اللغة الحديث، د.محمد حسن عبد العزيز، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠١١.
- علم اللغة العام، فردينان دي سوسير، تر: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: د.مالك المطلبي، مطبعة بيت الموصل، ١٩٨٨م.
- علم اللغة المعاصر(مقدمات وتطبيقات)، د.يحيى عبابنة ود.آمنة الزعبي، دار الكتاب الثقافية، الأردن، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، د.محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٦٢م.
- علم المصطلح أسسه النظرية وتطبيقاته العملية، د.علي القاسمي، مكتبة لبنان ناشرون،

بيروت- لبنان، ط١، ٢٠٠٨.

- في علم اللغة، د.غازي مختار طليمات، دار طلاس، دمشق، ط٣، ٢٠٠٧.
- في الفكر اللغوي، د.محمد فتيح، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٨٩.
- في اللسانيات العامة تاريخها طبيعتها موضوعها مفاهيمها، د.مصطفى غلفان، دار الكتاب الجديد، بنغازي- ليبيا، ط١، ٢٠١٠.
- قاموس اللسانيات(عربي – فرنسي/فرنسي–عربي) مع مقدمة في علم المصطلح، د.عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٤م.
- اللسانة الاجتماعية، جولييت غارمادي، تر: د.خليل أحمد خليل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٠.
- اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة، دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته، د.حافظ اسماعيلي علوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي- ليبيا، ط١، ٢٠٠٩.
- اللغة واللغويات، جون ليونز، تر: د.محمد العناني، دار جرير للنشر والتوزيع، عَمان، ط١، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
- مبادئ اللسانيات، د.أحمد محمد قدّور، دار الفكر، دمشق، ط٣، ٢٠٠٨م.
- محاضرات في علم اللغة العام، د.البدراوي زهران، دار العالم العربي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨.
- مدخل إلى علم اللغة، د.إبراهيم خليل، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عَمَّان، ط١، ٢٠١٠.
- مدخل إلى اللسانيات، برتيل مالبرج، تر: السيد عبد الظاهر، مراجعة وتقديم: صبري التهامي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط١، ٢٠١٠.
- مدخل إلى اللسانيات، د.محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.
- المصطلح اللساني وتأسيس المفهوم، د.خليفة الميساوي، منشورات ضفاف، الجزائر، ومنشورات الاختلاف، بيروت، ط١، ٢٠١٣.
- معجم علم اللغة التطبيقي(إنكليزي- عربي)، د.محمد علي الخولي، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٨٦.
- معجم اللسانيات، بإشراف جورج مونان، تر: د.جمال الحضري، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ٢٠١٢.
- معجم اللسانيات الحديثة(إنكليزي- عربي)، د.سامي عياد حنا وآخرون، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦.
- معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، د.حسن محمد باكلا وآخرون، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٩٨٣.
- مفاتيح الألسنية، جورج مونان، تعريب: الطيب البكوش، تقديم: صالح القرمادي، منشورات

الجديد، تونس، ١٩٨١.

- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، د.نوزاد حسن أحمد، عمان، ط١، ٢٠٠٧.
- موسوعة مرجعية لمصطلحات علم اللغة النفسي(إنكليزي- عربي)، د.جلال شمس الدين، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٣.
- نظرية تشومسكي اللغوية، جون ليونز، تر:د.حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٥.

مركزية الشكل والعناصر التكوينية في أدبية القصيدة الجاهلية

أ.م.د. إخلاص محمد عيدان
كليّـة الآداب/جامعة بغداد

أهتمت الدراسات بالشكل **form** ، واتخذت سبلا غيّرت فيها وجهتها لاكتشاف التمايز بين النصوص الادبية الابداعية ، وتركزت هذه الوجهة في دراسة تكوين النص الادبي(القصيدة) ونشأته ، مفترضة أن المضمون يحتاج الى الظهور عبر تشكيل يكسب القصيدة وجودها وخصوصيتها.

ولعلّ أول من أولى عناية بشكل العمل الادبي المدرسة الشكلية الروسية التي ولدت على يد مجموعة من طلبة الدراسات العليا في جامعة موسكو **moscow** عام ١٩١٥ ، وقد تميزت بطريقة معينة في وصف العمليات الوظيفية للنظام الادبي ، وتحليل عناصرها الرئيسة ، ومن أهم ما ركزت عليه هو((مشاكل الوزن والايقاع والعروض ، وأهتموا بالناحية الموسيقية وقيمة الوحدات التركيبية التي تساعد في إثراء الناحية الجمالية ، وقد تميزت هذه المدرسة بصبغة نقدية تهدف للقضاء على المناهج القديمة في الدراسات اللغوية والنقدية ، وكان منطلقها هو مواجهة الأثر الادبي في نفسه ، لا في ظروفه الخارجية ، ورفض العلوم المجاورة للدراسة الادبية ، أو العوامل الخارجية ، ورفضت الخيال والحدث ، واقتصرت على الظاهرة اللغوية في ذاتها))[١].

---

(١) النظرية البنائية في النقد الأدبي /٦٥.

فالشكل عندهم كل الوجوه ((كل أجزاء العمل ، ولكنه يوجد فقط كعلاقة للعناصر فيما بينها ، وإجمالا إنه مجموعة وظائف))[١] فالشكل الواحد عندهم يمكن ((أن تكون له وظائف عدّة هي وحدها الكفيلة لفهم الاعمال الادبية))[٢] ، وأصطلحوا وأصطلحوا على تطور الشكل بالتعاقب الادبي[٣].

ويرى بروب أن الشكل ((ليس سوى تحقق خاص ضمن تحققات أخرى ممكنة لنفس البنية الدلالية)) [٤].

في حين نظر نورثرب فراي الى الشكل على إنه مبدأ إحتواء ، فالشكل عنده بوصفه المعنى الذي يمسك باجزاء القصيدة[٥].

فيما نجد أن الشكل عند كروتشه هو((ثمرة حدس غنائي للشعور)) [٦].

وقصر باختين الشكل على الجانب الموسيقي فحسب[٧] ، ولا نتفق معه في ذلك مطلقا ، فقد تشترك أربع قصائد في البحر أو الوزن نفسه لكنها بمستو واحد من الادبية ، وتأتي على أشكال مختلفة.

ورأى بول ديمان أن الشكل((هو حاصل التفاعل الجدلي بين البنية التصويرية للتعرف القبلي والقصد في كُليّة العملية التأولية ، ومن الصعب الإمساك بهذا الجدل)) [٨].

وللماركسيين مفهوم آخر للشكل ، فقد توصل فريدريك غيمسون الى أن الشكل نفسه ما هو إلا تحقق للمضمون في مملكة البنية الفوقية[٩] ، وهو ذاته ما نجده عند

---

(١) في أصول الخطاب النقدي الجديد / ١٢.

(٢) المصدر نفسه /٢١.

(٣) ينظر : نظرية المنهج الشكلي /٦٣.

(٤) مدخل الى السيميائيات السردية /١٦.

(٥) ينظر : الشعرية العربية / ١٧٦،١٣٩.

(٦) في أصول الخطاب النقدي الجديد /٨٢.

(٧)ينظر : قضية المضمون والمادة الأولية والشكل في الابداع اللغوي والفني / (بحث) /١٧٦.

(٨) الشكل والقصد في النقد الجديد / (بحث) /٤٠.

(٩) ينظر : الشكل والمضمون في نظرية الأدب / مجلة العرب أونلاين /انترنيت.

تروتسكي الذي يرى أن تطورات الشكل تتبع التغيرات المهمة في الآيدلوجية (الأفكار) [(١)].

ووجد أينو دوزي أن المضامين محددة ومتكررة تحت أشكال محتلفة لذلك يمكن أن نجد شكلين لمحتوى واحد[(٢)] ، وتستدعي هذه التغيرات والتعددات بالضرورة تطور الشكل في العمل الادبي.

ويكاد يتفق الدارسون على أن الشكل لا يكتسب صفة الاستقرار ، فهو ((متغير في أثناء عملية التكوين ، وله قابلية مطاطية تطاوع التصرف في التشكيل ، بل إن التصرف في تشكيله لم يكن سوى حالات تقتضيها وظيفة التوصيل ، أي أن الشكل يتكيف لخدمة عرض المضمون)) [(٣)].

وعلى الرغم من ذلك فإن استقرار الشكل لا يعني الجمود ، فقد يكون في ثباته ميزة إبداعية ، وإن القدرة الفنية والادبية تكمن في إمكانية التغيير ضمن حدود الشكل العام مع الاحتفاظ بالانسجام بين أجزاء العمل الفني.

أن تطور الشكل في العمل الادبي قد ينتج شكلا جديدا لا يعبر عن مضمون جديد بالضرورة ، لكن ليحل محل الشكل القديم نتيجة للمفهوم الجديد للشكل ، فالواقع الذي يضع في تطوره أمام الفنان صدامات جديدة يستلزم بطبيعة الحال أشكالا جديدة من التعبير[(٤)].

وإذا أردنا أن نلقي نظرة من زاوية بنيوية الى شكل القصيدة نجد إن النسق التشكيلي فيها يقوم على مبدأين: ((التجاذب: وهو تجميع كافة عناصر التجربة المطروحة ، وانتظامها في خط واحد مستقيم أو دائري ، يكون كالمغناطيس الذي يشدّ إليه كل عناصر التجربة ويظل واضحا ، والتنافر: وهو تفتيت نسق مطروح الى عناصر

---

(١) ينظر : الشكل والمضمون في نظرية الأدب/ مجلة العرب أونلاين /انترنيت.

(٢) ينظر : جدلية علم الاجتماع بين الرمز والاشارة / ٣٢٨، والنص الادبي (بحث) /٩.

(٣) الشعر بين الواقع والابداع / ١٠٥، وينظر : الشعرية العربية /١٣٩.

(٤) ينظر : موضوعات سينمائية / منتديات سينماك / أنترنيت، وينظر : رأي الماركسيين ومنهم تروتسكي في أن الشكل الجديد هو الذي يُوجد المضمون الجديد.

متنافرة لا يمكن انتظامها في خط واحد ، بل يمثل كل منها حطا منفصلا يتقاطع أحيانا مع النصوص الاخرى ، ولكنه لا ينتظم أبدا معها في خط معنوي واحد ، ويتميز هذا الشكل بالتغير الدائب المنظور))(١).

ولا نعدم وجود هذين النسقين في القصيدة الجاهلية التي يمثل الغرض فيها – بحسب – النسق الأول الخط الواحد الذي يجذب إليه موضوعات القصيدة الاخرى ، وتمثل القصيدة التي لا يظهر فيها غرض معين النسق الثاني.

ووقف رومان ياكوبسون على قضايا الشكل وبنية مقاطع القصيدة فهو يرى أن من الخطأ أيضا ان نقرر أهمية القطعة الشعرية ككل ، دون الأخذ بنظر الاعتبار الاجزاء المكوّنة لهذا الكل ، إن توضيح البنية القواعدية للقصيدة بالنسبة لبنية مقاطعها ما هو إلا الخطوة الاولى التي يجب أن تُتلى بالقضية الممتعة حول الأسباب الموجبة ، أو بالأحرى الاهداف المرجوة ، لتوزيع الاصناف القواعدية المختارة في القصيدة الشعرية ككل)) (٢).

وميّز كلوفسكي بين نوعين كبيرين من الاشكال: المفتوح: الذي نستطيع معه أضافة وقائع جديدة في الخاتمة ، والمغلق: الذي يبدأ وينتهي بالموضوع نفسه(٣) ، وتمثل القصيدة الجاهلية متعددة الموضوعات التي تتضمن المقدمة ومقطع الرحلة والغرض والخاتمة التي أختزلها كلوفسكي بالغرض والخاتمة تمثل الشكل الاول المفتوح ، أما الشكل الثاني المغلق فهو ينطبق تماما على القصيدة الجاهلية ذات الموضوع الواحد إذ يبدأها الشاعر وينهيها بموضوع واحد هو الغرض أو ما اصطُلح عليه بالموضوع الرئيس.

قامت الشّكلانيّة الرّوسيّة على مجموعتين من الأعلام تجمعهما أرضيّة معرفيّة مشتركة ، تمثّل المجموعة الأولى حلقة موسكو اللّسانيّة التي تأسّست سنة ١٩١٥ كما أسلفنا ويُمَثِّلُها عدد من الطّلبة الشّبّان أبرزهم: رومان ياكوبسون (Roman

---

(١) المسرح بين الفكر والفن /٢٨.

(٢) أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب / ١١٨- ١١٩.

(٣) ينظر: في أصول الخطاب النقدي الجديد /٣٧.

(Jakobson ، ويمثّل المجموعة الثّانية(جمعية دراسة اللّغة الشّعريّة) المعروفة التي تأسّست سنة ١٩١٧ بـ(بيتسبورغ) ، ومن أبرز أعلامها إيخنباوِم ، وشلوفسكي ، وقد شدّت هذه الجمعيّة من أزر حلقة موسكو اللّسانيّة ، واتّفقت معها على دراسة المستويين الاتيين:

-دراسة الجانب اللّسانيّ للشّعر: وتندرج في هذا المستوى أعمال مُهِمّة أنجزها ياكوبسون أهمها تحليله قصيدة القطط لـ(بودلير) ودراساتُه المتعلّقة بمفاهيم(المهيمنة) و(التّوازي) و(النّحو) في الشّعر.

-دراسة البنى السّرديّة: أظهر مثال على ذلك ما سعى(إيخنباوم) إلى إبرازه حين أجرى أغلب المقولات التي انطلق منها الشّكلانيّون على نصّ قصصيّ هو(المعطف) لـ(غُوغُول)(١٨٠٩-١٨٥٢) ، فأبرز أثر التّوظيف الصّوتيّ والأسلوبيّ بعامّة ، في بناء الأقصوصة.

وهذا يعني أنّ الشّكلانيّين ينظرون إلى الأثر الأدبيّ في ذاته ، منفصلاً عن سياقاته التي نشأ فيها وصدر عنها. فعدّوا الفنّ استعمالا مخصوصا للمادّة اللّغويّة ، لكنّهم ركّزوا لقاء هذا الجانب التّنظيريّ على الجانب الإجرائيّ ، فكثّفوا من المباشرة التّطبيقيّة للنّصوص الأدبيّة قَصْدَ الوقوف على خصائصها البنائيّة وعلى القوانين التي تتحكّم فيها ، وعلى ما يسمح لها بالانتساب إلى جنس الأدب.

وبذلك فإن المدرسة اللسانية منبثقة من المدرسة الشكلانية وتالية عليها ، ولهذا فإن دراسة الشكل الأدبي خرج من مجال الدراسة التنظيرية الى مجال الدراسات اللسانية لتنحى به منحى آخر بوصفه عنصرا من عناصرها لا يمكن التغاضي عنه.

وأكّد ذلك رومان ياكوبسون حين تساءل: ((ما الذي يجعل من رسالة لفظية أثرا فنيا؟ [وبالتالي] بما أن هذا الموضوع يتعلق بالاختلاف النوعي الذي يفصل فن اللغة عن الفنون الأخرى وعن الأنواع الأخرى للسلوكيات اللفظية ، فإن للشعرية الحق في أن تحتل الموقع الأول بين الدراسات الأدبية ، [ذلك] أن الشعرية تهتم بقضايا البنية اللسانية تماما مثل ما يهتم الرسم بالبنيات الرسمية. وبما أن اللسانيات هي العلم الشامل للبنيات اللسانية ، فإنه

يمكن اعتبار الشعرية جزء لا يتجزأ من اللسانيات)) [١].

إن عمل اللساني يكمن في وصف وتفسير اللغة وفق هذا المعطى أي تحديد ووصف وتفسير البنى اللغوية انطلاقا من مستوياتها: الصوتية والمعجمية والتركيبية والدلالية. من هنا كان هذا الخروج من البحث في المحيط والعوامل الخارجية إلى البحث في بنيات النص ضروريا ، سواء تعلق ذلك بالشعر أم القصة أم الرواية.

هكذا إذن نمت الدراسات المرتبطة بعالم النص في مفهومه الواسع ، فإذا كانت اللسانيات تصف القوانين المتحكمة في اللغة ، فإن التحليل في الأدب يستثمر نتائجها لإضاءة النص وكشف القوانين المتحكمة فيه.

وقد اختلف الدارسون أيضاً في دراسة النص دلالياً ، فيرى تشومسكي((أن النظريات الدلالية ليست نظريات تامة مضبوطة ودقيقة ، وهي بالتالي ليست قادرة على وضع معيار دلالي دقيق))[٢] ، ترمي هذه النظرة إلى إبعاد عنصر الدلالة في تحليل البنية اللغوية شكلياً. ويذهب آخرون إلى اعتمادها في الدراسة ؛ لأنها تمدنا بمعرفة واسعة عن المتكلم والسامع وظروف النص المختلفة ، فمن هذا المنطلق لها أهمية قصوى في دراسة الظاهرة الأدبية[٣] ، ويبدو أن الجمع بين التحليل الشكلي ، والتحليل الدلالي في دراسة النص الأدبي يكشف خصوصية التعبير المتميزة عند المبدع ، أو منشئ النص.

وقد لا يكون من المفيد هنا العودة إلى التّذكير بتاريخ الدّرس اللّسانيّ وعلاقته بالدّرس الأدبيّ((إلاّ أنّ اللسّانيات أثبتت منذ سنوات أنّها علم رائد قد مكّنت من الخروج من تلك التّجربة الانطباعيّة الّتي كانت تعتدّ بها الدّراسات الأدبيّة...بتطبيق مقاربة علميّة تقتدي بروح المنهج اللّساني))[٤] ، وصارت الدّراسات الأدبيّة تهتمّ

---

(١) قضايا الشعرية /٣٥.

(٢) قضايا أساسية في علم اللسان الحديث /٨.

(٣) مناهج البحث في اللغة /٢٧٧.

(٤) من النقد المعياري الى التحليل اللساني/(بحث) /٤٠١.

((باللّغة بوصفها نسقا))[1] ، وصار موضوع الإبداع الشّعريّ تمثيلا شكليّا للمادّة اللّسانيّة.

إن لسانيات النص فرع من فروع اللسانيات تعنى بدراسة النص وأبرز مميزاته وتماسكه واتّساقه والبحث عن محتواه الابلاغي التواصلي ، إذ تحتل النصية فيها مكانا مرموقا لأنها تجري على تحديد الكيفيات التي ينسجم بها النص/الخطاب (Texte/Discours) وتكشف عن الأبنية اللغوية وكيفية تماسكها وتجاورها ، من حيث هي وحدات لسانية[2].

إذا أردنا أن نفصل بين نص ونص بناء على كون هذا النص أدبي أو غير أدبي ، وضمن صفة الأدبية هناك مستويات ، ما الذي يحدد هذه ال مستويات وما الذي يحتل المركزية فيها؟

نستدل من قراءاتنا الشعر الجاهلي ، ولا سيما القصيدة المكتملة الناضجة فنيا أن الشكل هو صاحب المركزية بين مكونات أدبية هذا النص.

وأبسط فهم لاحتلال الشكل هذه المركزية أن المعاني نفسها يمكن أن تُقدّم بشكل نثري ، لكن القصيدة جاءت بطريقة تتضمن تقسيمات وجدها الذوق العام هي أرفع مستويات النصوص الادبية ، ومنها ما يُقدّم على هيئة سردية كقصص وحوش الصحراء في مقطع الرحلة على الناقة ، ولوحة العاذلة التي بنيت على السرد وعنصر الحوار ، أوبطريقة التصوير المباشر كالمديح والهجاء والفخر والرثاء ، أو ذكر خوالج النفس كما في لوحات الطلل والظعن والطيف والشيب...

ولا شك أن هذه المقدمات التي تزينت بها القصيدة الجاهلية هي تجسيد للوعي العام في المجتمع العربي ، فضلا عن الذوق الفني للنخب المجتمعية.

---

(١) من النقد المعياري الى التحليل اللساني/(بحث) /٤٠١.

(٢) تحليل الخطاب الشعري من منظور اللسانيات النصية /٤٩٥.

المصادر والمراجع

- أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب / رومان ياكوبسون / ترجمة : فالح صدام الامارة والدكتور عبد الجبار محمد علي / مراجعة : د. مرتضى باقر / دار الشؤون الثقافية العامة / العراق / بغداد / ط١ / ١٩٩٠ م.
- تحليل الخطاب الشعري من منظور اللسانيات النصيّة، تحولات الخطاب النقدي المعاصر / أحمد مداس بن عمّار / عالم الكتب الحديث / أربد / الأردن / ٢٠٠٦ م.
- جدلية علم الاجتماع بين الرمز والاشارة / إينو دوزي / ترجمة : د. قيس النوري، مراجعة: د. نوري جعفر / دار الشؤون الثقافية / العراق . بغداد / ط١ / ١٩٨٨م.
- الشعر بين الواقع والابداع / صبيح ناجي القصاب / دار الرشيد للنشر / العراق / بغداد / ١٩٧٩م.
- الشعرية العربية (تتقدمه مقالة حول خطاب نقدي) / جمال الدين بن الشيخ / ترجمة : مبارك حنون وآخرين / دار توبقال للنشر / الدار البيضاء / المغرب / ط١ / ١٩٩٦م.
- في إصول الخطاب النقدي الجديد / تزفتان تودوروف ورولان بارت وامبرتو إكسو ومارك انجينو / ترجمة وتقديم : أحمد المديني / دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد / ط١ / ١٩٨٧م.
- قضايا أساسية في علم اللسان الحديث / مازن الوعر / دار طلاس / دمشق / ط١ / ١٩٨٨ م.
- قضايا الشعرية / رومان ياكوبسون / ترجمة : محمد الولي ومبارك حنون / ط١ / دار توبقال / المغرب / ١٩٨٨ م.
- مدخل الى السيميائيات السردية / سعيد بنكراد / دار تينمل للطباعة والنشر / مراكش / ط١ / ١٩٩٤م.
- المسرح بين الفكر والفن / د. نهاد صليحة / دار الشؤون الثقافية العامة (آفاق عربية) / بغداد . الهيئة المصرية العامة للكتاب / القاهرة / ١٩٨٥م / (مشروع النشر المشترك).
- مناهج البحث في اللغة / تمّام حسّان / دار الثقافة / الدار البيضاء / المغرب / ١٩٧٩ م.
- نظرية البنائية في النقد الأدبي / د. صلاح فضل / دار الآفاق الجديدة / بيروت / لبنان / ط٣ / ١٩٨٥ م.
- نظرية المنهج الشكلي . نصوص الشكلانيين الروس . / ترجمة : إبراهيم الخطيب / مؤسسة الابحاث العربية / بيروت / لبنان / ط١ / ١٩٨٢م.

البحوث

- الشكل والقصد في النقد الجديد / بول دي مان / ترجمة : سعيد الغانمي / مجلة الثقافة الاجنبية / ع٣/ س١٢ / ١٩٩٢م / دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد.
- الشكل والمضمون في النقد الأدبي / د. محمد زكي العشماوي / مجلة عالم الفكر / وزارة الاعلام / الكويت / يوليو . أغسطس . سبتمبر / ١٩٧١م.
- قضية المضمون والمادة الأولية والشكل في الابداع اللغوي الفني / ميخائيل باختين / ترجمة: د. جميل نصيف التكريتي / مجلة الثقافة الاجنبية / ع٤/ س١٢ / ١٩٩٢م / دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد.
- من النقد المعياري الى التحليل اللساني / خالد سليكي / مجلة عالم الفكر / م٣ / ع ١، ٢ / الكويت / ١٩٩٤ م.
- النص الأدبي / جيرمي هوثورن / ترجمة : غازي درويش عطية / مجلة الثقافة الاجنبية / ع٤/ س١٢ /١٩٩٢م / دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد.

الانترنيت

- الشكل والمضمون في نظرية الأدب من وجهة نظر تيري إيغلتون / إزراج عمر / مجلة العرب أونلاين / نشرت في ١١ / ٥ / ٢٠٠٥ م
- موضوعات سينمائية / منتديات سينماك.

بين لسانيات النص وتحليل الخطاب
موازنة في المصطلح

الدكتور خالد حوير الشمس
جامعة ذي قار/ كلية الآداب

ديباجة البحث وهدفه

ينظر هذا البحث في شيء من الجدل الناتج من تصاعد أصوات خلطت بين مفهومي لسانيات النص وتحليل الخطاب ، فيطمح الباحث فيه إلى دفع ذلك الوهم والعزل بين المصطلحين عن طريق الإحاطة بمفهوميهما وإجراء موازنة.

والخطة التي وضعت لذلك هي بيان مفهوم النص ، وما يتعلق به ، أو ما يدرسه وهو علم لسانيات النص في المحور الأول. وتسجيل الدعوات التي تخلطه مع تحليل الخطاب بناء على أسباب في المحور الثاني. ثم التحري عن مفهوم الخطاب ، وعن مفهوم العلم الخاص به وهو منهج تحليل الخطاب بالرجوع الى نظرياته لدى المؤسسين والرواد نحو هاريس ، وباختين ، وبراون ويول ، ونورمان فاكلوف ، وعندها ستتضح الرؤية ويتميز الفرق بينهما في المحور الثالث. وختم البحث بمحور رابع اعتنى بذكر الأسباب التي أدت الى الخلط بين المصطلحين.

مفهوم لسانيات النص

قبل المباشرة بمفهوم لسانيات النص لابد من تعريف النص وتسجيل حدوده ، فله مفاهيم يصعب حصرها ، والسبب في ذلك أنَّه يتوقف على الطبائع التي تكوِّنه ، والمناهج التي تتبناه ، وقد قسمتُ تعريفاته على اتجاهات هي: الاتجاه الشكلي ، والاتجاه البنيوي ، والاتجاه التكويني(التماسك النصي) ، والاتجاه الدلالي ، والاتجاه الإنتاجي ، والاتجاه البنيوي/الوظيفي(1) ، الذي تبنَّاه شميث ولخصه بقوله: ((النص هو كل جزء لغوي منطوق من فعل التواصل في حدث التواصل ، يحدد من جهة الموضوع ، ويفي بوظيفة تواصلية يمكن تعرّفها. أي يحقق كفاءة إنجازية يمكن تعرفها))(2). وقد يترجح هذا التعريف لتوافر المعايير التي وضعها النصيون لتحديد النص وهي: ((كون النص منطوقا أو مكتوبا أو كليهما. مراعاة الجانب الدلالي. مراعاة التحديد الحجمي (طول النص). مراعاة الجانب التداولي. مراعاة حجم السياق ، وهو متعلق بالمعيار السابق. مراعاة جانب التماسك ، وهو أهم المعايير التي يقوم عليها التحليل النصي. مراعاة الجانب الوظيفي للنص. مراعاة التواصل بين المنتج والمتلقي. الربط بينه وبين مفاهيم تحويلية ، مثل الكفاءة والأداء ، وغيرهما. إبراز كونه مقيدًا))(3). ويذكرنا أيضا بالشروط التي وضعها فان دايك للنصية وهي تقوم على الحدسي الذي تحصره قواعد اللغة. وعلى زاوية التعالق الدلالي/ الانسجام. وجهة أفعال الكلام ، والقيمة التداولية فيه(4).

---

(1) بوسع من أراد الاطلاع على هذه الاتجاهات ينظر في: النثر الصوفي في ضوء لسانيات النص (خالد حوير الشمس): 21 – 23. رسالة دكتوره، آداب بغداد، 2013م.

(2) مدخل الى علم النص مشكلات بناء النص (زتسيسلاف واورزنياك): 67.

(3) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية: 1/ 29.

(4) ينظر: لسانيات النص نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري(الدكتور أحمد مداس): 14.

من رجاحة هذا التعريف يتبين أنَّ النص ذاكرة واسعة المديات تقوم على خلايا تتكون من البنية ، والوظيفة ، ومساحات التلقي بين الباث والمستقبل ، والتحليل الذهني ، والرؤية التي تنفرد بتحليله ، ودراسته من مخرجات ما بعد البنيوية جاءت ردة فعل عليها ، وعلى السيميائية ، وتلاشي البند البلاغي سميت بـ(علم النص).

ولست بمحتاج أن أقف على مفهوم هذا العلم ، والتأصيل له ، وبيان ظروف نشأته ، لأنه أصبح من بدهيات الدرس اللساني الحديث ؛ لمرور أكثر من خمسين سنة على ظهوره ، وكثرة التأليفات ، والترجمات حوله ، والدراسات التطبيقية العربية فيه. والأمر المهم تحصيله ذكر الوظيفة الأساسية له ، وهي البحث عن النصية التي تميز النص من غيره عن طريق رصد الإمكانات التي أتاحها النظام اللغوي في رصفه المتكون من اللغوي والميتا لغوي مما يوصله الى درجة المقبولية والمناسبة(١).

وقد تعددت النظريات التي تفتش عن تلك النصية ، سأعرض بعضًا منها باختصار غير مخل ، ومن جرَّاء هذا العرض الموجز تتكون فكرة بسيطة عن هذا العلم لموازنتها بمفهوم تحليل الخطاب الذي ساواه معه بعض المؤسسين نحو: فان دايك ، وبعض الغربيين أيضًا ناهيك عن العرب.

ونظريات هذا الفرع اللساني متعددة فضلتُ انتخاب بعض منها للخروج بصورة مختصرة عنه تمكننا من الإلمام به وبمعطياته. ومن تلك النظريات ما قدمه هاليداي ورقية حسن في كتابهما(الاتساق في اللغة الانكليزية) ، فقد بحثا الكيفية التي يتماسك بها النص ، وهذا يتأتى عبر خمسة منافذ لسانية موزعة على النحو ، والمعجم وهي: الإحالة ، والاستبدال ، والحذف ، والوصل ، والاتساق المعجمي(٢). وهذه التشكيلات اللسانية تعد شرطًا في الحكم على نصية النص ، وعلى ما ليس نصًا(٣) ، يجري ذلك بالنظر الى السياق.

---

(١) ينظر: علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات(الدكتور سعيد حسن بحيري): ٨١.

(٢) ينظر: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب(د.محمد خطابي): ١١.

(٣) المصدر نفسه: ١٢.

ومن أهم النظريات نظرية فاينريش التي تنطلق من النظر الى الجملة بمساواة النص ، والتعامل معه بأنه وحدة مترابطة الأجزاء أي الجمل التي ترتبط سابقتها بلاحقتها وبالعكس ، أي أن النص عنده نسق لغوي تدعمه تفاعلات تواصلية. تقوم تلك البنى اللغوية في نظره على تجزئة النص الى العناصر النحوية المتمثلة بأقسام الكلام ، وإلى عناصر الجملة المتمثلة بالروابط ، والموضوع ، والمحمول ، وما يشبهها مما يقوم على ترابط العلاقات ، أو التماسك بين مكونات النص ، أو مكونات الجملة مع الإفادة من الجانب الدلالي في بعض التراكيب النحوية ، لكن الحكم يبقى على أن نظريته نحوية الطراز[١].

وتقوم نظرية فان دايك النصية على ثلاثة محاور ، الأول: هو ترابط النص بأدوات الوصل ، والفصل ، والشرط ، والاستدراك ، وغيرها. ثم الثاني: وهو اتساق فحوى الخطاب عن طريق ترتيب أحداث النص ، والبنيات الكبرى. الى أنَّ يصل إلى المحور الثالث مشتملا على المكون التداولي المتمثل بالأفعال الإنجازية ، وأثرها في تكوين النص وإنتاجه ، وفي هذا المحور رد على كثير من المزاعم لدى المتشبثين بدعوى عدم ارتكاز علم النص على المسار التداولي ، بل يصرح مباشرة بهذا الأمر بقوله: ((وإنَّ ما نريد أن نشرع فيه هنا من بحث واستكشاف إنما يتأسس على قضيتين مسلَّمتين تتلعقان بالنظرية اللسانية بوجه عام وبميدان النحو بوجه خاص مما له اتصال وثيق بتلك المشاكل. وتدعي المسلَّمة الأولى أنَّ البناء النظري للعبارات على المستويين الصُّوري والدلالي ينبغي أنْ يكمل ويتمم بالمستوى الثالث أعني فعل الكلام)) [٢].

إلا أنَّ ما يطرحه فان دايك من دعوات في كتابيه النص والسياق ، وعلم النص مدخل متداخل الاختصاصات تنحو نحو دراسة النص في ضوء ما يؤسس له من لسانيات للخطاب تفترق عن الدراسة السيمانطيقية ، وترتكز على الظواهر الدلالية والتداولية مع الإفادة من السياق[٣]. وقد حاول أن يأخذ بعلم النص نحو تحليل المحادثات

---

(١) ينظر: علم لغة النص النص المفاهيم والاتجاهات:٢٢١ وما بعدها.

(٢) النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: ١٨.

(٣) ينظر: النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي: ٢٦- ٣٢.

اليومية ، والممارسات الأُخر ، وهذا يتضح بقوله: ((ومن المفيد-بشرط أن يوجد الاستعمال ، والاتصال ، والتفاعل في شكل نصي خاصة- أن تحلل في علم للنص متداخل الاختصاصات تحليلًا منظمًا أشكال نصية ، وأبنية نصية مختلفة ، وشروطها ، ووظائفها ، وتأثيراتها المتباينة: المحادثات اليومية ، والأحاديث العلاجية ، والمواد الصحفية ، والحكايات ، والقصص ، والقصائد ، ونصوص الدعاية ، والخطب ، وإرشادات الاستعمال ، والكتب المدرسية ، والكتابات ، والنقوش ، ونصوص القانون ، والتعليمات وما اشبه))[1]. وقد يدور في خلد أحد أنَّ هذا ما تعتني به مدرسة تحليل الخطاب وسيتضح لاحقًا ، وهذا ما يجرُّ إلى القول إنَّ الخلط بين مصطلحي لسانيات النص وتحليل الخطاب بدأ من مقولات فان دايك ، وسنرى تصريحه مباشرة بهذا الشأن.

وقد أصدر دي بوكراند رؤية في تحليل النص للوقوف على مكامن النصية فيه ، وشرحها بإسهاب في كتابه(النص والخطاب والإجراء) ، وحاول إيجاد تطبيقات لها في محيطه ، اذ يرى أنَّ النصية تتكوَّن بفعل سبعة معايير هي: الربط ، والحبك ، والقصدية ، والمقبولية ، والموقفية ، والإعلامية ، والتناص ، وتجري تلك المعايير في ضوء المنطلقات اللغوية في المعايير الثلاثة الأولى ، والسياقية في المعيارين الرابع والخامس ، والبنيوية في المعيار السادس والسابع ، مع الإفادة من المعلومات الموسوعية في رصف النص وتحليله.

ويدور المعيار الأول السبك أو الترابط على الجزئيات الشكلية في النص ، أي الكفاءة النحوية ، والمعجمية في رصف الجمل ، ووحداتها اللغوية ، نحو: الحذف ، والإحالة ، والتعريف والتنكير ، وإعادة اللفظ ، والربط بوسائله المتعددة. ثم يأتي المعيار الثاني وهو الترابط المفهومي الذي يعتني بقوانين الدلالة عبر العلاقات الدلالية مثل: الشرط والجزاء ، والإجمال والتفصيل ، والعام والخاص وغيرها ، أما القصدية فهي الغرض الذي يتوخاه المتكلم وما على المتلقي الا التفتيش عنه بوساطة الإجراءات اللسانية. والمعيار الرابع المقبولية وتتضمن موقف مستقبل النص وتلقيه. ورعاية الموقف هي المعيار الخامس تناقش العوامل التي تجعل النص مرتبطًا بما حوله. ويتناول المعيار

---

(١) علم النص مدخل متداخل الاختصاصات: ١١.

السادس الإعلامية ما لا يتوقعه المتلقي من المتكلم لاسيَّما في المجازات. ثم التناص القائم على الاقتباسات وتداخل النصوص السابقة[1].

ومما هو ملاحظ على أطروحة دي بوكراند أنَّها أهملت المسار التداولي في صياغة النص وصياغة الخطاب ، ولا أظن استقامة تكون في حال إبعاد المعطى التداولي من النص ، إذ الدراسة النصية من دونها ترجع بك الى علم اللغة ، والى إفرازاته البنيوية ، ولم تحقق تعريفاته المتعددة التي ترى التواصلية فيه.

أكتفي بهذا العرض للنظريات النصية والسبب في ذلك لأنني ألفيت النظريات الأُخر والدراسات التطبيقية النصية لاتخرج عما جاءوا به ، فضلًا عن أنَّ هذه الإجالة السريعة في نتاجهم تجعلنا نعترف بأن لسانيات النص جمعت بين النسق اللساني وخارج اللساني. والذي يندرج في النسق اللساني هي الأنساق النحوية ، والمعجمية ، والصوتية لدى بعض الدراسات التطبيقية العربية[2] ، والصرفية ، ثم بعض الجزئيات البلاغية ، والدلالية مؤطرة بإطار السياق والبعد الاستعمالي لها أي الجانب التداولي في كيفية صياغة تلك الإمكانات اللسانية على وفق قابليات المتلقي ، ومدى استيعابه ، وقد يتطلب الأمر الاستعانة ببعض المعلومات الثقافية في إنتاج النص وتفسيره. وقد أجمل فولفجانج هاينه من وديتر فيهفيجر هذا الكلام بقوله: ((في ذلك كان المنطلق أنَّ المتكلم الذي ينتج نصًا يستعمل معارف مختلفة يمكن أنْ تنتظم في ثلاثة أنساق من المعارف وهي: علم لغوي. علم موضوعي أو علم موسوعي. عامل التفاعل الذي يشمل علم الإنجاز النظري ، وكذلك العلم الخاص بالمعايير الاتصالية ، وعلم ماوراء الاتصال))[3].

---

(١) ينظر: النص والخطاب والإجراء: ١٠٣- ١٠٤.

(٢) هنالك من الدارسين من أدخل الجانب الصوتي في لسانيات النص لاسيما العرب لاعتماد العربية عليه ومنهم: عزة شبل في كتابه علم لغة النص النظرية والتطبيق: ١٢٥ وما بعدها. وحسام أحمد الفرج في كتابه نظرية علم النص رؤية منهجية في بناء النص النثري : ١١٦ وما بعدها.

(٣) مدخل إلى علم النص: ١٤٩.

مَن نادى بترادف المصطلحين

لا غبار في فهم توجهات لسانيات النص ، إلا أنَّ المشكل في تصارع المصطلحات لتسمية هذا العلم ، فقد برزت تسميات عدة منها: نحو النص ، وعلم النص ، وعلم لغة النص ، وعلم دلالة النص ، ولسانيات النص ، وهنالك من سماه بـ(تحليل الخطاب) وبدأت هذه التسمية من فان دايك وتبعه من تبعه فيها ، ويعزو سبب الفرق لدى الدارسين إلى البيئتين الانجليزية ، والفرنسية ، فيقول:((إنَّ مفهوم علم النص ليس بالغ القدم ، غير أنَّه قد ترسخ منذ عشر سنوات تقريبًا ، ففي المجال اللغوي الفرنسي سُمِّي (علم النص) ، وفي الانجليزية سُمِّي(تحليل الخطاب))) [1].

وبدأت دعوات مشابهة لِمَا جاء به فان دايك تشي بالتوحيد بين المصطلحين ، ووجِدَت هذه الخطوة في كتاب فولفجانج هاينه وديتر فيهفيجر(مدخل إلى علم اللغة النصي) إذ أشارا في مُقْتبل كتابهما إلى نظرية تحليل الخطاب بوصفها مدخلًا إلى نظريات النص ، مع عدم تحديد تسمية دقيقة لهذا العلم ، تحليل الكلام ، وتحليل المحادثة ، ولغويات الحوار ، وبحث الحوار ، وتحليل النقاش ، وفي السياق نفسه أعربا عن التقارب ، والالتقاء بين علم اللغة النصي وتحليل الخطاب ، ومدى انتفاع أحدهما من نتائج الآخر((وأصبح كل منهما يستقبل نتائج بحثية بشكل متبادل من الحقل الآخر))[2] ، مع الإشارة إلى طول طريق الدمج بينهما ، إلا أنَّه ثمة محاولات من لدن علماء كبار بدأت السيرَ في هذا الطريق للتوحيد بينهما أمثال: جوليش/ كوتشي ،

---

(١) علم النص مدخل متداخل الاختصاصات: ١٤.

(٢) مدخل إلى علم اللغة النصي: ١٠١.

١٩٨٧م ، وروليه ١٩٨٨م ، وهوندزنرشر/فايجاند ١٩٨٦ ، وكولتهارد/مونتجمري ١٩٨٤م ، وكانيسيوس ١٩٨٦م[١].

وفي الأمر نفسه أشار باتريك ، ودومينيك صاحِبا (معجم تحليل الخطاب) إلى العلماء الكبار الذين رادَفوا بين تحليل الخطاب ولسانيات النص: ((يطلق بعض الباحثين على غرار ز.س هاريس (تحليل الخطاب) على ما يسمّى أيضًا باللسانيات النصية ، هذا هو شأن م. شارول ، وب.كومبات))[٢].

أما العرب ، فبدورهم قد أسهموا في بث ذلك الترادف بين المصطلحين ، فقد تعامل محمد خطابي مع المصطلحين وكأنَّهما واحد ، حينما أدرج نظرية تحليل الخطاب لدى (براون) و(يول) أو مشروعهما مع مشروع هاليداي ورُقَية حسن ، ومشروع فان دايك ، فهذا يدل على أنَّهما تأطَّرا بعنوان رئيس لكتابه لسانيات النص.

وقد ساوى الدكتور نعمان بوقرة بين المصطلحين ، وعقد الباب الأول من كتابه (لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء) بعنوان (تحليل الخطاب تنظيرا) ، وتحدث فيه عن نشأة لسانيات النص ، وطبيعتها ، وأدوات التماسك النصي. وهذا يعني عنده أنهما شيء واحد[٣].

وهناك من صرَّح بتساوقهما بصورة وصفية لاسيما المغاربة ، فتقول كورنيليا فون راد صكوحي: ((مع الملاحظ أنَّ العبارة تحليل الخطاب أو دراسة الخطاب في كثير من الدراسات الانقلو ساكسونية تستعمل اليوم في معنى لسانيات النص))[٤].

وقد حاولت الباحثة بسمة بلحاج الشكيلي نسبة هذا الترادف الى الغربيين وتعليله بسبب النظر إلى الخطاب على أنَّه النص بقولها: ((اختلف الباحثون الغرب في تحديد موضوع تحليل الخطاب ، ففي حين أطلق البعض هذا المصطلح على ما

---

(١) ينظر: مدخل إلى علم اللغة النصي: ١٠٠- ١٠١.

(٢) ينظر: معجم تحليل الخطاب: ٤٤.

(٣) ينظر: لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء: ١٣- وما بعدها.

(٤) لسانيات النص او لسانيات ما بعد الجملة وما قبل الخطاب، بحث ضمن كتاب مقالات في تحليل الخطاب: ٥٠. وكذلك كرر في ص ٧٢.

يسمى بـ(لسانيات النص) باعتبار أن الخطاب هو وحدة لسانية متكونة من متتالية من الجمل))[1].

وبعض الباحثين اعترف بصعوبة الفصل بينهما وهو الدكتور بهاء الدين محمد مزيد بقوله: ((ولا سبيل إلى فض الاشتباك بين تحليل الخطاب من ناحية ، وتحليل النص ، أو لغويات النص ، وتحليل الحوار أو المحادثة من الناحية الأخرى ؛ لأنَّها تلتقي جميعًا في غير موضع ، وتنطلق من نفس الانشغال بالسياق ، والجوانب الدلالية ، ووظائف اللغة ، وتتجاوز حدود المفردة ، والعبارة ، والجملة إلى ما يتشكل منه الخطاب أو النص الذي يشمل من وجهة نظر تحليل الخطاب كل ما هو مكتوب أو شفهي))[2].

---

(١) قراءة في بنية التفكير البلاغي العربي انطلاقا من مفهوم الخطاب، بحث ضمن كتاب مقالات في تحليل الخطاب: ١٢، الهامش. وللأمانة العلمية أن الباحثة ذكرت رأيين آخرين مفهوم تحليل الخطاب، الاول أنه دراسة الخطاب باستعماله الواقعي للغة في مقامات حقيقية، والاخر باعتباره نشاطا لغويا تعامليا يختص بالمحادثة.

(٢)من أفعال اللغة الى بلاغة الخطاب السياسي تبسيط التداولية: ٨٧- ٨٨.

مفهوم تحليل الخطاب

آن أنْ أعرض مفهوم الخطاب ، وطبيعة المنهج الذي يدرسه ليتسنى الاطلاع على بالمصطلحين ، وتبيان مدى الاختلاف بينهما وتهاوي الأطروحة التي ترى تساوقهما.

الخطاب مصطلح لم يتضح مفهومه ، ولم يصل حد الاستقرار في الدرس النقدي الحديث ، والدرس اللساني أيضا ؛ لكونه مصطلح ولد ، وترعرع في أحضان الفلسفة ، ثم استعارته هذه الأبحاث النقدية ، واللسانية ، فسيصعب تحديده ، فضلًا عن تعدد المنطلقات فيه بين البعد اللغوي ، والحادثي ، والمكتوب ، والمجال السياسي ، والاجتماعي ، وهذه هي أهم ما يميز الخطاب عن النص إذ يحدده ميشال فوكو ((بأنَّه شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية ، والسياسية ، والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة والمخاطر في الوقت نفسه))[1]. وقد أوضح الدكتور نعمان بوقرة طبيعته من جهة اعتماده على جانبين الأول: اللغة ، والآخر الأبعاد المحركة له بحسب فوكو: ((والخطاب يتنوع بتنوع الطرق التي يتخذها المتكلمون أو الكتَّاب وذلك بحسب مواقف اجتماعية وثقافية محددة ، فتنتج بذلك أنواع كثيرة من الخطابات ، مثل الخطاب الديني ، والخطاب العلمي ، والخطاب السياسي ، والخطاب البيداغوجي ، وبالرغم من أنَّ الخطاب يتوسل دائمًا اللغة في غاياته ، فإنَّ جوهره في حقيقة الأمر ليس لغويًّا ، إذ هو مجموعة من النوايا التي تتحقق بوساطة اللغة))[2]. ولعل هذا ما استقر عليه الدرس النقدي الحديث انطلاقًا

(١) دليل الناقد الأدبي اضاءة لاكثر من سبعين تيارا نقديا (سعد البازعي وميجان الرويلي): ١٥٥.

(٢) لسانيات النص مباحث في التأسيس والإجراء: ٢٠.

من المؤسس الحقيقي له هو فوكو((وهكذا فالنص ذو بعد لغوي ، أما الخطاب ، فذو بعد اجتماعي ، النص في اللسانية كيان مستقل ، ومعزول عن محيطه ، وظروفه أي عن سياقه ، أما الخطاب فهو النص منظورًا إليه في سياقه خصوصًا الاجتماعي))(١).

والمنهج الذي يدرس الخطاب يسمى بـ(منهج تحليل الخطاب) ، بداياته كانت مع ألسُنيين مشهورين ، منهم باختين ، وهاريس ، وجورج ويول ، نورمان فاكلوف. سأعرض نظرياتهم باختصار غير مخل ؛ ليتضح مدى الافتراق بينه وبين لسانيات النص ، ومن ثَمّ ينجلي هدف البحث. وقبل ذاك أذكر تعريف تحليل الخطاب بأنَّه ((دراسة استعمال اللغة مع الإشارة إلى العوامل الاجتماعية ، والنفسية المؤثرة في التواصل))(٢). وله ميزة تتلخص بجرِّه البحث الألسُني نحو الثقافة المجتمعية ، والسياسية ، وبتعبير آخر تشخيص الأدلجة في اللغة وهذا ما أكده براون ويول: ((يغطي تحليل الخطاب **discourse analysis** مجالًا واسعًا جدًا من الفعاليات ، يمتد من الدراسة الثانوية لكيفية استعمال كلمات مثل(أوه) و(حسنا) في حديث عرضي إلى دراسة الأيديولوجية السائدة في ثقافة معينة ممثلة على سبيل المثال بممارستها التعليمية أو السياسية))(٣).

يعد هاريس مؤسسًا لتحليل الخطاب في بحثه الذي نشره بعنوان (تحليل الخطاب) سنة ١٩٥٢م في مجلة **Languages** في عددها الثالث عشر ، إذ ركز فيه على ترابط الخطاب ، واهتم بتوزيع العناصر اللغوية في النصوص ، والروابط بين النص وسياقه الاجتماعي ، مع تجاوز النظر إلى الجملة إلى ما هو خارج عنها ، ليربط بين اللغة ومحيطها الاجتماعي(٤).

وهذا المنوال هو الذي نادى به باختين والغالب على فكره لَمَّا اعترف بقصور

---

(١) النقد النصي وتحليل الخطاب نظريات ومقاربات(د.نبيل أيوب): ٢٣١.

(٢) التداولية (يول): ١٨٨.

(٣) المصدر نفسه ١٢٨.

(٤) ينظر: اتجاهات الدراسات اللسانية الحديثة في المملكة العربية السعودية دراسة وصفية تحليلية، بحث مجلة عالم الفكر: ٢٢١.

اللسانيات في احتواء موضوع التلفظ بسبب الاهتمام بالجملة ، وترك الخطاب[1] ؛ لذا توجه لتدبُّر المكون الثقافي والايدولوجي في الأدب ، ورأى أنَّه سبيل لتشكل الخطاب الاجتماعي عِبْرَ اللغة في نظرية الرواية ، ونظرية الإضحاك ، والثقافة الشعبية[2]. وتجاوز العلمية والموضوعية التي قامت عليهما المناهج السابقة يؤهل الخطابات إلى الإبداع والتلقائية[3].

أما براون ويول في مشروعهما(تحليل الخطاب) القائم على اللغة ، والسياق ، والتواصل(التفاعل) ، والاستعانة بأدوات اتساق النص ، وانسجامه ، وظروفه ، والأفعال القولية ، مع النظر إلى وظيفتي اللغة التعاملية والتفاعلية. والتعاملية تعني نقل المعلومة. والتفاعلية تعني الاتصال بين المتكلم والمتلقي ، وينطبق ذلك على اللغة المحكية والمكتوبة[4] ، ولما يدخل ظروف التواصل في النص هذا يعني دخول السمات الاجتماعية في عمله ، إلا أنَّه يركز بالدرجة الأولى على المقاربة اللسانية ، وتأويلات المتلقي.

في هذا العرض السريع لمنظور تحليل الخطاب لدى هاريس ، وبراون ويول تجد النسقية اللسانية واضحة فيه مع الانطلاق من المجتمع ، ويؤكد نورمان فاكلوف على تلك النسقية الألسُنية ويربطها بالمعطى الاجتماعي للنصوص أيضًا ، فيقول: ((تستند معالجتي في دراسة الخطاب(صيغةٌ من صيغ التحليل النقدي للخطاب) إلى التسليم بأنَّ اللغة جزء من الحياة الاجتماعية لا يمكن اختزاله ، وبينه وبين عناصر الحياة الاجتماعية الأخرى عَلَاقة منطقية جدلية تجعل من الضروري أنْ يأخذ البحث والتحليل الاجتماعي اللغةَ دائمًا بعين الاعتبار))[5] ، ولكي يميز نورمان فاكلوف بين

---

(١) تحليل الخطاب من اللسانيات إلى السيميائيات، أحمد يوسف، بحث منشور على الانترنت www.mohamedrabeea.com9.

(٢) ينظر: الخطاب الأدبي والمفاهيم الأساسية في تحليل الخطاب عند باختين (بسمة عروس) : ٩٢ ضمن كتاب مقالات في تحليل الخطاب.

(٣) النقد النصي وتحليل الخطاب: ٢٣٢.

(٤) ينظر: تحليل الخطاب: ٢– ٣.

(٥) تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي: ١٩.

التحليل اللساني وتحليل الخطاب سمَّى منهجه بـ(التحليل النقدي للخطاب) المنطلق من الممارسات الاجتماعية عِبْرَ النحو ، والدلالة[1].

بعد الإجالة في مفهومي لسانيات النص وتحليل الخطاب يتضح أن دراسة المنهج الأول تنحصر في دراسة النص في ضوء إمكاناته اللسانية مع الميل إلى التواصلية فيه ، فيدخل السياق أو المؤثرات الخارجية والتداولية لاسيما أفعال الكلام. ويجمل زتسيسلاف القول في موضوع علم النص هو: ((بناء النص ، أي بناء وحدات درجة هرمية في بعد الجوار اللغوي الذي يقع في درجة الجملة))[2]. أما في تحليل الخطاب فقد يتحرر المحلل من عنق النص ، ويبقى مشغله مجالات هذا النص أو قواعد استعماله نحو البعد الفكري ، والاجتماعي بالدرجة الأولى مع ميله إلى القواعد اللسانية في إطار توظيفها لتلك القواعد والمنطلقات الفكرية ؛ لأنَّ المقاصد لا تُمرَّر إلا عبر اللغة وقوانينها ، ومنظوماتها ، وهذا ما أجمله نورمان فاكلوف حكاية عن فوكو: ((إنَّ تحليل الخطاب عند فوكو هو تحليل مجال الأقوال الخبرية أي النصوص والمقولات باعتبارها عناصر مكونة للنصوص. لكن ذلك لا يعني الاهتمام بتحليل تفصيلي للنصوص ، إنما بالقواعد التي تحكم مجموعات من النصوص والمقولات))[3].

---

(١) ينظر: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي : ٢١.

(٢) مدخل إلى علم النص بناء مشكلات النص: ٤٢.

(٣) تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي: ٢٣٤.

أسباب الخلط بين المصطلحين

يجري هذا المحور بإجلاء نتيجة مهمة وهي افتراق هذين المنهجين من جهة معالجة النص ، ويترتب على هذا الافتراق افتراق المصطلحين ، وما حدث من خلط له أسبابه هي:

- غموض نشأة علم لسانيات النص ، فقد رجع بها بعض الدارسين إلى هاريس في بحثه الأول مع أنه معني بتحليل الخطاب.
- تصريح فان دايك بالمساواة بينهما وارجاعه الى المكان ، ففي فرنسا يسمى بعلم النص وفي بريطانيا يسمى بتحليل الخطاب.
- عدم إحاطة الدارسين بمفهوم تحليل الخطاب ؛ لباكورته وجدة تأسيسه.
- الضبابية في إدراك معنى النص ، واختلاطه مع مفهوم الخطاب ، فقد يخيل لمن يساوي بينهما ، أو لمن يدرسهما أنَّ المنهج هو هو ، فيدمج بينهما.
- عدم إدراك طبيعة اشتغال المنهجين ، إذ يشتغل لسانيات النص بتحليل نص واحد ، أو نصوص مختلفة تمامًا ، بينما لا يشتغل تحليل الخطاب إلا على نصوص موحدة وهذه الخصلة الأساسية للخطاب.
- تعدد تسميات العلم الخاص بالنص لدى المؤسسين أنفسهم ، فعلم لغة النص ظهر لدى فاينريش ، وعلم النص لدى فان دايك ، ودي بوكراند ودريسلر وغيرهم.
- تعدد البيئات التي ولد فيها علم النص ، ففي اسبانيا كان فاينريش ، وفي هولندا فان دايك ، وفي أمريكا دي بوكراند ، وفي ألمانيا زتسيسزلاف ، وهذا

التعدد يؤشر عدم توحيد المصطلح ، فيترك المجال لسحب مصطلح تحليل الخطاب.

- تعدد مفاهيم مصطلح تحليل الخطاب نفسه لدى بعض الدارسين ، فقد يساوي تحليل الجملة لسانيا ، أو البحث عن المضمر في حال المخاطبة ، والمعنى الثالث ما عرضناه بحسب البعد الاجتماعي[١].
- ومنها أيضًا إنَّ تقارب نشأتيهما بوصفهما مقابلًا للسانيات الجملة يقود إلى الخلط بينهما.
- اشتراكهما ببعض المرجعيات ، المرجعية اللسانية ، ومرجعية أفعال الكلام ، ومرجعية التواصل القائمة على رصد المعاني المضمرة ، فضلًا عن دعوتهما إلى ترك التضييق في البحث اللساني والانطلاق الى التفاعل مع العلوم الإنسانية.

ختاما أقول إنَّ نقطة الانطلاق في توحيد المصطلحين بدأت من الدراسات الغربية بخاصة فان دايك وبعض آخر منهم: جوليش/كوتشي ، وكانيسيوس ، وهوندزنرشر/فايجاند ، وغيرهم ، وهذا الدمج كان ممارسة واعية منهم. وقد ردد الدارسون العرب ذلك الترادف من دون تمحيص ووعي ، أو بتعبير آخر وصفوه وصفًا ، وهذا ما توافر على جهد محمد خطابي ، ونعمان بوقرة. وما يعزز التفريق بينهما اختلاف المنظومتين الفكريتين لكل منهج ، واختلاف الروّاد لهما.

---

(١) ينظر: دليل الناقد الأدبي: ١٥٥.

ثبت المراجع

- اتجاهات الدراسات اللسانية الحديثة في المملكة العربية السعودية دراسة وصفية تحليلية، تأليف الدكتور نعمان عبد الحميد بوقرة، بحث مجلة عالم الفكر تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، العدد ١ المجلد ٤٢ سنة ٢٠١٣م.
- تحليل الخطاب، تأليف ج. ب براون، وج يول، ترجمة وتعليق: الدكتور محمد لطفي الزليطي والدكتور منير التريكي، د. ط، دار المطابع، الرياض- السعودية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- تحليل الخطاب التحليل النّصّي في البحث الاجتماعي، تأليف نورمان فاكلوف ط١، ترجمة الدكتور طلال وهبه،المنظمة العربية للترجمة، بيروت- لبنان، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
- تحليل الخطاب من اللسانيات إلى السيميائيات، أحمد يوسف، بحث منشور على الانترنت www.mohamedrabeea.com.
- التداولية، تأليف جورج يول، ترجمة الدكتور قصي العتّابي، ط١، دار الأمان، الرباط المغرب العربي، والدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت- لبنان، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- الخطاب الأدبي والمفاهيم الأساسية في تحليل الخطاب عند باختين، تأليف بسمة عروس، بحث ضمن كتاب مقالات في تحليل الخطاب مجموعة باحثين تقديم حمادي صمُّود، منشورات وحدة البحث في تحليل الخطاب، كلية الآداب والفنون الإنسانيات بجامعة منوبة، ٢٠٠٨م.
- دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تيارًا ومصطلحًا نقديًا معاصرًا، تأليف الدكتور ميجان الرويلي، والدكتور سعد البازي، ط٣، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، ٢٠٠٢م.
- علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، تأليف الدكتور سعيد حسن بحيري، ط٢، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- علم لغة النص النظرية والتطبيق، تأليف الدكتورة عزة شبل محمد، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة- مصر، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، تأليف الدكتور صبحي إبراهيم الفقي، ط١، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ١٤٣١هـ- ٢٠٠٠م.
- علم النّص مدخل متداخل الاختصاصات، تأليف تون أ.فان دايك، ط٢، ترجمة الدكتور سعيد حسن بحيري، دار القاهرة، القاهرة- مصر، ٢٠٠٥م.
- قراءة في بنية التفكير البلاغي العربي انطلاقا من مفهوم الخطاب، بحث ضمن كتاب مقالات في تحليل الخطاب، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة وحدة البحث في تحليل الخطاب، ٢٠٠٨م.
- لسانيات النص أو لسانيات ما بعد الجملة وما قبل الخطاب، بحث ضمن كتاب مقالات في تحليل الخطاب، منشورات كلية الاداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة وحدة البحث في تحليل الخطاب، ٢٠٠٨م.
- لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، تأليف مُحمد خطابي، ط، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، ١٩٩١م. لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والإجراء، تأليف الدكتور نعمان بوقرة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ٢٠١٢م.
- لسانيات النّصّ نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، تأليف الدكتور أحمد مداس، ط٢، عالم الكتب الحديثة، إربد- الأردن، ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.
- مدخل إلى علم اللغة النصي، تأليف فولفجانج هاينه مَن، ديتر فيهفيجر، د.ط، ترجمة: الدكتور فالح شبيب العجمي، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض- السعودية، ١٤١٩هـ.
- مدخل إلى علم النّصّ مشكلات بناء النص، تأليف زتسيسلاف واورزنياك، ط٢، ترجمة: الدكتور سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.
- معجم تحليل الخطاب، تأليف باتريك شارودو ودومينيك منغنو ومجموعة باحثين، ترجمة: عبد القادر المهيري وحمّادي صمّود، د.ط، منشورات دار سيناتر، المركز الوطني للترجمة تونس، ٢٠٠٨م.
- من أفعال اللغة الى بلاغة الخطاب السياسي تبسيط التداولية، تأليف الدكتور بهاء الدين محمد مزيد، ط١، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة- مصر.
- النثر الصوفي في ضوء لسانيات النص، تأليف خالد حوير الشمس، رسالة دكتوراه، كلية الآداب- جامعة بغداد، ٢٠١٣- ١٤٣٤هـ.
- النص والخطاب والإجراء، تأليف روبرت دي بوكراند، ط١، ترجمة الدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة- مصر، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

- النّصّ والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تأليف فان دايك، د.ط، ترجمة: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، بيروت- لبنان، ٢٠٠٠م.
- نظرية علم النَّص رؤية منهجية في بناء النَّص النثري، تأليف الدكتور حسام أحمد الفرج، ط١، مكتبة الآداب، القاهرة- مصر، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- النقد النصي وتحليل الخطاب نظريات ومقاربات، تأليف الدكتور نبيل أيوب، ط١، لبنان ناشرون، بيروت – لبنان، ٢٠١١م.

الفكر النحوي
في ضوء المنطق الأرسطي

أ.د. حسن منديل حسن العكيلي
كلية التربية للبنات- جامعة بغداد

الخلاصة

اللغة نظام لها منطق خاص بها ، يتمثل بواقعها الاستعمالي ، الذي ينأى عن المنطق العقلي العام ، والخلط بينهما يؤدي الى كثرة الشواذ بين المعايير اللغوية والشواهد ، ومن ثم يؤدى الى انحراف الفكر النحوي واللغوي عن المسار العلمي.

البحث يسلط الضوء على الفارق بين النحو المنطقي العقلي المعياري وبين النحو اللغوي الاستعمالي أو بين المنطق اللغوي والمنطق العقلي العام.

لكل لغة منطق ونظام خاص بها ، يراعيه المتكلمون بها "لأنه شرط الفهم والافهام في البيئة اللغوية الواحدة ، واذا أخلّ المتكلم بهذا النظام ، حكم السامع على كلامه بالغرابة والشذوذ والغموض...ويرتبط هذا النظام بعقول أصحاب اللغة وتفكيرهم الى حد كبير... ولكنه النظام الخاص الذي يختلف من لغة الى اخرى ، ويتصف في كل بيئة بخصائص معينة تجعل لكل لغة استقلالها وتميزها من غيرها"(١).

فنظام العربية –مثلا- يختلف عن نظام الانجليزية في كثير من الظواهر والقواعد والأسس ولاسيما في ترتيب الجملة وفي الافراد والتثنية والجمع وفي التأنيث والتذكير وغير ذلك فالصفة مثلاً في نظام الانجليزية تخالف الموصوف من حيث الرتبة والمطابقة في العدد

---

(١) من اسرار اللغة: ١٧٨.

والجنس ، ويُعد ذلك في العربية لحناً وخطأ ذلك ان نظامها ينأى عن نظام الانجليزية نحو:

ولدان ذكيان **Two clever boys**.

بنتان ذكيتان **Two clever girls**.

بنات ذكيات **Clever girls**.

ولد ذكي **a clever boy**.

بنت ذكية **a clever girl**.

ربط القدماء بين اللغة والمنطق العقلي ، فدعا فلاسفة اليونان الى طرائق تهيمن على التفكير الإنساني وجعلوها بديهيات لا يُختلف فيه ، ومقدمات لقضايا عقلية ينتهون منها الى حكم خاص لا يتردد العقل في قبوله(١).

هذا المنهج العقلي هو المنطق الذي اكتمل لدى أرسطو ، أذ ربط بينه وبين اللغة لتوضيحه ووضعه في قوالب نحوية. صاغها في صور ألفاظ وأصوات. والمنطقيون بعده حاولوا صبّ اللغات في تلك القوالب المنطقية لأرسطو.

وقد أعجب النحاة العرب بمنطق أرسطو وحاولوا تطبيقه على النحو العربي لذا نجد في بحوثهم اللغوية من الأقيسة والاستنباط ما لا يتصل بروح العربية.

والحقّ ان النحاة العرب المتأخرين هم الذين تأثروا بالمنطق الأجنبي وخلطوا بينهما للشبه الكبير الذي وجدوه بينهما. أما النحاة المتقدّمون فقد تأثروا بمنطق الفقه الإسلامي وطبقوه على علوم العربية وهو نابع من منطق العقيدة الإسلامية ، فالحضرمي معاصر الحسن البصري استخدم الرأي في الظواهر النحوية مثله ، وتبعه تلميذه عيسى بن عمر. وأبو عمرو بن العلاء ، والخليل بن احمد تأثروا بقياس ابي حنيفة الذي وسع القياس. وسيبويه تأثر بأبي يوسف محمد بن الحسن الشيباني (١٨٩هـ) ، الذي تأثر فيه نحاة كثيرون منهم الفراء(٢).

---

(١) من اسرار اللغة :١٣٤- ١٤٣.

(٢) ينظر: في اصول النحو ٨٤، والزمخشري لغوياً ومفسراً ٣٨٦، والقياس النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة ٥- ٩٨.

وكان بعض النحاة يفتي الناس من كتاب سيبويه[1] ، وربط ابن جني النحو بالفقه واضح في كتبه ، وقد صرّح بذلك[2]. وتبعه آخرون ولاسيما ابو البركات الانباري[3] وغيره.

ويرى بعض الدارسين انّ "القياس الأصولي يختلف عن القياس النحوي ، والمنطقي فالقياس الأصولي وبالخصوص قياس العلة ، منهج خاص يستهدف معرفة علة الحكم الوارد في النص أي الأصل وإضافة الحكم نفسه على المماثل الذي لا نصّ فيه وهو الفرع وذلك بجامع العلة. ومن أشهر أمثلته: إن علة تحريم الخمر هي الاسكار وان النبيذ مسكر ، فالنبيذ محرم بسبب هذه العلة"[4].

وهناك شبه بينه وبين القياس النحوي لأن كليهما(حمل غير المنقول على المنقول اذا كان في معناه) ، فالنحو قياس ، وعُرّف بأنه:(العلم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب).

وشبه أبو البركات الانباري والسيوطي[5] القياس النحوي بالقياس الأصولي بالمقارنة ، فجعلا أركانه أربعة: أصل وفرع وحكم وعلة ، ومثّلا برفع مالم يُسمّ فاعله قياساً على الفاعل لعلة جامعة هي الإسناد[6].

"يتمثل المنطق الأرسطي في استنتاج شكلي من مقدمتين مسلم بهما مثل: (ان كل إنسان فان ، وانّ سقراط فان والنتيجة: ان سقراط فان). وهذا النمط من القياس شكل صوري لا يستبعد تطبيقه في وسائل الإثبات بالبراهين العقلية دون ان يصلح منهجاً لعلم معين مثل النحو او الفقه. وتأثر النحاة له لم يظهر بوضوح إلا في القرن

---

(١) ينظر: لمع الأدلة ٩٥ والاقتراح ٤٢.

(٢) ينظر: الخصائص ١.

(٣) ينظر: الانصاف ٣/١.

(٤) تاريخ النحو العربي بين المشرق والمغرب ٢٩.

(٥) ينظر: لمع الأدلة ٩٥، والاقتراح ٤٢.

(٦) تاريخ النحو العربي ٢٩ – ٣٠.

الرابع الهجري ، وكان اعتماده في التعريفات والحدود أكثر منه في القياس"[١]. فهو تمييز بين القياس النحوي والقياس المنطقي الأرسطي والأصولي.

ومعناه القياس لغة: "تقدير شيء على مثال شيء آخر وتسويته به". والتفكير البياني لانه يقوم على القياس يلتقي مع البيان الذي هو: إنّ الإظهار والإيضاح يتم بتقدير شيء على مثال شيء آخر. بذلك سمّاه الغزالي: القياس البياني تفريقاً له عن القياس المنطقي الأرسطي[٢] و"لا يعني استخراج نتيجة تلزم ضرورة عن مقدمتين او أكثر بل يعني إضافة أمر الى أمر آخر(بنوع من المساواة). انه ليس عملية جمع وتأليف بل هو عملية مقايسة ومقارنة"[٣].

والقياس في العلوم البيانية الاستدلالية (النحو واللغة والبلاغة وعلم الكلام والمنطق) يقوم على المقاربة بين أصل وفرع ، شاهد وغائب وليس على التأليف بينهما. والقائس لا يبدي حكماً ولا يستخلص نتيجة من مقدمات بل تقتصر على تحصيل حكم الأصل في الفرع ، وهذا يقوم على ظن القائس على ان علة الحكم هي ما اعتبره هو كذلك هذا في الفقه ونجده في القياس النحوي وكذلك في قياس المتكلمين لكنهم يسمونه(الاستدلال) بالشاهد على الغائب.

ويطلق المتكلمون والفقهاءعليه اصطلاح(الاعتبار)[٤]. وكذلك لدى علماء الطبيعيات كابن الهيثم وابن النفيس[٥].

قال الدكتور الجابري: "القياس ، الاستدلال ، النظر ، الاعتبار ، أسماء لعملية ذهنية واحدة تقوم على تقدير شيء على مثال شيء آخر يجمع بينهما"[٦].

وقال: "ان الاستدلال في العلوم البيانية والاستدلالية واقع تحت وطأة إشكالية

---

(١) تاريخ النحو العربي :٢٩.

(٢) ينظر: المستصفى: ٢٣.

(٣) بنية العقل العربي: ١٣٨.

(٤) ينظر: المعتمد ١/ ٣٣٨ والكافيه في الجدل ٦٢، والمقدمات، ابن رشد ١٩.

(٥) بنية العقل العربي: ٢٤٤.

(٦) المصدر نفسه: ١٤٤.

واحدة ، إشكالية تدبير الأحكام"[١].

لكنهم نسبوا الى سيبويه تأثره بالمنطق الأرسطي لا الفقهي الإسلامي ، او منطق العربية إذ تصرف بالألفاظ والمعاني تصرّفاً منطقياً. وتقسيمه الكلام على اسم وفعل وحرف ، والجملة على الحسن والقبيح والجواز والوجوب والتناقض. وصنّف الكلام على: مستقيم حسن ومحال مستقيم كذب ومستقيم قبيح وما هو محال كذب.

ومن ذلك المقارنة بين المشتقات التي قال بها النحاة وبين مقولات أرسطو ، وطابقوا بينهما[٢].

وفرّق بعض الباحثين المعاصرين[٣] بين القياس النحوي المعول عليه في بناء اللغة وارتقائها ، وبين القياس الذي يراد به "الاستدلال الذهني لاستنباط القواعد وتعليقها فان في الغلو فيه بعداً عن خصائص اللغة ونأياً عن طبيعتهما ، لذلك ان في تحكم المقاييس العقلية في كثير من مسائل النحو تضييق واسع ، يمنع سائغاً. بل يحضر صحيحاً فصيحاً ، فطرائقهم العربية لا تقاس بمقاييس عقلية كما تقاس مسائل المنطق وقضايا الفلسفة وعلم الكلام ، وليس النحو قياساً كله" كما يذكر الكسائي وتبعه ابو البركات الانباري.

ومناظرة متّي بن يونس والسيرافي[٤] الذي رفض دعوى المناطقة والذي كان يقول: (النحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية ، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة).

وقال ابو حيان التوحيدي ، وهو الذي وضع هذه المناظرة: "مابين المنطق والنحو

---

(١) بنية العقل العربي :١٧٠ ولمزيد من تفصيل الفروق بين قياس النحو والمنطق والفقه وعلم الكلام، راجع المصدر نفسه ١٤٥ – ١٥٩.

(٢) المصدر نفسه ٤٥- ٥٠.

(٣) ينظر: القياس وصيغ المبالغة توطئة في القياس، صلاح الدين الزعبلاوي، مجلة التراث العربي ع ١١، س٣، سنة ١٩٨٣، ص١١.

(٤) وان كانت المناظرة من وضع ابي حيان التوحيدي كما اثبتنا ذلك في محاضراتنا على الدراسات العليا / الدكتوراه عام ٢٠٠٦ بأدلة كثيرة إلا ان ذلك لا يمنع من الاستشهاد بالاقوال التي وردت فيها. مادة (النحو والعلوم المجاورة) (مخطوط).

مناسبة" و"النحو منطق عربي والمنطق نحو عقلي ، وجل نظر المنطقي في المعاني وان كان لا يجوز له الإخلال بالألفاظ التي هي لها كالحلل والمعارض ، وجل نظر النحوي في الألفاظ وان كان لا يسوّغ له الإخلال بالمعاني التي هي لها كالحقائق والجواهر"(١).

اللغة منطق وعقل ، والنحو كذلك ، ولاسيما انّ العربية لها منطقها ونظامها المطّرد القياسي فلا عجب اذن ان نجد هذه التوافقات ولاسيما لدى المتأخرين كابن مالك والسعد والجزولي وغيرهم ممن جعلوها قوانين ومعايير. قال احد الباحثين المعاصرين ناقداً النحاة المتأخرين: "نقبّوا عن كل ما هو جائز في حيز الممكن دون الواقع والاستعمال النحويين"(٢).

انّ اللغة لا تصح دراستها إلا بمناهج اللغويين والنحويين المتقدمين ذلك انها تخضع لنظام خاص بها مرتبط بالأنظمة الأخرى: الاجتماعية والثقافية وغيرها ، ويمكن الاستفادة من المناهج والعلوم الأخرى كما اخذ النحاة القدامى من دراسات الأصوليين والفلاسفة والمناطقة وكذلك النحاة المعاصرون اسستفادوا من العلوم المعاصرة كعلوم النفس والاجتماع والرياضيات والعلوم الصرفة كالطب والفيزياء وغيرهما. ذلك ان الدلالة علم لا يختص باللغة وحدها بل بكل العلوم إلا ان علم اللغة أقربها اليه لذلك يشمل علم العلامات العام اللغة وغيرها من علوم عدّة. وليس الخلط بين العلوم مذموما بل هذا يؤدي الى الإبداع والتطور والابتكار من خلال مزج العلوم والاستفادة بعضها من بعض ، فان كل العلوم الحقة مصدرها واحد هو الله تعالى.

فالدكتور الجابري عند تناوله القياس والقضايا المنطقية والعقلية لدى النحاة واللغويين يبدع لكونه مختصاً ، أما القضايا اللغوية والبيانية فليس بالمستوى الذي تناول فيه القضايا العقلية المنطقية.

وهناك محاولات لدراسة اللغة والنحو في ضوء المناهج الرياضية والمنطقية قديمة

---

(١) المقابسات: ٦٧.

(٢) ينظر: خطى متعثرة ١٥٣، والخلاف النحوي في ضوء محاولات التيسير ٧٧.

وحديثة ، فنشأ احد فروع المعرفة حديثاً هو:

علـم اللغـة الرياضـي **Mathematical Linguistics** أخـذت بعـض الجامعـات بتدريسه والاهتمام به.

ومن المحاولات التي سعت الى تطبيقه على اللغة العربية كتاب(النحو المنطقي).

ومحاولة الدكتور ياسين خليل في بحثه: (منطق اللغة ، نظريات عامة في التحليل اللغوي)[1].

قدّم منهجاً جديداً في تحليل اللغـة مـن نواحيها المختلفـة مستعيناً بمبادئ المنطق الرياضي في وضع القوانين والمبادئ الأساسية التي تؤلف طبيعة اللغة الأساسية وتعالج التركيب العام للغة والمعاني المقترنة بالعبارات اللغوية. ثم حاول وضع قاعدة أساسية بوساطتها نشتق الظواهر اللغوية الرئيسة المتعلقة بـ(سنتاكس) **Syntax** وهو العلم الذي يدرس التركيب اللغوي او المنطقي للغة والسيمانطيقية **Semantics** وهو علم يهتم بدراسة المعنى والدلالات التي تقترن او تشير اليها العبارات اللغوية. والبراجماتية **Pragmatics** وهو العلم الذي يدرس علاقة الفرد المتكلم بالعبارات اللغوية.

والعلم الذي يضمها جميعها هو: (السيمطيقية) او(علم العلامات) **Semiotics** الذي يدرس من نواحيها المختلفة: التركيب والمعنى والدلالة ، وصلة الفرد باللغة ، لذا يجب وضع قاعدة عامة تشمل القوانين الرئيسة المكونة لكل لغة.

ومهما يكن من محاولات لإخضاع اللغة الى المناهج العقلية المنطقية ،فلا تُدرس اللغة إلا بمناهج اللغويين ومن ثم يمكن الاستفادة من العلوم الأخرى ومناهجها.

ان المنطق العقلي ينأى عن الواقع الاستعمالي للغة ، ولابدّ للمتصدي لدراسة اللغة من التمييز بين منطقها والمنطق العقلي العام بل هذا يختلف عن الواقع في احايين كثيرة. وفي هذا حكمة من الله تعالى ومغزى ذلك ان المنطق اتخذته بعض الأمم ديناً او بديلاً من الدين والشريعة السماوية وقد اتكأ عليه الملحدون وأعداء الإسلام وحاولوا نشره بديلاً من الشريعة الإسلامية في بعض حقب التاريخ ، لذلك

---

(١) مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع ٥، نيسان ١٩٦٢ ص ٣١٥- ٣٤٣.

نجد كثيراً من الفرق الإسلامية والفقهاء والأصوليين[1] يرفضون المنطق الأرسطي اليوناني الذي يتعبّد العقل وبعضهم حرّمه وفي ذلك خلافات ، ونجد في التاريخ نكبات لأهله كثيرة كنكبة ابن رشد.

وما يزال من المعاصرين مَنْ يرفض الفلسفة والمنطق ويهمشهما ، قال احد الباحثين المعاصرين الذين عملوا في الجامعات المختلفة في دول الخليج والمملكة العربية السعودية ، والكويت وسلطنة عمان والبحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة ، ان هذه الجامعات ترفض دراسة الفلسفة والمنطق وتهمشهما.

وصف بعض الأكاديميين الرافضين للمنطق الأرسطي بأن الذين يدعون الى المنطق يجهلون "مكانة الإسلام وعلومه اليقينية والتي هدى الله إليه الفريق الحق المقابل لهؤلاء المفتونين بالمنطق"[2] ورأوا ذلك باطلاً وفساداً فكرياً لذا حذر أهل الحق من العلماء من المنطق وحرّموا الاشتغال به كالشيخ ابن تيمية[3].

وخلص البحث الى أن رأي المانعين يستند الى استغناء المسلمين بكتاب ربهم عزّ وجلّ وسنّة نبيّهم صلى الله عليه وآله وسلم عن منطق اليونان.

لقد أدرك الفلاسفة العرب الفرق بين المنطق والنحو(النحو اللغوي والنحو العقلي). يرى الفارابي ان صناعة المنطق تناسب صناعة النحو ، ذلك ان قوانين النحو في الألفاظ وقوانين المنطق نفسها في المعقولات[4]. ورأى ان السيرافي قد فعل حماقة او جاء منكراً عندما فصل بين النحو والمنطق[5].

و"هذا التمييز هو طريدة دريدا في عصرنا التي تصّيدها عند أفلاطون وعند

---

(١) ينظر: ادب الكاتب ٢١، الرد على المنطقيين ٧٣.

(٢) محنة الفلسفة وازمة العلوم الانسانية في الجامعات الخليجية، دراسة تطبيقية في فلسفة العلوم، سعد توفيق، مجلة نزوى، ع ٤ ص٤٤- ٥٢.

(٣) نقد ابن تيمية للقياس المنطقي، د. ابتسام احمد جمال، مجلة ام القرى ج٥، ع٢٦، صفر ١٤٢٤ ص ٥٤١.

(٤) ينظر: احصاء العلوم ٥٤.

(٥) التنبيه على السعادة ١٢.

اللغويين من بعده ، قال دريدا: "وإذا جردنا مفردة النحو من الانتماء الى لغة بعينها فإننا سنرى ان النحو هو البنية التي تحكم المنطق عموماً وتحكم قواعد لغة معينة ، بل حسب المرء ان ينظر في آليات المنطق الأرسطي او المقولات ليدرك انها لا تعالج غير البنية النحوية القواعدية"[١].

القياس:

اهم مبحث يؤسس عليه علما النحو والمنطق هو القياس فهوباب مشترك بينهما لذا تأثر النحاة ولا سيما المتأخرون منهم بالقياس المنطقي ومزجوا بين القياس النحوي والقياس العقلي المنطقي.

وقد رفض كثير من الفقهاء القياس وأبطلوه واخذوا مآخذ على الذين يؤيدونه ويقرونه كأبي حنيفة النعمان الذي يعد كبير المؤيدين للقياس ، والمعتزلة والأشاعرة والمتكلمين وغيرهم. وينقل السيوطي أراء الفقهاء في ردّهم على الإمام الشافعي في قوله بالقياس[٢].

وأبرز المعارضين داود بن خلف مؤسس المذهب الظاهري. فكان بين المذهب الظاهري وبين المذاهب: الشافعية والحنفية والمالكية صراع لأخذهم بالقياس[٣].

وفي المغرب ابن حزم الظاهري الذي أبطل القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل[٤] ، يرى ان القياس "بدعة حدثت في القرن الثاني ثم فشا وظهر في القرن الثالث وعدّه باطلاً ، لأن الدين كله منصوص عليه ، ولا علة لشيء من أحكام الله تعالى"[٥].

وتبعه ابن مضاء القرطبي الظاهري ، إلا انه لم يبطله[٦] ، لكنه حمل على أقيسة النحاة المشارقة ، وهي رؤية مذهبه الظاهري طبّقها ابن مضاء على النحو ، وقد تبعه

---

(١) دليل الناقد العربي ١٦٩.

(٢) المزهر ١/٦٠.

(٣) ينظر: طبقات الشافعية ١/ ٤٥.

(٤) ينظر: ملخص ابطال القياس ٨ والاحكام في اصول الاحكام ٧ /١٧٧.

(٥) ملخص ابطال القياس ٧.

(٦) ينظر: الرد على النحاة ٣٨- ٤٣، ١٣٤- ١٣٧.

أصحاب التيسير النحوي المعاصرين[1] وغيرهم من الدارسين المتذمرين من القياس النحوي.

كان المعارضون للقياس من الفقهاء يحتجون بان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم(لم يقل برأي ولا قياس) ، والصحابة والتابعين–رضي الله عنهم- كقول ابن سيرين: "القياس شؤم ، وأول من قاس ، ابليس وإنما عبدت الشمس والقمر بالقياس"[2].

ان من أسباب رفض القياس لدى بعض اللغويين والنحاة القدامى مذاهبهم الفقهية والسياسية وتطبيقها على اللغة والنحو ذلك لارتباط اللغة بالشريعة الإسلامية المستنبطة من النص اللغوي (القرآن الكريم) وكان الفقهاء والأصوليون يرون اللغة العربية من الدين الإسلامي ، وان دين الله لا خلاف فيه مطرّد في أوامره ونواهيه ، وكذلك اللغة العربية ، التي هي جزء من الدين.

وممن تبع الفقهاء من اللغويين ابن فارس[3] ، دعا الى غلق باب القياس بعد انتهاء عصر الاستشهاد والرواية عن فصحاء العرب ، قال: "وليس لنا ان نخترع ، ولا نقول غير ما قالوه ولا نقيس قياساً لم يقيسوه ، لان في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها ، ونكتة الباب ان اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الآن نحن"[4].

ابن فارس لا يرفض القياس لكنه متأثر بأقوال الفقهاء المانعين للقياس ذلك انه يرى في معجمه(مقاييس اللغة) ان مقاييس العربية ونظامها وقفاً ، قال: "أجمع أهل العربية إلا من شذّ منهم – ان للغة العرب قياساً ، وان العرب تشتق بعض كلامها من بعض"[5].

---

(١) ينظر: الخلاف النحوي في ضوء محاولات التيسير، وظاهرة الشذوذ ٣٧، ودراسات لغوية، د. شاهين ١٠، والموازنة بين المفاهيم، مجلة اداب القاهرة مج٢٣، ١٩٦٢ ص٢٣.

(٢) ملخص ابطال القياس ٧٠.

(٣) ينظر: الصاحبي ٦٧ والمزهر ٣٤٦/١، والمعجم المفصل في فقه اللغة ٣٦.

(٤) الصاحبي ٦٧.

(٥) المصدر نفسه.

ومنهم ابو العلاء المعري الذي كان يضيق ذرعاً بأقيسة النحاة الذين (قوّلوا العرب ما لا يقولون) بأقيستهم[1] ، إلا أنه لم يرفض القياس انما كان يدعو الى التخفيف منه وهذا موقف التوسط من القياس الذي دعا اليه المعاصرون وأثنوا عليه ذلك ان "التوسط في القياس خير من المبالغة فيه بفتحه على مصراعيه ، وخير من سدّه الى الأبد ، إذ هو وسيلة من وسائل نمو اللغة وتطورها ورقيها"[2].

ان نصوصاً كثيرة فصيحة بليغة تتقاطع مع المنطق والقياس العقلي المنطقي ، وفي النص القرآني ترد ألفاظ وتراكيب بل دلالات تبدو غير متفقة مع المنطق العقلي او متقاطعة مع قواعد النحو ومقاييسه المتفق عليها.

وهذا يعرفه أهل المنطق أكثر من غيرهم فابن رشد الفيلسوف المنطقي الذي عالج النحو بمنهج منطقي في كتابه: (الضروري في صناعة النحو)[3]. أخذ على النحاة قياس المجهول على المعلوم ، لكنه لم يرفض نظرية العامل.

قال محقق الكتاب وواصفه: "هذا دليل على ان ابن رشد كان يذهب مذهب الرافضين للقياس في علم النحو"[4].

ولا ننسى انه كان يعيش في ظل دولة الموحدين الظاهرية التي يرفض فقهاؤها القياس كابن حزم وابن مضاء القرطبي. والغريب انهم لا يرفضون المنطق فقد الفوا فيه. قال الدكتور سعيد الأفغاني محقق كتاب(ملخص إبطال القياس) "ابن حزم منطقي الى ابعد حدود المنطقية"[5] ولا يرى في ذلك تعارضاً بل انسجاماً. ذلك انه أبطل المنطق في التشريع ، وان المنطق نفسه ساعده على ذلك وعلى التحليل وكذلك إبطاله للتعليل. قال: "ليس في الشرائع علة أصلاً"[6]. فردّ العلل وعدّها فاسدة متوهمة.

---

(١) ينظر: المهرجان الألفي لذكرى ابي العلاء ٣٦٨، والمعري والنحو ٧٦.

(٢) فقه اللغة العربية٢٧٥.

(٣) ينظر: اكتشاف مخطوط مفقود لابن رشد، سيدي ولد مناه ص٧.

(٤) المصدر نفسه: ٧.

(٥) مقدمة تحقيق: (ملخص أبطال القياس)١٠.

(٦) التقريب لحد المنطق ١٦٧.

ولا اعرف كيف يلغي الشيء بالشيء نفسه هذا ينافي المنطق. قال الأفغاني: "وحسبك هذا بياناً في التزامه حدود المنطق وإخلاصه وغوصه في دقائقه بفهم وأمانة ، فهو لا يستخفه اتحاد النتائج اذا اختلفت المقدمات ولا يرضَ إلا بالضبط فيها كليهما"[1].

ويبدو هذا سبب اتفاق ابن رشد مع ابن مضاء القرطبي في ردّ القياس ، وربما كانت دعوتهما سياسية توافق السلطة آنذاك ، لذلك لم تلق هذه الدعوة قبولاً لتناقضها مع المذاهب الإسلامية الأخرى.

لقد دافع ابن رشد عن نفسه وردّ من يرى انه خلط بين النحو والمنطق اليوناني ، وخرج عن طريقة النحاة ذلك ان النحو يعصم النطق عن الخطأ في الألفاظ كما هو الحال في علم المنطق الذي هو آلة تعصم الذهن عن الخطأ في الفكر[2].

النحو إذن ليس قياساً كله ، ونظام العربية ليس نظاماً عقلياً صرفاً فالسماع او الاستعمال الفصيح يخالف المنطق والعقل كثيراً. وبهذا لا يكون الخروج عن القياس النحوي شاذاً إلا عن القواعد العقلية المنطقية. وهذا فهم النحاة المتقدمين للشذوذ النحوي او اللغوي فقد يكون فصيحاً لكنه ليس مطرداً مع القياس النحوي.

قال ابن جني: "معاذ الله ان ندّعي ان جميع اللغة تستدرك بالأدلة قياساً"[3] وأحد اقسام اللغة التي ذكرها تدل على ذلك وهو(الشاذ في القياس المطّرد في الاستعمال) وهو كثير وقد ساق شواهد لغوية فصيحة مطّردة في الاستعمال اللغوي.

وقول النحاة المتقدمين خاصة بما سموّه بـ(القياس المتروك او المهجور)[4] من ذلك قولهم: "ربما جاء في الشعر ثلاث مئات واربع مئات ونحوهما مضافاً الى الجمع على القياس المتروك"[5]. قال سيبويه: "واما ثلثمائة الى تسعمائة فكان ينبغي ان تكون في

---

(١) مقدمة تحقيق: (ملخص أبطال القياس) ١٢.

(٢) اكتشاف مخطوط مفقود لابن رشد ٩.

(٣) الخصائص ٢/ ٤٤.

(٤) ينظر: الايضاح العضدي ١/ ٢٨.

(٥) معاني الأخفش ١/ ٢٦١، ١/ ٧٧ وينظر: معاني الفراء ٣/ ٢٥٦، وابن يعيش ٦/ ٢١.

القياس مئين او مئات"[1].

ومن أحكام المقيس عليه: (ألا يكون شاذاً في الاستعمال مطّرداً في القياس) قال ابن جني: "فان كان كذلك فاستعمل من هذا ما استعملت العرب وأجز منه ما أجازوا"[2] وإلا "تحاميت ما قالت العرب من ذلك وجريت في نظيره على الواجب في أمثاله"[3] نحو: (كان زيدٌ يقوم)، و(أقائم أخواك أم قاعدهما) إلا ان العرب لا تقوله لأنه قليل شاذ في الاستعمال انما تقول: (أقائم اخواك ام قاعدان) فتصل الضمير والقياس يتوجب فصله ليعادل الجملة الأولى[4]، ولا يقال: (عسيت اخانا)[5]، ولا (أعسى زيد قائماً او قياماً) فهذا هو القياس غير ان السماع ورد بغيره[6]. وعقد ابن جني في الخصائص باباً سمّاه: (امتناع العرب من كلام بما يجوز في القياس)[7].

فالقياس النحوي هو الاستعمال وليس المنطق العقلي الرياضي، والاستعمال العربي يخضع لنظام العربية ومن نظامها: حمل الكلام بعضه على بعض او حمل المعنى بعضه على بعض. قال الأخفش الأوسط: "وأما قوله تعالى(واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة)(البقرة ٤٥) فلأنه حمل الكلام على الصلاة، وهذا الكلام منه ما يحمل على الأول ومنه ما يحمل على الآخر"، وفي قوله تعالى: (والله ورسوله أحق أن يرضوه)(التوبة ٦٢) "فهذا يجوز على الأول والآخر أقيس، هذا اذا كان بالواو ان يحمل عليهما جميعاً "[8].

ان قياس أهل اللغة أسلم من قياس النحويين الذين أجازوا مثلاً: (أعطاكني).

---

(١) الكتاب: ١/ ٢٩ وينظر: ١/ ٥٠، ٤٣٦، ٢/٢١، ٥١، ٦٩، ٨٢، ٤٠٤.

(٢) نفسه: ١/٤١٤.

(٣) الخصائص: ١/ ٣٩.

(٤) نفسه: ١/ ١٠٠.

(٥) كتاب سيبويه: ١/ ٥١.

(٦) الخصائص: ١/ ٩٧.

(٧) نفسه: ١/ ٣٩١.

(٨) معاني القرآن: ١/ ٨١، ٢/ ١٢٧ ن وينظر أمثلة اخرى، المقتضب ٢/ ١٩٣، ٢٤٤، ٢٥٥، وشرح القصائد السبع الطوال.

قال سيبويه: "إلا انه قبيح ، لا تكلم به العرب ، ولكن النحاة قاسوه لكراهة المتكلم ان يبدأ بالأبعد قبل الأقرب"[١]. فاللغة ليست نظاماً هندسياً محكماً ولو كانت كذلك لتوقفت عن الحياة وخلت من الإبداع ، وما من لغة إلا وفيها فجوات و مخالفات ، أي اختيارات باصطلاح علم الأسلوب يسميه النحاة شذوذاً او عدولاً عن القياس النحوي.

يقول باحث معاصر: "ليست اللغة منطقية دائماً ، هي كل ما يتألف من ذكاء وإرادة وحساسية وفي كثير من الأحيان نستطيع ان نلحظ فرقاً بين لغة العقل والمنطق ولغة الإرادة والرغبة ولغة الانفعال والحساسية"[٢].

لذلك فرّق البلاغيون بين الأسلوب الخبري ويدخل فيه لغة المنطق ، والأسلوب الإنشائي وهو لغة الإرادة والرغبة. وثمة تداخل بين لغة المنطق ولغة الانفعال ، وتتأثرالواحدة بالأخرى وتأخذ منها ، مثل قول من يرى حادثا فيرثي لحاله فيقول: (آه! المسكين) ، ومصادفة صديق لم يتوقع لقاءه فيقول: (أنت هنا؟) ، وهذه الجملة ذات قيمة انفعالية فاذا صيغت في لغة المنطق الجدلية صارت: (أرثي لهذا المسكين) او (يدهشني أراك هنا).

وكذلك بين قولنا: "(يا عبد الله) و(أدعو عبد الله) ، الأولى أسلوب إرادة ورغبة ، والأخرى أسلوب عقل ومنطق كما تختلط اللغتان في الندبة والاستغاثة"[٣].

وقال أيضاً: "توشك لغة المحادثة ان تكون لغة انفعالية كما ان اللغة المكتوبة اقرب الى اللغة المنطقية"[٤].

والشواهد على ذلك في اللغة كثيرة ، ولاسيما في المطابقة من حيث الإفراد والتثنية والجمع ، او التذكير والتأنيث ، او التعريف والتنكير ، وكذلك في ظواهر لغوية كثيرة مثل الحمل على المعنى والالتفات والتناوب والتغليب وغيرها. وقد ورد منه في

---

(١) كتاب سيبويه: ١/ ٣٨٣.

(٢) مدخل الى دراسة النحو، عابدين ٥٩- ٦٠.

(٣) المصدر نفسه ٦٢، وينظر: اللغة، فندريس ٨٣، ١٩٢.

(٤) مدخل الى دراسة النحو ٦٢.

النص القرآني كثيراً في ضوء نظام لغة القرآن الذي يبنى على المشابهة وتعلّق الكلام بعضه برقاب بعض لحكمة او لغرض دلالي وان بدا مخالفاً للقياس النحوي والمنطق العقلي لكنه يرد في ضوء نظام لغة القرآن ومنطقه وقد سميناه: العدول النظامي[1].

يرى الدكتور إبراهيم انيس ذلك بأنها ظواهر مشتركة بين لغات العالم وعادات مرتبطة بالفكر الإنساني للارتباط بين لغات البشر والمنطق ، ثم حدّد الأمور العقلية المشتركة بين لغات البشر ، وهي من المنطق العقلي العام. وتناول الأفراد والجمع ، والتذكير والتأنيث وزمن الفعل ، والنفي إلا انه فسّر ذلك تفسيراً تاريخياً بحسب المنهج المقارن بين اللغات السامية واللغة العربية الحديثة ، قال: "النفي في اللغات (رغم) انه معنى عقلي مشترك بين جميع العقول عبرت عنه اللغات بسبل وأساليب لا تطابق دائماً الأساليب المنطقية او الرياضية"[2] كظاهرة التضاد الذي يشبه التناقض والمغالطة لدى المناطقة لكنها بمنطق اللغة مقبولة.

وفي اللغة نفي ضمني نحو: (لو لي مالٌ...) ولا يعدّ ذلك نفياً إلا بأداة ، المنطقي يعده نفي النفي لدى اللغة تأكيد النفي والمنطقي إثبات[3].

وأخذ على النحاة قواعدهم المنطقية ، ولاسيما ربطهم الصيغة الزمنية ببنية الفعل وفي العربية الزمن في أوسع من ذلك كأن تسبق الفعل ادوات نحو: سين وسوف وما النافية والمصدر وغير ذلك[4]

وفي التذكير والتأنيث وعدم مطابقتهما قال: "ان فكرة التأنيث والتذكير قد اختلطت بعناصر لا تمت للمنطق العقلي بسبب لذا نرى النحاة من العرب يقسّمون التأنيث الى مؤنث حقيقي ومؤنث مجازي ولكل منهما أحكامه النحوية ، نحو: المرأة الكاعب ، والمرضع[5] والعاجز... وفي النص القرآني شواهد كثيرة من ذلك:

---

(١) ينظر: العدول عن النظام التركيبي في لغة القرآن الكريم (اطروحة دكتوراه ثانية).

(٢) من اسرار اللغة ١٧٦.

(٣) المصدر نفسه: ١٧٩.

(٤) المصدر نفسه: ١٧٠- ١٧١.

(٥) المصدر نفسه: ١٥٨.

قال تعالى: (السماء منفطر به) {البقرة ٢٧٥}
وقوله تعالى: (لنحي به بلدة ميتاً) {الفرقان ٤٩}
وقوله تعالى: (وأخذ الذين ظلموا الصيحة) {هود ٦٧}
وقوله تعالى: (فضلت أعناقهم لها خاضعين) {الشعراء ٤}

وثمة ممازجة بين الجمع اللغوي والجمع المنطقي ذلك ان اللغات تسلك مسالك متعددة في علاج التثنية والجمع. ويرى خروج صيغ الجمع عن دلالتها كجمع القلة للكثرة ، وجمع الجمع لم تكن من الظواهر الملتزمة في العربية لكن النحاة ذكروا ذلك[1].

ومن دلائل خروج الظواهر اللغوية عن المنطق العقلي العلاقة بين العدد والمصدر في العربية ، من ثلاثة الى عشرة.

ونحو الجمع وإرادة المثنى وعكسه والواحد وإرادة المثنى وعكسه وتقليباتها نحو قوله تعالى: (هل آتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب){ص ١} و(قالتا آتينا طائعين) {فصلت ١١} ، (قال فمن ربكما يا موسى) {طه ٤٩} و(ألقيا في جهنم كلّ كفّار عنيد) {ق ٢٤} قالوا: المراد (مالك) خازن النار وقال الفراء: الخطاب لخزنة النار والزبانية وهذا من سنن العرب في مخاطباتها[2].

فاللغة لا تسلك في علاجها (إذن) الإفراد والتثنية ، والجمع وغيرها من ظواهر اللغة مسلكاً منطقياً. ذلك ان منطق اللغة ينأى عن المنطق العقلي وان تأثر احدهما بالاخر.

---

(١) ينظر: الصاحبي ٢١٩، ٢١٠، والبرهان ٢/ ٤١٧.
(٢) نفسه.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي، تح: د. احمد الحمصي ود. محمد احمد قاسم، ط١، جروس برس ١٩٨٨.
- اكتشاف مخطوط مفقود لابن رشد، سيدي ولد مناه، شبكة الاتصالات العالمية، موقع الدكتور محمد عابد الجابري ٢٠٠٧.
- الإنصاف في مسائل الخلاف، ابو البركات الانباري، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤، دار التراث العربي ١٩٩١.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، تح: محمد ابو الفضل ابراهيم، (د.ت)
- تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، د. محمد ولد اباه المختار، ط١، دار التقريب، بيروت ٢٠٠١.
- التنبيه على سبيل السعادة، الفارابي، تح: جعفر آل ياسين، دار المناهل، بيروت ١٩٨٥.
- الخصائص، ابن جني، تح: محمند علي النجار، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٨٥.
- صون المنطق والكلام، السيوطي، تح: علي سامي النشار، مكتبة الخانجي، (د.ت).
- خطى متعثرة على طريق تجديد النحو العربي، د. عفيف دمشقية، دار العلم للملايين ١٩٨٠.
- الخلاف النحوي في ضوء محاولات التيسير الحديثة (اطروحة)، د. حسن منديل، الجامعة المستنصرية، آداب ١٩٩٦.
- دليل الناقد الأدبي، ميحان الرويلي، د. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، بيروت (د.ت)
- الرد على المنطقيين، الشيخ ابن تيمية، دار المعرفة، بيروت (د.ت)
- الرد على النحاة، ابن مضاء القرطبي، تح: د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر (د.ت)
- شرح المفصل، ابن يعيش (٦٤٣هـ)، مطبعة عالم الكتب، (د.ت)
- الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، تح: السيد احمد صقر، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، (د.ت)
- ظاهرة الشذوذ في النحو العربي، د. فتحي الدجني، دار ن والقلم، بيروت ١٩٧٤.

- العدول عن النظام التركيبي في اسلوب القرآن الكريم (اطروحة دكتوراه ثانية) د. حسن منديل، جامعة بغداد ٢٠٠٨.
- في أصول النحو، د. سعيد الأفغاني، ط٢، مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٧.
- القياس النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة، محمد عاشور السويح، الدار الجماهيرية للنشر، مصراتة، دار الكتب الوطنية، بنغازي ١٩٨٦.
- القياس وصيغ المبالغة توطئة في القياس، صلاح الدين الزعبلاوي، مجلة التراث العربي، ع ١١، س ٣، ١٩٨٣، ص١١.
- الكافية في الجدل، امام الحرمين الجونيي، تح: فوزية حسين، البابي الحلبي، القاهرة ١٩٧٩.
- الكتاب، سيبويه(١٨٠هـ)، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخاجي، القاهرة ١٩٨٨.
- اللغة، فندريس، ترجمة عبد الحميد الدواحلي ومحمد القصاص، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٠.
- اللغة والإبداع، شكري محمد عياد، ط١، بيروت ١٩٨٨.
- لمع الأدلة في اصول النحو، ابو البركات الانباري، تح: سعيد الافغاني، دار الفكر، بيروت ١٩٧١.
- محنة الفلسفة وأزمة العلوم الإنسانية في الجامعات الخليجية، دراسة تطبيقية في فلسفة العلوم، سعد توفيق، مجلة نزوى، ع ٤٤- ٥٢.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، تح: محمد جاد المولى وآخرون، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٧٨.
- المستصفى من علم الأصول، ابو حامد الغزالي، ط١، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، (د.ت)
- معاني القرآن، ابو زكريا الفراء، تح: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والنشر، (د.ت)
- معاني القرآن، الأخفش الأوسط، تح: فائز طه ،ط٢، الشركة الكويتية ١٩٨١.
- المقتضب، ابو العباس المبرد، تح: محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).
- ملخص أبطال القياس، ابن حزم الظاهري، تح: سعيد الأفغاني، بيروت ١٩٧٣.
- من أسرار اللغة، د. ابراهيم انيس، ط٦، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨.
- منطق اللغة، نظريات عامة في التحليل اللغوي، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع ٥، نيسان ١٩٦٢، ص٣١٥- ٣٤٣.
- الموازنة بين المناهج، د. احمد مكي الأنصاري، مجلة آداب القاهرة، مج ٢٣، ١٩٦٢، ص ٢٣.
- نقد ابن تيمية للقياس المنطقي، د. ابتسام احمد جمال، مجلة ام القرى، ج٥، ع٢٦ ن صفر ١٤٢٤، ص ٥٤١.

اللسانيات التداولية
من التقابل الأسلوبي إلى التقابل الدلالي

أ.د.محمد رضا مبارك

كلية الإعلام / جامعة بغداد

- **مقاربة في المفاهيم:**

ظهرت أهمية اللسانيات منذ القرن الماضي ، وسمي هذا العصر بعصر اللغة ، بسبب الثورة اللغوية في بدايات القرن العشرين وشيوع الدراسات الوصفية التزامنية ، وكذلك بسبب الارتباط الذي لا انفكاك له بين اللغة والإعلام. ويمكن مقاربة اللسانيات بالقول "العلم الذي يعتبر اللغة نسقا مستقلا متطورا. واللسانيات تدرس طبيعة اللغة وأصواتهاالملفوظةوأصواتها المسموعة وبناءها وقواعدها ، وللغة أهمية كبيرة في فهم الثقافة ، ذلك لان اي نظام لغوي ، تعبير عن إدراك جماعة من الجماعات لبيئتها ولنفسها ، لذلك لا يستطيع الباحث ان يفهم حضارة ما حق الفهم ، إذا كان يجهل وسيلتها اللغوية في التعبير"(١).

المقاربة السابقة لاتلغي ماكان قارا في الذاكرة اللغوية القديمة ، لكنه يضيف إليهاإضافةأساسية ، حين يربط اللغة بقوانين التطور ، وهذا يعني ان اللغة يمكن ان تقارن بالعلوم الاجتماعية من زاوية التطور والتغير. ولهذا فأن التداولية التي هي انبثاق

---

(١) سعيد يقطين وفيصل دراج. آفاق نقد عربي معاصر- دمشق نادي الفكر - ط١، ٢٠٠٣ ص٢١٠.

من اجتماعية اللغة ، أصبحت من المصطلحات الملازمة للسانيات ، وتقرن اللسانيات بالتداول لتأكيد دورها الاجتماعي ، والمقصود تحديدا دورها في التغيير الاجتماعي ، فهي "دراسة اللغة من حيث علاقتها بمستخدميها انها تعنى بالمعنى ، بصناعة المعنى في التواصل وليس بالمعنى من حيث هو علاقات في المنظومات اللغوية المجردة البعيدة عن التواصل الفعلي(....) وعلى وجه الخصوص طورت التداولية منظورات حول اللغة مصدرها فلسفة الالسنية ومنها الأفعال الكلامية ومقتضيات الكلام والتضمين السياقي"[١].

بيد ان التمعن في المقولات السابقة ، لا يمكن ان ينفي كل الصيغ واستعمال الماضي للغة ، انطلاقا من القول ان تلك الاستعمالات أو الصيغ كانت قد وضعت لوصف التراكيب الجاهزة لان الاستعمال هو الحركة والديمومة والصيرورة وعدم التوقف ، اي ان عدم التلاؤم بين التاريخ واللغة ليس مطلقا إذ ان السؤال: هل يمكن للحاضر ان يستوعب جزءا من الاستعمال القديم؟ اليست اللغة سابقا قد وضعت للاستعمال أيضا وليس للوصف الجاهز للنصوص؟ غير ان التداولية ترتبط ارتباطا قويا بما بعد الحداثة **post modern** هذا المصطلح الذي اخذ يشيع شيئا فشيئا في الأوساط الثقافية والأدبيةوالإعلامية ، وأصبحت كالشعار ، بل هي اقرب إلى ماقاله (رامبو) تلميذ الشاعر الرجيم(بودلير) في نهايات القرن التاسع عشر (لا شئ ، لا شئ) انها حقا ليست العدمية ، بل هي تلخيص لفلسفة جديدة بعد ان أفل عصر الحداثة بكل قفزاته العلمية ونبوءاته ، وربما أيضاإشكالاته الكثيرة. ويطيب للبعض وصف المصطلح بالقول: "ان فلسفات مابعد الحداثة ظهرت بعد ظهور وسقوط الفلسفة البنيوية ، وهي تحمل رؤية فلسفية عامة ، ويجب ملاحظة ان اصطلاح ما بعد الحداثة في عالم الهندسة المعمارية يختلف من بعض الوجوه عن معناه في مجال النقد الأدبيأو العلوم الاجتماعية.."[٢].

---

(١) نورمان فاركلوف. تحليل الخطاب – المنظمة العربية للترجمة – بيروت ٢٠٠٩، ص٣٩٨.

(٢) سعيد يقطين. سابق ص٢٢٤.

وبهذا فأن المشروع الغربي مر بثلاث مراحل ، مرحلة التحديث ومرحلة الحداثة ، ومرحلة مابعد الحداثة ، كل مرحلة كانت أساسا لبناء المرحلة التي تليها ، فما بعد الحداثة ليس إلا انبثاقا تراكميا مما سبق ، وليس طفرة وراثية كما يتوهم ذلك ، على الرغم من التطور في وسائل الاتصال والثورة المعلوماتية الهائلة.. غير ان مايربطنا ببعد الحداثة في هذا الوقت ، هو رؤيتها للغة في عالم أهم صفاته انه متغير.. يرى فلاسفة مابعد الحداثة "ان اللغة ليست أداة لمعرفة الحقيقة إنما هي أداة إنتاجها ، فثمة أسبقية للغة على الواقع لذا كان النموذج المهيمن هنا هو النموذج اللغوي"[١].

ومما يدعو للتساؤل في إطار ذلك ، ان بعض مقولات مابعد الحداثة تعود من جديد إلى المرحلة السابقة ، فقد كان كلود ليفي شتراوس وهو من أهم البنيويين ، قد أشارإلى ان اللسانيات سوف تصبح جسرا حقيقيا امام باقي العلوم الإنسانية بجميع فروعها "حتى أصبح من فضول القول لدى ذوي العلم ان يتحدث اليوم عن منزلة اللسانيات ووجاهة شأنها ، فلو فعل لكان شأنه لديهم شأن من ينوه بالرياضيات الحديثة بين أهل العلوم الدقيقة أو شأن من يمتدح قيمة التحاليل العضوية وكشوف الأشعة في حقل العلوم الطبية."[٢].

يشير ذلك بوضوح ، إلى ان ما بعد الحداثة لما تزل تلتقي بعصر الحداثة ، بكثير من الطرح العلمي والفلسفي ، فمقولات كلود ليفي شتراوس ، لقاء وطيد بين هذين العصرين ، كما ان هناك ظلالا من الشكلانيين الروس ، لما تزل تذر قرنها فيما بعد الحداثة ، واللقاء المشترك بينهما: (ضياع المعنى وتشتت الدلالة) فالمعنى ليس صورة ثابتة بل هو دائما ناقص غير مكتمل وربما متشتت ، وهو مايقترب من الرؤية الجديدة.. "مابعد الحداثة هو عالم صيرورة كاملة ، كل الأمور فيه متغيرة ، ولذا لا يمكن ان يوجد فيه هدف وغاية ، وقد حلت مابعد الحداثة مشكلة غياب الهدف والغاية والمعنى بقبول التبعثر وقبلت التغير الكامل والدائم"[٣].

---

(١) سعيد يقطين. سابق ص٢٢٥.

(٢) حافيظ إسماعيل علوي، نحن واللسانيات، بحث في اشكالات التلقي، ص٨٣.

(٣) سعيد يقطين. سابق ص٢٢٦.

وككل مفاهيم عصرنا ، فاننا لابد ان نقع في تناقض بين التداولية التي تعنى عناية خاصة بالمعنى وما بعد الحداثة ، غير ان التناقض يمكن ان ينظر إليه من زاوية أخرى ، فحين نقول ان التداولية مهتمة بالمعنى ، فالمقصود انها تنظر إلى المعنى في عمق الرؤية الاجتماعية ، اي درجة فاعلية النص في التواصل الاجتماعي ، وفي هذا السياق فأن التداولية التي تقف على رأس منجزات العصر اللساني ، مرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم اللغة وبالجانب السيميائي منه. "فليس النص وحده هو ما يجب ان يتوقف عنده(...) بل يتجاوز ذلك إلى النظام والنسق اللذين طالما وقفت ازاءهما نظرية النص لتسهيل المجال التواصلي وهو ما يعبر عنه (ايكو) في حديثه عن التداولية بانها نظام من الإمكانات يتجاوز تكافؤ احتمال النظام في اصله ليسهل مجاله التواصلي ، اي انه يستخدم عنصرا في نظام يوظفه ليرمز في مستوى اخر للدلالة غير التي كانت له في نظامه الأصلي"[١].

وإذا نقلنا ذلك خارج صيغته الرمزية الضيقة فأن التداول هو حوار بين اطراف عملية التخاطب ، هو القبول والرفض في ان ، اي ان الاتصال أصبح حوارا بين طرفين أو اطراف وليس نقلا لرسالة من طرف إلى طرف اخر ، ويمكن القول "ان التداولية هي ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع ، بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محددة للتأثير في بعضهما ، لذا الاسلوبية والتداولية تتفقان في اعتمادهما على اللغة أداة لممارسة الفعل على المتلقي ، على أساس ان النص اللغوي في جملته إنما هو نص وموقف ، لايرتبط بالتعديلات التي يفرضها أشخاص المرسل والمتلقي وموقعها على معناه فحسب ، بل بالتعديلات التي تحدث في سلوكهما أيضا"[٢].

وانطلاقا من نسبية هذه المفاهيم ، فأن المستعمل للغة ، في العصر الحديث ، ينظر الى هذه المفاهيم ، وكأنها مقدمات فلسفية نظرية أكثر منها مناهج عمل ، لا سيما وان اللغويين العرب لم يكترثوا كثيرا للسانيات ولم يمنحوها اهتماما ، واذ أهملت

---

(١) محمد رضا مبارك. مجلة الاداب٢٠٠٨، العدد ٨٥.

(٢) نفسه.

اللسانيات فقد اهملت الحلقات المرتبطة بها ، مثل سيمياء اللغة وتداوليتها. ولعلها خسارة كبيرة حين لم نعرض منطقنا اللغوي الذي نحن بحاجة شديدة الى تجديده على الفكر العالمي ، إذأصبح التفكير اللغوي الجديد منطق العالم لا منطق أوربا الغربية فقط ، ومن الحيف ان نتصور ان التطور اللساني هو منطق الغرب ، انه منطق الغرب والشرق أيضا ويمكن لنا ان نصف الخسارة التي جابهناها بالقول "ان تحديث الثقافة العربية لا يمكن ان يكون إلا في ظل حوار بناء ، بعيدا عن كل اشكال الصراع مع النفس الذي تأخذ صورة صراع مع الغرب ، اننا نتساءل هنا: هل تتعارض اللسانيات مع التراث اللغوي العربي؟ وهل الغرب واحد متوحد؟ ومن ثم نقول ان اللسانيات تستمد أهدافها وتوجهاتها من مخططاته ، وهل كانت المعرفة اللسانية في مراحل تشكلها الأولى قائمة على خدمة المصالح الغربية (الاستعمارية) كما يعتقد ، يشير احد الباحثين وهو علي اومليل الى ذلك بقوله: كثيرا ما تطرح مسألة التراث طرحا يقوم على العاطفية والمغالطة"[١].

على هذا الأساس تبدو قضية الأسلوب ، خارج التفكير اللساني ، الجديد ، لان الأسلوب يتوقف عند الجملة لكن المطلوب هو النص أو تتابع الجمل ، ومع ان هذه مواضعة يقف عندها كثيرا لسانيو النص ، فان التوقف عند أسلوبية الجملة لا يلغي النص ، عند ذاك لا يكون النص أسلوبا بل تتابع لجمل متعددة ، فأساس الفعل الكلامي هو النصوص وليس الجمل. لكن صحة الجملة أساس لصحة النص ، فالنص هو تتابع لجمل صحيحة ، يبقى اذن للأسلوبأهمية في هذا الإطار الحجاجي ، والجديد هو ان النصوص ، بمختلف أنواعها ، هي في المحصلة النهائية نتيجة ترابط الجمل ، فالمعنى المتكامل لا تعطية الجملة ، الجملة دليل على صحة جزئية والمطلوب صحة كلية متعلقه بالنص ، وغني عن القول ان المفردة يجب ان تأتي في سياق جملي صحيح عن طريق علاقاتها بالمفردات داخل الجملة ، فسهولة المفردة

---

(١) حافيظ إسماعيل علوي. سابق ص١١٤، ينظر علي او مليل، في التراث والتجاوز. بيروت (المركز الثقافي العربي) ١٩٩٠، ص١٥.

وسلاستها هو أمر مهم في الجمل ، وكذلك علاقتها بالمفردات داخل الجملة الواحدة ، لكن الأكثر أهمية كيف يمكن ان نصل الى نحو النص؟ الى المعنى الكلي الذي يغير في المواقف ويغير في السلوك وهذا يعني استحضار الأخر في الثقافة الوطنية واستحضار الثقافات المتنوعة اي الأخر في الثقافات الإنسانية ، إذ كلما أصبح النص تداوليا زاد قبوله لدى الأخر ، أصبح بامتياز نصا ثقافيا يحاور الأخر ولا يقصيه ، ومن هنا فان تداولية النص هي قدرته على الحوار ، وإظهار عدم تقاطع الثقافات بل تكاملها. فأنت تحاور الأخر اي تجلبه الى صفك وان كنتما مختلفين.. وبهذا المعنى فان(النفعية) هي حدث اجتماعي سلوكي ، يشف عن طريق النصوص.

ومن هنا يمكن إيجاد فهم عربي للتداول مستقى من البعد العالمي ، في ظل تراكمية معرفية ، يضاف اليها تراكم في الذاكرة العربية ، والعرب أكثرالأقوام اهتماما بلغتهم ، ولا يضر بعد ذلك ضياع الدلالة وضعف المعاني ، إذ ان المشكلة ليس في المعاني المتعددة للنصوص ، بل المشكلة هي في المعنى الواحد والوحيد. لان النفع يتحقق في نوع من الدلالة تكون لصالح التغيير وتقبل به. وان عنف اللغة المرتبط بالسلوك يأتي من هذا المعنى ، الذي يتربع على العرش ويزيح كل المعاني. فإذا كانت التداولية مجتمعية في أصلها ، وحوارية فأن اهم نفع فيها هو تغليب الفهم (التواصلي) بين البشر ، اي لا يمكن لاي تواصل إلا ان يكون حواريا ، وإذا كان حواريا فهو يلغي عنف اللغة المرتبط بعنف السلوك ، وفي العنف ينقطع الحوار.

الالتباس الدلالي:

قد يطلق على الالتباس الدلالي التشويش الدلالي (**semantic noise**) ، والالتباس قريب من التشويش وكلاهما في معنى متقارب ، إما الدلالة فقد شاع استعمالها كثيرا في الآونةالأخيرة "يعرف بعضهم علم الدلالة بأنه دراسة المعنى ، أو العلم الذي يدرس المعنى أو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى أو ذلك الذي يدرس الشروط التي يجب توافرها في الرمز حتى يكون قادرا على حمل المعنى"[١].

---

(١) احمد مختار عمر. علم الدلالة، عالم الكتب - القاهرة، ص١١.

الالتباس الدلالي قديم قدم اللغة ، وكانت الجهود اللغوية القديمة مشغولة طوال الزمن القديم في كيفية إيصال المعنى ، لكن الأمر اخذ شكلا جديدا بعد حصول ثورتين مهمتين في عالمنا المعاصر ، الأولى الثورة اللغوية في بداية القرن الماضي ، والثاني الثورة الاتصالية التي رافقتها ثم تفجرت بعدها تفجرا كبيرا ، ويبدو لي ان ثورة اللغة التي فجرها دوسوسير ، قد مهدت لثورة الاتصال الحديثه ، واذ وسم هذا العصر بعصر الاتصال فهو ايضا العصر اللغوي. وفيما يتعلق بنا نحن العرب ، فأن ضخامة التراث العربي وارتباطه بقضايا ايديولوجية قومية ودينية اجل الى حد كبير الاهتمام ومن ثم الإفادة من المنجز اللساني العالمي الذي وطد أركانه منذ عقود ، والرأي القوي عند بعض اللغويين العرب ، هو ان ما لدينا يكفينا وان الانجاز اللغوي العربي هو اجل واسمى من ان يحاول احد المساس به أو العبث بمقولاته..

ولعل هذا المقترب ، اوجد موقفا اخر مضادا ، وهو قطع الصلة بين اللغة والموروث الضخم للأمة ، سواء أكان لغويا أو بلاغيا ، إذ ان الانشغال بهذا الموروث ابعد الصلة بين اللغة والواقع أو بين اللغة والمجتمع ، ويذهب البعض من هؤلاء الى القول ان الانشغال المغامر بالواقع التاريخي للغة ، ابعد الأمة عن محاورة نصوصها القديمة والجديدة على حد سواء ، لان العرف اللغوي القديم ، وضع لحل إشكالات ايديولوجية أكثر من حل إشكالات لغوية لها علاقة بثقافة الواقع ، وهذا مصدر من مصادر الالتباس الدلالي الذي هو في الوقت نفسه التباس حضاري.

وبين رأي الثبات أو القطيعة عن التراث ، تجمد الدرس اللساني العربي ، إلا من محاولات خجولة مازالت تقصر عن بلوغ الهدف اللساني الاسمى ، إلا وهو وضع اللغة في إطارها الاتصالي المجتمعي ، ومنحها بعدها التداولي.. واذ فرضت التداولية نفسها في البحث اللساني والأدبي فلأنها تقرن اللغة بالممارسة العملية وتربط اللغة بأهدافها الحقيقية وهي خلق التواصل ، وإيصال الدلالة بأكثر مايمكن من دقة ، ولاسيما بعد الثورة الاتصالية والثورة اللغوية ، وقد فتحا المجال واسعا امام العولمة التي ظل العرب ينظرون اليها بشك وريبة "وتتحكم في رقاب هذا الموضوع أسئلة عديدة من قبيل: بأي وضع لغوي نستقبل ما يسمى بعصر العولمة؟ وبأي وعي لساني نلج

هذا العصر؟ اهو وضع(ووعي) لغوي متأخر أم متقدم؟ وهل يسمح أو لا يسمح بالتحديث؟ وما دور اللغة في التحديث؟ وبأية لغة تنجز هذا التحديث ، وكيف حال اللغة ، التي يراد لها ان تحدثنا؟ وهل عمل كل ذلك التراكم اللساني العربي(....) على بدء لبنات التحديث"[١].

ليس من السهل الإجابة عن هذه الأسئلة ، وفي وضع عربي معقد ، من الصعب فيه جمع الآراء اللسانية في نشاط جماعي تقوم به جامعات أو منظمات ثقافية ، لكن الأكيد ان بعض الثوابت القديمة قد ضعفت ، وهي اولى الخطوات نحو الدخول الى الانجاز اللساني والاستجابة للوضع الإنساني العالمي ، فقد بدأ باحثون عرب ينظرون الى اللغة العربية نظرة لسانية لغوية ، ووفق هذا فأن اللغة العربية ليست لغة مقدسة ، فهي تخضع للدراسة على أساس التحليل النحوي والاسلوبي والدلالي. اي تقسيم النص الى وحدات لغوية ومن ثم إخضاعه للتحليل ، القداسة ثبات واللغة متغيرة من عصر الى عصر ، بل من سنة الى أخرى ، تدخل اللغة باستمرار كلمات واستعمالات واشتقاقات ، كما كثر فيها المعرب الحديث ، الذي فرضته الاختراعات الحديثة ووسائل الاتصال ، فمن غير المعقول القول بعد ذلك ان اللغة العربية لغة مقدسة إلاإذاأردنا ان نحجب عن عيوننا ما نراه من تطور لغوي في لغتنا واللغات الأخرى ، كما ان نزع القداسة عن اللغة العربية يمنح المحلل اللساني القدرة على التصرف بالنص. ومع ذلك يمكن ان تكون اللغة العربية مقدسة إذا نظرنا اليها من الناحية التاريخية والحضارية.. إلا ان هذا لا علاقة له بنقد اللغة وتحليل نصوصها ، فأن هذا رهن بوضعها اللساني الذي تخضع له اللغات كافة. وقد غلط (جالينوس) حين عد اللغة اليونانية اهم اللغات واحسنها ، واعتبر لغات الآخرين كنقيق الضفادع.

٢- تحليل اللغة الإعلامية:

اولى الإشكالات التي تواجه الباحث في لغة الاتصال ، السبل الموصلة الى تحقيق الدقة المطلوبة في إيصال المعنى ، ويضع بعض الدارسين مقاييس رياضية لقياس

---

(١) حافيظ إسماعيل. سابق ص٩٩.

مستوى الفهم ، ويكون ذلك في اطار تحليل النص ، واهم ماعتمدت عليه هذه المقاييس هو طول الجملة ، وهو يتناسب مع صفة قارة في البحث البلاغي القديم الا وهو الايجاز مع وضوح الدلالة ، فمن تعريفات البلاغة المهمة انها الايجاز ، وقد بذل البلاغيون القدماء جهدا في تعريفه واختلفوا في تحديده "ان أول ظهور لمفهوم الايجاز كان عند أصحاب كتب الإعجاز القراني ، وعند الرماني حصرا وان كان المصطلح متداولا عند النقاد والبلاغيين والنحويين لكن المفهوم لم يحدد الا عند الرماني الذي حده بأنه ، تقليل الكلام من غير اخلال المعنى"(١).

الايجاز صفة قارة في الكلام ، لا سيما الكلام المكتوب ، وهو يطلب حتى في الكلام الشفاهي ، وفي اللغة الأدبية يعتمد على قصر الجملة ، ومن البديهي ان يكون القصر مطلوبا في الجملة الإعلامية. ولعل عصرنا الحالي هو عصر الايجاز ونحت المصطلحات وتكثيف الرموز. لا سيما في الرسائل الاتصالية المختصرة والمشفرة ، فضلا عن انه عصر السرعة وضيق الوقت ، فما عاد المرسل معنيا بالصياغة كثيرا ، بقدر عنايته بالإبلاغ ، ان تغير الوسيلة وتغير نوع الرسائل ، ومجافاتها للقوانين اللغوية فرض وضعا جديدا ، فإذا كان قصر الجملة قد تحقق فقد لا تتحقق الميزة الاتصالية ، اي ليس هناك دائما تناسب طردي بين قصر الجملة وقوة الاتصال ، ان اهم ما تتركه لغة الإعلام من نتائج ، ان مواضعات اللغة متغيرة وكذلك مواضعات الاتصال ، فلا ثبات لقوانينهما. وان الاتجاه نحو الأقصر فالأقصر ، فلا مجال لإطالة الجمل سواء في العنوان او في المتن ، إذ ان الكلام على قدر المعنى ، غير ان هذا الهدف لا يمكن تحقيقه بسهولة ، في اطار السرعة والعجالة التي تتسم بها عادة اللغة الإعلامية ، كما قد يضحى بكثير من المزايا بسبب قصر الجملة ، فقد تكون جملة قصيرة ملتبسة دلاليا توجد في العنوان وفي متن الكتابة وجملة أكثر منها طولا ، لكنها لا تثير اللبس الدلالي فضلا عن ان الاعتماد على طول الجملة وان كان مقبولا ومعقولا فهو يضيع مهمة تتعلق بالأسلوب "فهو اختيار بين إمكانات لغوية او هو اختيار لصياغات

(١) إبراهيم محمد محمود. المصطلح النقدي - دار الشؤون الثقافية العامة ٢٠٠٩، ص١١١.

مختلفة" ، وهذا الاختيار أشار اليه بشكل واضح عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز ، وأقام على أساسه نظرياته في النظم ، فنظم الكلام اختيار بين مفردات وكلمات متعددة تقع في اطار علاقات نظمية هي التي تصنع الاسلوب ومن تعريف عام للأسلوب وجد "ان كل نوع من أنواع الاسلوب يتميز بنموذج خاص من الانتقاءات المتواترة التي تنطوي تحت الاجزاء غير الإجبارية في اللغة"(١).

وإذا كان مهما قصر الجمل وهو مهم جدا ، فان القصر وحده لا يكفي ، ان قصر الجمل يجب الا يضيع الميزة الاتصالية سواء في اللغة الأدبية او اللغة الإعلامية ، فقد لاحظ جاكبسون ان اي اتصال لغوي فيه تأثر بين عوامل متعددة هي بمثابة شروط أساسية للاختيار الاسلوبي ، اي ان قصر الجملة هو واحد من هذه الاختيارات وليس جميعها وهذا يعني فحصا للجمل قبل إخضاعها لاي من المقاييس الإحصائية المعتمدة لقياس الكفاءة الاتصالية.

الاختيار الاسلوبي والاختيار النحوي:

لا بد من تأكيد حقيقة من حقائق اللغة الإعلامية واللغة الأدبية ، وهي ان هناك علاقة وطيدة لهذه اللغة بالأسلوب ، واهم صفة في الاسلوب انه قائم على الاختيار ، ومادامت هي كذلك كما نرى ، فلا قواعد ذهبية للصياغة الإعلامية ، ولا توجد كلمات رابحة وكلمات خاسرة ، الا حين تختار الكلمات بقصدية سياسية او دعائية كالاختيار بين قتل واستشهد او الاختيار بين مات ورحل وانتقل ، وإلا فهناك مقاربة عملية بين اللغة الإعلامية واللغة الأدبية ، وهذه المقاربة مطلوبة لتوسيع دائرة اللغة والتعبير ، وكذلك ردم الهوة الواسعة بين لغة الأدب ولغة الصحافة ، إذ أصبح قارا في البحث الأدبي ان المفردة وحدها لا تعني شيئا مهما ، والذي يمنحها قيمتها هو السياق ، او بالأحرى السياق النظمي ، فهي تأتلف مع كلمات أخرى ، تنشأ في ضوئها علاقة وثيقة قائمة على الانسجام وليس التنافر ، وهو الذي يحقق للغة الأدبية

---

(١) فيلي ساندرس. نحو نظرية اسلوبية لسانية، ترجمة خالد محمود جمعة - دار الفكر، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، ص١٢٤.

أهميتها ، وفي اطار الصياغة الإعلامية اعتني بالمفردة ، وكأن الميزة الاتصالية كامنة فيها ، غير ان المهم هو الصياغة ، الجملة ، او تتابع الجمل وليس المفردة ، على الرغم من ان بعض اللغويين يعنون بالمفردة ، بجمالها وموسيقاها ، ولا يمكن إنكار الصفات التي يمكن ان تلحق المفردة ، غير ان السياق هو الذي يمنح بعض المفردات جمالها ، اي ان جمال السياق المرتبط بالمعنى هو الذي يعطي اللغة الإعلامية تميزها.. لذا فلا قواعد لاختيار المفردة ولا قواعد ايضا ثابتة لصياغة الجملة ، لذا يمكن القول ان هناك مواضعات للصياغة ومواضعات للمفردة ، وليس قاعدة ، والكلمات الرابحة ، تعطي الدارس انطباعا بقوة القاعدة ، ولنتذكر اننا في حضرة الاسلوب ، والأسلوب ينفر من كل قاعدة بل هو ثورة على القواعد ، ولذا فأن الاختيار النحوي مختلف تماما عن الاختيار الاسلوبي ، فالأول يرتبط بالقاعدة والثاني لا علاقة له بها ، اي التقنين الكتابي ، فكل تفنين للغة الإعلام يخرج عن الإطار الاسلوبي ، وهو جزء من الاختيار النحوي ، فأنت مخير بأن تعبر بالمصدر او بالفعل المضارع ، او حتى بشبه الجملة في العناوين الخاصة ، لكنك لست مخيرا في الانتقاء بين جمل النفي كيف تشاء ، لان لكل جملة معنى مختلف عن الجملة الأخرى.. مثل النفي بلا او بلما او بلم او ليس.. فكل جملة مع هذه الأدوات معنى اي التركيب النحوي يختلف بالأداة وعلى أساسه يختلف المعنى ، فاستبدالالأداة استبدال نحوي لا اسلوبي ، "لم ينضج العنب ، العنب لما ينضج ، او لا ينضج العنب".. وكذلك فأن التقديم والتأخير والحذف في الجمل هو ميزات نحوية ، وقد عرفها النحو وانشغلت بها البلاغة القديمة ، وبعضها وضعت مقياسا للغة القران الكريم ، والكثير من اللغويين يعدها خيارات اسلوبية.

لعل من الطريف الحديث عن باب من أبواب البلاغة ، يدرس في علم المعاني وهو في باب الحصر والقصر ، فتقول إنما نحن أصدقاء ولا تقول ما نحن الا أصدقاء ، فالتعبير الأول يختلف عن الثاني ، لاختلاف المعنى في الاثنين ، وان دخل الاثنان في باب الحصر والقصر او باب التوكيد ، وشبيه بذلك القول ، ما العراقيون الا مسالمون..

ففي هذا التعبير اختلاف نحوي لا اسلوبي ، فظاهر الجملة انك قصرت الموصوف على الصفة(العراقيون) الصفة(مسالمون) ، وهي جملة ، يظن قائلها انها

تحسن الى العراقيين ، وقد عبر عن ذلك بطريقة التوكيد ، المعتمدة على النفي ب (ما) والإثبات بـ(الا) غير ان هذا التعبير فارقته الدقة ، بل ان طريقة الصياغة أساءت الى المعنى المقصود ، إذ ان الصياغة الصحيحة هي(بانما) حصرا ، فتقول(إنما العراقيون مسالمون) ، ففي هذه الصياغة تثبت ان المخاطِب والمخاطَب متفقان على انهم مسالمون ، وحين تقول(ما العراقيون إلا مسالمون)فقد أظهرت الشك ، اي ان المخاطب يشك في انهم مسالمون ، ومن ثم فأن التعبير الأول قد يحمل معنى الإدانة للعراقيين اي يدخل في معنى غير المعنى المقصود ، كذلك حين تقول ، إنما هو أبوك ، فهذا التعبير سليم في إيصال المعنى ، لكنك حين تقول ماهو إلاأبوك ، لقد حملت الجملة الثانية معنى التنكر لأبيه ، او هو لا يحسن معاملته. فعلى الرغم من وقوع الاثنين في باب الحصر والقصر ، لكن كلا الاستعمالين يؤديان الى معنى مختلف والاختلاف قد يكون أساسيا ، يقلب المعنى من الشئ الى نقيضه ، فعلى هذا الأساس فأن الاختيار نحوي.

ويلاحظ في هذا السياق ان الاختيار النحوي ملزم ، اما الاختيار الاسلوبي غير ملزم ، وهو اختيار من إمكانات متعددة ، ولعلنا نقف عند المعنى الاتي لجلاء القصد "يبدو ان الاختيار الاسلوبي هو اختيار بين وحدات تكاد تتساوى دلاليا ، اما غير الاسلوبي فقد يكون انتقاء بين دلالات متعددة"١٤.

وعلى الرغم من استعمال قد مع الفعل المضارع ، الذي يقلل من حماسة الجملة السابقة ، غير اننا يمكن ان نضع المقولتين الاثنتين وتتبناهما بكل ثقة وهما:

- إلزامي في النحو.
- اختياري في الاسلوب.

ففي اطار القصة الخبرية ، او التقرير الصحفي ، او السرد الروائي ، يمكن للجمل الاتية ان تصنف تصنيفا اسلوبيا..

- مات اللص القاتل بعد صراع مع الشرطة.
- فطس اللص القاتل صباح هذا اليوم.
- انتقل اللص الملعون الى جوار ربه.

ثلاثة أفعال استعملت في الجمل الثلاث ، هي مات ، فطس ، انتقل ، وقد يبدو ان الاختلاف بين الأفعال نحوي لاختلاف الجذر اللغوي لكل فعل ، لكن كما ذكرنا المهم هو السياق وكيف استعمل فيه الفعل ، فالاختيار ليس نحويا ، بل هو اختيار اسلوبي ، اي استبدال صياغة بصياغة أخرى ، وليس معنى بمعنى.. ويلاحظ ان الجملة الثالثة ، ذات صياغة روائية أكثر منها صحفية ، ولطالما تداخل السرد الروائي مع لغة الإعلام ، ويمكن ان تكون الجملة الثالثة تدخل في اطار صحافة الإثارة ، ومع ذلك لا تخرج عن اللغة الإعلامية..

وننظر الى هذه الصياغات:

- حملها معه على حصان ابيض.
- سارا يحدو بهما فرس نشيط.
- امتطت معه الحصان كغزال شارد.

استعملت الأفعال حمل وسار وركب ، وكلها أفعال مختلفة في المعجم ، لكن دلالتها توحدت في الاسلوب ، فما عادت مختلفة بل متفقة ، اي انها وقعت في حقل اسلوبي واحد ، ويمكن القول انها وقعت في حقل دلالي واحد ، في مقاربة خاصة بين الدلالة والأسلوب ، واذ عرفنا الدلالة سابقا بانها المعنى ، فان هذا لايعني تطابقا من نوع مابين المعنى والدلالة ، فالمعنى هو المقصود بعينه ، والدلالة هي الأوسع من المعنى ، نأخذ بالابعاد التي تحف بالنص ، او الإبعاد المحايثة للنصوص ، والتي تثبتها الأساليب ، اي ان هناك علاقة وثقى بين الاسلوب والدلالة ، وعلى هذا فإن الاختيار الاسلوبي هو اختيار دلالي ايضا ، لان الدلالة لا تنعش المعنى فقط بل ظلال المعنى ايضا..

الصياغات السابقة صياغات اسلوبية ، قد يقتضيها السرد الروائي ويلاحظ ان لكل جملة أسلوبا ، والجمل متماسكة نحويا والاختلاف في ما تثبته الجمل من بعد تداولي(نفعي) يذهب اليه النص ويطلب تركيزه في ذاكرة المتلقي. فالاختيار لم يقع فقط في مادة الفعل بل ايضا في العلاقات المجاورة ، وإذا كانت العلاقات في الاختيار النحوي علاقات مجاورة ايضا ، فأن العلاقات في اختيار الاسلوب نشيطة نازعة نحو الحركة وليس الثبات...

الى جانب الأفعال التي توحدت اسلوبيا ودلاليا ، فقد توحدت الصفات ايضا في: ابيض ونشيط وشارد ، وكلها تنتمي الى حقول دلالية مختلفة ، لكنها وقعت بعد الصياغة في حقل دلالي واحد ، وهذا يعني ان السياق المرتبط بالجملة هو الأمر الحاسم ، وهو الذي يعطي الحرية والحركة للنص ، ويبعد الجمود النحوي عن اللغة في أنواعها وابعادها.

٣- المنهج الوظيفي في اطار النص:

نشير في هذا الإطار الى ان الوظيفة لها معان متعددة ، يقترب أهمها من علاقة اللغة بالمجتمع ، ويرمز بعضها الاخر الى براجماتية النص ، غير ان الشكلانيين الروس ، أطلقوا عليها الأساليب الوظيفية ووجدوا "ان علماء الاسلوب في مدرسة (براغ) هم أول من طور علم الأساليب الوظيفية ، وهم أول من وقف امام الوظائف الاتية واكدها:

- الوظيفة الاتصالية للغة.
- الاستعمال الهادف والمستحسن اجتماعيا في الميادين المختلفة للفاعلية البشرية"(١).

واذ تلتقي الوظيفتان وتساند احداهما الأخرى فأن اللسانيين وضعوا جل اهتمامهم في علاقة اللغة بالمجتمع ، وتحليلها على مستوى النص ، فيما يطلق عليه لسانيات النص وهذا هو الذي يعزز هذه الوظيفة فالمهم ليس الجملة بل الجمل المتتابعة ، وان العنصر اللغوي ينبغي توظيفه في السياق التتابعي على مستوى النص ، ولهذا يمكن الاقتراب في دراسته من المنهج الوظيفي الذي يرى "ان الوظيفة لاتقوم على اساس الصيغ ولا تقتصر على الاهتمام بالعلائق التي تبنى على العناصر الالسنية فحسب ، بل تتعداها الى بيان وظيفتها في عملية التواصل"(٢). وفي هذا التحديد يمكن وضع اللغة الإعلامية واللغة الأدبية في مسار واحد ، وهو علاقتهما بالمخاطب الفردي والجمعي "فاللغة نظام وظيفي ، يرمي الى تمكين الإنسان من التعبير

---

(١) فيلي ساندرس. سابق ص١٣٣.

(٢) المصدر السابق ص١٦١.

والتواصل ، فكل ما يضطلع بدور في التواصل ، ينتمي الى اللغة ، وكل ما ليس له دور فهو خارج عنها. اي ان العناصر اللغوية التي تحمل شحنة إعلامية هي وحدها لها وظيفة ، فدعت الى ضرورة دراسة الوظيفة الحقيقية للغه اي الاتصال والإبلاغ ، كيف يتم ولمن يوجه وفي أية مناسبة"[١].

ان بناء جمل صحيحة هو تحقيق لأسلوبية الجملة غير ان المهم هو الحصول على انسجام النص في إطار وحدة النص ، لهذا اعتنت لسانيات النص منذ عقود بتتابع الجمل في نص معين ، وهذا التتابع يحقق معاني ماترمز اليه الكلمات "فالنص وليس الجملة هو الوحدة العليا الأكثر استقلالا ، ورأت ان مهمتها الأولى هي التنظيم للمستويات المتجاوزة لحدود الجملة وتحديد القيود الخاصة التي تشكل من سلسلة جمل نصا ، فضلا عن تحليل الوسائل اللغوية التي تخلق تماسك النص"[٢].

ولكن هناك مواضعات تترك أثرا ما على النظام الوظيفي للغة ، ويمكن تلمسها في الصمت الذي تدفع اليه الشاشات المتعددة ، التي تشيع الفة خاصة وتنقل الفرد من اجتماعيته المعهودة الى فردانية خاصة به ، وبما ان اللغة اجتماعية بالطبع فأن العزلة هي الصمت وان استعملت اللغة وقد تحقق ما يشبه ذلك "فلقد تشظت الصور مع تشظي الشاشات هندسيا وتعددها للفرد الواحد: شاشة للتلفزيون وثانية للكومبيوتر وثالثة للكاميرات الخفية والهاتف الخلوي...." [٣]. وقد تشظت معها العائلة "فان الصورة العامة التي تمثل المجتمع المعاصر تحمل تشظيات الفرد والعائلة على مستوى مصادرها الثقافية والاقتصادية وممارستها ولغاتها ، من هذه المساحة العائلية المتشظية بالذات ، يمارس الإعلام المتطور سلطات الشاشة ، فيزرع الصمت ويعزل الناس محققا بالاتصال أجيالا غير لغوية ، متعلقة بالصورة سلطة السلطات"[٤].

---

(١) صافية زفنكي. المناهج المصطلحية، مشكلاتها التطبيقية ونهج معالجتها، المؤسسة السورية العامة للكتاب – ط١ دمشق ٢٠٠٣، ص٣٩.

(٢) صافية زفنكي. سابق ص٣٩.

(٣) فيلي ساندرس. سابق ص١٤٧.

(٤) نسيم الخوري. الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية، مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت ط١ ٢٠٠٥، ص٣٧٢.

لابد من دراسة الوظيفة الاتصالية للغة من هذا الواقع الجديد الذي لم يكن يطرأ على ذهن دوسوسير او تشومسكي او بلومفيلد او دعاة التواصل الاجتماعي عبر اللغات ، كما ان الخيال النشيط لم يستطع ان يتنبأ بحصول ذلك في طرفة عين ، ولم تعد الوسائل اللغوية المستعملة ذات جدوى كبيرة بعد كل هذا التطور الهائل في الوسائل الذي دخل بنية المجتمعات ، في كل طرف من اطراف العالم والصعوبة الكامنة في كل ذلك ، كيف يمكن المحافظه على الجانب الاتصالي للغة وفي اي إطارإذأصبح المتحول لا يجاري الساكن ، واللغة ظاهرة اجتماعية فلابد من إيجاد وسائل لإحداث التوازن بين الثابت والمتحول.

ان الجانب النفعي الاجتماعي الاني هو الذي يطغى على التداولية ، سواء في لغة الصحافة أم في اللغة المستعملة في الوسائل الأخرى ، وهذا في الأخير قد يفقد اللغة جانبها الشكلي ، وهو جانب مهم في إيصال الدلالة ، والجانب الشكلي يهيئ الذهن لمقاربة المعنى ، او الوصول إليهإذ ان جوانب الحذف والإيجاز وبناء المفردة والجملة هي جوانب شكلية تتصل اتصالا وثيقا بالمعنى الذي يراد إيصاله ، وفي كثير من الأحيان يتغير شكل الجملة للحصول على رسوخ أكثر في ذاكرة المتلقي.

من الحلول المطروحة في مواجهة المفصل الجديد ، العودة الى النص ، وقد ركز النحو التوليدي والتحويلي على الجملة واقتصر في تحليلاته عليها بوصفها اعلى وحدة تحويل لغوية "ولكونه هو ذاته نموذجا متخصصا بوصف الكفاية اللغوية الباطنة للمتكلم وللمستمع المثالي ، نموذجا يصف قدرة المتكلم على انتاج جمل كثيرة غير محدودة في لغته وقدرته على فهمها ، ولهذا تجلى موقف هذا الاتجاه البنيوي في ان اللغة هي إجمالي الجمل كلها"[١].

لقد اعتنت لسانيات النص منذ عقود بالوقوف على النص لا سيما تتابع الجمل ، وهذا التتابع يحقق للغة أقصى انتظام بين الجمل والكلمات وما ترمز إليه عن طريق تتابع الجمل كما يمكن ان يحقق ميزة الاختصار والإيجاز المطلوبة في أساليب

---

(١) نسيم الخوري. سابق ص٣٢١.

الكلام المكتوب والشفاهي على حد سواء ، ولسانيات النص رأت ان مهمتها الأولى "التحليل المنظم للمستويات المتجاوزة لحدود الجملة ، وتحليل القيود الخاصة التي تشكل من سلسلة الجمل نصا ، فضلا عن تحليل الوسائل اللغوية التي تؤثر في التماسك او تخلق تماسك النص"[1].

ان تحقيق مثل هذا التماسك في إطار تتابع الجمل يطرح قضايا في إطار التضمين ، يمكن الإشارة اليها كما يأتي:

١- التضمين السياقي والمعجمي.
٢- التضمين الخيالي.
٣- تضمين الضمائر.
٤- الترابط القريني.
٥- التضمين الثقافي والاجتماعي (مجتمع الاتصال).
٦- التفاعل (اطراف الاتصال).
٧- المقام الكلامي (ظرف الاتصال).

وسنتناول ثلاثة تضمينات مهمة هي:

التضمين السياقي:

في هذا النوع من تتابع الجمل ، يمكن ان تعوض جملة عن أخرى ، هذا النوع من الجمل يحقق الإيجاز الذي يطلب عادة في اللغة الأدبية واللغة الإعلامية ، مثل قولنا (السياب شاعر كبير ، قراؤه كثيرون). الجملة الثانية يمكن ان تتضمن الجملة الأولى ، لان الشاعر الكبير لابد ان يكون له قراء اي ان الجملة الثانية جزء من الجملة الأولى وهي متضمنة فيها ، وبالإمكان حذف الجملة الثانية بلا خلل في المعنى ، ولايمكن ان نضع الواو العاطفة بين الجملتين فلا نقول: السياب شاعر كبير وقراؤه كثيرون ، لان الواو العاطفة التي تأتي في الجمل لمطلق العطف جعلت كل جملة ذات معنى مستقل ، فلا يصح اذن وضع الواو في مثل هذه الجملة فأذا وضعت تكون الجملتان

---

(١) فيلي ساندرس. سابق ص١٤٤.

ضعيفتين اتصاليا لأنهما تفتقدان الى تماسك النص الذي يؤدي الى ضعف المعنى وتقول: (بللني المطر ، جرى الماء على جسدي). في هاتين الجملتين يكون التركيب اقرب الى الترابط المعجمي ، لان كلمة مطر وماء يرجعان الى مصدر واحد ، وبهذا الترابط يحافظ على تماسك النص كما في المثال الاتي: سمعنا الصهيل ، الحصان في الغابة يلاحظ الترابط المعجمي بين الصهيل والحصان ، وفي الأمثلة السابقة أطلقنا عليها تارة الترابط المعجمي او التضمين السياقي ، وفي كلا المصطلحين فأن الجملة الثانية بيان للجملة الأولى ، عند ذلك لا تكون الجملتان متغايرتين بل هما في حكم الجملة الواحدة ، ويمكن الاستغناء عن الجملة الثانية ولكن وفي إطار جملتين مستقلتين يقال (الأساتذة مشغولون بالتدريس والطلاب بالمطالعة) فلابد من وجود الواو العاطفة بينهما ، فليس فيهما تضمين سياقي او ترابط معجمي.

التضمين الخيالي او التضمين بالحذف:

هو ظاهرة في تتابع الجمل المجاورة في النصوص. ان تماسك الجمل قد يخل به أحيانا التوضيح الزائد للمعنى ، فهو فضلا عن انه يخل بطول الجملة يقلل من الميزة التفاعلية للنص ، فالنص هو تفاعل بين منتج الخطاب والفاهم ، وفي الأخير فأن الفاهم هو الذي يصنع المعنى ، وقد يكون الخيال سببا مهما في إيصال المعنى ، ففي لغة الصحافة يمكن إيراد الجملة الاتية: (قدمنا جهدا مهما في تشكيل الحكومة ، ولنا مطالب) وردت هاتان الجملتان في تصريح صحفي لأحدأعضاء مجلس النواب العراقي من التحالف الكردستاني ، ويلاحظ انه أورد الجملة في صيغة النكرة في قوله ولنا مطالب ، لكنه لم يحدد طبيعة هذه المطالب او صفتها ، إذ يمكن ان يقول في الجملة الثانية ، ولنا مطالب كثيرة ، لكنه لم يذكر الصفة ، فهو يريد ان يدفع الفاهم الى تشكيل المعنى عبر حذف الصفة ولو ذكر الصفة وقال لنا مطالب كثيرة لاخل بمعنى الجملة ، فالوضوح الزائد يخل بالمعنى ، وحين ذكر كلمة(مطالب) وجعلها في حالة النكرة لان النكرة تدل على العموم وهي تدعو الى التخييل عبر عدم التحديد ، إذ على المخاطب ان يشكل الكلمة المحذوفة ، فأذا شكلها في ذاكرته فأن النص يكون

ذا اكتمال دلالي ، فقد وجد في القران الكريم وفي اللغة الأدبية مثل هذا الاستعمال حين طالب السحرة فرعون وقالوا له (ان لنا لاجرا) في محاولة لدفع المخاطب الى تصور الكلمة المحذوفة ، وهي لابد ان تكون كلمة في سياق محدد معروف تتناسب مع المهمة التي قاموا بها. ومن الخطأ الظن ان لغة الإعلام تخلو تماما من التخييل ، لكن مستوى التخييل في اللغة الأدبية مختلف تماما عن اللغة الإعلامية.

تضمين الضمير :

تصنف الضمائر عند النحاة بانها أكثر المعارف وضوحا ، لانها لصيقة بالإنسان وتدل على معناه ، "فأنت تقول انا فلا يلتبس المعنى وتقول انت فيحدد المقام المقصود بالخطاب ، وتقول هم مسبوقة باسم ظاهر ، فتعبر عن المقصود مع الاختصار والوفاء ، ويخالفهم بعض اللغويين فيما يذهبون إليه من قيمة التعريف في الضمير ، ويرون ان الضمير أحيانا يستعمل للرغبة في التعمية والايهام ، فكيف يكون مع ذلك اعرف المعارف وأوضحها"[(١)].

الضمائر هي مجال التميز بين اللغة الأدبية واللغة الإعلامية ، فالأدبية تقوم على تشخيص الأشياء والاعتداد بالذات ، لاسيما في الشعر الغنائي والوجداني ، وقد استعمل الشعراء من المتصوفة الضمائر بطريقة ملفته ، وبنوا قصائدهم على الضمائر ، الشاعر الصوفي الحسين بن منصور الحلاج كان أكثر قدرة ووفاءا باستعمال الضمائر ، لان الضمير يعبر بشكل واضح عن الانا الشخصي في مقابل(الانت) الاخر ، وعند الصوفيين يتحد الاثنان كما في قول الحلاج(انا من اهوى ومن اهوى انا).. الشعر والوجداني يكنى غالبا بالضمير لإخفاء الاسم ، ومع ذلك فان الضمير لا يكون تعمية وانغلاقا ، بل العكس إذا دخل نظام الجملة في سياقات دقيقة فهو أكثر العناصر دلالة ، ومن هنا يمكن نقل الضمير من نظام لغوي معين الى نظام اخر ، في الإطار التداولي ، اي ان العنصر الذي ينقل من سياق معين ثابت فيه الى سياق اخر

---

(١) فيلي ساندرس. سابق ص١٤٧.

يكون في هذه الحالة عنصرا جديدا متحركا في نص جديد يحقق للنص نفعيته المطلوبة ، وهي صناعة الفهم.. في اللغة الإعلامية لا يعتنى بضمير المخاطب وضمير المتكلم ، ولاسيما في عنوانات الأخبار ، إلاإذا ورد في صورة تتابع الجمل وهي قليلة في العنوانات ، "لكن الضمير يظهر في بعض المستويات الكتابية اوالتحريرية او البيانية الصحفية ، مثل المستوى الصحفي المتأدب ، ويسميه بعض علماء اللغة (الاسلوب العلمي المتأدب) ، إذ يضفي على أسلوب المحرر سمة من الأدب ، او قدرا من الذوق الأدبي ، لا يزيد عن الحد المعقول ، كما يبدو ذلك عن طريق طابع وأساليب بعض العنوانات والمقدمات والنهايات للأحاديث والتقارير المصورة والتحقيقات الصحفية عامة ، خاصة في المجلات ، كما نشاهده ايضا في تحرير مقالات الأعمدة واليوميات الصحفية خاصة ما يتصل منه بالجانب الذاتي"[١].

في الضمائر يتقدم الحوار أشواطا وقد يطيب لبعض الكتاب ان يغير اسلوبه معتمدا على الضمير بدلا من ان يقول: أحبإياك يغير الجملة عن طريق التقديم فيقول: إياكأحب ، حين ذلك يقال قدم الضمير لأهميته في نفسه ، ويقال ايضا ان التقديم ميزة اسلوبية وهي مجال مشترك بين لغة الأدب والصحافة غير ان الأمريتعدى ذلك كثيرا الى دلالة النص لاننا في إطار النص لا في إطار الجملة ، إذ غادرنا الاسلوب مع مغادرتنا للجملة ولا بد من التمييز بين دلالة النص والمفاهيم القريبة منه ، مثل نحو النص والنحو الدلالي الذي يعنى بمسائل تكوين النص اما دلالة النص "فلا تهتم بالعلاقات التي يمكن تحققها لغويا في نصوص تحققت او بدأ تحققها(...) ففهم النص هو في الحقيقة مفهوم علوي يتضمن مكونات خاصة ببراجماتية النص وكذلك عوامل غير لغوية كثيرة"[٢].

لهذا فأن جهدنا في هذا المقترب هو جلاء العلاقات الدلالية للنصوص ،ففي بنية النص(مؤسسة النص) توجد علاقات ظاهرة وعلاقات كامنة ، وتدخل في إطار

---

(١) احمد درويش. دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث. القاهرة ص١٠٨.

(٢) محمود خليل وآخرون. إنتاج اللغة الإعلامية. القاهرة، ص٤٥.

العلاقات الظاهرة مجال الإحالة ومجال العمل ومجال الروابط.. ويمكن ان تقتصر أوجه التصنيف الاسمي التي ذكرها(زتسيسلاف واورزنياك) على أوجه التصنيف الاسمي البديلة ، اشكال إكمال عن طريق الضمائر والظروف الضميرية ، وتكوينات بديلة اي اشكال المادة عن طريق مكثفات المعنى وموسعات المعنى وكذلك عن طريق صيغ بديلة مختلفة.. [١]

---

(١) زتسيسلاف واورزنياك. مدخل الى علم النص، مشكلات بناء النص، ترجمة سعيد حسن بحيري - مؤسسة المختار - القاهرة - ط١ ٢٠٠٣، ص٧٤.

التحليل اللساني لعلاقات الأسلوبية المعرفية على وفق مخطط الإستبدال والنظم الألسني

أ.م.د. أحمد عبد الجبار فاضل

كلية التربية للبنات / الجامعة العراقية

مدخل عام...

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى اله وصحبه ومن تبعهم بإحسان الى يوم الدين.

إن علاقة الأسلوبية بالبلاغة ومن ثم باللسانيات والنقد الحديث ، من أكثر المباحث النقدية التي تم الخوض فيها ، والكتابة عنها ، وفق رؤى متنوعة ، ومنهجيات متعددة ، ومن ثم اختلفت النتائج والفرضيات التي حكمت هذه العلاقة ، تبعا لتنوع تلك الرؤى والمنهجيات التي تأسست عليها النتائج والفرضيات الخاصة بهذه القضية. وعلى وفق هذا التقديم يحاول هذا البحث مقاربة هذه القضية ، مستندا فيها على اسس لسانية مستمدة من مخطط جاكبسون**R.Jakobson** (ت١٩٨٢م)(١) حول

---

(١) عالم لغوي مشهور ولد بموسكو سنة١٨٩٦م، واهتم منذ سنيه الأولى باللغة واللهجات والفولكلور. أسس سنة١٩١٥م بمعية ستة طلبة(النادي الألسني بموسكو) وعنه تولدت مدرسة الشكليين الروس، ثم انتقل إلى براغ، وأسهم في تأسيس(النادي الألسني ببراغ) ويعد من أوائل النقاد الداعين والمؤسسيين للمنهج البنيوي. أهم كتبه: قضايا الشعرية، وعلم اللغة. ينظر : الأسلوبية والأسلوب نحو بديل ألسني في نقد الأدب، د.عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، وتونس، د.ط، ت ١٩٧٧م، ص٢٤١ – ٢٤٢.

العلاقات الافقية والعمودية ، او الاستبدالية والنظمية ، والتي تشكل جزءا مهما من رؤياه العامة في اللغة ، المعتمدة على نظرية الوظائف اللغوية التي يتشكل منها النص الابداعي ، ومفهوم ادبية الادب ، التي وضع من خلالها جاكبسون الاسس المنهجية لمدرسة براغ ، وحركة الشكلانيين الروس ، إذ يعد جاكبسون من اهم المؤسسين لهذه الحركة ، التي يمكن وصفها بشكل أو اخر بأنها رافد مهم لتطور المنهجيات اللسانية ، وربما لا ابالغ اذا قلت إنها توازي دي سوسير في اثرها النقدي اللساني. من هذا المنطلق تشكلت هيكلية البحث من مبحثين اثنين على الشكل الاتي:

المبحث الاول: عالج فيه البحث التوصيف النقدي الكلاسيكي لعلاقة البلاغة بعلوم اللسانيات والنقد والبلاغة ، اذ يعد ممهدا لدراسة تلك العلاقة ، وفق رؤية لسانية مقارنة.

المبحث الثاني: حاول البحث فيه القراءة اللسانية للعلاقة بين الأسلوبية من جهة واللسانيات والبلاغة والنقد من جهة اخرى ، مستندا على منهجية جاكبسون في العلاقات الافقية والعمودية. ثم خاتمة بأهم النتائج والاستنتاجات.

التوصيف النقدي لعلاقة الأسلوبية باللسانيات والنقد والبلاغة...

١ – الأسلوبية واللسانيات:

إذا انطلقنا من عبارة فاليري **PaulValerie**(ت١٩٤٦م)[١] التي يحدد فيها طبيعة العلاقة بين الأدب واللغة بقوله: "ليس الأدب ، ولا يمكن أن يكون ، إلا توسعاً لبعض خصائص اللغة واستعمالاً لها"[٢] ، ومن تعريف اللسانيات بأنها: "العلم الذي يدرس مجموع القوانين المكونة للظاهرة اللغوية المولدة لها"[٣] ،معتمداً الأسلوب العلمي الموضوعي ، القائم على الملاحظة والتجريب والاستقراء ، وبناء النظرية الكلية من نماذج جزئية متفرقة[٤] ، إذا انطلقنا من هاتين المقدمتين الأوليتين لتحديد طبيعة العلاقة بين الأسلوبية واللسانيات ، فإننا سنصل إلى نتيجة أولية ، مفادها أن الأسلوبية علم لساني ، بمعنى أنها تأسست مثل سائر الاتجاهات النقدية النصية معتمدة على المبادئ الأساسية الثنائية التي وضعها دي سوسير **F.Desaussure** (ت١٩١٣م)[٥] في علم

---

(١) أديب فرنسي غزير التكوين، واسع المعرفة في غير الأدب، اهتم كثيرا بقضايا اللغة والنقد، حتى عُدّ من أعلام فلسفة اللغة والأدب. الأسلوبية والأسلوب نحو بديل ألسني في نقد الأدب، ص ٢٤٦.

(٢) اللغة والخطاب الأدبي، اختيار وترجمة : سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء، ط١، ت ١٩٩٣م، ص٤١.

(٣) الأسلوبية وتحليل الخطاب، د.منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، سورية، ط١، ت٢٠٠٢م.، ص١١.

(٤) ينظر : الاتجاهات اللسانية ودورها في الدراسات الأسلوبية، د. مازن الوعر، مجلة عالم الفكر، الكويت، م٢٢، ع٣ – ٤، ت ١٩٩٤م، ص١٣٨.

(٥) عالم لغوي مشهور اتخذ الدرس اللغوي مع مجيئه منحى جديداً وأسست أفكاره نموذجاً معرفياً امتد تأثيرها إلى مختلف العلوم الإنسانية من فلسفة وانثروبولوجيا وتحليل نفسي وأدب، وهو ما يشير إلى اعتباره رائد علم اللغة الحديث. ترجمت محاضراته إلى اللغة العربية=

اللغة ، إلا أن مجالها اللغة الانزياحية وفق منهجيتها الباحثة عن جمالية النص الأدبي ، وليس قاعدية اللغة كما أراد سوسير في زمنه. إن اصطلاح الأسلوبية ذاته (Stylistics) يشير إلى علاقة الأسلوبية باللسانيات وبالنقد الأدبي أيضا" فالجذر (Style) يربط كلمة أسلوبية بالنقد الأدبي ، بوصف الاسلوب مجال بحث مناهج النقد الادبي الداخلية ، والجزء الثاني(Istics) يربط الأسلوبية باللسانيات أي (Linguistics)".

٢ – الأسلوبية والنقد الأدبي:

لا شك أن علاقة الأسلوبية بالنقد الأدبي ظلت غير واضحة المعالم ، لا سيما عند نقادنا العرب الأسلوبيين "فبما أن الأسلوبية وليدة البلاغة وبديل لها ، وبما أن البلاغة قديماً كانت أداة توظف في خدمة النقد الأدبي ، فهل نعتبر وريثتها مثلها وسيلة من وسائل النقد ، أم نعتبرها منهجاً مستقلاً متميزاً من مناهج النقد ومباشرة النصوص؟"[(١)].

إن الإجابة عن هذا التساؤل يمثل صلب العلاقة الجدلية بين الأسلوبية والنقد الأدبي ، فمن المعروف أن المناهج النقدية على اختلافها تنقسم على قسمين كبيرين تنضوي تحتهما كل المناهج النقدية هما:

١ – المناهج الخارجية ، التي تعنى "بتحليل المرجعيات التي تغذي النصوص بعناصرها ، ساعية إلى كشف الأثر الذي تتركه تلك المرجعيات في النصوص ، وينضوي في إطار هذا المقترب عدد من المناهج مثل المنهج التاريخي والاجتماعي والنفسي"[(٢)].

٢ – المناهج الداخلية ، التي ينصرف اهتمامها إلى "استكشاف المزايا الأدبية ،

=مرات عدة تحت عنوان (دروس في علم اللغة العام) أو (علم اللغة العام) أو (محاضرات في الألسنية العامة). الأسلوبية والأسلوب، ص٢٤٤.

(١) مدخل إلى الأسلوبية تنظيراً وتطبيقاً، الهادي الجطلاوي، دار عيون، الدار البيضاء، ط١، ت١٩٩٢م.، ص٢٢.

(٢) الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة، د. عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، وبيروت، ط١، ت ١٩٩٩م.، ص٥٣.

وبيان نظمها الداخلية ، ودلالتها النصية"[1] ،ويدخل في مفهومها ، المنهج الشكلاني والبنيوي وكذلك الأسلوبي. ذلك أن الأسلوبية بوصفها منهج من مناهج تحليل النص تجيب عن السؤال: ما الذي يجعل النص الأدبي نصاً أدبياً؟ وفي الإجابة عن هذا السؤال يمكن الفرق بين الأسلوبية ومناهج النقد الأخرى ، لأن "ما يميز الأسلوبية من بقية المناهج النقدية هو تأكيدها أولاً وآخراً على لغة النص ، فجوهر المنهج الأسلوبي يكمن في تفرد صفة (اللغة) ، فالنص هو هيكل أو بناء لغوي ، وعلى الأسلوبية أن تقرب من هذا الهيكل اللغوي نصياً" وذلك بطرحها اصطلاح الأدبية (**Literariness**) ، كما وصفها جاكبسون من أنها "تلك العناصر التي تجعل الأدب أدباً ، تلك العناصر التي يمكن اعتبارها ماثلة في النص ، محددة لجنسه الفني ومكيفة لطبيعة تكوينه ، وموجهة لمدى كفاءته في أداء وظيفته الجمالية على وجه التحديد"[2].

إن العلاقة بين الأسلوبية واللسانيات هي التي أكسبتها الموضوعية والعلمية في منهجية الدراسة ، ومن ثم فإننا وباختصار نستطيع القول إن "الأسلوبية هي محاولة تأطير النقد بأطر موضوعية ذات أسس علمية" ، والانتقال بالنقد من الانطباعية والذاتية إلى الموضوعية والتحديد المنهجي ، وليس مهماً بعد هذا أن تكون الأسلوبية منهجاً نقدياً قائماً بذاته ، مقابل النقد الأدبي ، أو تكون ضمن مناهج النقد الأدبي وفرعاً منها ، فهذا نقاش عقيم كما يرى الباحث إذ لا يغير من حقيقة المنهج الأسلوبي في شيء ، سوى أنه إما أن يوسع من مجاله ويجعله بديلاً أو مقابلاً للنقد ، أو يضعه ضمن مناهج النقد ، ويقلص من سعته المعرفية[3].

---

(١) الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة، تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة، د. عبد الله إبراهيم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، وبيروت، ط١، ت ١٩٩٩م ، ص٥٤.

(٢) مناهج النقد المعاصر، د.صلاح فضل، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ت ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ص٨٨.

(٣) ينظر في هذا الخلاف : الأسلوبية منهجاً نقدياً، محمد عزام، منشورات وزارة الثقافية، الجمهورية العربية السورية، دمشق، ط١، ت ١٩٨٩م.، ص٤٤ – ٤٥.، والتركيب اللغوي للأدب،=

٣- الأسلوبية والبلاغة: لا شك أن أشد العلوم اللغوية علاقة بالأسلوبية البلاغة ، سواء على مستوى التنظير الغربي أم العربي ، فعلى مستوى التنظير الغربي الذي نحن بصدده يرى بليث **Blith** أن البلاغة والأسلوبية تقيمان (علاقات وطيدة) على مر الزمن "تتقلص الأسلوبية أحياناً حتى لا تعدو أن تكون جزءاً من نموذج التواصل البلاغي ، وتنفصل أحياناً عن هذا النموذج وتتسع حتى لتكاد تمثل البلاغة كلها باعتبارها(بلاغة مختزلة)"[١]. هذه العلاقة الصميمية مستندة إلى ترابط مفاهيمي وأساليبي ومنهجي بين علم البلاغة والأسلوبية الحديثة ، حتى عُدّت الأسلوبية نتيجة طبيعة للتطور المنهجي لعلم البلاغة القديم ، بدءاً من البلاغة اليونانية القديمة التي اهتمت بالأسلوب البلاغي ، بعدّه سلاحاً اقناعياً في الخطابة التي اشتهر بها اليونانيون آنذاك[٢]. ويمكننا هنا استعارة كلام بيير جيرو في تحليله لعلاقة الوراثة بين البلاغة القديمة والأسلوبية ، إذ يقول: "البلاغة إذا كانت فناً للتعبير وقاعدة في الوقت نفسه ، فإنها أيضا أداة نقدية تستخدم في تقويم الأسلوب الفردي كما تستخدم في تقويم فن كبار الكتاب. لذا فإننا نلاحظ أنها وصلتنا تحت هذا الشكل مروراً بالعصر الوسيط والقرون الكلاسيكية. ورأينا ، مع بداية القرن الثامن عشر ، ميلاد مفهوم جديد للفن واللغة ، أدى بالتدرج إلى سقوطها ، لأنها كانت غير قادرة على تجديد نفسها ، ولم يأت شيء ليحل محلها ، ويمكننا القول إن الأسلوبية بلاغة حديثة ذات شكل مضاعف: إنها علم التعبير ، وهي نقد للأساليب الفردية"[٣] ،ويضيف أيضا: "انتقلت البلاغة من العصور القديمة

=بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا، د. لطفي عبد البديع، مكتبة لبنان، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١، ت ١٩٩٧م، ص٩٤ — ٩٦.

(١) البلاغة والأسلوبية نحو نموذج سيميائي لتحليل النص، هنريش بليث، ترجمة وتقديم وتعليق: د.محمد العمري، منشورات دراسات سال، المغرب، ط١، ت ١٩٨٩م، ص١٣.

(٢) ينظر : الاتجاهات اللسانية المعاصرة ودورها في الدراسات الأسلوبية، مازن الوعر، ص١٤٢.

(٣) الأسلوب والأسلوبية، بيير جيرو، ترجمة : د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، بيروت، د.ط، د. ت.، بيير جيرو، ص٥.

العصر الوسيط ، ثم تجددت في العصر الكلاسيكي وكونت أسلوبية هي في آن واحد علم التعبير وعلم الأدب"[1] ، هذا التحليل التاريخي للتطور المعرفي لعلم البلاغة حتى انتهائه إلى الأسلوبية أو علم الأسلوب ، يجعل جيرو ينتهي إلى نتيجة مفادها أن" البلاغة هي أسلوبية القدماء وهي علم الأسلوب"[2]. وعلى الرغم من أن الأسلوبيين يرفضون هذا التعريف للأسلوبية بوصفها بلاغة حديثة ، لما بين العلمين من فروقات منهجية ومعرفية ومفاهيمية وأسلوبية ، حتى يمكن عدّ الأسلوبية بديلة للبلاغة "وإنها تقوم على أنقاض البلاغة القديمة وإنها تحتل محلها وتواصل مهمتها معدلة في أهدافها ووسائل عملها"[3] ، على الرغم من هذا الرفض إلا أن العلاقة بين العلمين تبقى قائمة سواء كانت علاقة استبدال أم تواصل معرفي ومنهجي ، مع وجود الفروقات المنهجية والبحثية "فمن جهة المنهجية ، بينما الأسلوبية علم تقريري ، وصفي ، موضوعي ، تصف وتحلل وتصنف متحاشية الذاتية ، وأيضا المعيار ، فإن البلاغة فن للقول أي أصول نظرية وتطبيقية له ، ومن طبيعتها معيارية ، ذوقية ، ترسم القواعد وتعلم الكتابة الأفضل"[4] ولهذا توسم بالمعيارية على حين توصف الأسلوبية بالوصفية ، "أما مجالات البحث ، فإن مجال الأسلوبية ينصب على الإيصال الفني للغة ، أي كل ما يتعلق بالإبلاغية الأدبية عند الباث ، والمتلقي ، والنص نفسه ، في حين أن مجال البلاغة هو الإيجاد ، والترتيب ، والتعبير ، أي مضمون القول الأدبي وشكله"[5].

---

(١) الأسلوب والأسلوبية، بييرجيرو، ترجمة : د. منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، بيروت، د.ط، د. ت.، بيير جيرو ، ص٥.

(٢) المصدر ذاته، ص١٦.

(٣) مدخل للأسلوبية، تنظيرا وتطبيقا، الهادي الجطلاوي، ص١٧.

(٤) النقد والأسلوبية، عندنان بن ذريل، ص ٣٢٣ – ٣٢٤.

(٥) لسان العرب، للإمام العلاّمة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، د. ط، ت ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.، مادة – بدل.

بمعنى آخر أن طبيعة الدراسة الأسلوبية تختلف عن طبيعة الدراسة البلاغية في طريقة المعالجة "فمثلاً خذ دراسة الصورة الفنية ، كالتشبيه ، والاستعارة ، والصورة فوق الواقعية ، والرمز ، نجد أن الأسلوبية تدرس فيها ، الانزياح عن القاعدة التي في الاستعمال اللغوي ، ثم الذي تحمله بلاغية النص وصلتها بها ، ثم السياقات ،... في حين أن البلاغة تدرس في الصورة الفنية ، مفرداتها وتراكيبها ، وأثرها في النص ، ومضمونه ، ومعانيه"(١) ، مما يجعل الدراسة الأسلوبية تركب النص بعد تفكيكه ، بينما البلاغة تفكك النص لتجزئه ولتفصل بين مضمونه وشكله ، وفق رؤية ثنائية.

---

(١) لسان العرب، للإمام العلاّمة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، د. ط، ت ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.، مادة – بدل –

المبحث الثاني:

التوصيف اللساني لعلاقة الأسلوبية بالبلاغة واللسانيات والنقد...

أولاً: علاقة الأسلوبية بالبلاغة (منهجية الاستبدال اللسانية):

أ) من التغيير والتجاوز إلى الاستبدال (موضوعية الانتقال):

لقد كانت أطروحات مرحلة الحداثة البلاغية الأولى تتأسس على مفاهيم من مثل (التغيير والتجاوز) بعد أن تأسست مرحلة التجديد على مفاهيم (التطور والتطوير)، في حين أن المرحلة الثانية من حداثة البلاغة العربية، تتأسس على مفهوم (الاستبدال)، الذي يضم في دلالته إجراءات الدراسات الأسلوبية التي طُرحت بوصفها بديلاً للبلاغة القديمة. لقد حاولت دراسات البلاغة العربية الحداثية في مرحلتها الأولى أن تقدم البديل للدراسة البلاغية القديمة، بالاستعانة بالمناهج النقدية الحديثة لا سيما منهج الصورة الفنية. إلا أن هذه الدراسات لم تطرح في حيثياتها التمهيدية أو في صلب الدراسة ذاتها، موضوع(موت البلاغة) وضرورة استبدالها، أو أن المنهج المطروح سواء كان منهجاً بنيوياً لسانياً، أم تكوينياً، أم منهج الصورة يمثل بديلاً نقدياً لمفاهيم وأساليب البلاغة القديمة. لقد كان الهدف المطروح في تلك الدراسات هو تحديث البلاغة تاريخاً ومفاهيم وأساليب من خلال حداثة الرؤية المنهجية المقاربة لها. فلم تستطع تلك المناهج أن تطرح نفسها بوصفها بديلاً للبلاغة العربية على مستوى التنظير أو التطبيق، ولم يقل النقاد الحداثيون ذلك؛ والسبب في ذلك تقني ومعرفي. أما السبب التقني، فيتصل ببنية المناهج النقدية الحداثية واختلافها عن بنية البلاغة العربية، بمعنى أن هذه المناهج إما أن تعالج قضايا تمثل جزءاً فقط من البنية البلاغية الكلية، كما هو منهج الصورة الفنية الذي يتصل بـ

(علم البيان) من المنظومة البلاغية المتكاملة ، ثلاثية التكوين ، فهو لا يعالج إلا المباحث التي تتصل بالمجاز بأشكاله والكناية ، ويتجاوزها إلى أشكال لم تعرفها البلاغة القديمة مثل الصورة الأسطورية والرمزية والتناصية وغيرها من أنماط الصورة الحداثية ، وإمّا إن هذه المناهج تنطلق من أساسيات مختلفة كلياً أو جزئياً عن أساسيات البلاغة العربية ، مثل المنهج البنيوي بشكليه اللساني والتكويني ، إذ إن المنطلقات والمبادئ التي ينبع منها المنهج البنيوي ، تخالف المنطلقات والمبادئ التي تُبنى منها البلاغة العربية. ولهذا السبب لا يمكن أن يكون هذا المنهج ، أي البنيوي ، بديلاً للبلاغة العربية ، نعم قد يكون مفيداً في إدخال تغييرات في قراءتنا للبلاغة تاريخياً ومفاهيم وأساليب ، إلا إنه لا يستطيع أن يكون بديلاً عنها ، لأنه ببساطة لا يقدم أدوات تحليلية بديلة لتلك التي تقدمها البلاغة بمنظومتها الثلاثية ، كما لا يمكن لمنهج الصورة أن يكون بديلاً للبلاغة بكليتها ، لأنه لا يعالج إلا جزءاً من منظومتها المتكاملة. هذا الاختلاف التقني والإجرائي بين البلاغة العربية والمناهج النقدية الحداثية ، يضاف إليه افتراق معرفي ، يتأسس من حقيقة تاريخية مفادها أن نشأة هذه المناهج لم تكن في حقيقتها نقضاً ورفضاً للمنهج البلاغي سواء العربي أم الغربي ، بل جاءت نشأتها استجابة لمتطلبات معرفية ونقدية أخرى لا علاقة لها بالمنهج البلاغي ، ولهذا كانت استفادة النقاد من هذه المناهج في قراءة البلاغة جزئية وتتصل بقضايا غير جوهرية في الفكر البلاغي.

أما الأسلوبية فإنها ، تقنياً ومعرفياً ، قد جاءت بديلاً للبلاغة ، سواء على المستوى الغربي أم العربي. ذلك أن المنهج الأسلوبي يماثل إلى حد كبير الدراسة البلاغية تقنياً ، ويماثلها في ظروف نشأته ومنطلقاته ومبادئه التي قام عليها معرفياً ، ليس تشابهاً تاماً وكلياً ، وإنما يماثلها في المفهوم النقدي للتحليل التقني ، ومعرفيا في دوافع النشأة والتشكل ، وإن بقي الاختلاف بينهما واقعاً إلى درجة التوارث كما سنحلل ذلك. وبسبب هذا التماثل التقني والمعرفي يغدو من الممكن عدُّ الأسلوبية بديلاً للبلاغة القديمة ونفياً لها ؛من منطلق مفهوم الاستبدال اللساني الذي نحاول مقاربته أولاً لمعرفة مفهومه وخصوصيته البلاغية.

ب) مفهوم الإستبدال العام، ودلالته اللسانية الخاصة :

إن الانتقال من مفاهيم وأساليب البلاغة العربية ، إلى إجراءات وأدوات المنهج الأسلوبي ، مثَّل خياراً نقدياً حاسماً في الفكر النقدي البلاغي العربي ، في محاولة من النقاد البلاغيين الحداثيين لاستبدال المفاهيم والأساليب البلاغية ، أو إعادة قراءتها لإنتاجها مرة أخرى وفق رؤيا إجرائية مختلفة ، لا تمت إلى الأصل البلاغي بصلة إلا بالتماثل الاصطلاحي. والاصطلاح النقدي الملائم لطبيعة هذه المرحلة وخصائصها يتمثل باصطلاح(الاستبدال) الذي نحاول مقاربته الآن لكشف دلالته.

على المستوى اللغوي يقدم لنا ابن منظور مجموعتين دلاليتين من الفعل الثلاثي (بدل) وهي:

١- بدّل تبْديَل ، إذ تأتي بدلالة إثبات القيمة الأساسية مع التغير الشكلي والانتقال من حال إلى حال ، يقول ابن منظور: "البديلُ: البَدَلُ ، وبدَّلَ الشيءَ: غَيَّرَهُ... وتَبْديلُ الشيءِ تغييرهُ وإن لم يأت ببدل... والأصل في التبديل تغيير الشيء عن حاله..."[١] ،ويضرب ابن منظور مثلا على التبديل بتغيير الخاتم بالحلقة أو العكس والذي يعني إذابة أحدهما وتصييره بصورة الآخر مع بقاء الجوهر أي المادة الأساسية في التكوين "التبديل تغيير الصورة إلى صورة أخرى ، والجوهرة بعينها"[٢] ، إن هذه الدلالة التغيرية للتبديل أقرب لدلالة التجديد ، من حيث الاشتراك في الفكرة الأساسية ، القائمة على الحفاظ على جوهر الشيء وتغيير صورته الشكلية ، وهذه الدلالة قائمة كما لاحظنا في محاولة التجديد بكليتها وفي بعض نصوص الحداثة البلاغية كما أشرنا ، وكما سنؤشر لاحقا.

٢ – أبدَلَ إِبدَال ، وتدل على نفي القيمة ، والانتقال من شيء إلى شيء آخر ،

---

(١) لسان العرب، للإمام العلاّمة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، د. ط، ت ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م.، مادة – بدل.

(٢) المرجع نفسه، مادة – بدل – ،

وليس انتقالا في الشيء نفسه ، كما في التبديل ، فالإبدال عند ابن منظور: "جعل الشيء مكان شيء آخر... واستبدَالُ الشيءَ بغيره وتبدَّلُهُ به أَخْذُهُ مَكَانهُ..." [1] ، ومنه مثل الخاتم والحلقة إذا أبدلت الخاتم بالحلقة" إذا نحيتُ هذا وجعلتُ هذا مكانه"[2] ، والعكس صحيح أيضاً ، "والإبدال تنحية الجوهرة واستئناف جوهرة أخرى"[3].

أي إن الإبدال والاستبدال يقع في جوهر الأشياء وماهيتها ، ويفترض إقصاء لقيمة معينة واستبعادها ، وإثبات لقيمة أخرى مكانها بمعنى"إن التبديل المرتبط بدلالة التغيير ، يتعارض تماما مع الإبدال المرتبط بدلالة التعويض ، فالتبديل يقع على الشيء ذاته ، فيما الإبدال يشترط شيئين يأخذ أحدهما مكان الآخر"[4]. إن التوصيف اللغوي للإبدال والاستبدال ، يجعله منطبقاً على خطاب البلاغة الحداثي بشكل عام ، من حيث ارتكاز هذا الخطاب على فكرة جوهرية ، أساسها استبدال الخطاب البلاغي العربي القديم وحتى التجديدي ، بخطاب حداثي مؤسس على فكر الحداثة ومناهجها النقدية.

ومن حيث الدلالة الصرفية لدلالة(الاستبدال) فإننا آثرنا هذه الصيغة المزيدة بالألف والسين والتاء ، بدل صيغ مقاربة مثل(أبدل) لأن هذه الزيادة البنيوية في صيغة الكلمة ، أعطتها دلالة التحول أو ما يطلق عليه الصرفيون(الصيرورة) واتخاذ الشيء

---

(١) لسان العرب، للإمام العلاّمة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، د. ط، ت ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.، مادة - بدل.

(٢) الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها ج٢، (الرومانسية العربية)، محمد بنيس، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ت١٩٩٠م.، ص٧٣.

(٣) ينظر : المغني في علم الصرف، د.عبد الحميد مصطفى السيد، دار صفاء، عمان —الأردن، ط١، ت ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ص١٤٨ — ١٤٩.

(٤) ينظر : النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، دراسة ونصوص، فاطمة الطبال بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت — لبنان، ط١، ت ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص٣٦ — ٣٧.

بقصد ونية[1] ، وهاتان الدلالتان مهمتان في فهم دلالة الاستبدال نقدياً وفق المستوى الاصطلاحي.

اما على مستوى دلالة الاستبدال نقدياً فيمكننا أن نستعير هنا دلالة محور الاستبدال أو العلاقات الاستبدالية(**Paradigmiatis**) التي صاغها جاكبسون في مقابلة محور النظم أو العلاقات النظمية(**Syntagmatic**) إذ إن العلاقات النظمية تتعلق بالصفة الأفقية للتركيب اللغوي المتتابع زمنياً ، والتغير الحاصل فيها تغير تراتبي ، بتقديم وتأخير أو غير ذلك[2]. أما العلاقات الاستبدالية "فهي تنتمي إلى مجموعات أو مجموعة فرعية تتكون من وحدات يمكن أن تؤدي وظيفة نظمية واحدة في موضع معين من المنظومة ، أي أن كل واحدة منها يمكن أن تحل محل أي واحدة من أخواتها في منظومة معينة"[3].

إن تطبيق مفهوم المحور النظمي القائم على التغيير التراتبي للتركيب اللغوي ، ومفهوم المحور الاستبدالي القائم على الإحلال بين مكونات التركيب باستبعاد مكون وتعويضه بمكون آخر مختلف عنه ، تطبيقه نقدياً على مفهوم التجديد والحداثة ، نجد المحور النظمي يتطابق مع فكرة التجديد من حيث التغيير الجزئي الشكلي ، بينما يتطابق مفهوم المحور الاستبدالي القائم على الاستبعاد والتعويض بشيء آخر مختلف ، مع جوهر فكرة الاستبدال النقدية التي عُولج فيها خطاب البلاغة العربية الحداثي ، لا سيما الأسلوبي منه ، من حيث هو استبعاد وإقصاء لمنهج قديم بأسسه ومفاهيمه وأساليبه وتعويضه بمنهج آخر ، هو المنهج الأسلوبي يأخذ مكانه في التحليل والقراءة ومقاربة النصوص الإبداعية بمختلف أشكالها. بمعنى آخر إن الأسلوبية هي بديل للبلاغة العربية في معالجة النصوص وتحليلها نقدياً ، ومعلوم في المفهوم الأصولي(البديل) هو "أن يتولد عن واقع مُعطى وريث

---

(١) ينظر : النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون، دراسة ونصوص، فاطمة الطبال بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط١، ت ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص٣٧.

(٢) والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب، عبد السلام المسدي، ص٤٨.

(٣) المصدر ذاته، ص٤٨،

ينفي بموجب حضوره ما كان قد تولد عنه"[1].

وهذا يعني أن الأسلوبية بوصفها منهجاً نقدياً "امتداد للبلاغة ، ونفي لها في نفس الوقت ، هي لها بمثابة حبل التواصل وخط القطيعة في نفس الوقت أيضاً"[2]. من هذا التحليل الدلالي والنقدي لمصطلح(الاستبدال) نفهم كثيرا من العبارات التي أطلقها النقاد العرب في توصيف العلاقة بين البلاغة والأسلوبية[3] ، من أنها متنافرة متصادمة "لا يستقيم لهما تواجد آني في تفكير أصولي موحد" ، كما إن الأسلوبية أو علم الأسلوب"وريث شرعي للبلاغة العجوز ، التي أدركها سن اليأس ، وحكم عليها تطور الفنون والآداب الحديثة بالعقم"[4]وأن حقيقة الفرق بينهما جوهري وليس عرضياً "هو كالفرق بين الفلسفة الوجودية وفلسفة الماهية ، هذه تؤول إلى الجواهر وتلك ترجع إلى المعرفة الفطرية والتجربة الحية للإنسان"[5]. وعلى الرغم من أن النقاد يرجعون هذه القطيعة وهذا التوارث الاستبدالي ، إلى الاختلاف التاريخي في نشأة المنهجين ، البلاغي والأسلوبي ، واختلافهما معرفياً ونقدياً ، إلا إننا لا نعدم من يقارب بينهما من النقاد على أساس التواصل النقدي بين المنهجين ، وهذا ما سنعرض له في مرحلة أخرى من البحث. إن اصطلاح الاستبدال الذي نجترحهُ هنا ، يقارب مفهوم القطيعة المعرفية الذي يجعله نقاد الحداثة أساساً وشرطاً لا بد منه لإدخال الحداثة للفكر العربي عموما ، والنقدي البلاغي خصوصاً ، القطيعة المعرفية

---

(١) والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب، عبد السلام المسدي ، ص٤٨،

(٢) علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، ط١، ت١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص٥.

(٣) التركيب اللغوي للأدب، ص٩٣.

(٤) فيلسوف فرنسي، يعد من أعلام الهيكلية في ميزان الفلسفة ولا سيما الأصولية منها، إذ فرض أسلوباً جديداً في التفلسف وفي التاريخ للوقائع الإنسانية، يطلق عليه المنهج الحفري أو الأركيولوجي، من مؤلفاته: الكلمات والإشياء، واركيوولجيا المعرفة. الأسلوبية والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب، ص٢٤٧.

(٥) حفريات المعرفة، ميشيل فوكو، ترجمة : سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، وبيروت، ط١، ت١٩٨٦م، ص١٦٩.

التي يعرفها فوكو **Foucault** (ت١٩٨٩م)[١] بأنها "اسم يطلق على تحولات تهم النظام العام لتشكيلة أو عدة تشكيلات خطابية"[٢] ، ويشترط له أن يحل تشكيل كتابي مكان آخر لتحقيقه ، سواء كان الإحلال يتم بإعادة التوزيع والترتيب إلى حد الاختلاف الكلي مع بقاء الصلة ، أم يتم بالإحلال الاستبدالي الكامل ، بوضع صيغة كتابية(إبداعية أم صورية) مكان أخرى نفياً وتعويضاً لها بصيغة أخرى.

ثانيا :علاقة الأسلوبية باللسانيات والنقد(منهجية الإستبدال والتجاور اللسانيتين)...

اذا كانت علاقة الأسلوبية بالبلاغة تنتظم وفق منهجية الاستبدال حسب مخطط جاكبسون اللساني ، فإن علاقة الأسلوبية باللسانيات يمكن وصفها بأنها علاقة نظمية او تجاورية وفق ترسمية جاكبسون ذاتها.

إن الأسلوبية واللسانيات يصدران من المنهجية ذاتها ، بمعنى انهما يمثلان التحليل اللساني المحايث للنصوص على اختلاف انواعها ، إلا إن اللسانيات تتعلق بالدراسة اللغوية للنصوص بمستوها القاعدي الأولي ، في حين إن الأسلوبية يكون مجال عملها في اللغة الابداعية الادبية ، مستمدة ادواتها من اليات التحليل اللساني ، الذي يعد الأساس الذي نشأت عليه الأسلوبية في بداياتها الاولية. ومن ثم يمكننا القول ان علاقة الأسلوبية باللسانيات تنتظم وفق علاقة المجاورة ، التي تشكل المسار الافقي من بناء النص ، فهي تتعلق بعلاقة الكلمات بعضها مع بعض على مستوى التجاور والانتظام ، وعلاقة الأسلوبية باللسانيات يمكن توصيفها وفق هذا التحليل اللساني ، لما بين المنهجية الأسلوبية واللسانية من تقارب وتواصل معرفي ونقدي ، يجعل منهما منهجا لسانيا واحدا بوجهين تطبيقيين مختلفين. ولهذا يتبنى كثير من النقاد الاقتراح الذي يحدد الأسلوبية بأنها "دراسة الخطاب الأدبي من وجهة نظر لسانية" ، إلا أن ما يميز الأسلوبية عن اللسانيات هو مجال البحث وأدواته ، فالأسلوبية تحدد مجال بحثها

---

(١) علم اللغة والنقد الأدبي " علم الأسلوب "، د. عبده الراجحي، فصول، م١، ع٢، ت ١٩٨١م، ص١١٧.

(٢) ينظر في هذا الخلاف: الأسلوبية منهجاً نقدياً، ص٤٤ – ٤٥.، والتركيب اللغوي للأدب،ص٩٤ – ٩٦.

باللغة المفارقة الإنحرافية وبأدوات لغوية نصية مكتشفة من النصوص الإبداعية وليست أدوات ذات طبيعة لغوية قاعدية ، كما تفعل اللسانيات التي تحدد مجال بحثها باللغة القاعدية غير المتأسلبة. "ومعنى ذلك أن علم اللغة يدرس(ما) يقال في اللغة ، أما علم الأسلوب فيدرس(كيف) يقال ما في اللغة ، أو إن(الأسلوب) هو ما يتركه علم اللغة"[١]. واذا انتقلنا الى علاقة الأسلوبية بالنقد الحديث ، فتبدو هذه العلاقة منهجيا اضعف من العلاقتين السابقتين(اعني علاقة الأسلوبية بالبلاغة واللسانيات) ، اذ ينحص النقاش كما لاحظنا بين كون الأسلوبية منهج نقد مستقل ، وبين كونها اداة في التحليل النقدي ، وبين من يجعلها في مجال والنقد في مجال اخر. إن العلاقة بين الأسلوبية واللسانيات هي التي أكسبتها الموضوعية والعلمية في منهجية الدراسة ، ومن ثم فإننا وباختصار نستطيع القول إن "الأسلوبية هي محاولة تأطير النقد بأطر موضوعية ذات أسس علمية" ، والانتقال بالنقد من الانطباعية والذاتية إلى الموضوعية والتحديد المنهجي ، وليس مهماً بعد هذا أن تكون الأسلوبية منهجاً نقدياً قائماً بذاته ، مقابل النقد الأدبي ، أو تكون ضمن مناهج النقد الأدبي وفرعاً منها ، فهذا نقاش عقيم كما يرى الباحث إذ لا يغير من حقيقة المنهج الأسلوبي في شيء ، سوى أنه إما أن يوسع من مجاله ويجعله بديلاً أو مقابلاً للنقد ، أو يضعه ضمن مناهج النقد ، ويقلص من سعته المعرفية[٢]. بمعنى لساني محدد ان علاقة الأسلوبية بالنقد يمكن ان تتحدد وفق علاقة الاستبدال ، اذا كانت الرؤية المنهجية تتبنى القطيعة بين المنهج الاسلوبي والنقد الادبي ، أي إن كل منهما يشتغل بطريقة مختلفة عن بعضمهما ، مع اشتغالهما على ذات النصوص الادبية. ويمكن ان تكون العلاقة نظمية تواصلية ، اذا كانت الرؤية المنهجية تتبنى التواصل المعرفي بين الأسلوبية والنقد ، مع الاقرار بوجود الفوارق المنهجية والتكوينية فيما بينهما.

---

(١)

(٢)

النتائج والإستنتاجات..

لقد حاول هذا البحث أن يثبت اولا ثراء الفكر اللساني عند جاكبسون ، وامكانية الافادة منه في مجالات الكتابة النقدية بمختلف اتجاهاتها المعرفية.

وتعد فكرة العلاقات الاستبدالية والنظمية ، من اهم التطبيقات اللسانية التي حاول فيها جاكبسون تفسير ادبية النص الابداعي.

وقد اعتمد البحث هذه الثنائية اللسانية لمقاربة قضية علاقة الاسلوبية المعرفية بالمنهجيات الاخرى ، البلاغة واللسانيات والنقد الادبي. إذ تبين اعتماد علاقة الاسلوبية بالبلاغة على فكرة الاستبدال ، في حين كانت علاقة الاسلوبية باللسانيات تتمحور حول فكرة الانتظام ، على حين تتأرجح علاقة الأسلوبية بالنقد الادبي بين الاستبدال والانتظام.

وقد أصلت لمفهوم الاستبدال والانتظام حسبما وضعه جاكبسون ، ومن خلال الافادة من التحليل المعجمي والاصطلاحي لهذين الاجراءين المنهجيين.

ولاشك أن علاقة الاسلوبية بالبلاغة من أشد العلاقات المعرفية تعقيدا وتداولا في الدرس النقدي الحديث ، ولهذا أخذت حيزا كبيرا من الحجم الكتابي للبحث.

إن فكرة الإلغاء المبني على إجراء (الاستبدال) طرحت مع المنهج الأسلوبي ، الذي ظهر للنقاد العرب أنه يمكن أن يكون بديلا للبلاغة القديمة ، لأنه منهج نقدي له تماثلات معرفية ونقدية مع البلاغة القديمة تسمح له أن يكون بديلا عنها ، ولهذا أصّلنا لمفهوم الاستبدال ، بوصفه الاصطلاح الأساسي في الدراسة. وقد بدا اصطلاح الاستبدال منطبقا مفاهيميا وإجرائياً مع مدونة التنظير والتطبيق الأسلوبي ، بسبب طرح هذه الدراسات المشكلة للمدونة الأسلوبية ، اصطلاحات تعبر عن هذا الاستبدال ، من مثل (موت البلاغة) و(عقم البلاغة) و(عجز البلاغة) وغير ذلك من اصطلاحات نقدية دالة على مفهوم الاستبدال. ولا شك أن ما حدث بين البلاغة والأسلوبية على المستوى النقدي المعرفي ، مثَّل وجهاً من أشكال القطيعة المعرفية مع الماضي ، والتي تعد شرطاً لازماً لإحداث التحول الحداثي في المناهج النقدية العربية ، ومنها البلاغة بالتأكيد.

مقولات الخطاب اللساني العربي
قراءة في البنية الأبستيمولوجية

أ.م. د. حيدر محمد جبر
كلية الآداب / جامعة بغداد

غيرُ خافٍ أن المعرفة اللسانية التي امتدت على مساحة واسعة من النصف الأول من القرن العشرين ، قد أثرت في تحريك البنية الثقافية العربية في مجال اللغويات ، بعد أن تيسرت لها سبل الاتصال وتعددت أمامها منافذ التحصيل العلمي ، مما أدى إلى الاهتمام باللسانيات بوصفها معطىً منهجياً يحكم التفكير اللغوي عامةً.

إن هذا الواقع الثقافي كان يلزم المعنيين –آنذاك– أن ينصرفوا إلى استشراف النظرية اللسانية ويتأملوا واقعها الذي بدأ يؤسس لحركة علمية أخذت ملامحها تتضح بشكل جلي في القارتين الأوربية والأمريكية معاً ، ويحددوا خطوات التعرف على تلك الثقافة ، على وفق خصوصيتها من جهة ، وما تمثله من تقابل أو تقاطع مع الموروث العربي من جهة أخرى.

إنّ النزوع إلى تطبيق المناهج اللسانية ، قد وضع البحث اللغوي العربي في إطار تجربةٍ بعيدة عن تجاربه وأخضعهُ لمرحلة لم يكتب له أن مرّ بها ، وأحكام وقوانين لم يعرفها في مجالٍ تطوره ، ومن هنا كانٍ على الباحثين الذين تصدوا لهذا المشروع أن يقعوا ضحية التقليد للنظرية اللسانية الغربية[1].

استثمار هذه الحقيقة ، ربما يشكل شاخصاً مهماً في ترسيم الحدود التاريخية

---

(١) ينظر: نشأة الدرس اللساني العربي : ١٥، ١٨، ٢٢.

للسانيات العربية التي اقترنت بداياتها بعودة الموفدين المصريين من الجامعات الأوربية في أربعينيات القرن المنصرم[1].

وقد حدد الباحثون أولى إرهاصات هذه التجربة الجديدة بين عامي(١٩٤١-١٩٤٦) ، وهي المدة التي يرجح فيها صدور أول منجز عربي يحمل طابعاً لسانياً ، وهو كتاب "الأصوات اللغوية" لإبراهيم أنيس[2] على الرغم من صدور كتاب يحمل عنواناً صريحاً في هذا المجال هو "علم اللغة" لعلي عبد الواحد وافي عام ١٩٤٠م[3].

ويبدو جلياً أنّ هاتين المحاولتين قد فتحتا الباب أمام الدارسين الذين سلكوا هذا المسلك واتجهوا بدراسة اللغة هذا الاتجاه ، حتى توالت المصنفات اللسانية ذات المنحى التأسيسي في هذا الحقل الجديد ، ولعل أبرزها : "اللغة والفكر" لعبد العزيز القوصي عام١٩٤٦م ، و"اللهجات العربية" لإبراهيم أنيس عام ١٩٤٦م ، و"اللهجات العربية وأسلوب دراستها" لأنيس فريحة عام١٩٥٥م ، و"مناهج البحث في اللغة" لتمام حسان عام ١٩٥٥ و"دراسات نقدية في النحو العربي" لعبد الرحمن أيوب عام ١٩٥٧م ، و"دلالة الألفاظ" لإبراهيم أنيس عام ١٩٥٨م ، و"اللغة والمجتمع" لمحمود السعران عام ١٩٥٨م ، و"علم اللغة ، مقدمة للقارئ العربي" للباحث نفسه عام ١٩٦٢ ، و"أصوات اللغة" عام ١٩٦٤ ، و"محاضرات في اللغة" عام ١٩٦٦م ، لعبد الرحمن أيوب ، وسوى ذلك من المصنفات التي كفتنا مؤونة عرضها الباحثة فاطمة البكوش في دراستها "نشأة الدرس اللساني العربي الحديث"[4].

ولما كان العقل العربي بطبيعته السايكولوجية ليس مفصولاً عن الثقافة التي

---

(١) ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي : ١٤٢؛ وأثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة: ٣، ٤، ونشأة الدرس اللساني العربي الحديث: ٨.

(٢) ثمة خلاف بين الباحثين في تحديد تاريخ الطبعة الأولى من هذا الكتاب، ينظر: نشأة الدرس اللساني العربي الحديث: ١٨، ١٩، ٢٠.

(٣) ينظر: علم اللغة(وافي): ٤، نشأة الدرس اللساني العربي الحديث: ٢٠.

(٤) ينظر: الدراسة المذكورة: ٢٤، وما بعدها.

أنتجته ، وكلاهما يشكل بنية واحدة من الثوابت المعرفية الراسخة[١] ، فإن مساعي اللسانيين في تلك المرحلة لم تخل من إشكالية ثقافية ، قادت باحثاً عراقياً معاصراً مثل حيدر سعيد إلى الحكم بأن تلك الجهود مثلت تغريباً ثقافياً يهدد الثقافة العربية الموروثة[٢] ، وقد نلمس صدى واضحاً لهذه الحقيقة ، عند أحد الرواد ، وهو عبد الرحمن أيوب ، في كتابه "دراسات نقدية في النحو العربي" ، إذ توجس خيفة من نظرة الأوساط الثقافية العربية لهذا الكتاب وقبولها إياه ، إذ قال: ((أما كيف يتلقى الناس هذا الكتاب ، فإني أعلم مقدماً أن منهم من سيعتبره كفراناً بثقافتنا التقليدية وتجريحاً لسلفنا اللغوي الصالح))[٣] ، وكذا الأمر مع محمود السعران حين عبر عن هذا المعنى بأسلوب قد يبدو أقل حدة من سابقه ، إذ قال إن((جمهور المشتغلين بالدراسات اللغوية... يرفض النظر في هذا العلم الجديد ، أو لا يحاول فهمه ، أو يعجب أن ما في يده من علمٍ يحل محلّهُ علمٌ حادثٌ وافدٌ من البلاد الغربية ، وخيرهم ظناً بهذه الدراسة الجديدة ، وبالقلة القائمة بها من أبناء العربية يعد علم اللغة أو بعض فروعه ، كعلم الأصوات اللغوية ، ترفاً علمياً لم يؤن الآوان بعد للانغماس فيه أو التطلع إليه))[٤].

ومن هنا لم يستطع البحث اللساني العربي أن يكون منبت الصلة عن التراث ، حتى أخذت اللسانيات العربية طابعاً توفيقياً تتفاعل فيه المعطيات التراثية ومقولات الدرس اللساني الحديث بصورة تفسح المجال أمام مرحلة جديدة من الخطاب العلمي الذي يعتمد الوصف والتجريب أساساً في الكشف عن حقائق اللغة[٥].

إن الإطار النظري الذي حكم خطوات الرواد من اللسانيين العرب ، قد ترك أثره الواضح في دراساتهم ، ووجه في ظل مقولاته عجلة التفكير اللغوي توجيهاً يقتصر

---

(١) ينظر: العقل العربي ومجتمع المعرفة : ٢/ ١٢.

(٢) ينظر: أثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة : ٦.

(٣) دراسات نقدية في النحو العربي: المقدمة.

(٤) علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي: ٢٢.

(٥) ينظر: أثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة: ٦.

على عرض النظرية اللسانية الغربية والتعريف بها للقارئ العربي[١] ، وقد انبثق عن طبيعة هذه المهمة مساران سلكهما الباحثون وكثفوا الاشتغال فيهما ، هما: دراسة الأصوات اللغوية ونقد النظرية النحوية التقليدية.

وإذا كان تكثيف الاشتغال في الحقل الأول ، يمثل استجابة ملحةً للنزعة البنيوية الوصفية التي شهدها النصف الأول من القرن العشرين[٢] ، فإن التجريب بات سمة هذا الحقل وعلامته الفارقة لدى اللسانيين العرب ، مما جعل هذا التشخيص يسهل عملية تصنيف تلك الجهود ضمن دائرة الفوناتيك التي تُعنى بوصف الأصوات على مستوى المخارج والصفات ، ويجعل أوجه التلاقي مع البحث القديم كثيرة ، وعلى هذا فإن المباحث الصوتية في اللسانيات العربية الحديثة جاءت مستندة إلى متن نظري ذي أصلين: أحدهما البحث الصوتي العربي القديم ، والآخر علم الأصوات الحديث في شقه الخاص بالفوناتيك[٣].

ويبدو أنّ الإغراق في مجال الصوتيات أسهم في خلق فضاء علمي تقترب معطياته من العلوم الطبيعية الصرفة ، وقد انعكس ذلك صراحةً في مصنفات تلك المرحلة[٤] ، حتى إن كثيراً من رواد البحث اللغوي العربي المعاصر ظلت قناعاتهم عن اللسانيات محصورة كلياً أو جزئياً في حقل دراسة الأصوات ، وفي هذا السياق لم يتردد عبد السلام المسدي في جعل هذا الإصرار على هذا التوجه أحد معوقات النهضة اللسانية في عالمنا العربي[٥].

أما المسار الآخر الذي كان منفذاً مهماً لتصدير الخطاب اللساني ، فهو نقد النظرية النحوية العربية وتقويمها منهجياً ، وليس خافياً أن هذا الاتجاه كان محاولةً لوضع التفكير النحوي في إطار اللسانيات التي تقدم لدارس اللغة إمكانية التفكير

---

(١) ينظر: نشأة الدرس اللساني العربي : ٨٦.

(٢) نفسه: ١٠٤.

(٣) نفسه: ١٠٥.

(٤) ينظر: أصوات اللغة: ٤٠.

(٥) ينظر: اللسانيات وأسسها المعرفية: ١٣.

والتأمل في مادتها وبنائها والمناهج التي تحكمها ، ولعل دراسة النحو بهذا الانفتاح على المعرفة اللسانية يسهم في تطوير النظرية العلمية للغة العربية من خلال صياغة كثيرٍ من المبادئ التي من شأنها تقليص المسافة المعرفية بين التراث والمعاصرة[1].

إن هذه المحاولات التي بدأت تأخذ مجالها في الوسط الجامعي وحجمها في عملية التأليف سجلت مسيرتها تعثراً قد يرقى إلى مستوى الأزمة على صعيد العرض والتطبيق والحوار مع الموروث العربي في علوم اللغة ، وهذه القضية يمكن تلمّس آثارها في المصنفات اللسانية الأولى لدى إبراهيم أنيس وتمام حسان وعبد الرحمن أيوب وأنيس فريحة ، إذ وجّه هؤلاء نقوداً حادةً للتراث أوحت بانفصال ثقافي ربما لم يتقبله القارئ العربي[2] ، ولعل هذه النظرة التي بدأت تترسخ في أذهان أولئك الدارسين قد دفعت عبد الرحمن أيوب إلى القول بأن النمط الفكري الذي يغلف الأبحاث اللغوية غير اللسانية بات((نوعاً من الاجترار العقلي الذي لا يليق بعصرنا الذي نعيش فيه ولا بنهضتنا العقلية في هذا الدور الحاسم من أدوار الثقافة العربية.))[3].

إن الدعوة إلى تأسيس خطاب ينسجم مع تلك الثقافة تعود في مرجعيتها الأساسية إلى المركزية الغربية[4] ، وعلى ما يبدو فإن تطبيقها في واقع مغاير ربما سيقود إلى اغتراب أو انفصام ثقافي يجعلها تفقد فاعليتها ، وعلى هذا فإن الثقافة اللسانية التي يدعو إليها عبد الرحمن أيوب تنتظم في إطار المرجعية المعرفية الغربية التي تمثل الطرف الفاعل في المعادلة في حين إن الثقافة العربية تمثل الطرف المنفعل الذي يتلقى الأصول وينسخها ثم يشكل في ضوئها لسانيات تحمل خصيصةً عربية على مستوى العرض والتطبيق.

وفي ضوء هذا صنف حسن الملخ كتاب "دراسات نقدية في النحو العربي"

---

(١) ينظر: اللسانيات والبيداغوجيا : ٢٥.

(٢) ينظر: أسئلة اللغة، أسئلة اللسانيات : ٥٥.

(٣) دراسات نقدية في النحو العربي : المقدمة : د.

(٤) نفسه : هـ.

ضمن هذا الاتجاه ، وعده "صدمة ثقافية" لمعظم المشتغلين بعلوم العربية آنذاك ، لأن نقده للنظرية النحوية العربية لم يكن على وفق معايير موضوعية تسعفه في مناقشة منهج النحو العربي ، بل راح يشكك بالحقائق التي انبنى عليها ، من قبيل ظروف نشأته وأسس التفكير التي استند إليها(١).

ومن هنا رأى حسن الملخ أن عبد الرحمن أيوب كان نموذجاً للطرح الحاد الذي أسهم في تأجيل تقبل الثقافة العربية للسانيات حتى سبعينيات القرن العشرين(٢).

ولنا أن نستشف من جهود تلك المرحلة وتقويمها أن مهمة الاضطلاع بدراسة اللغة على وفق منهج مغاير للمنهج المألوف الذي أرساه القدامى ، كان مهمة شاقة وعسيرة إلى درجة تقترب من حدود المغامرة ، نظراً لغياب ثقافة الانفتاح التي تساعد على حلحلة تلك العقدة وتجاوزها والوصول إلى التحليل والاستنتاج العلمي الذي تمليه مقتضيات المنهج الجديد ، وهذه الملاحظة كان ماثلة في ذهن تمام حسان ، وهو يقدم كتاب(مناهج البحث في اللغة) ، وكأنه أحس أن هذا الموقف قد لا يلقي القبول المرجو عند من درجوا على التعلق بطريقة القدامى منهجاً وأسلوباً ، إذ قال إن ((المقادير قد ألقت على كاهل جيلنا هذا أخطر تبعةٍ تلقى على الأجيال ، ألا وهي تبعة البناء من الأنقاض ، وتمهيد الطريق ، ووضع معالمه للأجيال القادمة... نحن إذاً في تطور يجب أن يشمل كل مرافق حياتنا من سياسية إلى علمية إلى اقتصادية إلى اجتماعية إلى غير ذلك ، وواجب... هذا الجيل ألا يقنع بما هو كائن ، وأن يفكر تفكيراً مضنياً فيما يجب أن يكون وهذا هو المعنى الذي حفزني إلى أن أحاول هذه المحاولة في تجديد مناهج البحث في اللغة بفروعها المختلفة ، وهي محاولة أترك الحكم فيها للقارئ.))(٣).

وربما تبدو العبارة الأخيرة في هذا النص قلقة إلى حد ما ، وتحمل من التعميم الذي قد لا نستطيع معه تحديد الشريحة الموجّه إليها هذا الخطاب اللساني ، لكن

---

(١) ينظر: أسئلة اللغة، أسئلة اللسانيات : ٣١٣- ٣١٤.
(٢) نفسه : ٣١٤.
(٣) مناهج البحث في اللغة : ٤- ٥.

نستطيع القول: إنّ تصنيف هذا الخطاب ضمن دائرة "علم اللغة" يجعله يحظى باهتمام المختصين بهذا المجال ، ولعّل الدلالة الواسعة لكلمة (القارئ) ، قد كلفت بعض الباحثين وهو حسن الملخ شططاً ، وهو يحاول أن أن يقوّم المرحلة التأسيسية للسانيات العربية ، إذ تصور أن الخطاب اللساني الذي يصر أصحابه على أنه موجه للقارئ العربي أو المثقف ، قد تجاوز الباحث العربي ، مما يؤشر بحسب وجهة نظره ، يأساً من إقناع الباحث آنذاك بالمقولات اللسانية[١] ، لينتهي على وفق هذه الرؤية إلى ((أن بعض اللسانيين الأوائل لم يحسنوا زرع النباتات اللسانية في العالم العربي ، لأنهم حملوا اللسانيات ، ولم يحملوا طريقة زرعها في العالم العربي.....))[٢].

وعلى أية حال ، فقد تميزت اللسانيات العربية في تلك الحقبة بخصوصيتها الزمانية والمكانية من ناحية ، وبالمعطيات التي اشتمل عليها خطابها من ناحية أخرى ، ومعلومٌ أن الخصيصة الأولى تتجلى بالريادة والسبق الزمني وانبثاق ذلك المنجز من مصر التي مثلت حاضنة مكانية للدراسات اللسانية آنذاك. أما السمة الأخرى التي تشكل ملمحا مهماً من ملامح الاتجاه اللساني لدى الباحثين العرب ، فهي ترتبط بالخطاب اللساني لدى أولئك الدارسين ، إذ تميزت جهودهم بتصدير مقولة الوصفية والاقتصار عليها بوصفها معادلاً للموضوعية التي ينماز بها التفكير العلمي الحديث[٣].

هذا التشخيص نظر إليه بعض الباحثين من زاوية أخرى ، فقد ذهب حمزة بن قبلان المزيني إلى أن جمود البحث اللغوي العربي المعاصر على ما قدمه المصريون وحصر التداول اللساني في نطاق المقولات الوصفية ، كان أحد أسباب تأخر الدراسات اللسانية العربية ، إذ قال إن((معظم الكتب والأبحاث التي تتلمذ عليها أكثر المتخصصين الآن كتبها رواد الدراسة اللسانية المصريون الذين عادوا من البعثة إلى بريطانيا في أواسط الخمسينات الميلادية ، وكان هؤلاء العائدون قد تدربوا على الدرس

(١) ينظر: أسئلة اللغة وأسئلة اللسانيات : ٣١١، ٣١٢.

(٢) نفسه: ٣١٢.

(٣) ينظر: دراسات نقدية في النحو العربي : المقدمة : هـ، العربية وعلم اللغة البنيوي : ١٦٩، ونشأة الدرس اللساني العربي الحديث : ٨٥، ٨٦.

اللساني في إطار المدرسة الوصفية التي كانت مزدهرة في تلك الفترة ، وبعد أن عادوا كتبوا كتبهم الأولى مستندين إلى خبرتهم التي اكتسبوها هناك ، ولم يطوروا أنفسهم ، بل بقوا إلى الآن على ما تعلموه في الخمسينات ، أشرفوا على طلاب من مختلف الدول العربية ونقلوا إليهم أفكار المدرسة الوصفية ، وحجبوهم عن الاستفادة من التطورات المتسارعة في البحث اللساني.))(١).

وهنا ملاحظة ، أود أن أسجلها ، إذ إن المعروف أنّ الحديث عن الأفكار والنظريات يستلزم عدم فصلها عن سياقها التاريخي الذي انبثقت منه ، لأن في ذلك ضمان الوصول إلى نتيجة صائبة ، ولا يخفى أن اللبنات الأولى للبحث اللساني العربي لم توضع في ظل منهجٍ محدد الأبعاد ، وإنما جاءت بصورة فردية ، وعلى وفق الأسباب التي لازمت وجودها وفرضت استحداثها ، والعوامل المؤثرة في كل توجه من توجهاتها ، وفي ظني أن النظر إلى تلك المرحلة ينبغي أن يوضع في إطار ما يمكن تسميته بالتجربة اللسانية التي تشكل حلقة من حلقات التدرج في هذا المجال الذي لم تكن فيه الطريق معبدة أمام الباحثين العرب ، ذلك أن التعاطي اللساني كان جزءاً من إشكالية الثقافة المعاصرة التي بدت وكأنها "صدمة" ، نظراً لجدتها وغرابتها لدى مجتمع مختلف كلياً بثقافته ودرجة تطوره العلمي ، وعلى هذا كان رد الفعل إزاء هذه الثقافة بمعناها العام ينحصر في موقفين: موقف القبول الكامل لهذه الثقافة الذي التزمه أفراد قلائل ، وموقف الرفض المطلق الذي التزمه "التقليديون" ، وكانت النتيجة بقاء تلك الثقافة المستوردة أسيرة تقبل غير نقدي من جهة ، أو رفض انعزالي جامد من جهة أخرى(٢) ، ومن هنا فإن ما رآه المزيني يبدو مقولةً غير دقيقة ، ومن ثم يكون قبولها ليس سهلاً.

ولعلنا لا نبتعد عن الحقيقة إذا قلنا: إن المصنفات اللسانية لدى الباحثين المصريين الرّواد ، كانت رافداً مهماً من روافد التعريف بالنظرية اللسانية الحديثة والوقوف على

---

(١) أسئلة اللغة، أسئلة اللسانيات : ٥٥.

(٢) ينظر: ملاحظات تمهيدية حول معنى الحضارة : ٤٥.

معطياتها المنهجية ، وإن هذه المحاولات كانت تسجل وضعاً لسانياً محدداً ومحدوداً في الوقت نفسه ، ولم تتمكن لأسباب سبق ذكرها ، أن تتجاوز هذا المستوى ، لكنها تركت الباب مفتوحاً للمشاركة والتطوير ، ويبدو أن مساحة المعرفة اللسانية في عالمنا العربي ، بدأت تتسع لتشمل روّاداً من غير المصريين في تلك الحقبة ، وربما لم يكن معروفاً في هذا المجال أن للباحث العراقي اسهاماً ناضجاً ومبكراً تحقق على يد أحد الباحثين الأعلام ، وهو عزالدين آل ياسين ، في كتابه "علم اللغة" الذي سجّل أجواء التفكير اللساني الغربي المنسلخ عن طوره الفيلولوجي ، من خلال تجربة البعثة العلمية التي عاشها هذا الرجل في الولايات المتحدة عام ١٩٤٦م[١] ، والتي تُوّجت عام ١٩٥٢م ، باطروحته للدكتوراه التي حملت عنوان: **(The Lixical relation between ugaritic and Arabic)** [٢]

إنّ كتاب "علم اللغة" التي ما زال مطبوعاً على الآلة الراقمة ، يُرجح الانتهاء منه قبيل وفاته عام١٩٥٣م[٣] ، ولعل مما يعضد هذا الترجيح أن الكتاب يشتمل على نقص في الأمثلة التي حرص الباحث على استقائها من لغات حية متعددة ، وعلى أية حال ، فإننا إزاء منجز لساني انطلق من واقع التجربة نفسها ، مما أضفى عليه في نظرنا ، أهمية خاصة ترتبط بالجدل المعرفي الذي يتوخى من خلاله الدارسون الوصول إلى نقطة التقاء مع الطروحات اللسانية بوصفها خطوة أولى في طريق استطلاع ملامح المنهج الجديد في دراسة اللغة ، وهكذا نرى أن أسس التفكير اللغوي في هذا الكتاب تستند إلى رؤية ابستمولوجية تشكل اللسانيات الأمريكية قاعدتها العريضة ، إذ افتُتح بمدخل حمل عنوان "دراسة اللغة" وقد أشار فيه كاتبه إلى حقائق ومعطيات تاريخية لا تخرج عن إطارها الفيلولوجي ، ولعل في ذلك أثراً واضحاً لمناخ الدراسات الأمريكية في النصف الأول من القرن العشرين ، إذ كانت تحتفظ تلك الدراسات برواسب الطور التاريخي المقارن[٤] ، ومن هنا نستشفُّ دلالة حرصِه على

---

(١) هذه المعلومة أفادنا بها استاذنا الفاضل د.محمد حسين آل ياسين.

(٢) ينظر: معجم المؤلفين العراقيين : ٢/ ٣٨٤.

(٣) نفسه : ٢/ ٣٨٤.

(٤) ينظر: علم اللغة : ١، وموجز تاريخ علم اللغة : ٣٣٣.

التفريق بين الباحث الفيلولوجي الذي يضطلع بمهمة استجلاء الأسس الثقافية والجذور اللغوية للمدونات ، وبين الباحث اللغوي الذي يختص بدراسة اللغة وهي تدور على ألسنة المتحدثين[1].

وربما يكون لهذا العرض مسوغاته المنهجية ، إذ إنّ حركة التدوين اللساني المعاصر انبنت على المقارنة بين خصائص اللسانيات الحديثة ومقوماتها النوعية ، وبين فقه اللغة أو الفيلولوجيا ، ولذا اضطُرَّ مؤرخو اللسانيات إلى عرض خصائص التفكير اللغوي في تاريخ البشرية عامةً ، مما حداهم إلى وجهة تاريخية استعراضية تكشف عن مقومات المعرفة اللغوية القديمة ، لينتهوا إلى إبراز الفوارق النوعية للسانيات ، مما يجعلها تنماز عن الطابع الفيلولوجي في دراسة اللغة ، فتأسس بذلك مبدأ المدخل التاريخي عند كل عرضٍ للسانيات المعاصرة[2].

وإذا كان للبيئة العلمية أثرها في وضع هذا المنجز في مساره المحدد ، فإن عزالدين آل ياسين ، كان يتكئ على التصورات التي أرساها بلومفيلد في كتابه **(Languge)** ، ولاسيما نظرته عن وظيفة اللغة التي ارتبطت بالتفسير السلوكي القائم على أساس المثير والاستجابة[3].

إنّ هذا التصور يمثل التوجه اللساني عند الباحث ؛ وثمة مواطن كثيرة ضمتها صفحات الكتاب تدخل تحت هذا المعنى ، وقد حاول من خلالها تجلية مفهوم الظاهرة اللغوية على وفق تلك التصورات ، إذ تناولها تحت عنوان "مهمة اللغة" ، ولخص في هذا السياق النظرية السلوكية ، وعَرَضَها بأسلوب معَّربٍ حاكى فيه الموروث القديم ، ولا بأس هنا من إيراد نصٍ للتدليل على ذلك ، إذ قال: ((لنفرض أنّ فتاةً اسمها دَعْد ، وفتى اسمه سعد ، طفقا يتمشيان فوقعت عين دعد ، وهي جوعى على تفاحة في شجرة ، فانطلقت من فمها أصواتٌ مركبة تركيباً خاصاً

---

(١) ينظر: علم اللغة : ١، وموجز تاريخ علم اللغة: ٨.

(٢) ينظر: مباحث تأسيسية في اللسانيات : ٣٤.

(٣) ينظر: سيكولوجية اللغة والمرض العقلي: ١١٨، ١١٩.

مقصوداً(كلام). فتسلق سعدٌ شجرة التفاح وقطف التفاحة ، فناولها دعداً ، فأكلت دعد التفاحة ، فهنا عدة شؤون متتابعة يمكن دراستها بطرقٍ شتى بيد أن الباحث اللغوي يعنى بالتفريق بين عملية نطق اللغة... ، وبين الأمور الأخرى التي ندعوها بالملابسات السياقية....))[١] وفي ضوء ذلك يخلص الباحث إلى أن اللغة وسيلة إجرائية تمكن الشخص الواحد من بلورة استجابة معينة حين تتوافر عناصر الإثارة لدى شخص آخر[٢] ، أما دراستها فتنحصر في إطار العلاقة بين الأصوات ومعانيها[٣].

وعلى الرغم من خصوصية الاتجاه اللساني الذي يعرض له عزالدين آل ياسين ، إلا أنّ محاولة الاقتصار على نمط واحدٍ من التفكير كانت – على ما يبدو– تعني له ابتساراً لجسد النظرية اللسانية وتمزيقاً لبنائها المعرفي ، وأن هذا الابتسار سيبعد رؤى مهمة تشكل ركائز أساسية في هيكل التفكير اللساني الحديث ، وتظهر تمثلات هذا المعنى جلياً حين عرّف اللغة على وفق المنظور البنيوي ، قائلاً: ((اللغة نظامٌ مادته علامات صوتية اعتباطية يعتمد عليها أفراد جماعةٍ ما في تفاهمهم وتنظيم أعمالهم...)) [٤] ، ولا شك أن مقولة "الاعتباطية" اقترنت لدى الباحثين بفكر سوسير ، والجدل المعرفي الذي اكتنف العلاقة بين ثنائية (الدال والمدلول) عنده ، وهذا ما نجده حاضراً في الكتاب لكن من دون الإشارة إلى سوسير أو محاضراته[٥] ، وإلى جانب هذا نجد حضوراً لثنائية "اللغة والكلام" ، إذ يتناولها تحت عنوان "التنظيم في اللغة" ، إذ قال: ((أما النظام – في اللغة – فليس هو إلا تصنيف نفسي لقضايا... مودعة في الذهن منتزعةٌ من الكلام ، فالكلام على هذا يسبق النظام في تاريخه ، فلولا الكلام لم يكن للنظام اللغوي وجود))[٦] ، وهذا الملحظ عبر عنه سوسير في سياق

---

(١) علم اللغة : ٨.

(٢) نفسه : ٩.

(٣) نفسه: ١٠.

(٤) نفسه: ١١.

(٥) نفسه: ١١.

(٦) نفسه: ١٠٠.

تفريقه بين مفهومي اللغة والكلام ، ونصّ على ان الكلام ضرورة لتثبيت أركان اللغة[١] ، ومن كل هذا يتضح أن عزالدين آل ياسين ، استقى من النموذج الأمريكي والأوربي أغلب المقولات اللسانية ، وحاول أن يعطي لها طابعاً معرفياً عاماً يغطي عرضُهُ مساحة كبرى من هذه النظرية التي أطلق عليها مصطلح "علم اللغات" تارةً ، و"علم اللغة" تارة أخرى[٢].

وعلى وفق هذه الرؤية عالج الباحث عنوانات لسانية مهمة ، من قبيل : "الأصوات والفونيمات" و"الوحدات الصوتية" و"التغير الصوتي" ، و"تنوع وظيفة الكلام" و"المعنى في اللغة" ، و"وحدات الدلالة" ، وسوى ذلك من المقاربات التي قد تضيق بها صفحات هذا التمهيد ، لكن حسبنا في ذلك أنها ستجد مكانها المناسب في فصول هذه الدراسة.

وتهافتاً على إغراءات الحداثة وتجسيداً لملامح النظرية اللسانية ، وسّع الباحثون العرب دائرة المشاركة في هذا الميدان ، حتى أصبحت حقبة السبعينيات نقطة تحول في الدراسات اللسانية العربية[٣] ، وتكمن أهمية هذا التحول في أن تلك الدراسات كانت محاولات تتحرك باتجاه هدف واضح ، هو البرهنة والدعوة إلى اعتماد اللسانيات طريقاً ووسيلة إلى الوعي المنهجيٍ بالمعرفة اللغوية ، ورصد الباحثون مظاهر لهذا التحول ، فكان منها:

- امتداد الدرس اللساني إلى سائر البلدان العربية ، مما أوجد تفاعلاً ذا بعد مؤسساتي ، من خلال إقامة المراكز والمعاهد التي اضطلعت بتنظيم الندوات والملتقيات العلمية الخاصة بهذا الشأن ، وقد كانت كلٌّ من تونس والجزائر والمغرب مسرحاً مهماً لهذه الفعاليات[٤] ، ومما لم يشر إليه المعنيون بهذا الصدد أن التعاطي اللساني بدأ قبل ذلك الحين على صورة محاضرات في جامعة بغداد عام ١٩٦٦م لما

---

(١) علم اللغة: ٣٨.

(٢) نفسه: ١١، ٢٤.

(٣) ينظر: أثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة : ٨.

(٤) نفسه : ٨، ٩.

تبنت كتاب(محاضرات في اللغة) لعبد الرحمن أيوب مقرراً دراسياً[١].

- انتعاش حركة التأليف في هذا الاختصاص ، فضلاً على ازدياد الترجمة للمصنفات الأجنبية التي تعنى بتقديم الهيكل العام للنظرية اللسانية[٢].
- انفتاح الخطاب اللساني على مجالات قريبة منه ، مثل السيميائيات ، وتحليل الخطاب ، والشعرية ، والنقد الأدبي ذي التوجه اللغوي[٣].

ولما كان طبيعياً أن تتفاعل الساحة الثقافية العربية مع المنهج الجديد الذي يحكم التفكير اللغوي الحديث ، فمن المستساغ أن يقف الدارسون وقفة تأملية عند مصطلح العلم نفسه ، لأنه يمثل القناة التي تمر عبرها تلك الآراء ، وأداة التلقين التي تعطي الأحكام اللسانية شرعيتها ، وتحدد لها مسارها في أجواء الحوار العلمي ، ومن هنا كانت سورة الآراء تكبر ، ودائرة الاجتهاد تتسع ، حتى أحصي في هذا المجال ثلاثة وعشرون مصطلحاً يقابل "Languistic" ، وهي الآتي[٤]:

- اللانغويستك.
- فقه اللغة.
- علم اللغة
- علم اللغة الحديث.
- علم اللغة العام.
- علم اللغة العام الحديث.
- علم فقه اللغة.
- علم اللغات.
- علم اللغات العام.

---

(١) ينظر: محاضرات في علم اللغة : المقدمة.

(٢) ينظر: أثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة : ١١، ١٢.

(٣) ينظر: أسئلة اللغة، أسئلة اللسانيات : ٤٥.

(٤) ينظر: بحوث مصطلحية : ١٧٣، ١٧٤.

- علوم اللغة.
- علم اللسان.
- علم اللسان البشري.
- علم اللسانة.
- الدراسات اللغوية الحديثة.
- الدراسات اللغوية المعاصرة.
- النظر اللغوي الحديث.
- علم اللغويات.
- اللغويات الجديدة.
- اللغويات.
- الألسنية.
- الألسنيات.
- اللسنيات.
- اللسانيات.

إن هذه السلسلة من المصطلحات أشرت بحسب أحمد مختار عمر حضوراً للارتجال من جهة ، وغياباً للضبط المنهجي الذي يحكم إنتاج المصطلحات من جهة أخرى ، مما قد ينذر بفقدان هذا العلم هويته المعرفية[١] ، وهذا المعنى كان حافزاً لندوة علمية في تونس عام ١٩٧٨م ، حضرها لغويون من المغرب وتونس ومصر وليبيا والعراق وسورية ، وانتهوا إلى توصية باعتماد "اللسانيات" مصطلحاً للدلالة على الدراسات اللغوية الحديثة[٢].

إن المسار الذي قطعته اللسانيات في العالم العربي ، باتت تتضح فيه صورة التشابه في الطروحات ، وتتوحد في إطارها الأصول اللسانية التي أفضت إلى انسجام

---

(١) ينظر: المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجية : ٥٨٢.

(٢) ينظر: بحوث مصطلحية : ١٧٤.

الخطاب ووحدته[١] ، غير أن ذلك لم يمنع الباحثين من دخول دائرة التنظيرات والمقاربات اللسانية التي تحمل سمة التفرّد وعدم الاكتفاء بالمعرفة المجردة للدراسة والبحث ، والالتفات إلى توظيف تلك المعرفة اللسانية ، وتقنياتها المنهجية في الكشف عن خصائص جديدة في دراسة اللغة العربية ، وفي هذا السياق يعد مازن الوعر أبرز من نحا هذا المنحى ، حين قدم اطروحة بعنوان "نحو نظرية لسانية عربية" سعى من خلالها إلى تحليل لساني حديث للتراكيب الأساسية في اللغة العربية ، محاولة منه إلى توسيع النظرية العامة للتراكيب الأساسية في النحو العالمي ، وقد أوضح في مقدمة الكتاب أن هذه المحاولة قامت على أساس المزاوجة بين المقولات التوليدية لدى تشومسكي ، والمقولات الدلالية للساني الأمريكي ولتركوك وعرضها على أرضٍ من المنطلقات اللغوية العربية القديمة[٢].

وإذا كانت اللسانيات من أسرع العلوم نمواً وتطويراً وتشعباً في المناهج والرؤى والآفاق والإنجازات[٣] ، فلا غرابة أن نجد في ذلك حافزاً للدارسين أن يسبروا اغوار الفلسفة اللسانية ، ويكتشفوا ما امتازت به من تأثيرات واستوعبته من بدائل ، ومثلته من أهداف استطاعت أن تتسع لمجالات ابداعية أخرى[٤].

إن هذه الأبعاد اللغوية والثقافية والفكرية تمثل حلقات متلازمة في إطار الوعي المنهجي الذي تكاملت في إطاره اللسانيات ، ومن الطبيعي أن تكون هذه الأبعاد خاضعةً للخصوصيات الذاتية التي عرف بها أصحابها والخصوصيات العامة التي أفرزتها ظروف التجربة وآليات التعامل معها.

---

(١) ينظر: نشأة الدرس اللساني العربي الحديث : ٥.

(٢) ينظر: نحو نظرية لسانية عربية : ١٣، ١٤.

(٣) ينظر: أسئلة اللغة، أسئلة اللسانيات : ٣١٩.

(٤) ينظر: قضية البنيوية : ١٠٢، ١٠٣.

المصادر

- أثر محاضرات دي سوسير في الدراسات العربية الحديثة، حيدر سعيد، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٦م.
- أسئلة اللغة، أسئلة اللسانيات،حافظ اسماعيلي علوي، وليد أحمد العناتي، ط١، بيروت، ٢٠٠٩م.
- أصوات اللغة، عبد الرحمن أيوب، ط١، مصر، ١٩٦٣م.
- بحوث مصطلحيّة ،أحمد مطلوب، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ٢٠٠٦م.
- دراسات نقدية في النحو العربي، عبد الرحمن أيوب، القاهرة، ١٩٥٧م.
- سيكولوجية اللغة والمرض العقلي، جمعه سيد يوسف، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٠م.
- العربية وعلم اللغة البنيوي، حلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٨م.
- العقل العربي ومجتمع المعرفة، نبيل علي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٩م.
- علم اللغة، عزالدين آل ياسين، مطبوع على الآلة الراقمة، د.ت.
- علم اللغة، علي عبد الواحد وافي، ط٧، القاهرة، ١٩٧٢م.
- علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.
- قضية البنيوية، عبد السلام المسدي، ط١، تونس، ١٩٩١م.
- اللسانيات والبيداغوجيا، علي آيت أوشان، ط١، الدار البيضاء، ١٩٩٨م.
- مباحث تأسيسية في اللسانيات، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس، د. ت.
- محاضرات في اللغة، عبد الرحمن أيوب، بغداد، ١٩٦٦م.
- المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجيّة، أحمد مختار عمر، مجلة عالم الفكر ع٣، مج٢٠، الكويت، ١٩٨٩م.
- معجم المؤلفين العراقيين، كوركيس عوّاد، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٩م.
- ملاحظات تمهيدية حول معنى الحضارة، صلاح المختار، سلسلة الموسوعة الصغيرة، بغداد، ١٩٨٦م.
- مناهج البحث في اللغة، تمام حسان، القاهرة، ١٩٧٩م.
- نحو نظرية لسانية عربية حديثة، مازن الوعر، ط١، دمشق، ١٩٨٧م.
- نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، فاطمة البكوش، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٩. م.

براغماتية التواصل اللغوي
في الفكرين العربي والغربي

أ.م.د. صلاح كاظم هادي
كلية التربية للبنات/ بغداد/قسم اللغة العربية

ملخص البحث:

خضعت معالجات الشيخ عبد القاهر الجرجاني لمسألة المعنى إلى تأثيرات المقولات الكلامية الإسلامية السائدة في عصره ، فضلاً عن الأساس المذهبي الأشعري الذي يؤمن به ، ومجموع تحصيله المعرفي في اللغة والأدب ونقدهما. فهو ينطلق مبدأ الاختلاف مع المعتزلة التي روجت لفكرة خلق القرآن ، فيرد بطرق مختلفة في الشكل والموضع ، لكنها تشترك من ناحية عدم المباشرة أو التصريح. وتتفق في التمسك بفكرة(الكلام النفسي). ويقصد من ذلك أن الله سبحانه وتعالى أضمر كلامه العزيز في ذاته الجليلة ، فهذا الكلام قديم بقدم الذات بل هو توحّد بين الذات والمعنى فالقرآن الكريم قديم ، وليس مخلوقاً مستحدثاً أن كل مستحدثٍ فانٍ. وإن المتلقين مختلفين في فهم الرسالة ، لأنّ الرسالة واحدة والمتلقين أو المرسل إليهم متعددون فيختلف ـ بحسب قدراتهم ـ فهمهم للنص ، وبذلك يمكن رسم سلسلة كبيرة من مشهد التواصل((المرسل{الله سبحانه}/الرسالة/المرسل إليه١+المرسل إليه٢+المرسل إليه٣....)).

ويمكن أن ينظر إلى المسائل البلاغية من المنظار نفسه فالمعنى هو المكون للتركيب

والموجه له بحسب الإرادة الإلهية ، ولا يمكن تكرار هذا المعنى في شكل لفظيٍّ آخر غير الذي اختاره الباري عز وجل ، فتكمن فكرة الإعجاز في المعنى المتشكل بالصور ، فلا يتقبل عقلاً أن يأتي المعنى بشكلٍ لغويٍ آخر ، والألفاظ خدم للمعاني ، والفصاحة ليست صفة ثابتة في اللفظ ، فالمسألة الجمالية عملية ديالكتيكية متغيرة بحسب عملية الإرسال والتلقي.

ويستند الشيخ عبد القاهر الجرجاني إلى فرضية علمية لفهم الظاهرة ، ويقدم تفسيراً لها بعد فهم سرّها وكينونتها ، وهو يعيب على المعتزلة وعلى الجاحظ بخاصة لإصدارهم أحكاماً مستعجلة لا تستند على فكرة علمية واقعية ، لاسيما قضية الميل نحو التشكيل اللفظي ، وإسقاط أمر المعنى ، وتركوا أحد أطراف عملية التواصل ، فقال((وأعلم أنهم لم يبلغوا في إنكار هذا المذهب ما بلغوه ؛ إلاّ لأنّ الخطأ فيه عظيم ، وأنّه يقضي بصاحبه إلى أنْ ينكر الإعجاز ، ويبطل التحدّي من حيث لا يشعر)).

ويجمع عبد القاهر الجرجاني المسألة الكلامية في ضوء عملية التواصل بالمعرفة التي يحكمها العقل وينظمها العلم. فيركن إلى علم النحو الذي يستكنه تراكيب الجمل ، ويمتد ذلك إلى الفنون البيانية بأقسامها المتنوعة ، ويضع مسألة تحديد المعنى والوصول إلى حقيقته بيد المتلقي الحاذق الذي يستطيع بعلمه بأسرار التراكيب والإسناد ومعانيه أن يبلغ المعنى الذي يقصده المرسل. ويستطيع بهذا العلم أن يفسّر سر جمال الصورة ، كما يميز الحاذق خاتم من خاتم وسوار من سوار ، وكلها مصنوعة من معدن واحد ولكن الصانع ليس واحداً. ولذلك يمهد الجرجاني سبيل المعرفة الإلهية بأسلوب علمي عن طريق معرفة الحقيقة الحافة من فهم النص القرآني المقدس.

يرتبط تحديد الحيز المعرفي للسيميائيات داخل المفهوم العام للمعرفة السيميائية ، بإيجاد منظور نظري موحد تنصهر في بوتقته جل التباينات الشكلية لتمثلية العلامات ودلالاتها في إطار عملية التواصل ، إذ تحظى كل علامة من العلامات على اختلاف حقل الممارسة المرتبط بها بالسنن المستند إلى مستوى الفهم والإفهام. وإن رهان السيميائيات على المظهر الموضوعي في الأنساق الدالة لا يعني أنها تؤلف مركز اهتماماتها ؛ فالسيميائيات تروم بناء أنموذج نظري يقولب الوقائع الدالة ويمنحها شكلا

موحدا ، وذلك عن طريق إنشاء خطاب نظري خالص تستطيع عن طريقه الحديث عن موضوع العلامة. والواقع أن أكثر المفاهيم تجريدا هي أكثرها تطبيقا ، لأن استهداف بناء أية نظرية قابلة للتطبيق متوقف على تطويرها باستقلالية عن تطبيقاتها. بيد أننا لا يمكن أن نتصور وجود سيميائيات عامة إلا بوجود سيميائيات خاصة حقيقية مهمتها إثراء الأولى بالمناهج الخاصة وتوسيع دائرة اهتماماتها ؛ أي إمدادها بديمومة الحياة العلمية عبر إبراز بواطن الخصوصيات الإبستمولوجية التي تتقاطع وتتكامل في سبيل إعادة بناء أو توسيع أو تصحيح الأنموذج المعلن سلفا.

وتعد سيمياء التواصل مساراً مهماً من مسارات علم العلامات ، لصفته الشمولية في النظر إلى السيموسيز أو عملية التدليل وفضائها ، فضلاً عن اتساع مساحة البحث لتصل إلى المتلقي وتأويله ، ومواصفات المرسلة والعلامة والشفرة والمرجع والقناة ، ويمتد ذلك البحث إلى مجال النشاط الوظيفي لأركانها ، بحسب خطاطة رومان ياكوبسن(١). وإن دراسة المعنى عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني في ضوء فكرة التواصل تستدعي النظر إلى نتاجه الفكري بوصفه جزءاً من المنجز المعرفي العربي الإسلامي ، بل يعد من أفضل ثماره ، وشكلاً من أشكال التفاعل والتحاور الفكري في مرحلة النضج العلمي في مجال الدراسة النقدية ، ولاسيما في أفقها الدلالي.

وقد استعمل الإنسان العلامة بوصفها جزءاً رئيساً من عملية التواصل بين أبناء جنسه ، والعلامة اللسانية مجموعة أصوات كوّنت اللغة ، أو مجموع اللغات البشرية ، ((وأول التصويتات النداء ' فإنه بهذا ينتبه من يلتمس تفهيمه أنه هو المقصود بالتفهيم لا سواه ، وذلك حينما يقتصر في الدلالة على ما في ضميره بالإشارة إلى المحسوسات ، ثم من بعد ذلك يستعمل تصويتات مختلفة يدل بواحد واحدٍ منها على واحدٍ واحدٍ مّما يدل عليه بالإشارة إليه وإلى محسوساته فيجعل لكلٍ

---

(١) ينظر قضايا الشعرية / رومان ياكوبسن / ترجمة محمد المولى ومبارك حنون / دار توبقال للنشر / المغرب ط١ / ١٩٨٨ /٢٧، ٣٣.

مشار إليه محدود تصويتاً ما محدوداً لا يستعمل ذلك التصويت في غيره))[1] ، فتحدث حينئذ الأسماء التي تنوب عن مسمياتها في غيابها وحضورها ، وهذا يعني إن وجودا لفظياً استوعب الوجودين الذهني والموضوعي ، فحدث اختزال وجودي وإنابة دلالية((ويدل على ذلك أن هذه الأسماء إنما احتيج إليها ليقع بها التعريف ، ويصحّ بها الإخبار عن غيبة المسميات ، لأن الإشارة تتعذر إليه[كذا] فأُقيم الاسم عند ذلك مقام الإشارة عند الحضور ، فكما تحسن الإشارة إذا حضر المشار إليه لوقوع الفائدة به للمشير والمشار إليه ، فكذلك يحسن الاسم لهذا الغرض عند غيبة المسمّى ، أو لكون المسمّى لا يظهر للحواس))[2]. أن المسموعات ترتسم في المصورة وتُختزن أيضا في المتخيلة ، وكذلك صور الأجسام ، فالصورة اللفظية(الاسم) وصورة المسمّى موجودتان في الذهن ، وترتسمان على المصورة في حالة استدعاء أحدهما الآخر أما المفاهيم المجردة التي يحصلها العقل فتختزن في المتذكرة أو الحافظة ، وعند اكتمال هذه الموجودات يستغني الإنسان بها عن حضور المسمّى لاجتماع صور الموضوعات ، والمعاني المجردة مع الألفاظ الدالة عليها في الذهن ، وهذا يعني أن النطق نشاط موضوعه جوهر نفسي[3] ، وهذا الفهم نفسه توصل إليه دي سوسور إذ قال: ((كلا طرفي الإشارة سايكولوجي))[4] ، ولا نستطيع تجسيد ذلك إلّا باللغة ، أي بمجموعة من الكلمات. ولا يعني ذلك أن المعاني الحسية تتساوى مع المعاني العقلية المجردة إذ ليس للأخيرة صور في المتخيلة ، إنما يكون الموضوع فيها ناتجاً عن علاقة أو فكرة ذهنية صرفة ، فتبقى الدلالة الحسية هي مبادئ العلوم ومنها يُرتقى إلى غيرها[5] ، ولكن هذه المعاني تتساوى من ناحية خفائها والاستعانة بالدال لظهورها إلى

---

(١) كتاب الحروف /الفارابي/ ٧٥ـ ٧٦ / حققه وقدّم له وعلّق عليه : الدكتور محسن مهدي / دار المشرق /بيروت/ ١٩٧٠م.

(٢) المغني / عبد الجبار / ج٥ / ١٧٤ / ١٧٥ / القاهرة / وزارة الثقافة والارشاد القومي / (د.ت).

(٣) نفسه.

(٤) ينظر: رسائل اخوان الصفاء / ج١ / ٣٩٠. عناية خير الدين الزركلي / مصر / ١٩٢٨م.

(٥) ينظر: آراء أهل المدينة الفاضلة / الفارابي / ٣٥، الهوامل والشوامل / ابو حيان التوحيدي=

حيّز الوجود الخارجي والتواصل[1] ، ويقتضي ذلك أن تكون المعاني أعراضاً ، إذ إنها ذوات وإن قوامها يكون في موضوعات هي الدوال عليها وهكذا يمكن أن تبدو اللغة بالنسبة للعالم موضوعاً ومحمولاً في آن واحد ، ولكن يبقى المتحصل من الدوال هو الصور الذهنية أو المعاني الخفية[2] ، وإنّ كل معنى لا يمكن أن يعبر عنه بدال ، فلا سبيل إلى معرفته[3] ، ويقتضي ذلك أن تكون المعاني أعراضاً ، وهذا يعني أن جميع المعلومات التي يستقبلها الإنسان ، يفسرها ويفصّلها بحسب نظامه الدلالي ، وإن عدنا إلى أساس المعرفة لديه ، نجد أنه يترجم الوجود بتفاصيله بحسب منطقه الدلالي ، فالمحسوسات الخارجية هي الكيانات التي تستقبلها حواسه ، وهي المرجع والموضوع الذي تحوّل إلى صور ذهنية (مدلولات) حددّها بدوال تمييزا لها ولأجزائها ، وهذا يعني أن هناك ((محسوسات وبالجملة موجودات خارج النفس ثم معقولات و متصورات ومتخيلات في النفس وألفاظ وخطوطا))[4] ، وإن هذه العملية إنما جاءت بعد نمو ، إذ سبقها - بلا شك - ميل الإنسان بفطرته إلى البحث عن طريقة للإبلاغ عن الموجودات الحسية فهو يحتاج - ضمن واقعه الاجتماعي - إلى ((أن يعرّف غيره ما في

=وابن مسكويه / ٢٤٠، الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية / جرجي زيدان / ١٢٧/ مراجعة وتعليق مرا كامل/ دار الهلال / القاهرة / ١٩٦٩م.، دراسات في فقه اللغة / صبحي الصالح / ١٨٠ / دار العلم للملايين / بيروت / لبنان / ط١٤ / ٢٠٠٠م.

(١) ينظر: كتاب الحروف / الفارابي / ٧٤، التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية / ابن حزم / ١٥٥ / تحقيق : الدكتور إحسان عباس / بيروت / ١٩٥٩م.

(٢) ينظر: البيان والتبيين /الجاحظ / ١ / ٧٥ / تحقيق : عبد السلام محمد هارون / مكتبة الخانجي / القاهرة / ١٩٧٥م.، شرح العبارة / الفارابي / ٧٥، دلائل الاعجاز / الشيخ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (٤٧١-٤٧٤)/ قراءة وتعليق / محمود محمد شاكر/ شركة القدس / مطبعة المدني / نشر دار المدني، المؤسسة السعودية بمصر / القاهرة / ط٣/ ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م / ٤٦٢.

(٣) ينظر: رسائل إخوان الصفاء/ ج٣ / ١٠٨ التفسير الكبير / فخر الدين الرازي / ج٢٦ / ١٨٧ / المطبعة البهية المصرية/ط١ / ١٩٨٣م.

(٤) شرح الفارابي لكتاب آرسطو طاليس في العبارة / الفارابي / ٣٤.

ضميره أو مقصوده بضميره))[1] ، فيفزع عندئذٍ إلى طرائق الإبلاغ الإشاري ، بأن يستعمل الإشارة في الدلالة على ما كان يريد ، ممّن يلتمس تفهيمه إذا كان من يلتمس تفهيمه مبصرا إشارته ، ثم يفزع إلى التصويت. عند غيبة المسمّى ، أو لكون المسمّى لا يظهر للحواس))[2] ويذكر أبو حامد الغزالي في بيانه لرتبة الألفاظ من مراتب الوجود أن ((للشيء وجوداً في الأعيان ثم في الأذهان ثم في الألفاظ ثم في الكتابة))[3] ، ويرى أنه ((لا معنى للعلم إلّا مثال يحصل في النفس مطابق لما هو مثال له في الحس وهو المعلوم ، وما لم يظهر هذا الأثر في النفس لا ينتظم لفظ يدل به على ذلك الأثر))[4] وإن الفهم والإفهام هو الغاية التي يسعى إليها الإنسان ، وأما اللغة اللغة ((فإنها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم))[5] ، أي أنها مادة تؤدي دورها في عملية التواصل ، ولذلك تفرض سمة التواصل نفسها على الدلالة على أنها شرط لتحققها ، ولذلك قال الشيخ عبد القاهر الجرجاني: ((الدلالة على الشيء هي لا محالة إعلامك السامع إيّاه))[6] ، وإذا عدنا إلى الأساس المعرفي الذي انبثقت عنه النصوص الأخيرة ، نجده عند الجاحظ الذي رأى أن ((مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام ، فبأي شيء بلغتَ الافهام وأوضحتَ عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع))[7] . وهذا ما يتفق مع مفهوم التواصل في الاصطلاح على عملية نقل الأفكار والتجارب ، وتبادل المعارف والمشاعر بين

---

(١) كتاب الحروف / الفارابي / ١٣٥

(٢) المغني / عبد الجبار / ج٥ / ١٧٤ / ١٧٥ / القاهرة / وزارة الثقافة والارشاد القومي (د.ت).

(٣) معيار العلم في فن المنطق /الغزالي/ ٣٥.

(٤) المصدر نفسه / ٣٦.

(٥) الخصائص/ابن جني/ ج١ / ٣٣ / تحقيق : محمد علي النجار/عالم الكتب/ ط٣ بيروت/ ١٩٨٣م.

(٦) دلائل الاعجاز/ الشيخ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (٤٧٤.٤٧١)/ قراءة وتعليق / محمود محمد شاكر / شركة القدس / مطبعة المدني / نشر دار المدني، المؤسسة السعودية بمصر / القاهرة / ط٣/ ١٤١٣هـ . ١٩٩٢م./ ٤٦٢.

(٧) البيان والتبيين / ج١ / ٧٥ . ٧٦، وينظر : رسائل الجاحظ / ج١ / ٢٨٩.

الذوات والأفراد والجماعات. وقد يكون هذا التواصل ذاتيا شخصيا أو تواصلا غيريا. وقد ينبني على الموافقة أو على المعارضة والاختلاف ويفترض التواصل أيضا – باعتباره نقلا وإعلاما- مرسلا ورسالة ومتقبلا وشفرة ، يتفق على تسنينها وتشفيرها كل من المتكلم والمستقبل أو المستمع ، وسياقا مرجعيا ومقصدية الرسالة[١] ، و يؤكد دي سوسور دائما على الوظيفة الاجتماعية والتواصلية للغة بوصفها الغرض الأساس من اختراع اللغة. ولكنه أقام هذا التمييز لعزل العناصر الخارجية للغة بهدف دراسة اللغة دراسة علمية صارمة بوصفها نظاماً مستقلاً لاستنباط قواعد تصلح للتطبيق على دراسة أية لغة ، فهو لم يفصل بين فكرتي إلغاء إحالية اللغة والتفريق بين اللغة والكلام ، إذ قال((إذا تركنا التعريف العقيم للكلمات فإننا نجد ضمن الظاهرة العامة للسان جزئي هما: اللغة والكلام. فاللغة هي ظاهرة اللسان مطروحاً منها الكلام ، فهي المجموع الكلي للعادات اللغوية التي تساعد الفرد على أن يفهم غيره ويفهمه غيره ، ولكن هذا التعريف يترك اللغة خارج السياق الاجتماعي ، ويجعل منها شيئاً مصطنعاً لأنها لا تضم إلّا الجانب الفردي من كيانها ، إن تحقيق كيان اللغة يتطلب وجود مجتمع من المتكلمين ، فاللغة لا وجود لها خارج الإطار الاجتماعي))[٢] ، وإن الطبيعة التواصلية لغالبية الأنساق الدالة ، دفعت ثلة من السيميائيين إلى الربط((بين السيميائيات بوصفها علما يدرس أنساق العلامات الدالة وبين وظيفتها التواصلية مقتدين بما قررته اللسانيات من أن التواصل هو عصب الوظيفة اللسانية ومن ثمة فهو أساس الخطاب))[٣] ، وقد استثمر المفكرون المعتزلة مثل هذه المفاهيم قبل أكثر من ألف ومئتي عام ، أي أن إعمام المفاهيم اللسانية للتواصل على مجموع الأنساق الدالة

---

(١) ينظر السيميائية، الأصول، القواعد، والتاريخ / آن إينو وميشال آريفيه ومجموعة من الباحثين /ترجمة رشيد بن مالك/دار مجدولاي للنشر/ عمان / ط١ / ٢٠٠٨ / ٤٢.

(٢) علم اللغة العام/فردينان دي سوسور/ترجمة د يوئيل يوسف عزيز. ومراجعة د مالك يوسف المطلبي/بيت الموصل / ١٩٨٨ /٩٥.

(٣) سيميائيات التواصل وفعالية الحوار، المفاهيم والآليات،/ أحمد يوسف / الجزائر/ منشورات مختبر السيميائيات وتحليل الخطاب /امعة وهران/ ط ١/ ٢٠٠٤/١٥.

أدى إلى اعتبارات بلاغية جمالية غاية في العمومية ، ولذلك ساد الفهم القائل بأن البليغ من استطاع أن يفهمك حاجته[1] ، فاعترض الشيخ الجرجاني على هذا التسطيح لمفاهيم علم البيان ، قال: ((ودخل على الناس من الغلط في معناه (علم البيان)ما دخل عليهم فيه... جهلٌ عظيم وخطأٌ فاحش ، ترى كثيراً منهم لا يرى له معنى أكثر مما يرى للإشارة بالرأس والعين وما يجده للخط والعقد ، يقول: إنما هو خبرٌ واستخبار ، وأمرٌ ونهي ، ولكل من ذلك لفظٌ قد وضع له ، وجعل دليلاً عليه. ثم ساعده اللسان على النطق بها ، وعلى تأدية أجراسها وحروفها فهو بينٌ في تلك اللغة ، كامل الأداة بالغُ البيان المبلغ الذي لا مزّية عليه ، منته إلى الغاية التي لا مذهب بعدها... وأن يكون المتكلم في ذلك جهير الصوت ، جاريً اللسان ، لا تعترضه لُكنةٌ ، ولا تقف به حُبسة))[2] ، وعلى الرغم من أن فكرة الجاحظ قريبة من فهم دي سوسور للوظيفة الاجتماعية للغة وتنوع سبل التدليل على المعنى* ، إلّا أن الجرجاني يميل إلى جانب العلامة اللسانية فحسب ، فالإنسان يصوغ ويترجم أفكاره في قوالب لغوية وإن كان تفكيره باطنياً[3]. ولا تتحقق هذه النزعة إلا في وجود نظام اصطلاحي من العلامات الدالة ، أهمها وأكثرها استعمالاً هي العلامات اللسانية ومن المفاهيم التواصلية المتفق عليها أن الفهم والإفهام هو الغاية التي يسعى إليها الانسان ، وأما

---

(١) ينظر البيان والتبيين / الجاحظ /١ / ١٤٤.

(٢) دلائل الاعجاز/ ٦ ـ ٧.

* يرى دي سوسور أن اللغة مؤسسة اجتماعية وبشر بعلم السيمياء الذي يتولى دراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية عن طريق الكشف عن قوانين جديدة تمكننا من تحليل منطقة مهمة من " الإنساني والاجتماعي" عبر إعادة صياغة حدود هذه الأنساق وشكلنتها. فاللغة بوصفها نشاطا إنسانيا عاما تتجاوز في كيانها حدود اللسان الذي لا يشتغل داخلها سوى وسيلة ضمن وسائل أخرى لا تقل أهمية عنه(الإشارات - الطقوس - الرموز - الأمارات...) . ولن يكون بمقدورنا، قصر التواصل على اللسان وحده، فذلك يعني تجاهل وإهمال أنساق أخرى لها دور رئيس في إنتاج المضامين الدلالية وإبلاغها . / ينظر علم اللغة العام /١٤.

(٣)

اللغة((فإنها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم))[1] ، لكنّ هذا التحديد والاشتراط يُخرج مقولة النصبة أو الحال من مجموعة العلامات ، إذ لا يتوافر فيها شرط التواصل ، فلا يقصد المحموم مثلاً أن يُبلغ الطبيب بعلته ، لأنه غير قادر على استعمال الحمى مادة توصيلية تتحكم بها إرادته ، ولذلك ذكر بعضهم أن الدلالة ثلاثة: الكلام والخط والإشارة[2] ، إلّا أن بعضهم الآخر استبقى الحال(النصبة) ضمن أنواع البيان بحسٍ عقائدي[3] ، ولكنهم في الوقت نفسه جعلوا من صميم الإنجاز البياني أن يتجسد بالتعبير عن قصد التوصيل ، وذلك في حيّز التفريق بين الكلام وحديث النفس ، إذ إن هذا الأخير((ليس خبرا لذاته بل يصير خبراً بقصد القاصد إلى التعبير عمّا في النفس))[4] ، وإذا عطفنا هذا الكلام على فكرة شرط وجود القصد والتواصل والإرادة التي تتحكم في ذلك ، نلمس تناقضاً في هذا الموضع في تقسيمات أنواع الدلالة في الفكر العربي بشكل عام ، ولا يؤثر في قيمة نتائج البحث الدلالي عند العرب ، بالقياس إلى ما تمخّض عن تأكيد القصد والتواصل الذي لم يأتِ من فراغ ، بل نضج عن إدراك لضرورة وجوده التي ميّزت بين الأنظمة الإشارية البشرية والأنظمة الأخرى. وبقي الفهم العام للتواصل بين الجنس البشري وتكوّن اللغة على أنه جاء عن حاجة اجتماعية وملكة غريزية ((لأن من طبع الانسان محبة الإخبار والاستخبار)) [5] ، ولذلك تشكلت وسائل البيان عن طريق أنظمة إشارية تعدّ انعكاساً لرسم الحياة الاجتماعية بأوجهها كلها ، ((فلولا حاجة الناس إلى المعاني وإلى التعاون والترافد ، لما احتاجوا إلى الأسماء))[6] ،

---

(١) مدخل إلى علم اللغة / محمد حسن عبد العزيز / دار النمر للطباعة (دم) (دت) ص١٣.

(٢) الخصائص / أبو الفتح عثمان بن جني /، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١/ ١/٢٠٠١ / ٤٣.

(٣) ينظر: الفروق في اللغة / العسكري / ٥٣، التمهيد / أبو بكر الباقلاني / ١٣ ـ ١٤

(٤) ينظر: النكت في إعجاز القرآن / الرماني / ٩٨ / دار المعارف / مصر / ١٩٦٨م، إذ قال : إن ((البيان على أربعة أقسام كلام وحال وإشارة وعلامة))، وينظر : البرهان في وجوه البيان / ابن وهب الكاتب/٦٠ التقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية / ابن حزم / ٤ ـ ٥.

(٥) المستصفى / الغزالي / ج١ / ٨٥ / المكتبة التجارية الكبرى / مصر / ١٩٣٧م.

(٦) رسائل الجاحظ / ج١ / ١٤٣.

ولذلك يقول الجرجاني ـ في معرض الرد على الجاحظ ـ: ((وجملة الأمر أنه لايرى النقص يدخل على صاحبه في ذلك ، إلا من جهة نقصه في علم اللغة ، لا يعلم أن ها هنا دقائق وأسراراً طريق العلم بها الروية والفكر ، ولطائف مستقاها العقل ، وخصائص معانٍ ينفرد بها قوم قد هدوا إليها ، ودلّوا عليها ، وكُشف لهم عنها ، ورفعت الحجب بينهم وبينها ، وأنها السبب في أن عرضت المزية في الكلام ووجب أن يفضُل بعضه بعضاً… وتمتدُ الغايةُ ، ويعلو المرتقى ، ويعزُ الطلب ، حتى ينتهي الأمرُ إلى الإعجاز ، وإلى أن يخرج من طوق البشر))[1].

إن موضوع المعنى والتواصل في فكر الجرجاني يدعونا بشكل مباشر إلى الحديث عن مفهوم العلامة عنده ، ونجد في ثراء نصوصه اختزالاً كبيراً لفهم تجريبي متقدم ، إذ يقول عن العلاقة الاعتباطية بين الدال والمدلول التي تشكّل طبيعة العلامة اللسانية: ((فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب" ، لما كان ذلك ما يؤدي إلى فساد. وأما "نظم الكلم" فليس الأمر فيه كذلك ، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني ، وترتبها على حسب ترتّب المعاني في النفس))[2]. وفي هذا استجابة لمنطق الوجود خارج الذات ، والمعاني في النفس إذا يمكن أن يكون القرآن الكريم في غير العربية لأن المسألة لا تتعلق بالألفاظ وأشكالها وأصواتها ، بل بتعلق الأمر بتأدية المعنى الموجود في النفس ، وفيه ـ كذلك ـ تقرير لأعتباطية العلامة اللسانية فضلاً عن الطبيعة النفسية لطرفيها ، وهذا ما ذهب إليه فريق من علماء العربية قد أثار ذات المسألة وتوصل إلى ما توصل إليه دي سوسور في موضوع العلاقة بين الصورة الذهنية للفظ والشيء الدال عليه في الخارج ،إذ تسآءلوا: هل الالفاظ موضوعة بإزاء الصور الذهنية- أي الصورة التي تصورها الواضع في ذهنه عند إرادة الوضع- أو بازاء الماهيات الخارجية؟

يذهب فخرالرازي وأتباعه إلى ان الالفاظ موضوعة إزاء الصورة الذهنية وليست

---

(١) الحيوان / ج٥/ ٢٠١، وينظر الهوامل والشوامل / التوحيدي وابن مسكويه / ٧٠٦.

(٢) دلائل الاعجاز/ ٧.

بإزاء الماهيات(الأشياء) الخارجية. واستدلوا عليه بأن اللفظ يتغير بحسب تغير الصورة في الذهن. وأن اللفظ دائر مع المعاني الذهنية دون الخارجية فدل ذلك على ان الوضع للمعنى الذهني لا الخارجي.[1] وقد حلل دي سوسور العلامة إلى مكونيها الدال Signifierوالمد لول Signified والدال هو الجانب الصوتي من المادي من العلامة إذ يمثل الصوت في حالة اللغة المحكية أو الحرف المكتوب في حالة اللغة المكتوبة ، أما المدلول فهو الجانب الذهني فهو لا يشير إلى الشيء بل يشير إلى الصورة الذهنية (السايكولوجية) أو الفكرة عن الشيء ، ويؤكد دي سوسور علي الوحدة بين مكوني العلامة اللسانية. ويستدرك الفكرة المتعلقة بالدال أو الجانب المادي الصوتي بالإشارة إلى أنه ذو(طبيعة سايكولوجية) أيضاً فيصبح العنصران المكونان للعلامة اللسانية من طبيعة ذهنية واحدة ، إلاّ أن أحدهما أكثر تجريداً من الآخر[2] ، فبنى دي سوسور شكل علامته على نموذج فكرة المثاليين ؛ ولذلك استبعد عنها ركن الواقع أومرجعيته أوالإحالة إليه. فاللغة ليست تسمية الأشياء ، بل أن مادة اللغة(أو العلامات اللسانية) تربط بين المفهوم والصورة الصوتية في الذهن[3]. و يمكننا وصف طريقة تفكير دي سوسور بالغائية(البراغماتية) ؛ لأنه يرسم هدفه أولاً عند وضع مقولاته ، ومن الإنصاف القول أن فكرة الاعتباطية بوصفها طبيعة العلامة اللسانية كانت موجودة في التراث الإنساني وحاول الفكر الفلسفي واللغوي إيجاد كثير من الحجج والبراهين لإثبات صواب هذه الفكرة ، فليس جديداً يأتي به دي سوسور في هذا المجال ، ولكنه يقف على أهمية النتائج التي تترتب على تبني هذه المقولة ؛ فبعد أن أقر بأن للعلامة اللسانية طبيعة اعتباطية أي إن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية ، قال: ((لايختلف اثنان في الطبيعة الإعتباطية للإشارة ، ولكن اكتشاف الحقيقة أسهل

---

(١) دلائل الاعجاز / ٤٩.

(٢) ينظر المزهر المزهر في علوم اللغة وأنواعها / عبد الرحمن جلال الدين السيوطي / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع / ٤٢/١

(٣) ينظر علم اللغة العام /٨٤ ـ ٨٥. وقد بين دي سوسور هذه الفكرة بالرسم لعملية التواصل (تنظر الصفحات ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢).

من وضعها في مكانها المناسب ، فالمبدأ الأول{الاعتباطية} يسود دراسة علم اللغة ، وله نتائج لا تحصى بيد أنّ هذه النتائج ليست جميعها واضحة للوهلة الأولى ، لا يكتشفها المرء إلاّ بعد عدّة محاولات...))[1] ، ولم يقدم لنا دي سوسور تطبيقاً لإثبات هذه الفكرة ، أو بيان أبعادها النقدية والجمالية ، في حين أن الجرجاني قدم استدلالاً على المعطيات النقدية لصفة اعتباطية العلامة اللسانية فوجد أن للفصاحة معياراً واحداً عند المتكلم والمتلقي وهي متعلقة بالمعاني لا في صفات الألفاظ ، إذ تكمن المزية في المعاني وطريقة تأديتها ولا تكمن في صفات الألفاظ وخصائصها ، فهذه المعاني أحقّ بأن تستولي على هوى النفس ، وميل القلوب ، ولا سبيل إلى تحصيل هذه النتيجة إلا بأن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ، وتنتخب له اللفظ الأخص به. وإذا نظرنا إلى تلك الألفاظ وهي مفردة قبل أن تظم إلى بعضها لم نجد فيها تلك السمة الحنة ، فلا تفاضل بين الكلمات المفردة في دلالتها على المعاني الموضوعة لها وهي خارج التركيب ، وهذا الحكم يعم اللغات كلها[2] ، إذن اللغة اعتباطية في علاقاتها الدلالية ، لكن نظام الدلالة في الكلام ليس اعتاطيا ، فالنظم ليس اعتباطياً ؛ لأنه تنظيمٌ للدوال بحسب مقتضيات العقل الذي يستجيب للعلاقات المنطقية بين المعاني لأنها صور نفسية للأشياء في الوجود ، أي أن المرسل يعمل فكره ويحكم أقيسته ليصنع مرسلته ، لكننا لا ننسى مبدأ الاعتباط في علاقة الدال بالمدلول ، فضلاً عن أن العلامة تفارق مرجعها ، لكنها جزء من بناء إجتماعي تحيا فيه ويسخرها بوصفها أحدى أدواته بل هي الأكثر أهمية من بين أدواته ، وإن الدلالة اللغوية في جوهرها هي ربط الأصوات بالمعاني ويتحقق ذلك في ظل الحافز التواصلي بين أفراد المجتمع اللغوي ، مما يجعل اللغة نظاماً من العلامات الدالة التي تغطي مجالا أرحب من المفاهيم ، إذاً فهي جزءٌ من حقل ألسني يشمل جميع التصورات المستوحاة من الواقع وتحقيق التلازم بين الصورة السمعية (الدال)

---

(١) ينظر علم اللغة العام/ ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) نفسه /٨٤ ـ ٨٥. وقد بين دي سوسور هذه الفكرة بالرسم لعملية التواصل / ٨٧.

المرتبط بتلك الصورة (المدلول). /المتكلم المعاني أولاً والألفاظ خدم لها ((وإنك تتوخى الترتيب في المعاني وتُعمل الفكر هناك ، فإذا تم لك ذلك أتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها ، وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك ، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني ، وتابعة لها ، ولاحقة بها ، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس ، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق))[١] وقد رسخ عند النقاد المحدثين يقينٌ ثابت أن اللغة لم تعد مجرد وسيط للفكر بل أصبحت هي نفسها مساويه للفكر ، ويبدو أن الجرجاني أدرك أن النص هيكلٌ دلاليٌ ، جسدُهُ لفظيٌ ، إلّا أن المعنى هو المشكل فالمعنى ، قائمٌ بالقوة والفعل معاً ، ((وأنت إن أردت الحق لا تطلب اللفظ بحال ، وإنما تطلب المعنى ، وإذا ظفرت بالمعنى ، فاللفظ معك وإزاء ناظرك))[٢] ، وينبغي بحسب ضوابط البلاغة عنده أن يراعي المرسل التعادل بين عملية اختيار الألفاظ وتشكيلها بنسق يقتضيه المعنى ؛((لأنّ مراعاة التعادل إنما تصعب إذا احتيج مع ذلك إلى مراعاة المعاني ، إذا تأملت ـ يذهب إلى شيءٍ ظريف ، وهو أن يصعب مرام اللفظ بسبب المعنى ، وذلك محال لأن الذي يعرف العقلاء عكس ذلك ، وهو أن يصعب مرام المعنى بسبب اللفظ...))[٣] ، وإن طلب السجع مع التمحل يؤدي إلى العدول عن أسلوب إلى آخر وإن تدخل في المجاز والاتساع[٤] ، فيركن الجرجاني إلى أن التشكل الجمالي يستند إلى مقومات وأقيسة عقلية ، ويحدث التفاوت الجمالي بين النصوص بحسب التفاوت في المعطيات العقلية التي تنتج المعنى ، ((والفائدة في معرفة هذا الفرق: أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم ، أن توالت ألفاظها في النطق ، بل أن تناسقت دلالتها وتلاقت معانيها ، على الوجه الذي اقتضاه العقل))[٥] ، فالعقل يصنع

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز / ٤٣. ٤٤.

(٢) نفسه / ٥٤.

(٣) نفسه / ٦٢.

(٤) نفسه / ٦١.

(٥) ينظر نفسه / ٦٢.

مواصفات المعنى ، فتتفاضل بينها بسبب التفاوت في نسبة ذلك المعنى ونوعه ، فإنّ ((ههنا نظماً وترتيباً ، وتأليفاً وتركيباً ، وصياغة وتصويراً ، ونسجاً وتحبيراً ، وأنّ سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه ، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها ، وأنه كما يفضل هناك النظم النظم ، والتأليف التأليف والنسج النسج ، والصياغة الصياغة ، ثم يعظم الفضل ، وتكثر المزية))[١] ، وهذه دعوى إلى إلى ضرورة التركيز على العلاقات الداخلية للنص ، واليتي تمثل المعالم الرئيسة للأدبية النص ، وتتكون سمة الأدبية بشكلٍ عام من الأساليب والأدوات التي تميز الأدب عن غيره أي الخصائص التي تميز ذلك الأدب[٢]. ويقول ياكوبسن: ((إن هدف علم الأدب ليس هو الأدب في عموميتهِ وإنما أدبيتهِ أي تلك العناصر المحددة التي تجعل منه عملاً أدبيًا))[٣]. ونجد هذا المفهوم مختصراً لدى الجرجاني بفكرة تعلق الألفاظ بعضها ببعض وتجعلها سبباً من صاحباتها ، وضمها بحسب اقتضاء المعنى هو النظم[٤] ، والنظم عنده هو الإسناد((و مختصر كل الأمر أنه لايكون كلام من جزء واحد ، وأنه لابد من مسند ومسند إليه...))[٥] ، وتبقى الروابط بين الكلم ، أو بين طرفي الإسناد ذات صفة منطقية ، أو بعبارة اصطلاحية لسانية: (نحوية) ، أي إنّ تعلق الكلم ببعضها محكوم بضوابط وأحكام نحوية ، فـ((لا ترى شيئاً من ذلك يعدو أن يكون حكماً من أحكام النحو ، ومعنى من معانيه ، ثم إنّا نرى هذه كلها موجودة في كلام العرب ، ونرى العلم بها مشتركاً بينهم))[٦]. ويبصّطها الجرجاني عندما يصنف مكزنات اللغة وأنواعها والعلاقات بينها فيقول: ((وجملة الأمر أنه لا يكون كلام من حرف وفعل أصلاً ولا من حرف واسم ، إلاّ في النداء ، نحو: "يا عبد الله" ، وذلك

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز / ٥٠.

(٢) نفسه / ٣٤ ـ ٣٥.

(٣) ينظر: في نظرية الأدب / شكري الماضي / دار الحداثة ـ بيروت / ط١/ ١٩٨٦ / ١٩٠.

(٤) أدبنا والبنيوية / جودت الركابي / مجلة الموقف الأدبي ـ العدد ٢٢٠ ـ ٢٢١/ آب ١٩٨٩ / ٦٤.

(٥) ينظر دلائل الإعجاز / ٥٥.

(٦)دلائل الإعجاز /مقدمة الكتاب / ٧.

إذا حُقِّق الأمرُ كان كلاماً بتقدير الفعل الذي هو "أعني" ، و"أريد" ، و"أدعو" ، و(يا) دليلٌ عليه ، وعلى قيام معناه في النفس))[١] ، ويمكن إجمال عناية الجرجاني في بداية حركة عملية التواصل بثلاثة أركان ، هي: اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول من جهة ، ومفارقة الدال لمرجعه من جهة ثانية ، والعلاقة المنطقية بين أجزاء التركيب من جهة ثالثة ، وهذا مايتعلق بالنص أو(المرسلَة) ، وكذلك اهتم بما يتعلق بالشق الثاني من الركن الأول وهو اكتمال صورة المعنى في النفس ، أما الركن الثالث فهو المتكلم أو(المرسل) ، إذ انطلق الجرجاني من فرضية دينية وهي بيان دلائل إعجاز الباري عزّ وجل ، بوصفه مرسلاً. ومن امتدادات فكرة اعتباطية العلامة اللسانية أو النتائج التي ألمح إليها ، مع التأكيد على العلاقات بين الكلم تتولد الصيغ البلاغية ، وهذه الأخيرة في وسط فكرة التواصل تشكّل جزءاً من نظام التشفير بين المتكلمين ، فظهرت الكنايات والمجازات((فقد أرادوا في هذا كله... معنى ، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به ، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود ، وأن يكون إذا كان))[٢] ، وكذلك يؤكد على إرادة المتكلم في السياق نفسه ، والمتكلم هو الذي يصنع المعنى ، فـ((والمراد بالكناية ها هنا أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني ، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود ، فيومىء به إليه ويجعله دليلاً عليه ، مثال ذلك قولهم: "هو طويل النجاد" يريدون طويل القامة...))[٣] ، ويتفق النقاد المحدثون باختلاف مدارسهم واتجاهاتهم على صحة هذا الرأي ، فإن العلاقة الإعتباطية بين الدال والمدلول تمنحهم الفرصة إلى تشكيلها من جديد ومنح الدال قدرة أداء معانٍ أخرى غير التي وضعت له حقيقة[٤] ، وهذا يعني أن الإستعارة والمجاز بأنواعه والتضمين وغيرها من شعب المعاني وفنون القول كلها ثمرة تلك الطبيعة الاعتباطية للعلامة اللسانية.

---

(١) دلائل الإعجاز /مقدمة الكتاب / ٨.

(٢) نفسه / ٨.

(٣) نفسه / ٦٦.

(٤) نفسه / ٦٦.

فالعلامة في الاستعمال المخصوص بهذه الانواع من الفنون تكون كياناً ميتا دلالياً[(١)] ، وقد أشار دي سوسور إلى كيفية السيموزيس أو عملية تكون الدلالة ، فالعلامة تكتسب وظيفتها الدلالية بحسب موقعها من مجموع مايجاورها من العلامات ، أي من نظام العلاقات العام سواء أكان شيئاً من نظام اللغة ، أو مايحكمها من نظام الكلام[(٢)].

تتغاير نوعية العلاقة بين المرسل والمرسل إليه ولا تقف عند حدود النقل المباشر بل تتعداه داخل إطار البنية العامة للتواصل إلى نماذج متباينة تختلف باختلاف طبيعة التواصل وغاياته إن السيميائيات في مقابل هذا كله ، لا تهتم سوى بآثار المعنى الناتجة عن انتظام الرسائل ؛ أي بشكل الرسالة ، وبآلية اشتغالها التي تستطيع أن تظهر الاستراتجيات الخطابية والتواصلية. لقد ((كادت السيميائيات تعرف بأنها علم يختص بمدارسة السنن طورا وبمدارسة جميع الأنساق الدالة طورا آخر ؛ ولهذا انكبت السيميائيات الواصفة على تتبع سماته العامة وعلاقته بالسيرورة العامة للتواصل ، ودوره الحاسم في هذه العملية))[(٣)] ، وإن هذا الاهتمام لا يعمل إلا على حصر ((السيميائي ضمن مجال مختزل شيئا فشيئا... يتخلى ضمنه عن كل ما هو واقعي ، لصالح الانتظام الوحيد الذي تخضع له المرسلات))[(٤)] ، وإذا كانت الأنساق الدالة هي من تحدد صور الانتظام ومادته ، فإن الأسنن هي من تتولى المصادقة على قابليتها التواصلية. وقد وجد الجرجاني أن الإسناد من المرتكزات الفكرية التي تشكل القانون العام في النظم ، وتعد الذات المكون المحوري فيه ، فالفعل حدث طارئ والذات ثابتة ، وكذلك الخبر ، وإذا افترضنا أن الوجود يختزل بجملة ، فتكون الذات عامل التشكّل الأساس في هذا الوجود ، فـ((إذا قلتَ "هل خرج زيدٌ" لم تكن قد

---

(١) ينظر اللغة في الأدب الحديث، الحداثة والتجريب / جاكوب كورك / ترجمة ليون يوسف وعزيز عما نوئيل / دار المأمون للترجمة والنشر / بغداد / ١٩٨٩ / ١٦٩.

(٢) ينظر السيميائية وفلسفة اللغة / أمبرتو إيكو / ترجمة د أحمد الصمعي / مركز دراسات الوحدة العربية / بيروت / ط١ / ٢٠٠٥ / ٥٨.

(٣) ينظر علم اللغة العام / ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٤) سيميائيات التواصل وفعالية الحوار/ أحمد يوسف /١٦٠.

استفهمت عن الخروج مطلقاً ، ولكن عنه واقعاً من "زيد" ، وإذا قلت: "إن يأتيني زيدٌ أكرمهُ" لم تكن جعلت الإتيان من "زيد" ، وكذا لم تجعل الإكرام على الإطلاق جزاءً للإتيان ، بل الإكرامَ واقعاً منك ، كيف ؟ وذلك يؤدي إلى أشنع ما يكون من المحال ، وهو أن يكون ها هنا إتيان من غير آتٍ ، وإكرامٌ من غير مُكْرِمٍ ، ثم يكون هذا شرطاً وذلك جزاءٌ))[1].

تقاسم الفكر العربي الاهتمام بطرفي العلامة اللسانية(اللفظ والمعنى) ، وكان الجرجاني من رواد الميل إلى جانب المعنى ، ولم يكتفِ بذلك ، فقد ذهب إلى أن بعض المعاني تتشابه أو تتناسب ، فيبقى الفضل بينه إلى طريقة إثبات المعنى ،فالمزية في ما يحدث من المعاني الحاصلة من تركيب الكلام تكمن في الإثبات دون المثبت ، ففي الكناية يثبت المعنى بإثبات دليل على الصفة ، وفي الاستعارة أوجبت وجود تلك الصفة وكذلك التمثيل ، وأما المعاني التي تقدم بشكل مباشر فيسميها بالمعاني الساذجة أو الغفل. [2] ، ويسمي بعض أنواع الاستعارات المكرورة بالعامي المبتذل ، مثل: رأيتُ أسداً ، ووردت بحراً... [3]. فالمعاني البيانية أو التي تأتي في قوالب فنية تتفاوت ، وينبغي أن تتوافر فيها الجدة والدقة والجودة والفائدة ، و لا يمكن للألفاظ أن تمنحها هذه السمات ، و((اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها ، ومن حيث هي على الإطلاق ، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام ، ثم بحسب موقع بعضها من بعض ، واستعمال بعضها مع بعض))[4] ، وكذلك قال في السياق نفسه: ((إعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره ، والمبالغة التي تدّعى لها ـ في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم طريق إليها بخبره ، ولكنّها في طريق إثباته لها وتقريره إياها))[5] ،

---

(١) سيميائيات التواصل وفعالية الحوار/ أحمد يوسف / ١٥.

(٢) دلائل الإعجاز / مقدمة الكتاب / ٧.

(٣) ينظر نفسه /٧٢ ـ٧٣.

(٤) ينظر نفسه / ٧٤.

(٥) نفسه / ٨٧.

والـنص كيـان دلالي متكامـل ويعـد السـياق أحـد مكونـات السـنن ، وفي حـديث الجرجاني عن المواضع إشارة دقيقة إلى العلاقات التبعية في سياق النص ، فضلاً عن تلميح بوجود سياق المقام ، فـ((ليس مـن فضـل ومزيـة إلا بحسب الموضع ، وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي ترم))[١] ، ويمكـن استكشاف علاقات خارج نسق اللسان تكمن في العلاقات السنتاكمية ، ((يقول هاريس: أن اللغة لاتـرد على هيئـة كلمات مبعثرة أوجمل منطوقة بل على هيئة حديث متـصل **discourse** ، أي في صيغة جمل منظومة أومكتوبة على التوالي ، ينتجها شخص واحد أو أكثر في مناسبة واحدة فإذا كان اهتمام المرء منحصراً في الكفاية اللغوية فما عليه إلاَّ أن يتناول مجموعة اعتباطية من الجمـل ، يحتاج مـن غير شـك إلى توضيح))[٢]. وعلى أساس هذا التصور أخذ النقاد بالبحث عن مظاهر العلاقات داخل الجمـل وما بينـها لإيجاد ثوابت النظام التكويني الذي تنتج عنه الدلالة الثانية (دلالة النص) فركز ـ لويس ـ على رابط الجمـلة بقـوله ((إنه ذلك الجزء مـن الجملة الذي إلى جانب وظيفته في الجملة التي يرد فيها ، يربط تلك الجملة بجملة أخرى)) [٣] ، فالعلاقات الناتجة عن ذالك الترابط هي علاقات تبعية. في حين استند بولسن في تحليل الفقرات إلى عامل الحافز ـ والاستجابة ـ ويذكر أن الفقرة المعنية تشكل نمطاً ثابتاً إلى حدِ ما من الحافز والإستجابة... إذ إن كل استجابة تعد حافزاً لاستجابة أخرى والإستجابة الأخيرة في الفقرة قد تكون حافزاً تبدأ به سلسلة ـ الحافز ـ الأستجابة في الفقرة الآتية[٤]. وقد تكلم الجرجاني على مجموعة من العلاقات التبعية في الجملة العربية ، فضلاً عن العلاقات بين الجمل في سياق ما ، ومـن ذلك موضوع التقديم والتأخير ، فافترض أنه نوعان: (التقديم على نية التأخير) ، و(التقديم لا على نية التأخير) ويمكننا

---

(١) دلائل الإعجاز / ٧١

(٢) نفسه / ٨٧.

(٣) علم اللغة السيميائي والأدب المروي / وليم أو. هاندرك/ ترجمة د نوزاد حسن أحمد، ويؤيل يوسف عزيز / الدار العربية للموسوعات. بيروت / ط١ / ٢٠١٠ / ١٢.

(٤) ينظر نفسه / ١٣.

الإشارة إلى ما تركته الآثار المنطقية من ضلال على تفكير الشيخ الجرجاني وتقسيماته فقد فرضت ثنائية التضاد حضورها عنده ، فأوجدت النوع الثاني من التقديم[1] ، وهو ((أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم ، وتجعل له باباً غير بابه ، وإعراباً غير إعرابه ، وذلك أن تجيء إلى إسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأً ويكون الثاني خبراً له ، فتقدم تارة هذا على ذاك ، وأخرى ذاك على هذا ، ومثاله ما تصنعه بزيد والمنطلق...))[2]. و بهذا ومثله يبني الجرجاني فكرة النظم التي تعتمد تشكيل الجمل على سمت المعنى ، ولذلك يقدم لنا مفهوماً للنظم بحسب قوانين النص المرتبطة بالمعنى ، فليس النظم ـ عنده ـ ((...إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه "علم النحو" ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغُ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك ، فلا تُخل بشيء منها))[3] ، ويعد ذلك مفهوم واضح للبنية النصية ، وهو قريب جداً من مفهوم البنية في الدراسات النقدية واللسانية الحديثة ، التي تعد البنية وسيلة للكشف عن عناصر النظام في الأدب[4]. فأصبحت جزءاً من أداوات النقد الحديث ، وأصبحت ضالته فكرة النظام أو النسق الذي يتحكم بعناصر النص وأجزائه مجتمعة ، الذي يمكن أن يظهر عن طريق شبكة العلاقات العميقة بين المستويات النحوية الأسلوبية والإيقاعية ، فهي مستمدة من فكرة العلاقات اللغوية التي تعد أساسًا من أسس نظرية دي سوسور التي وضحها حين ذهب إلى أن اللغة ليست مفردات محددة المعاني ولكنها مجموعة علاقات ، بمعنى أن الكلمة لا يتحددُ معناها إلا بعلاقتها مع عدد من الكلمات ، بما سبقها وما لحقها. والحقيقة أن الجرجاني ينبه إلى هذه الاتجاه في الدراسة ، ويجده خصباً مثمراً ، ((وهو باب من العلم إذا أنت فتحته اطلعت منه

(١) علم اللغة السيميائي والأدب المروي / وليم أو. هاندرك/ ترجمة د نوزاد حسن أحمد، ويؤيل يوسف عزيز / الدار العربية للموسوعات. بيروت / ط١ / ٢٠١٠ / ١٥ ـ١٦.

(٢) ينظر دلائل الإعجاز /١٠٦.

(٣) نفسه / ١٠٧.

(٤) نفسه / ٨١.

على فوائد جليلة ، ومعان شريفة ، ورأيت لـه أثـراً في الـدين عظيماً وفائـدة جسـيمة ، ووجدته سبباً إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل وإصلاح أنـواع مـن الخلل فيما يتعلق بالتأويل))[١] ، وإلى جانب أهمية هذا الاتجاه في الدراسة يوازيه بالأهمية نفسها جانب الخطورة والحذر في تحليل النص وفهمه وتفسيره ، مما يـوق المتلقي في دائرة الوهم أو الشك وهو يقول: ((فإن النفس تنازعُ إلى تتبُّعِ كلِّ ضربٍ من الشبهة يُرى أنه يعرِض للمسلم نفسَه عند اعتراض الشكِّ))[٢] ، وفي هذه المرحلة تتمفصل عملية التواصل ، فإن الرسم الأخير للمعانى في المرسلة تتشكل في ذهن المتلقي أو المرسل إليه ، وهنا دعوة للقراءة والتأويل. فتتكامل العملية عند المتلقي. فيدعونا إلى البحث في إحدى الآيات الكريمات لإثبات أن المعاني لا تتجزأ في النص بل على المتلقي جمع أطراف الصورة ، قال: ((وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى {{وقيل يا أرض ابلعي ماءكِ ويا سماءُ اقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين}}هود/٤٤. فتجلى لك منها الإعجاز ، وبهرك الذي ترى وتسمع ، أنك لم تجد ماوجدت من المزية الظاهرة والفضيلة القاهرة ، إلا لأمرٍ يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض ، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلّا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة ، وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها. وأن الفضل ما بينها ، وحصل من مجموعها))[٣].

ويميل الجرجاني إلى التفكيك و التجريب ، يقول((ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت ، ثم أن كان النداء "بيا" دون "أي". نحو "ياأيتها الأرض" ، ثم إضافة "الماء" إلى "الكاف" ، دون أن يقال: "ابلعي الماء" ، ثم أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو من شأنها ، نداء السماء وأمرها كذلك بما يخصها ، ثم أن قيل: و"غيض الماء" فجاء الفعل على صيغة "فُعِلَ" الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقدرة

(١) ينظر البنيوية/جان بياجه/ ترجمة : عارف منيمنه وبشير أوبري / منشورات عويدات / بيروت- ط٤ / ١٩٨٥ /٦٤.

(٢) دلائل الإعجاز/ ٤١.

(٣) نفسه/ ٣٧٠

قادر ، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: "وقضي الأمر" ، ثم ذكر ماهو فائدة هذه الأمور ، وهو: "استوت على الجودي" ، ثم إضمار "السفينة" قبل الذكر ، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشأن ، ثم مقابلة "قيل" الخاتمة بـ"قيل" في الفاتحة))[1] ، والصورة عنده لا تخضع للتمفصل المزدوج كون تمفصلاتها لا تقع على الدال دون المدلول لتقاربهما ، فإذا ما أخذنا صورة لثلاثة أشياء وفصلنا أحدها فإننا سنجد أنفسنا أمام تقطيع للدال والمدلول معا. فحيث توجد الوحدة المتعالية والمباشرة توجد الرسالة المجملة التي لا تقبل وحداتها التمفصل الأول[2] ، بيد أن ما يجيز التمفصل المزدوج في اللسان ، شساعة المسافة بين الدال والمدلول ؛ التي تعد طرفا مؤسسا لجوهر الاختلاف الفونيمي المفرغ من الدلالة. إن عدم خضوع الصورة للتقطيع المزدوج[3] ، وتابع الجرجاني فكرة النظم ومحاولة إثبات أن المعنى هو الركيزة الأساس في تشكّل المرسلة ، واصطياه يعطينا الصورة اللفظية المناسبة له ، ولا تنتهي تلك المتابعة في مر حلة المرسل والمرسلة بل يلاحق فكرته ليثبتها عند المرسل إليه ، ويحاول أن يقنعك بأن المزية في المعنى وليس في صفات اللفظ الذي يطرق الأسماع ، ((وأنها من حيز المعاني دون الألفاظ ، وأنها ليست حيث تسمع بأذنك ، بل حيث تنظر بقلبك ، وتستعين بفكرك ، وتعمل رويتك ، وتراجع عقلك ، وتستنجد في الجملة فهمك))[4] ، وترتبط التباينات النوعية للأسنن تباعا بتباينات في عملية التسنين وفكه ، ولانجد لهاتين العمليتين تأثيرا في بناء المعنى وتشييده ، فقد((يتداخل مفهوم التسنين بالفهم وبخاصة إذا تعلق الأمر بالنسق اللساني الذي أضفى عليه دي سوسور بعدا سيميائيا ، ولم يعرفه بأنه سنن. إن المستقبل يتلقى المرسلة عبر متتالية من الإشارات يحاول أن يضفي عليها معنى يقصده المتكلم أو يقترب من قصده ؛ لأنه لا تواصل خارج العملية القصدية وهذا ما لا يقوم به إلّا الإنسان ، ولا تستطيع الآلة في

---

(١) دلائل الإعجاز / ٤٥.

(٢) نفسه / ٤٦.

(٣) ينظر سيميائيات التواصل وفعالية الحوار/ أحمد يوسف / ٣٦.

(٤) ينظر محاضرات في السيميولوجيا/ محمد السرغيني / الدار البيضاء، دار الثقافة/ ١٩٨٧ /٧٣.

الراهن على الأقل منافسة البشر في ذلك لكونه حيوانا ناطقا ورامزاً))[1]. وأثبت الجرجاني أن الإسنن تخضع لمقتضيات المدلول ، إذا أردنا تخصيص القوة في جوهر ما ، فيكون المدلول جوهراً والدال عرضاً له لأنك ((تستطيع أن تنقل الكلام في معناه عن صورة إلى صورة ، من غير أن تغيّر من لفظه شيئاً ، أو تحوّل كلمةً إلى مكان آخر ، وهو الذي وسع مجال التأويل والتفسير حتى صاروا يتأولون في الكلام الواحد تأويلين أو أكثر ، ويفسرون الواحد عدة تفاسير ، وهو على ذاك ، الطريق المزلّة الذي ورّط كثيراً من الناس في الهلكة)) [2] ، ويقدم الجرجاني دليلاً تطبيقياً لإثبات ذلك ، ويعده نظاماً في تشكّل السنن ، وهذا ما افترضه في إبطال محاولة تقدير أن (لعابَ الأفاعي) مبتدأ ، و(لعابَهُ) خبر ، كما يوهمه الظاهر ، يفسد المعنى ، في قول أبي تمام:

لعـــابُ الأفــاعِي القَــاتِلاتُ لُعَابُــهُ وَأَرّيُ الجَنَـى اشْـتارَتْهُ أيـدٍ عَواسِـلُ[3]

يقول الجرجاني:((أبطلت الصورة التي أرادها فيه ، وذلك أن الغرض أن يشبه مداداً قلمه بلعاب الأفاعي ، على معنى أنه إذا كتب في إقامة السياسات أتلف به النفوس ، وكذلك الغرض أن يشبه مدادَهُ بأرْيِ الجنى ، على معنى أنه إذا كتب في العطايا والصلات أوصل به النفوس ما تَحْلُو مذاقته عندها.. وهذا المعنى إنما يكون إذا كان "لعابُهُ" مبتدأ ، و"لعابُ الأفاعي" خبراً له))[4]. فإن قدّرنا غير ذلك فسد المعنى الذي أراده أبو تمام ، وهذا ما يثبت أن المعنى يحدد وظائف الكلمات في الجمل وينظم العلاقات بينها ، أي إن ترتيب الألفاظ في الكلام لايمنحها المعنى ، لأن المعاني هي المتبوعة والألفاظ هي التابعة في حركة عملية التواصل ، وقد بين الجرجاني في استدلاله السابق وهم من تصور العكس ، فـ((إن نظر ناظر في شأن المعاني والألفاظ إلى حال السامع ، فإذا رأى المعاني تقع في نفسه من بعد وقوع الألفاظ في سمعه ،

---

(١) دلائل الإعجاز /٦٤.

(٢) سيميائيات التواصل وفعالية الحوار / أحمد يوسف/١٤٣٠.

(٣) نفسه / ٣٧٤.

(٤) نفسه / ٣٧١.

ظنَّ لذلك أن المعاني تبعٌ للألفاظ في ترتيبها ، فإن هذا الذي بيّنّاه يُريه فساد هذا الظن. وذلك أنّه لو كانت المعاني تكون تبعاً للألفاظ في ترتيبها ، لكان محالاً أن تتغير المعاني والألفاظ بحالها لم تَزُلّ عن ترتيبها ، فلما رأينا المعاني قد جاز فيها التغيُّر من غير أن تتغيّر الألفاظ وتزول عن أماكنها ، علمنا أن الألفاظَ هي التابعةُ ، والمعاني هي المتبوعةُ))[1]. وأجد أن هذه الفكرة كانت أوضح بكثير من محاولا ت دي سوسور في تقديم فكرة (القيمة)(**Value**) بل تجاوز الجرجاني مسألة تحديد معنى الكلمة بحسب السياق ، وذهب إلى أن المدلول هو الذي يصنع السنن ، وإن مصطلح القيمة غالبا ما ينظر البعض إليه على أنه مرادف لمصطلح المعنى **Meaning** ، وقد رأى دي سوسور أن في ذلك بعض الغموض والإرباك ، ثم حاول توضيحه فأشار إلى أن القيمةَ عنصرٌ في المعني ـ فهي تساعد علي تبيانه ـ ولكن لا يجب النظر إلى المعنى على أنه أي شيء آخر بخلاف القيمة ، أي على أنه يوجد بذاته ، من دون ما تقتضيه القيمة من دخول الكلمة في علاقات تسفر عن تحديد معنى الكلمة ؛ ويشعر دي سوسور أن كلامه بهذا الشكل لا يؤدي المطلوب منه ، فيعرض للفارق بين رؤيته للمعني ، وبين الرؤية التقليدية السابقة له ، إذ الرؤية التقليدية للمعني تراه كامناً في الكلمة نفسها ، ومن ثم يصبح المعنى طبقا لهذه الرؤية نظيرا للصورة السمعية المنطوقة ، أما رؤيته هو فتقوم علي أن القيمة الخاصة بالكلمة تتحدد علي أساس علاقات هذه الكلمة بغيرها في السياقات المختلفة ، إذ هو يحذر من النظر إلي الكلمة علي أساس أنها عنصر جوهري منفصل يمتلك معني في ذاته ، وإنما يجب دائما النظر إليها علي أنها عنصر في نظام ، وهي نقطة يلح عليها(دي سوسور) كثيرا في محاضراته[2].

وينتقل الجرجاني إلى حيز المتلقي ، ونجده في الأعم الأغلب يتحدث عن وظائف المرسلة ، فهو يشدّك إلى وظيفة النص الجمالية الشعرية ، وتأثيرها في المتلقي ، فيشير إلى الوظيفة التفاعلية ، قال: (أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز

---

(١) سيميائيات التواصل وفعالية الحوار / أحمد يوسف / ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

(٢) ينظر علم اللغة العام / ٣٧ ـ ٣٨.

روعة ، وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها... كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتساق العجيب))[١]. و قد استشعر ياكوبسن تلك العلاقة بين الوظيفتين ، مستنداً على تقسيمه لأطراف التواصل ، ودعته هذه الفكرة إلى إيجاد صلات مشتركة بين اللغة والأدب ، ومجالات دلالية أخرى ، ومشا بهته نظام الكناية والإستعارة في الأدب وكذلك معرفة الأحداث والمشاهد المستقبلية ، أو توقعها ومشابهتا حل النظام الشفري[٢].

إن الغاية من الكلام هي ما يصبو إليها المتواصلون و يهتم هؤلاء بالغاية أو الفائدة منه فضلا عن اهتمامهم بنوع الكلام ومستواه الجمالي ، و((قد أجمع الجميع على أن الكناية أبلغ من الإفصاح ، والتعريض أوقع من التصريح ، وإن للاستعارة مزّية وفضلاً ، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة. إلّا أن ذلك ، وإن كان معلوماً على الجملة ، فإنّه لا تطمئّن نفس العاقل في كل ما يطلب العلم به ختى يبلغ فيه غايته ، وحتى يتغلغل الفكر إلى زواياه ، وحتى لا يبقى عليه موضع شبهة ومكان مسألة))[٣] وإن البحوث والدراسات التي اعتمدت هذا المفهوم قدمت سمة الاهتمام بالأداء اللغوي (competence) بدلاً من الكفاية اللغوية (performance)[٤] ، وشكل هذا الاهتمام مفترق طريق للبحث عن مفاصل جديدة في النص الأدبي كالتكوينات الرمزية والعناصر البنيوية التكوينة الكبرى ، فقد تعامل كل من ليفي شتراوس وميشيل فوكو وجاك ورولان بارت ديريدا مع التراث الفلسفي أو الإنساني على أنه نظام من الرموز وهو في النهاية ليس إلّا نصوصاً مكتوبة أو اساطير محكية في حالة

---

(١) دلائل الإعجاز/ ٤٦.

(٢) ينظر قضايا الشعرية/رومان ياكوبسن/دار توبقال للنشر. الدار البيضاء / ١٩٨٨ /٢٧ و ٣٣. وينظر أفكار وآراء حول اللسانيات والأدب/رومان ياكوبسون / ترجمة فالح صدام الأمارة ود عبد الجبار محمد علي. مراجعة د مرتضى باقر/دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد / ١٩٩٠ / ١٢٤ـ ١٢٨.

(٣) دلائل الإعجاز/ ٧٠.

(٤) ينظر أقنعة النص/سعيد الغانمي/دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد ـ ط١ / ١٩٩١/٣٥ـ٣٦.

شتراوس ، لقد حلل شتراوس الأساطير على أنها مجموعة من الرموز والعلاقات ويتحدد معنى الرمز فيها عن طريق الموقع الذي يحتله داخل الأسطورة وكان حذراً من الوقوع في الخلط بين ماهو طبيعي وماهو ثقافي[١]. ولذلك ظهرت مقولة العلامات الثانوية أو(اللغات المتولدة) على أساس اللغة الطبيعية نفسها ، و يقترح بارت جرياً وراء هيلمسليف تصوراً لعلامات ثانوية(نصية) تتأسس دوالها من مدلولات العلامات اللسانية[٢]. وإن الظواهر التي تتفق وهذه الحالة يسميها هيلمسليف(دلالة) أو مؤشراً ؛ واللغة الثانوية التي تنشأ نتيجة هذه الدلالة تشكل في ذاتها لغة اصطناعية شارحة (ميتالغة). وما يهم دارس الأدب هو العلامات الثانوية أكثر من غيرها ، وفي هذه الحالة يكون (التضمين (connotation) وفي هذه الحالة يكتسي النص كله ، الذي يتكون من عدد من علامات اللغة الطبيعية ، معنى ثانوياً جديداً ، وهذا المعنى الجديد لا يلتقي مع أي معنى من معاني الكلمات المفردة الموجودة في النص. وبكلمات أخرى ، فإن النص كشيء متكامل يصبح علامة جديدة ، تكون فيه علامات اللغة الطبيعية(يعني الكلمات) هي الدال ، أما المدلول فهو شيء ما جديد (يعني عدم إمكانية تصوره مجملاً لمعاني الكلمات المفردة في النص). وإذا كان التعبير العادي يتكون من كلمتين يمكن أن يكتسي معنى ثانوياً ، فيمكن أن ينظر إلى النص كله كدال متكامل ، يراعي أي مدلول ضمني آخر[٣].

وظهر التركيز على عملية التواصل في مجال الفوائد من أشكال التراكيب المتنوعة في الجملة العربية ، ومنها شكل التقديم والتأخير ، ففي سياق حديثه عن

---

(١) ينظر رولان بارت، مغامرة في مواجهة النص / فرانك إيفرار وأريك تينه / ترجمة وائل بركات / دار الينابيع / دمشق ـ ط١ / ٢٠٠٠ / ١٤١ ـ١٤٢.

(٢) ينظر أسس السيميائية / دانيال تشاندلر / ترجمة د طلال وهبة / مركز دراسات الوحدة العربية/بيروت ـ ط١ / ٢٠٠٨ / ١٠٩ ــ ١١٤.

(٣) ينظر السيميائية، الأصول، القواعد، والتاريخ/آن إينو و ميشال آريفيه و لوي بانييه ومجموعة أخرى/ترجمة رشيد بن مالك ومراجعة عز الدين المناصرة/دار مجدولاي للنشر والتوزيع/ عمّان/ ٢٠٠٨ / ١٦٣ ـ ١٦٤.

ملاحظات علماء العربية على التقديم ، قال: ((أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل ، غير العناية والاهتمام. قال صاحب الكتاب ، وهو يذكر الفاعل والمفعول "كأنهم يقدمون لبذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم"... وقال النحويون: إن معنى ذلك أنه قد يكون من أغراض الناس في فعل ما أن يقع بإنسان بعينه ، ولا يبالون من أوقعه...))[١] ، وكذلك صنعوا في الأبواب الأخرى ، مثل: الحذف ، والتكرار ، والإظمار والإظهار ، والفصل والوصل ، والجرجاني يأخذ عليهم اكتفاءهم بهذه الفائدة ، ويشير إلى غنى المعارف المتحصلة من النظر إلى العلاقات بين مكونات التراكيب و ثمار البحث في مواضع الكلم من بعضها ، والمعاني المسببة لذلك النسج.[٢] يرتبط مفهوم السنن(code) لدى سوسير بمفهوم الكلام* ؛ أي بكل ما هو إنجاز واستعمال ، ومن ثم بمفهوم التواصل ، ذلك أن الكلام تحدده دورة تضم فردين على الأقل. فالسنن هو المخزون الذي يتخير منه الفاعل المتكلم مجموع الوحدات التي تؤلف الملفوظ أو الرسالة ، ولكنه يتضمن في الوقت نفسه مجموع القواعد التي تسمح لنا بنظم الوحدات فيما بينها ، وبهذا المعنى فإننا ننتقل إلى مفهوم النسق[٣] إن السنن ((هو مجموعة البرامج التي تضطلع بترجمة المثيرات الطبيعية التي تستقبلها مدارك الحس لتندمج ضمن وحدة عضوية مع المكونات المعرفية الأخرى ، فتنتقل من طور الممارسة إلى طور التفكير المجرد ، إذ يقوم بتحويل المثيرات الخالية من المعنى والمرجع إلى علامات ذات دلالة داخل المرسلات ؛ وذلك بالاستعانة بالخبرات الحسية السابقة واستثمار المعرفة بالعالم التي تؤدي دورا حاسما في تحليل الخطابات وتحديد العالم الدلالي داخلها))[٤]. إن للسنن وجودا بالقوة وللنسق وجودا بالفعل.

---

(١) دلائل الإعجاز/ ١٠٧.

(٢) ينظر / ١٠٩.

❖

(٣) ينظرسيميائيات التواصل وفعالية الحوار / أحمد يوسف /١٤١.

(٤) نفسه / ١٤٩.

علم اللغة الاجتماعي وكيفيات تفاعل اللغة مع المجتمع

د. ميساء صائب رافع عبود
كلية التربية للبنات/جامعة بغداد/قسم اللغة العربية

المقصود بعلم اللغة الاجتماعي هو دراسة في علاقتها بالمجتمع بوصفها ظاهرة اجتماعية وعنصراً مكوناً من مكونات الثقافة ، حظي هذا العلم بالاستقلال ونوع من الاهتمام الخاص ، واصبح علماً معترفاً بـه يُعرف بـ(علم اللغة الاجتماعي) (sociolinguisties) ، وليس المقصود منه أنّه تركيبة من"علم اللغة" و"علم الاجتماع" أو أنّه مزّج لهما ، بل هو ذلك العلم الذي يدرس اللغة في علاقتها مع المجتمع ، إذ ينتظم كلّ جوانب بنّية اللغة وطرائق استعمالها ، التي ترتبط بوظائفها الاجتماعية والثقافية وينظر في التغيرات التي تصيب بنية اللغة ، استجابة لوظائفها الاجتماعية مع بيان ان هذه الوظائف وتحديدها[١] وثمه فرق بين علم اللغة الاجتماعي ، وعلم اجتماع اللغة ، إذ يعني علم اجتماع اللغة "دراسة المجتمع في علاقته باللغة" وهو عكس ما يعنيه علم اللغة الاجتماعي. فالاختلاف بينهما واقع في محور الاهتمام ، إذ يستند ذلك إلى الأهمية التي يوليها الدارس للغة أم للمجتمع وإلى مهارته في تحليل البنية اللغوية او الاجتماعية[٢] ويندرج تحت مظلة علم اللغة الاجتماعي (sociolinguisties) علوماً منها ، علم اللغة الانثروبولوجي Anthropological linguistics الذي يعني بدراسة التنوعات اللغوية ، واستعمالاتها

---

(١)

(٢)

في علاقتها بالأنماط ألثقافية ومعتقدات الانسان ، إذ يطلق على(علم الانثروبولوجيا) : علم الانسان أو علم الاناسة ، إذ يدرس كيف يمكن للظواهر اللغوية أن تكشف عن هويّة الفرد ، أو تنسبه الى عضوية دائرة اجتماعيه وتكشف عن ثقافتهِ في الوقت نفسه[1] وهناك ثمة تداخل بين هذا العلم وعلم اللغة الاثنولوجي **Ethnolinguis)** **Tics)** الذي يعني بدراسة اللغة في علاقتها بالبحوث الخاصة بأنماط السلالات البشرية وأنماط سلوكها ، وهذا العلم يندرج تحت علم اللغة الانثروبولوجي(علم اللغة الإنساني) ، ويقع تحت مظلته[2] ، وهو بدوره ينتظمه علم اللغة الاجتماعي لان علم اللغة الاجتماعي منسوب إلى المجتمع الذي يضمّ كلّ ما يتعلق بالجنس البشري والقوميّات والجماعات أو الدوائر السياسية والاجتماعية ، وكل ما يتعلق بالتفاعل بين الأفراد في إطار الجماعات الكبيرة منها والصغيرة[3] والمشكلات التي يعرض لها علم اللغة الاجتماعي كثيرة ومتنوعة منها: إنهّ يعرض لمشكلة التنوُّعات اللغوية في المجتمع الواحد ، وموقعها من اللغة النموذجية أو المشتركة(الفصحى) في العربية على سبيل المثال ، ومشكلات التواصل اللغوي بين الأمم والجماعات ، التي تستخدم لغات مختلفة ، والمشكلات التي تسببها الثنائية اللغوية في المجتمع الواحد[1]

مفهوم اللغة من وجهة نظر المدرسة (البنيوية ، التوليدية والتحويلية والاحتماعية)

لا عجب أن يختلف أهل الاختصاص من اللغويين(واللغويين الاجتماعيين في تحديد المقصود بمصطلحاتهم ، ولاسيما فيما يتعلق منها بمفهوم اللغة.

فللغة مفهومان ، أحدهما عام ، والآخر خاص ،

الأول: مفهوم اللغة بوصفها طاقة أو ملكة إنسانية أو ظاهرة اجتماعية ، وهي بهذا لاتختص بلغة معينة دون أخرى ، ولا بنوع محدد من الكلام في بيئة معينة. وإنما تشير إلى الخاصة الانسانية التي امتاز بها الإنسان عن سائر المخلوقات ، بقطع النظر

---

(١)

(٢)

(٣)

عن الزمان والمكان ، وعن التنوع اللغوي الواقع في بيئة معينة.

والثاني: مفهوم اللغة(الخاص) ، ويتمثل بالإشارة إلى اللغة المعينة ، كالعربية أو الانكليزية[١] والذي يهمنا في دراستنا هو المفهوم الأول ، إذ كان موضع اهتمام الدارسين ، إذ ركزوا على فكرة العمومية للغة بوصفها خاصة إنسانية ، لا بوصفها لغة قوم معينين أو لغة لبيئة معينة. من ذلك ما رآه أصحاب المدرسة التوليدية التحويلية ولاسيما رائدها(تشومسكي) ، إذ يرى أن اللغة كفاية أو طاقة إنسانية ذات قوة أنتاجية توليدية ، إذ كان هدفهم من الدرس اللغوي وضع قواعد مثالية للغة الإنسانية ، ومن وجهة نظرهم ان ذلك يتم بالنظر إلى اللغة من جانبين ، أطلقوا على أحد الجانبين اسم(البنية العميقة **deep strucTure**) ، الذي يمثل الطاقة أو الكفاية ، وأطلقوا على الجانب الأخر اسم(البنية السطحية **surface structure**) وهو الناتج عن الطاقة أو الكفاية ، بواسطة قواعد تحويلية معينة ، ويطلقون عليه اسم (الأداء). وهم في ذلك ينهجون منهجاً عقلياً صرفاً ، إذ كانت اللغة في رأيهم نظاماً عقلياً فريداً من نوعه ، تستمد حقيقتها من أنها أداة التعبير والتفكير الإنساني[٢] وقد وافقهم في رأيهم نفر اَخر من العقليين ، بيد أنهم لا يميلون الى التفريق بين جوانب اللغة ، ويأخذون وظيفة اللغة في الحسبان. ينص رأيهم على أنّ اللغة "تتمثل في استعمال رموز صوتية ، ذات نظم دقيقة للتعبير عن الأفكار ، بين شخص وآخر. من أنصار هذا الاتجاه اللغوي الأمريكي(سايبر) وينحو نحوه (هيرمان بولل) ، إذ قال بشأن أغراض اللغة إن وظيفة الأساسية هي كونها وسيلة لنقل شيء ما أو توصيله إلى الغير[٣] وفَرَّق(دي سوسير) بين اللغة بمعناها العام واللغة المعينة. فاللغة بالمعنى المطلق (العام) عند(ديسوسير) هي الميول والقدرات اللغوية عند الإنسان ، فهي بهذا المعنى جزء من الطبيعة الإنسانية. وهي في الوقت نفسه اجتماعية وفرديَّة معاً ، وذات أنواع وأشكال

---

(١)

(٢)

(٣)

متعدّدة وهي بهذا المعنى تتضمن اللغات واللهجات المتعدّدة ، ودراسة اللغة بمعناها العام ليس من وظيفة علم واحد بعينه. واللغة المعّينة عنده هي وظيفة جماهير المتكلمين في البيئة اللغوية المعينة. وهي عبارة عن مجموعة من النظم والقواعد المخزونة في عقول الجماهير ، وهي بهذا المعنى هي موضوع علم اللغة وهدفه. أما الكلام فهو وظيفة الفرد المتكلم فعلاً وهي أحداث لغوية يحدثها المتكلم وقت الكلام[١] فاللغة المعينة توجد فقط في الجماعات وهي تمثل الجانب الاجتماعي ، ويجب أن يتقبلهُ الفرد ويرى سوسير أن من الممكن دراسة اللغة دون الكلام ، بدليل أننا لا نتكلم اللغات الميتة ، ويرى(دي سوسير) أن عمل علم اللغة دراسة اللغة ، في حين أن الكلام الذي هو شيء فردي ومن عمل الفرد شيء ثانوي عند علماء اللغة[١] أمّا علماءُ اللغة الاجتماعيُّون فلا يعنيهم التفريق بين ما سُمَّي(اللغة **Languge**) وما سُمي(الكلام**Parole**) ، إذ أنهّم يأخذون اللغة على أنها مجّرد ظاهرة أجتماعية ، تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعيّة من تغيُّر وتنوُّع حسب مقتضيات الظروف والملابسات في المجتمع الُمعين. فضلا عن اهتمامهم بالواقع اللغوي الملفوظ بالفعل ، ولا تعنيهم الجوانب الأخرى التي وصفها غيرُهم بـ(الطاقة) أو(الكفاية) ، أو مجموعة نظم من القوانين والقواعد المخزونة في ذهن الجماعة اللغوية الُمعّينة ، وأن عالم اللغة الاجتماعي يركز اهتمامه على انماط التغُّيرات الحادثة في اللغة والمجتمع إذ أنهّ مهتم بربط البنية اللغوية بالبنية الاجتماعية في المجتمع المعين ، وهذه الدراسة هي موضوع البحث في علم اللغة الاجتماعي كما يرى(فيشمان) ، لأن اللغة سلوك أجتماعي ، يحدّده المجتمع في المقام الأول[٢] وبذلك يكون عالم الاجتماع المهتمّ بالظاهرة اللغوية بعيداً كُلّ البُعد عن دراسة اللغة لذاتها ولأجل ذاتها—كما يقول دي سوسير— وإنما يأخذها على أنها مادّة ثرية لها أهميتها في توضيح الظواهر الاجتماعية وتفسيرها بصورة أدق وأعمق ، ذلك أنّ السلوك اللُغوي ضربٌ من السلوك الاجتماعي وبينهما

---

(١)

(٢)

تفاعل دائم وتبادل في الكشف عن هُويّة الأفراد في مجتمعهم[١]

متى نشأت المدرسة الاجتماعيّة

نشأت المدرسة الاجتماعيّة في أوائل القرن العشرين ، على يد(إميل دور كايم) ، وكان من أشهر أعضائهم الأساتذة: (ليفي برول) و(فوكونيه) و(دافي) ، وانضمَّتْ طائفة من علماء اللغة إلى هذه المدرسة ، واعتنقت مذهبها من أشهر الأساتذة: (دوسوسير) و(فندريس) و(مييه) ، الذي تعد مؤلفاته من أهم مراجع علم اللغة ، فضلاً عن أنه عرج على كثير من مسائل علم الاجتماع اللغوي في كتابه (اللغة Language) ،[٢] إذ اجتهد علماء اللغة أمثال : سوسير وميه ، وفندريس ، وفيرث وهاليداي ومالينوفسكي ، ويسبرسن ، وفلمور ، وهاريس ، وكاردنر ، وغيرهم على إنشاء هذا الفرع الجديد من علم اللغة الذي يطمح أصحابُه الى اكتشاف الأساس أو المعايير الاجتماعيّة التي تحكم السلوك اللغوي مستهدفين إعادة التفكير في المقولات والفروق التي تحكم قواعد العمل اللغوي ، ومن ثم توضيح موقع اللغة في الحياة الإنسانية[٣]

ميدان علم اللغة الاجتماعي

يدرس علم اللغة الاجتماعي اللهجات الاجتماعية أو الطبقيّة في المجتمع اللغوي من حيث خصائصها الصوتية الصّرفية والنحّوية والدلالية وتوزيعها داخل المجتمع ودلالتها على المستويات الاجتماعية المختلفة ، فضلاً عن دراسة مشاكل الإزدواج اللغوي(العامية والفصحى) أي يدرس التأثير المتبور بين اللغة والمجتمع[٤]

يعد علم اللغة الاجتماعي التحليل اللغوي بُعّداً يتجاوز المدى الذي بلغه علم

---

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

اللسانيات الحديثة ، إذ يعالج المشكلات اللغوية ولاسيما الازدواجية اللغية والثنائية اللغوية ، وفي حل كثير من مشكلات التعليم ، لما له من دور فاعل في الإفصاح عن العلاقات الاجتماعية والثقافية للمجتمع[١]

اللغة والمجتمع

اللغة وسيلة اجتماعية ، وأداة للتفاهم بين الأفراد والجماعات وهي صلة الفرد في مواجهة المواقف المختلفة التي تتطلب الكلام أو الاستماع أو الكتابة أو القراءة: وهذه الجوانب الأربعة مهمة في اتمام عملية التفاهم ، بل هي من أهم الوظائف الاجتماعية للغة ، والمجتمع يستخدم اللغة أداة لجعّل الفرد يصطبغ بصبغة المجتمع في فكره وفي سلوكه فالبيت والمدرسة ما هي ألا بيئات يتلقى فيها الفرد أنماطاً السلوك وقواعد اللغة. وبهذه الطريقة يكتسب الفرد شخصيته الاجتماعية ليكون عضواً فاعلاً في مجتمعه ويكتسب لغته ليتحدّث بها وفقاً لعُرّف الجماعة التي ينتمي إليها[١] ولا يمكن فهم اللغة وقوانين تطورها بمعزل عن حركة المجتمع الناطق بها في الزمان والمكان المعينين لأنّ فيها من الأنسان فكُرهُ وطرائقه الذهنيّة وفيها من العالم الخارجي تنوُّعه وألوانهُ وهذه النظرة الاجتماعية أكدها(فيرث) بقوله (لنبدأ نعتبر الإنسان ليس مفصولاً عن العالم اخارجي الذي يعيش فيه إنه ليس الا جزأ منه.. فكلامك ليس مجردّ تحريك اللسان أو اهتزاز في الحنجرة ، أنما أكثر من ذلك نتيجة لعمل في تأدية وظيفته كمدير للعلاقات ، لتحفظ عليك سيرك في المحيط الذي تعيش فيه.[٢]

اللغة والثقافة

للغة والثقافة دور مهم في تصنيف البشرية الى أمم ووضح الفوارق بينها ، وهناك خمسة عناصر مهمة أتخذت معياراً لهذا التصنيف: هي: الجنس المشترك والدين ، والقومية واللغة والثقافة. فاللغة والثقافة هي المرآة العاكسة للنشاط الإنساني بجميع

---

(١)

(٢)

أشكاله في هذه الأمة أو تلك ، فبين اللغة والثقافة علاقة وثيقة ، بل هي علاقة الجزء بالكل ، فاللغة أخصّ والثقافة أعمّ ، وبينهما علاقة التأثير والتأثر

ولكن هذا العنصر الخاص وهو(اللغة) ، له تأثير قويّ على البناء الثقافي. إذ نستطيع الحكم على المرء بمجرد أن يفتح فمه وتقريب الشِّفةّ بين جنبان اللغة ليس أمراً لغويا فحسب ، بل هو موضوع ثقافي سياسي اجتماعي ، وانسجام اللغة يؤدي الى انسجام هذه المجالات[١] وأن الارتباط بين اللغة والثقافة وحدة أو تنوّعا يتوقف على على درجة الاختلاف اللغوي والقافي معاً فإذا كان الاختلاف بين اللغات كبيراً كان الاختلاف بين الثقافات واضحاً ، في حين أنّ درجة الاختلاف في الثقافات تقلّ في حالة التقارب اللغوي[٢]

التنوع اللغوي

هناك اتجاهان متضادان في علم اللغة: اتجاه نحو التنويع والآخر نحو التوحيد والتخلص من الفروق الغوية ويرى عدد كبير من اللغويين أنّ الوضع الطبيعي يميل نحو الانقسام والتوزيع. ومن ثمّ ينشأ عن الوحدة تفرُّق وتشعب والسبب في ذلك التأثر بما هو ملموس ومُشاهد في تاريخ البشرية ، وهو انقسام مجموعة ضخمة من اللغات المشتركة الى لهجات متعددة كتفرع اللاتينية الى فرنسية وايطالية وإسبانية وبرتغالية ، والسامية الى عربية وعبرية وسريانية وتشعب العربية الى سورية ولبنانية... الخ حتىّ أنّ السورية واللبنانية تفرّعت بدورها الى لهجات آخرى متعّددة ، هذه الأمثلة جعلتهم يعتقدون أنِّ هناك قانوناً طَبيعياً يؤدي إبى تشعب اللغات وانقسامها. ومن اهم الأسباب التي دعتهم للتمسك بمبدأ الانقسام كثرة عدد اللغات في العالم الأن مقارنة مع لغات الأزمان الماضية بالنظر الى عدد السكان المتزايد. والباعث في تنوّع اللغات وتفرُّعها وفيتكوين اللخجات وضعف الاختلاف الاجتماعي ، بين اهل المنطقة اللغوية

(١)

(٢)

الواحدة وسوء الاتصال بين أفرادها[1] أما عوامل التوحيد وتكوين اللغة المشتركة فتتمثل في الاتي: [2]

١. التجمعات البشرية ، متمثلة بالمدن الكبرى والجانعات والمعاهد العليا ، والتجمعات والقاءات الرسمية ، الزواج المختلط.

٢. الأدب ، إذ يؤدي الأدب دوراً مهماً في تكوين اللغات المشتركة والمقصود بالادب أدب المجتمعات المكتوب ، وغير المكتوب ، ومثاله ما قام به الرواة في الجاهلية وعصر صدر الاسلام في نشر الأدب وذيوعه إذ كان عاملاً مهماً في التقريب بين اللهجات العربية

٣. الوحدة السياسية: إذ هي عامل من عوامل التوحيد اللغوي والتقريب بين اللهجات فوجود حكومة مركزية مسيطرة على مجموعة من الأقاليم ، تجعل الفرصة مواتية لظهور لغة مشتركة وتوطيدها وتعد اللهجات (Doalect) من صور التنوّع اللغوي ، إّ أن هناك نوعين من اللهجات: (لهجات جغرافية أو محلية Regional or Geographical) ، ولهجات اجتماعية (Social Dialect

هذه اللهجات التي يتكلمها إنسان ما ، من شأنها أن تحدّد هويته المحلية ووضعه في مجتمعه تختلف اللهجات المحلية بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً في المساحة التي شغلها كلٌّ منها وتعمل كلّ لهجة على الاحتفاظ بشخصيتها وكيانها فتقوم بمحاربة عوامل التغيير داخل منطقتها ، نظراً لترابط الناطقين بها بعضهم ببعض داخل مجتمعهم.

ويعود الفضل في حمايتها من اللهجات المجاورة إلى ضعف الصلات التي تربط أهلها بمجاورهم ، وقلة فرص الاحتكاك بهم وميلهم للُعزلة والاستقلال ، وهذا ينطبق عى البيئات الزراعية التي تقلّ فيها المواصلات ، وتضعف حلاكة انتقا الأفراد ، عل العكس من البيئات التجارية والصناعية التي يكثر فيها احتكاك أهلها بغيرهم إذ

---

(١)

(٢)

يرجع الفضل في حماية لهجتها الى قلة عدد الأجانب بالنسبة إلى سكانها الأصليين، وانتمائهم إلى مناطق مختلفة، وقصر مدة إقامتهم[١].

أما إذا كانت الفوارق كبيرة من أهل المنطقتين فإن التأثر يكون عميقاً، لدرجة القضاء على اللهجة المغلوبة، ويحدث ذلك في حالتين: الأولى أن تكون إحدى المنطقتين خاضعة لسلطان المنطقة الأخرى، عندئذ يكتب النصر للهجة ذات السلطان بشرط أن لا تقلّ عن المنطقة الاخخرى حضارة وثقافة وأدباً، مثال لهجة قريش واللهجات العربية الأخرى والثاني: أن تفوق إحدى المنطقتين المنطقة أخرى في الثقافة والحضارة وآدب لغتها في هذه الححالة يكون النصّر للهجتها وإن لم يكن لها سلطان على المنطقة الاخرى[٢]

أمَّا اللهجات لاجتماعية فتعود نشأتها إلى مابين طبقات الناس من فروق في الثقافة والتربية والمعيشة وحياة الأسرة والعادات والتقاليد الخ...

وقد تتشعب اللهجة العامّة وتختلف كلٌ منها عن أخواتها في المفردات وأساليب التعبير وتكوين الجمل ودلالة الألفاظ وغير ذلك. ولا تبقي هذه اللهجات جامدة بل تسير في سبيل الارتقاء الذي تسعى اليه اللهجات المحلية فيتسع نطاقها باتساع الناطقين بها، ومبلغ نشاطهم واحتكارهم بالطبقات الأخرى من مواطنيهم. وتؤثر اللهجات الاجتماعية في لغة المحادثة العاديةّ فتستعير منها هذه اللغة كثيراً من التراكيب والمفردات حتى أنهّا لا تتميّز عن بعضها البعض إلا في المدن الكبيرة كما هي الحال في بغداد في العصر العباسي ومن أهم أنواعها اللهجات الحرفية[٣]

الصراع اللغوي

تتصارع اللغات إذ يحدث بينها ما يحدث بين الكائنات الحيّة وجماعاتها من

---

(١)

(٢)

(٣)

احتكاك ، فالألفاظ كالناس تنتقل كما ينتقلون ، وتهاجر كما يهاجرون. ويذكر اصححاب النظرة الاجتماعية للتطور اللغوي الناجم ع الصراع بين اللغات ثلاثة أشكال[١]

١-أن تموت اللغ موتاً طبيعياً بسبب كثرة الناطقين بها وتباعد بيئاتهم ، مما يؤدي الى تولدّ لهجات محلية منبثقة بين اللغة الأم ومد تتسع لهجة جديدة وتنمو على حساب اللغة الأم لتكون هي اللغة كما حدث للسامية الأم والسنسكريتية.

٢- أن تغذى اللغة المعينة من لغة أخرى ، إذ يكون الغُزاة أكثر عدداً من أهل اللغة المغزوة ، على نحو ما حدث من غزو الساميين حين تغلبت لغتهم على السومرية.

٣- أن تموت اللغة بتسرب رشح دخيل من لغات أخرى تحتاج اليه اللغة فتتقبله ، على نحو حان العربية إذ غزت الفارسية ، حتى أصبح الأدب والسياسة والعلم لا يعرف غير العربية وتقلص ظلّ الفارسية

إن ما تقتبسه اللغات من بعضها أكثر ما يكون على مستوى المفردات وهو ما يطلق عليه(الافتراض الغوي).

ولم يكن الصراع اللغوي مقتصراً على الصراع الخارجي ، وحدث فقد يكون الصراع داخلياً ، إذ تدخل اللغة في صارع داخلي مع نفسها إذا تعدت لهجتها بفعل اخختلاف البيئات ، والقبائل في النطق ، وتؤدي العوامل الاجتماعية التي نشأت عن عوامل البيئة دوراً مهماً في تطور اللغات وصراعها مع بعضها[٢]

(١)

(٢)

التواصل اللغوي

التواصل في اللغة من(الوَصْل) ، الذي يعني الصلة وبلوغ الغاية ، إذ هو(ضد الانفصال ، ويطلق على أمرين ، أحدها اتحاد النهايات ، وثانيهما كون الشيء يتحرك بحركة شيء آخر)[١] ، واصطلاحاً يعني : نَقْل أو تبادل المعلومات بين أطراف مؤثرة ، ويترتب عليه تغيير المواقف والسلوك ، وبهذا يكون التواصل من اهم الظواهر الاجتماعية ، التي تندرج تحتها كل الانشطة التي يمارسها الانسان في حياته[٢] ، واتواصل تبادل كلامي بين المتكلم الذي ينتج ملفوظاً أو قولاً موجهاً نحو متكلماً آخر ، يرغب في السماع أو في أجابة واضحة أو ضمنية ، تبعاً للأنموذج الذي أصدرهُ المتكلم ،[٣]

عناصر التواصل:

للتواصل عناصر تتفاعل لتشكل نسقه العام:

١. المرسل: هو تواصل شخص أو مجموعة من الاشخاص أو هيأة إعلامية أو ثقافية مع مجموعة من الاشخاص ، وفق طريقة من طرائق الاتصال ، اللغوية وغير اللغوية ، وحتى يتمكن المرسل من إنجاز رسالته بصورة جيدة ، لابد ان يراعي التحكم في أنظمة اللغة ، فظلاً عن مراعاة المحيط الاجتماعي واشتهاداته الشخصية[١]

٢. الرسالة: تحمل الرسالة الخطاب المراد ايصاله الى المخاطب والرسالة مجموعة محددة من العناصر اللغوية المادية والمعنوية ، يستمدها المرسل من مختزن الإشارات والرموز عنده ، ويصوبها طبقاً لأصول وقواعد محددة ، لتوجه الى المرسل اليه ، وهي ثمرة العملية التواصلية بين الطرفين ، إذ تتخذ اشكالاً متعددة ، فقد تكون كلاماً شفهياً أو إيحائياً ، عن طريق الإشارة وغيرها ، وقد تكون كتابتاً. فالنص الكلامي أو الشفوي أو الإيحائي أو أي شكل يمثل رسالة

---

(١)

(٢)

(٣)

موحية تصل الى الطرف الآخر[1]

٣. القناة: هي الوسيلة التي تنتقل عن طريقها الرسالة من المرسل الى المرسل اليهِ ، وتتنوع حسب مصادرها فتكون (قنوات لفظية ، شفوية ، كتابية رمزية) إذ هي تسمح بقيام التواصل بين المرسل والمرسل اليهِ ، وعن طريقها تصل الرسالة من نقطة الى أخرى[2] ،

٤. المرسل اليهِ: هو القطب الثاني في عملية التواصل ، إذ هو متلقي الرسالة ، يتلقى ما يوجههُ اليه المرسل ، ثم يقوم بعملية فك رموزه باعتماد الإشارات المخزونة في ذاكرتهِ ، إذ أن قيام التواصل مرتبط بوجود مخاطب يتفاعل معهُ المرسل ، وعلى أساس معرفتهِ للمرسل اليهِ تكون طريقة الخطاب ، ويختار لها الاستراتيجية المناسبة لهُ[3]

٥. السنن: هو نسق القاعدة المشترك بين المتخاطبين يبين قصد المتكلم ، ويعين السامع على الفهم ، فتستمر العملية التواصلية[1]

٦. السياق: ويعني وضع ما نتحدث عنهُ من موضوعات في سياق معين يعرف الموقف أو السياق الاتصالي ، ويتضمن السياق كل المكونات الثقافية والاجتماعية والفكرية ، التي يكسبُ عملها المرسل والمرسل اليه مهارت وخبرات ، تسمح بالتفاهم والتفاعل ،[1]

٧. اشكال التواصل اللغوي:

١. التواصل اللفظي ٢. التواصل غير اللفظي ٣. التواصل الكتابي

١. التواصل اللفظي: يعتمد التواصل على أصوات ومقاطع وكلمات وجمل ، إذ يتواصل متكلمو لغة إنسانية معينة ، بسهولة ويسر ، ذلك أن كل منهم يستخدم نسق القواعد نفسه ، الأمر الذي يتيح لهُ سهولة استقبال وإرسال

---

(١)

(٢)

(٣)

وتحليل المرسلات اللغوية ، وهذا ما يحدث عن طريق ما نسميه شكل التواصل الكلامي ، وهو الأكثر استعمالاً[(١)] ، ومن اشكاله: المحادثة: وهي تفاعل شفه وخطاب حواري ، بين متحدثين أو أكثر ، وحوار في الوقت نفسه ، إذ تخضع لقيود التسلسل البنيوي ، والتفاعلي لتبدلات التي تكونهُ[(٢)]

٢. التواصل غير اللفظي: (اللغة الصامتة): يستخدم الانسان وسائل كثيرة غير لفظية تصدر عنه ، بهدف نقل المعلومات أو الأفكار أو المشاعر أو بهدف المساعدة على نقلها أو الدقة في التعبير عنها[(٣)] وهذا يدلُ على أن الإشارة قد تكون مفردة في العملية التواصلية ، وقد تكون مساعدة للفظ واللسان. فقد أشار الجاحظ ت(٢٥٥)هـ ، إلى أهمية الإشارة في إيصال المعنى ، وأن الدلالة لا تقتصر على اللفظ ، إذ قسم أصناف الدلالة على المعاني ، على خمسة أشياء: اللفظ والإشارة ، والعقد والخط والنّصبة. ويعني باللفظ: الكلام المنطوق ، وبالإشارة: الحركة باليد أو العين ، مما يدل على معنى. وبالعقد: ضرباً من الحساب يكون بأصابع اليدين. وبالخطّ الكلام المكتوب ، وبالنصبة: العلامة الدالة على شيء[(٤)] تستعمل لفظة التواصل غير اللفظي للدلالة على الحركات وهيئات وتوجهات الجسم على خصوصيات جسدية ، وكيفية تنظيم الأشياء ، التي بفضلها تبلغ المعلومات[(٥)] ويشمل التواصل غير اللفظي الحركات والإشارات المرئية المؤلفة ، فظلاً عن الرسم والصورة الفوتوغرافية والفن التشكيلي ، ذلك أنها تنقل رسالة من المرسل إلى المتلقي من خلال استعمال شفرة نوعية ، من دون أن تخضع لقواعد بناء اللغة الكلامية[(٦)]

---

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

٣. التواصل الكتابي: يعبر عن التواصل الكتابي بالتواصل ألشخصي ويعتمد على الكلمات والألفاظ المكتوبة ، لا المنطوقة في صياغة مضمون الرسالة التي توجه إلى مستقبل الرسالة أفراداً وجماعات. ومن أهم اشكال التواصل الكتابي: الصحف والمجلات والكتب وغيرها من المطبوعات[(١)]

(١)

الخاتمة

علم اللغة الاجتماعي هو دراسة اللغة في علاقتها مع المجتمع وقيمة هذا العلم تكمن في قدرتهِ على ايضاح طبيعة اللغة فصفة عامة ، وإيضاح خصائص محددة للغة بعينها ، ذلك أنَ حثائق الغة ، تزيد من فهم المجتمع. تمخض البحث عن نتائج منها :

١. ظاهرة التواصل تناولها علمائنا العرب القدماء ، وأفادوا الدرس اللغوي بها أفادة جليلة.
٢. يعد التواصل اللغوي. التقاء بين نظريات للسانية تختلف بالنظر والتواصل ، من بينها التداولية ، التي تركز على الجانب الاستعمالي للغة.
٣. من أجل تعليم وتعلم اللغة يجب استخدامها وممارسة أنظمتها وقواعدها ووضعها موضع ألاستعمال ، لا الاحتفاظ بقواعدها بعيداً عن الممارسة الفعلية.
٤. التواصل اللغوي يقتضي تمكين المتصلين من المهارات اللغوية الأربع: (الاستماع ، التحدث ، القراءة ، الكتابة)

المصادر

- القرآن الكريم

١. أصول البنائية في علم اللغة، والدراسات الإثنولوجية (د. محمود فهمي حجازي)، بيروت ١٩٧٢.

٢. أنا والمجتمع واللغة (د. احمد مختار عمر) ط١، علم الكتب، ٢٠٠٠م.

٣. البيان والتبيين (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ)، تحقيق حسن السندوسي، دار المعارف، تونس ١٩٩٠.

٤. التواصل اللساني والشعرية، (الطاهر بومزير)، ط١، منشورات الأختلاف، ٢٠٠٧م.

٥. دراسات في علم اللغة (الوصفي والتاريخي والمقارن)، (د. صلاح الدين صالح حسنين). ط٢، مكتبة الأداب القاهرة، ٢٠١٠.

٦. دور الكلمة في اللغة (ستيفن أولماً) – (ترجمة الدكتور كمال بشر)، مكتبة الشباب – القاهرة، ١٩٧٥م.

٧. السيمياء، (بيير يرو) (ترجمة انطوان أبي زيد)، ط١، منشورات عويدان، بييروت لبنان ١٩٨٤.

٨. علم اللغة (د. علي عبد الواحد وافي)، دار نهضة نصر / القاهرة، ١٩٨٤م.

٩. علم اللغة الاجتماعي (د. هدسون) (ترجمة محمود عياد)، عالم الكتب ١٩٩٠م.

١٠. علم اللغة بين القديم والحديث (عبد الغفار حامد هلال)، مطبعة الجبلاوي ١٩٨٩.

١١. علم اللغة الاجتماعي عند العرب (د. هادي نهار)، ط١ / ساعدت الجامعة المستصرية على طبعهِ. ١٩٨٨م

١٢. علم اللغة الاجتماعي مدخل (دز كمال بشر)، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة.

١٣. فلسفة اللغة(سليفان أورو)، (ترجمة عبد المجيد جحفة)، ط١، دار الكتاب الجديد، ٢٠١٠م.

١٤. في علم اللغة العام (د.عبد الصبور شاهين)، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠ م.

١٥. لغات البشر فوصولها وطبيعتها وتتطورها (ماريو باي)، الجامعة الامريكية، القاهرة ١٩٧٠م.

١٦. اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، (د. نعمان بوقرة)، ط١، عالم الكتب الحديث، الإردن ٢٠٠٩م.

١٧. اللسانيات اللغوية (لويس جان كالفي)، (ترجمة محمد يحي تن)، ط١، الدار العربية للعلوم ناشرون، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
١٨. اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج (د.عمر شريف استيتية) ط١، عالم الكتب الحديث / اربد الأردن، ٢٠٠٨م.
١٩. اللسانيات من خلال النصوص (د.عبد السلام المسدي) (الدار التونسية للنشر ١٩٨٦ م.
٢٠. اللغة (فندريس)، ترجمة (عبد العزيز الدواخلي و د. محمد القصاص)، القاهرة ١٩٥٠.
٢١. اللغة والتواصل (مرتاض عبد الجليل)، دار هومة الجزائر ٢٠٠٣م.
٢٢. اللغة والخطاب (عمر أوكان) افريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٠م.
٢٣. المجتمع وقضايا اللغة (د.محمد السيد علوان)، دار المعرفة الجامعية ١٩٩٥م.
٢٤. محيط المحيط (بطرس البستاني) مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م.
٢٥. مدخل الى اللغة (د. محمد حسن عبد العزيز)، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٨م.
٢٦. المهارات اللغوية وعروبة اللسان (د. فخر الدين قباوة) ط١ ،دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار دمشق ،سورية، ١٩٩٩م.

نظريّة المثلث الدلالي
في النقد اللساني الغربي والتلقي العربي

أ.م.د. كيان أحمد حازم
كلّيّة الآداب / جامعة بغداد

قَد يَكونُ مِن نافلَة الحديث أن يُقالَ إنَّهُ لا مَطمَعَ لَنا في قاعدَة علميَّة لسانيَّة رَصينَة ما لَم نَتَوَفَّر على قراءَة مَسؤولَة تتناوَلُ بالمُفاتَشَة والمُثاقَفَة أهَمَّ ما يُنجَزُ مِن أعمالٍ في دائرَة اللسانيّات الغَربيَّة والعَرَبيَّة.

ويأتي بَحثي في هذا السِّياق التَّقويميِّ النَّقديِّ ؛ إذ يَتناوَلُ بالفَحصِ والتَّمحيصِ مُتَبَنَّيات اللسانيّات الغَربيَّة والعربيَّة بشَأن واحدَة من أشهَرِ نَظَريّاتِ المَعنَى في الفكرِ اللُّغَويِّ الغَربيِّ ، وهيَ نَظَريَّةُ المُثَلَّث الدَّلاليِّ لأوغدن ورتشاردز.

وأهَمُّ ما جَعَلَني أُيَمِّمُ وَجهي صَوبَ هذه النَّظَريَّة دُونَ غيرها من النَّظَريّات الدَّلاليَّة الغَربيَّة ما رَأَيتُهُ من اضطراب الباحثينَ العَرَب في تَحديد حَقيقَة هذه النَّظَريَّة في نَفسها وفي مُوازَنَتها معَ غيرها من النَّظَريّات ، حتَّى بَلَغَ بهم هذا الاضطرابُ مَبلَغَ أن مَسَخُوا ما هيَ عليه ، وصَرَفوها عن وجهَتها التي أُريدَت لَها. وما ذاكَ ، في اعتقادي ، إلاّ بسَبب تَقاعُس القادرينَ منهُم على النَّهل المُباشر من مَعين المُدَوَّنَة اللسانيَّة الغَربيَّة ، واكتفاء العاجزينَ عن ذلكَ بمُتابَعَة أقوال بعض أوائل مَن كَتَبَ من العَرَب عن هذه النَّظَريَّة بالاعتماد على تَرجَمَة نُتَف مُشَوَّشَة من هُنا وهُناكَ لا يُمكنُ الاتّكاءُ عليها للخُروج برُؤيَة واضحَة لحقيقة النَّظريَّة ولحقيقَة ما نُقدَت به في المَنظومة الدَّلاليَّة الغَربيَّة.

وقد أَدَرْتُ بَحثي على ثَلاثَة مَباحثَ ؛ جاءَ أَوَّلُها مُفصحًا عن حقيقَة هذه النَّظريَّة ، بتتبُّع جُذورِها التَّأريخيَّة في الإرث اللساني الغَربيِّ ، ثُمَّ بالإيراد المُفَصَّل لمَرحَلَة بَلوَرَتها في العَصرِ الحديث. أمّا ثاني المَباحث فخَصَصْتُهُ لبَيان أَهَمِّ ما وَقَفْتُ عليه من أَوجُه نُقدَتْ به هذه النَّظَريَّةُ في الغَرب ، أو استُدركَتْ عليها ، أو بتعبير آخَرَ ما تُلُقِّيَتْ به مِن نَقد وتَقويمٍ. وأمّا المَبحثُ الثّالثُ فمَحَضْتُهُ للحديث عَن صُوَر تَلَقِّي النَّظريَّة واستقبالها عندَ مُحدَثي الدّارسينَ العَرَب ، وما وَقَعوا فيه من تَخليط وتَشَوُّش لأسباب يَأتي ذكْرُها في مَوضعها بإذن الله تَعالَى. وأتبَعْتُ ذلكَ الخاتمَةَ التي ضَمَّنْتُها أَهَمَّ ما تَوَصَّلَ إليه البَحثُ من نَتائجَ ، ثُمَّ مَسرَدًا بمَصادرِ البَحث. فأسألُهُ تَعالَى السَّبيلَ القاصدَةَ ، والفكرَةَ المُمَحِّصَةَ ، وأعوذُ به من مُضلّات الفجاجِ ، وفَطيرِ الآراء ، إنَّهُ وَليُّ ذلكَ والقادرُ عليه.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

النَّظَرِيَّةُ الإحالِيَّةُ في الفِكْرِ اللِسانيِّ الغَرْبيِّ

لَمّا كانَتْ نَظريَّةُ المُثَلَّث الدَّلاليِّ واحدَةً من النَّظريّات الإحاليَّة في دراسة المَعنَى كانَ لزامًا قبلَ تَفصيلِ القَولِ فيها استعراضُ المنظومة الدَّلاليَّة الكُبرَى التي تنتَمي إليها. فقد أشارَ ستيفن أُولمان إلى أنَّ ثَمَّةَ اتِّجاهَيْن رَئيسَيْن لدراسَة المَعنَى في الفكرِ اللِسانيِّ الغَربيِّ ، أطلَقَ على أحَدهما اسمَ المَنهَجِ التَّحليليِّ أو الإحاليِّ **analytical or referential approach** ويَقومُ على أساسِ مُحاوَلَة إحرازِ المَعنَى بتَفكيكِه إلى مُكَوِّناته الرَّئيسة. أمّا الاتِّجاهُ الآخَرُ فسَمّاهُ المَنهَجَ الإجرائيَّ **operational approach** ويَستَندُ إلى دراسَة تَصرُّف الكَلمات ، ويُعنَى باستعمال المَعنَى أكثَرَ من عنايَته بحقيقَته[1]. ولَمّا كانَ بَحثي في نَظريَّة يَستَندُ عَمَلُها إلى المَنهَجِ التَّحليليِّ أو الإحاليِّ وَجَبَ النَّظَرُ في تَطوُّرِ المَوقفِ من مُكَوِّناتِ المَعنَى عبرَ تَأريخِ الفِكرِ الغَربيِّ وُصولاً إلى مَرحلةِ بَلورَةِ النَّظريَّةِ ونُضجِها في العَصرِ الحديثِ.

- الدّالُّ والمَدلولُ عِندَ الإغريق:

عُرِفَ مُنذُ أقدَمِ العُصورِ أنَّ للدَّلالَة عُنصُرَيْن هُما: الدّالُّ والمَدلولُ ، وأنَّ ارتباطَهُما يُؤَدِّي إلى حُصولِ الدَّلالَة. لكنَّ المُشكلَةَ الرَّئيسَةَ تَكمُنُ في تَحديد طبيعَة هذَيْنِ العُنصُرَيْنِ ، وطَبيعَةِ العَلاقَةِ بينَهُما[2]. ومِن أقدَمِ الاتِّجاهاتِ في ذلكَ وِجهَةُ النَّظَرِ التي

---

(1)Semantics-An introduction to the Science of Meaning، Stephen Ullmann، p. 55، and Linguistics Simplified-Semantics، Damodar Thakur، p. 122، 130

(٢) يُنظر: (مُحاضَراتٌ في اللِسانِيّاتِ) للدُّكتور حسن فوزي الشّايب: ٤٤٠.

أطلَقَ عليها فرانك بالمَر اسمَ(مَذهَبِ التَّسْمِيَةِ Naming) [١] ، الذي تَبَنّاهُ أفلاطونُ في مُحاوَرَته المَشهورة التي عُنوانُها (كراتيلوس Cratylus) ، والتي خَصَّصَها للمسائلِ اللُّغَوِيَّة[٢] ، إذ عَدَّ الدّالَّ signifier كلمةً في اللغة ، والمَدلولَ signified شَيئًا موجودًا في العالَمِ تُمَثِّلُهُ الكَلمةُ أو تُحيلُ عليه أو تَدُلُّ عليه[٣]. فخَيْرُ وسيلَة للحصولِ على المَعنَى على هذا المَذهَبِ هيَ الإشارَةُ باليَدِ إلى الشَّيءِ الذي تُمَثِّلُهُ الكَلمةُ[٤].

وتَبَنَّت المَدرَسَةُ الرّواقيَّةُ التي أَسَّسَها زينون تَمييزَ أفلاطونَ الدّالَّ من المَدلول[٥] ، لكنْ بإجراء شَيءٍ من التَّطوير عليه ؛ إذ نَصَّتْ على أنَّهُ((في البدايَة يأتي الانطِباعُ ، وبَعدَ ذلكَ يُعَبِّرُ العَقلُ بالكَلمات- مُستَفيدًا من الكَلامِ- عن التَّجرِبَة النّاشئة عن الانطباعِ... لقد صاغَ الرّواقيُّونَ ثُنائيَّةَ الصِّيغَةِ والمَعنَى مُمَيِّزينَ في اللغة بينَ الدّالِّ والمَدلول... ولكن يَبدو أنَّ المَدلولَ لم يَكُنْ صورَةً ذهنيَّةً بشَكلٍ كاملٍ ، بل كانَ شَيئًا مّا في ذهنِ المتكلِّمِ والمُستَمعِ يُقابِلُ نُطقًا مُعَيَّنًا في اللغَة ، وهذا يُشبِهُ إلى حَدٍّ مّا توحيدَ سوسير لِلصَّوتِ والفِكرَةِ عن طريقِ اللغة)) [٦].

---

(١) يُنظر: (مَدخَلٌ إلى عِلمِ الدّلالَة) لِفرانك بالمَر: ٥٥، و(مُحاضَراتٌ في اللِسانيّاتِ) لِلدُّكتور حسن فوزي الشّايب: ٤٤٠.

(٢) يُنظر: Linguistics Simplified-Semantics، Damodar Thakur، p. 123 ، و(مُوجَزُ تاريخِ عِلمِ اللغةِ في الغَرب) لِروبنز: ٣٩.

(3) Semantics-A New Outline، F. R. Palmer، p. 19

واللافِتُ لِلنَّظَرِ أنَّ التَّرجَمَةَ التي نَهَضَ بها الدُّكتور خالد محمود جُمعة تَجاوَزَتْ نِسبَةَ هذا المَذهَبِ إلى أفلاطونَ والإشارَةَ إلى مَصدَرِهِ وهو مُحاوَرَةُ (كراتيلوس). يُنظر: (مَدخَلٌ إلى عِلمِ الدّلالَة) لِفرانك بالمَر: ٥٥

(4)Linguistics Simplified-Semantics، Damodar Thakur، p. 123

(٥) يُنظر: (مُحاضَراتٌ في اللِسانيّاتِ) لِلدُّكتور حسن فوزي الشّايب: ٤٤٠

(٦) يُنظر: (مُوجَزُ تاريخِ عِلمِ اللغةِ في الغَرب) لِروبنز: ٤٢.

- **عَناصِرُ الدَّلالَةِ في العُصورِ الوُسطَى:**

قد حَدَثَ بَعضُ التَّطوُّرِ في مَفهومِ الدَّلالةِ وعناصِرِها في العُصورِ الوُسطَى ؛ فبَعدَ أن كانَتْ كيانًا مُزدَوجَ البِنيَةِ أصبَحَ يُنظَرُ إليها بوَصفِها كيانًا ذا أبعادٍ ثَلاثَة ، إذ قَرَّرَ السكولاستيُّونَ أنَّ الكَلِمَةَ تَدُلُّ على الشَّيءِ من طريقِ تَوَسُّطِ المَفاهيم[1]. ((وهذا يَعني أنَّ الكلماتِ لَم تَعُد تَرتَبِطُ بالأشياءِ مُباشَرَةً كما كانَ يَرَى القُدَماءُ ، إنَّما تَرتَبِطُ بها بطريقَةٍ غيرِ مُباشِرَةٍ عن طَريقِ توسيطِ المَفهومِ الذي يُستَخلَصُ من الشَّيءِ في العالَمِ الخارِجيِّ ويَرتَبِطُ بهِ. وهذا يَعني بِوُضوحٍ أنَّهُ ليسَ ثَمَّةَ اتِّصالٌ مُباشِرٌ بينَ اللغةِ والواقِعِ)) [2].

- **المُكَوِّناتُ الدَّلاليَّةُ عِندَ سوسير:**

جَعَلَ فرانك بالمَر المَفهومَ الذي أتى به فردينان دي سوسير أحدَ اتِّجاهَيْنِ لدراسَةِ المَعْنَى يَنضَوِيانِ تَحتَ حَقلٍ واحدٍ سَمّاهُ حَقْلَ التَّصَوُّرات **Concepts** ، وهو يُقابِلُ الحَقلَ الآخَرَ الذي سَبَقَ أنْ ذَكَرْناهُ وهوَ حَقْلُ التَّسمِيَةِ **Naming** ؛ فإذا كانَتْ مُعالَجَةُ المَعنَى في حَقلِ التَّسمِيَةِ تَقومُ على أساسِ رَبْطِ الألفاظِ بالأشياءِ على نَحوٍ مُباشِرٍ ، كما رأَيْنا عندَ أفلاطونَ ، فإنَّ التَّصَوُّرَ الذِّهنِيَّ هوَ العامِلُ الحاسِمُ في مُعالَجَةِ المَعنَى في حَقلَ التَّصَوُّرات[3].

وقد أعادَ سوسير الاعتبارَ إلى قُطبَي الدَّلالَةِ الدّالِّ والمَدلول ؛ ((فالعَلامَةُ الألسُنيَّةُ عندَهُ هيَ تَداعٍ لِصورَتَيْنِ ذهنيَّتَيْنِ ، وشَيءٌ سَمعيٌّ دالٌّ أو اسمٌ ، ومَفهومٌ مَدلولٌ أو مَعنًى))[4]. فالوَحدَةُ اللغويَّةُ((كيانٌ ثُنائيٌّ ، كيانٌ يتألَّفُ من الرَّبطِ بينَ عُنصُرَيْنِ... فالإشارَةُ اللغويَّةُ تَربِطُ بينَ الفِكرةِ والصُّورةِ الصَّوتِيَّةِ ، وليسَ بينَ الشَّيءِ والتَّسمِيَةِ... ولا

---

(1)Semantics، John Lyons، Vol. I.، p. 96

و(مُحاضَراتٌ في اللِسانِيّاتِ) لِلدُّكتور حسن فوزي الشّايب: ٤٤١

(٢) يُنظر: (مُحاضَراتٌ في اللِسانِيّاتِ) لِلدُّكتور حسن فوزي الشّايب: ٤٤١

(٣) يُنظر: (مَدخَلٌ إلى عِلمِ الدَّلالَة) لِفرانك بالمَر: ٦٤

(٤) يُنظر: (عِلمُ الدَّلالَة) لبيار غيرو: ٣٨.

يُقصَدُ بالصُّورة الصَّوتيَّة النّاحيَةُ الفيزياويَّةُ للصَّوت بل الصُّورةُ السّايكولوجيَّةُ للصَّوت، أي الانطباعُ أو الأَثَرُ الذي تتركُهُ في الحَواسِّ... الإشارَةُ اللُغويَّةُ إذَن هيَ كيانٌ سايكولوجيٌّ لهُ جانبان))[١]. فالعَلاقَةُ اللغويَّةُ عندَهُ لا تَربطُ الشَّيءَ بالاسمِ كما كانَ يُعتَقَدُ في أزمانٍ مَضَتْ، بل تَربطُ تَصوُّرًا ذهنيًّا بصورَةٍ صَوتيَّة، فلَو أخَذْنا كلمةَ (شَجَرَة) مَثَلاً لَوَجَدْناها تنطَوي على أربَعَة مُكَوِّنات، أَوَّلُها: (شَجَرَة) بمَعنَى الشَّيء في العالَمِ الخارجيِّ، وثانيها: (شَجَرَة) بمَعنَى صُورَة الشَّيء في الذِّهن(المَدلول)، وثالثُها: (شَجَرَة) بمَعنَى الصُّورَة السَّمعيَّة (الدّالّ)، ورابعُها: (شَجَرَة) بمَعنَى الصُّورَة الصَّوتيَّة المادِّيَّة. فالمُكَوِّنان الأَوَّلُ والرّابعُ مادِّيّان، فهما لا يَنتَميان إلى النِّظامِ اللغويِّ المُكَوَّن من مَجموعِ الانطباعات العَقليَّة؛ فالشَّيءُ يقَعُ في دائرة اهتمامِ علمِ النَّبات، والصُّورةُ السَّمعيَّةُ المادِّيَّةُ يَختَصُّ بمُتابَعتها علمُ وَظائف الأعضاء. فلَم يَبقَ في دائرة اهتمامِ اللسانيِّ إلاّ المُكَوِّنانِ الثّاني والثّالثُ[٢].

- **نُضجُ النَّظَريَّةِ الإحاليَّةِ عندَ أوغدن ورتشاردز:**

تُمَثِّلُ مُعالَجَةُ المَعنَى عندَ أوغدن ورتشاردز الاتِّجاهَ الثّانيَ من اتِّجاهَي دراسَة المَعنَى المُنضَوِيَيْن تَحتَ الحَقلِ الذي سَمّاهُ فرانك بالمَر حَقلَ التَّصَوُّرات **Concepts**، أمّا الاتِّجاهُ الأَوَّلُ فتُمَثِّلُهُ نَظريَّةُ سوسير المذكورَةُ آنفًا. وأطلَقَ بالمَر اسمَ(نظريَّة العَلامَة **sign theory**) على ما جاءَ به سوسير، واسمَ (المُثَلَّث السِّيميائيّ **semiotic triangle**) على ما أتَى بهِ أوغدن ورتشاردز[٣]، ودَعَاهُ جون لاينز (مُثَلَّثَ الدَّلالَة **the**

---

(١) (عِلمُ اللغةِ العامّ) لِفردينان دي سوسور: ٨٤- ٨٥.

(٢) يُنظر: (مُحاضَراتٌ في اللِسانيّاتِ) لِلدُّكتور حسن فوزي الشّايب: ٤٤٢- ٤٤٣.

(3)Semantics-A New Outline، F. R. Palmer، p. 25
وارتأى الدُّكتور خالد محمود جُمعَة، أحَدُ مُتَرجِمي كتابِ بالمَر، أن يُعَبِّرَ عن sign بـ(الإشارَة)، وأنا أُفَضِّلُ تَرجَمَتَها بما تَرجَمَها بهِ الدُّكتور صبري إبراهيم السَّيِّد صاحبُ التَّرجَمَةِ الأُخرَى السّابقَةِ لِتَرجَمَةِ الدُّكتور خالد، أي بالعَلامَةِ لِشُيوعِها وسَيْرِ مُعظَمِ المُدَوَّناتِ السِّيميائيَّةِ عليها، ومَنعًا لِلالتِباسِ الذي قد يَحدُثُ بِكَلِماتٍ إنجليزيَّةٍ أُخرَى تُؤَدّي مَعنَى الإشارَةِ في العربيَّةِ مثلِ indicating، وpointing. أمّا semiotic triangle فقد تَرجَمَهُ الدُّكتور خالد بـ(المُثَلَّث=

الأساسيّ المُثَلَّث أُولمان ستيفن سَمَّاهُ حين في ، [1] (**triangle of signification**

المُثَلَّث الأساسيّ (**basic triangle**) [2]. والجامعُ بينَ النَّظَرِيَّتَيْنِ أنَّ التَّصوُّرَ الذِّهنيَّ حاسمٌ في مُعالَجَةِ المَعنَى فيهما ، لكن بَعدَ أن كانَت الدَّلالَةُ عندَ سوسير كيانًا ذا مُكَوِّنَيْنِ هُما الفكرةُ والصُّورةُ الصَّوتيَّةُ أصبحَتْ عندَ أوغدن ورتشاردز كيانًا ذا أبعاد ثَلاثَة[3] ؛ أوَّلُها الرَّمزُ **symbol** ، ((وهوَ في حالتنا هذه عبارَةٌ عن الكلمات المنطوقة المُكَوَّنَة من سلسلة من الأصوات المُرَتَّبَة ترتيبًا مُعَيَّنًا ، ككلمة (منضَدَة) مَثَلاً)) [4] ؛ وثانيها الفكرَةُ أو الإحالَةُ **reference** ، التي تَحضُرُ في ذهنِ السّامعِ حينَما يَسمَعُ كلمةَ(منضَدَة). ((وهذا المُحتَوى العَقليُّ قد يَكونُ صُورَةً بَصَريَّةً ، أو صُورةً مَهزوزةً ، أو حتّى مُجَرَّدَ عمليَّة من عمليّات الرَّبط الذِّهنيِّ ، طبقًا للحالة المُعَيَّنة)) [5] ؛ وثالثُها المَرجعُ **referent** ، أي ((الشَّيءُ نَفسُهُ الذي ارتبَطَ ذهنيًّا بِشَيءٍ آخَرَ)) [6]. والمُثَلَّثُ الآتي يُوضِحُ هذه المُكَوِّنات والعَلاقات التي تَربطُ بينَها:

فَالرَّمزُ في هذا المَثَلَّث هوَ ما يُسَمَّى به الشَّيءُ ، أي الشَّكلُ المنطوقُ أو المكتوبُ للكلمة. والإحالةُ هيَ ما يَنقُلُهُ الشَّكلُ المكتوبُ أو المنطوقُ للكلمة من مَعلوماتٍ إلى

=الإشارِيّ)، وأمّا الدُّكتور صبري فقد اختارَ أن يُتَرجِمَهُ بـ(مُثَلَّث العَلامات)، وهاتانِ التَّرجَمتانِ تُقارِبانِ ما أَشارَ بِهِ أوغدن ورتشاردز إلى مُثَلَّثِهِما، إذ سَمَّيَاهُThe Triangle of Reference، لكِنَّهُما لا تَنقُلانِ بِدِقَّةٍ ما عبَّرَ بِهِ عنهُ فرانك بالمَر. يُنظَر: The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p.88 ، و(عِلمُ الدَّلالَة- إطارٌ جَديد) تأليف ف. ر. بالمر- ترجمة الدُّكتور صبري إبراهيم السَّيِّد: ٤٦، و(مَدخَلٌ إلى عِلمِ الدَّلالَة) لِفرانك بالمَر- ترجمة الدُّكتور خالد محمود جُمعَة: ٦٤.

(1) Semantics، John Lyons، Vol. I.، p. 96

و(مُحاضَراتٌ في اللِسانِيّاتِ) لِلدُّكتور حسن فوزي الشّايب: ٤٤١

(٢) يُنظر: (دَوْرُ الكلمةِ في اللغة) لِستيفن أُولمان: ٧٦

(3) The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 11

(٤) يُنظر: (دَوْرُ الكلمةِ في اللغة) لِستيفن أُولمان: ٧٦.

(٥) نفسه: ٧٦.

(٦) نفسه: ٧٦.

القارئ أو السّامع. والمَرجعُ هو الشَّيءُ ، أي المَوضوعُ الذي نتحدَّثُ عنهُ[١].

ويبتدئُ أوغدن ورتشاردز كلامَهُما على المُثَلَّث بتنبيههما على نُقطَة فيه يَريانها قُطبَ الرَّحَى في ما جاءا به من نظريَّة دلاليَّة يُصَوِّرُها مُثَلَّثُهما الذائعُ الصِّيت ، تلكُم النُّقطةُ هيَ أنَّ ((عَدَمَ المباشَرَة في العَلاقات بينَ الكَلمات والأشياء هو الملمَحُ الَّذي يَستَحقُّ الانتباهَ أوَّلاً))[٢] ، أي ((إنَّ قاعدَةَ المثَلَّث تَكونُ... مُختلفةً جدًّا في تَركيبها عن كُلٍّ من الضِّلعَيْن الآخَرَيْن. فالعَلاقاتُ بَيْنَ الفكرة والرَّمز تَكونُ سَبَبيَّةً. فالرَّمزُ الذي نَستعملُهُ حينَ نتكلَّمُ تُسَبِّبُهُ جُزْئيًّا الإحالةُ الَّتي نُنشئُها ، وجُزْئيًّا العَواملُ الاجتماعيَّةُ والنَّفسيَّةُ... حينَ نَسمَعُ ما يُقالُ تُسَبِّبُ الرُّموزُ لنا أمرَيْن ، أحدُهما أداءُ فعلٍ إحاليٍّ ، والآخَرُ اتِّخاذُ مَوقف يَكادُ يَكونُ ، استنادًا إلى الظُّروف ، مُشابهًا لفعلِ المتَكَلِّم ومَوقفه. وثَمَّةَ عَلاقَةٌ أيضًا بَينَ الفكرة **thought** والمَرجع **referent** مُباشَرَةٌ تقريبًا (كما في حالة تَفكيرنا في سَطحٍ مُلَوَّن نَراهُ أو شُهودنا له) ، أو غيرُ مُباشَرَة (كما في حالة تَفكيرنا بنابوليون أو إحالَتنا عليه ، وفي هذه الحالة قد تَكونُ هُناكَ سلسلةٌ طَويلةٌ جدًّا من الأحوال العَلاميَّة الَّتي تَتَخلَّلُ بينَ الفعلِ ومَرْجعه ، نحو: كَلمة- تَأريخيٌّ- سجلٌ مُعاصر- شاهد عيان– مَرجع(نابوليون). أمّا بينَ الرَّمز **symbol** والمَرجع **referent** فلا تُوجَدُ عَلاقَةٌ ذاتُ صلَة سوَى العَلاقَة غير المباشرة الَّتي تَكمُنُ في أنَّ شَخصًا مّا يَستَعملُها لتَمثيل مَرْجعٍ مّا. أي أنَّ الرَّمزَ والمَرجعَ غيرُ مُرتَبطَيْن ارتباطًا مُباشرًا (وحينَ نَستَعملُ ضمنيًّا مثلَ هذه العَلاقَة لأسباب نَحويَّة لَن تكونَ إلاَّ عَلاقَةً مَنسُوبَةً في مُقابلِ العَلاقَة الحقيقيَّة) ، وإنَّما ارتباطُهما غيرُ مُباشرٍ حَولَ ضلعَي المثَلَّث))[٣].

فاستنادًا إلى ما مَضَى يُصَنِّفُ الدّارسونَ العَلاقات بينَ مُكَوِّنات مُثَلَّث أوغدن ورتشاردز إلى ثَلاث عَلاقات ثُنائيَّة ، اثنتان منهما أساسيَّتان والثالثةُ ثانويَّةٌ[٤]. فأمّا العَلاقتانِ الأساسيَّتانِ فَعَلاقةُ الفكرة بالرَّمزِ وعَلاقَةُ الفكرَة بالمَرجعِ ، وأمّا العَلاقةُ الثّانويَّةُ

---

(1)Linguistics Simplified-Semantics، Damodar Thakur، p. 124-125.

(2)The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 10 .

(3) The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 10-12

(4) Semantics، John Lyons، Vol. I.، p 96.

فعَلاقَةُ الرَّمزِ بِالشَّيء ؛ ذلكَ بِأنَّهما لا يرتَبطُ أحَدُهُما بِالآخَرِ على نحوٍ مُباشرٍ ، بل يَرتَبطان بتوسُّطِ الفِكرَةِ بينَهما ، أي أنَّ الرَّمزَ يَدُلُّ على الفِكرةِ ، ثُمَّ تَدُلُّ الفكرةُ على الشَّيء(١).

لكنْ إلى أيِّ حَدٍّ يُمكنُ قَبولُ مثلِ هذا التَّصنيف؟ الحَقُّ أنَّهُ يُمكنُ إمرارُهُ لأغراضِ التَّبسيطِ وتَقريبِ وجهَةِ النَّظَرِ ، أمّا في المُهمَّةِ التي نحنُ بصددها ، أعني الحديثَ المُفصَّلَ عن جَوانبِ النَّظريَّةِ كافَّةً والكَشفَ عمّا وَقَعَ فيه الدّارسونَ من أوهامٍ بشأنها ، فلا يُمكنُ الرُّكونُ إلى الحديثِ المُجمَلِ الذي قد يَنطَوي على مَواطنَ تُسَبِّبُ ما تُسَبِّبُ من زَلَلٍ في الفَهمِ وخَطَلٍ في التَّقويم.

فَلَو أنعَمْنا النَّظَرَ في النَّصِّ المذكور آنفًا الذي شَرَحَ فيه مُؤَسِّسَا النَّظريَّة ما يَعنيانه بِكُلِّ ما جاءَ في مُثَلَّثِهما الدَّلاليِّ من مُكَوِّنات وعَلاقات رابطَة بينَها ، لَوَقَفْنا على حقيقةٍ لَم يَقِفْ عندَها الكثيرونَ ممَّن عَرَضوا للنَّظريَّةِ ومُثَلَّثِها ، وهيَ أنَّ أوغدن ورتشاردز قد نصَّا على وُجود ثَلاث عَلاقات مُتَفاوتَة في دَرَجَة مُباشَرَتِها ؛ ذلكَ بأنَّهُما قَرَّرا أنَّ العَلاقَةَ الرّابطَةَ بينَ المُكَوِّنَيْنِ الواقعَيْنِ في طَرَفَي الضِّلعِ الأيسَرِ للمُثَلَّث ، أي بينَ الفكرة والرَّمز ، عَلاقَةٌ سَبَبيَّةٌ مُباشَرَةٌ ؛ إذ يَشتَرِكُ في إنشاء الرَّمزِ كُلٌّ من المدلول الَّذي نُنشئُهُ والعَواملِ الاجتماعيَّةِ والنَّفسيَّة ، ثُمَّ إنَّ الرُّموزَ تُحدثُ فينا أمرَيْنِ ، أحدُهما أداءُ فعلٍ تَفكيريٍّ ، والآخَرُ اتِّخاذُ مَوقف مُشابه لفعلِ المتَكَلِّم ومَوقفه. أي إنَّ العَلاقَةَ بينَ الرَّمزِ والفكرَة جَدَليَّةٌ حَيَّةٌ ؛ فهيَ تُسَبِّبُ الرَّمزَ ، وهوَ يُسَبِّبُها.

أمّا العَلاقَةُ الرّابطَةُ بينَ المُكَوِّنَيْنِ الواقعَيْنِ في طَرَفَي الضِّلعِ الأيمَنِ للمُثَلَّث ، أي بينَ الفكرة والمَرجع فَلَها اعتباران ؛ فهيَ مُباشَرَةٌ باعتبارٍ وغيرُ مُباشَرَة باعتبارٍ آخَرَ. فأمّا وَجهُ مُباشَرَتِها فقد مَثَّلَ لَهُ صاحبَا النَّظريَّة بحالة تَفكيرنا بسَطحٍ مُلَوَّنٍ نَراهُ ، أي أنَّ المَرجعَ يَكونُ حاضرًا غيرَ غائب ، وأمّا وَجهُ عَدَمِ مُباشَرَتِها فَما مَثَّلا لَهُ بحالة تَفكيرنا بنابوليون التي قد تَصحَبُها سلسلَةٌ طَويلةٌ جدًّا من الأحوالِ العَلاميَّة ، نحو: كَلمة- تَأريخيٍّ- سجلٍّ مُعاصرٍ- شاهدٍ عيانٍ— مَرجعٍ(نابوليون).

---

(١) يُنظر: (مُحاضَراتٌ في اللِسانيّاتِ) للدُّكتور حسن فوزي الشّايب: ٤٤٤

وأمّا العَلاقَةُ الرّابِطَةُ بينَ المُكَوِّنَيْن الواقِعَيْن في قاعِدَة المُثَلَّث ، أي بينَ الرَّمزِ والمَرجع فقد نَصَّ الرَّجُلان على أنَّها غيرُ مُباشِرَة.

نستَخلِصُ ممّا مَضَى أنَّ العَلاقَةَ الوحيدَةَ التي هيَ مُباشِرَةٌ خالِصَةٌ من بَين العَلاقات الثَّلاث الدّائرَة حَولَ أضلاعِ المُثَلَّث هي الرّابطةُ بينَ الفكرَة والرَّمز في الطَّرَف الأَيسَر من المُثَلَّث ، بخلاف ما يَتَداوَلُهُ الدّارِسونَ ويَشيعُ بينَهُم من أنَّ العَلاقَةَ الرّابطةَ بينَ الفكرَة والمَرجع في ضِلعِ المُثَلَّث الأيمَن مُباشِرَةٌ خالِصَةٌ أيضًا. ولَعَلَّ في ما بَيَّنّاهُ من عَدَمِ مُباشَرَتِها ما يُلقي مَزيدًا من الضَّوء على ما رَجَّحَهُ ستيفن أُولمان من بَعدُ من الاقتصار على ضِلعِ المُثَلَّث الأيسَر في تَحليلِ المَعنَى ، مُعَلِّلاً هذا الفعلَ بأنَّ التَّعريفَ الوَظيفيَّ للمَعنَى إنَّما يَنحَصِرُ في الجانبِ الأيسَر من المُخَطَّط ، بوَصفه الجانبَ الوَحيدَ الذي تَرتَبِطُ فيه العناصِرُ اللغويَّةُ على نَحوٍ مُباشِرٍ[1] ، وفي المَبحَث الثّاني مَزيدُ بَسطٍ وتفصيلٍ لوِجهَة نظرِ أُولمان هذه.

---

(1) The Principles of Semantics، Stephen Ullmann، p. 72

و(دَوْرُ الكلمةِ في اللغة) لِستيفِن أُولمان: ٧٨.

المَبْحَثُ الثَّاني

النَّقدُ اللِسانيُّ الغَربيُّ للنَّظريَّةِ الإحاليَّةِ

سَبَقَ أن ذَكَرْتُ في مُقَدِّمَة هذا البَحث أنَّ نَقدَ النَّظَريّات ومُراجَعَةَ المَفاهيمِ مَعلَمٌ بارِزٌ من مَعالمِ النَّشاط اللسانيِّ الغَربيِّ، فلَم يَكُ مُستَغرَبًا أن تُثار حَرَكَةٌ نَقديَّةٌ واسعَةٌ حَولَ نَظَريَّة المُثَلَّث الدَّلاليِّ مُنذُ أن أَصدَرَ أوغدن وريتشاردز كتابَهُما (مَعْنَى المَعنَى The Meaning of Meaning) سَنَةَ ١٩٢٣م، ولم تَفقدْ هذهِ الحركةُ فاعليَّتَها إلى يَومنا هذا.

ولَعَلَّ من الدَّواعي الرَّئيسة التي استَفَزَّت الأوساطَ اللسانيَّةَ في الغَرب لنَقد ما جاءَ به أوغدن وريتشاردز أنَّهُما أعلَنا في مُفتَتَح كتابهما مُؤاخَذَتَهُما سوسير بإغفاله التّامِّ للأشياء الَّتي تُمَثِّلُها الكَلماتُ، وقَرَّرا، استنادًا إلى ذلكَ، أنَّ نَظَريَّتَهُ للعَلامات كانَتْ، لسُوء الحظِّ، مَبتوتَةَ الصِّلَة مُنذُ البدايَة بكُلِّ ما يَمُتُّ بسبب إلى مَناهجِ التَّحقيق العلميَّة. لكنَّهُما عادَا فذَكَرا أنَّهُ لا يَبدو أنَّ سوسير قد تابَعَ المسألَةَ بَعيدًا إلى الحدِّ الَّذي يَجعَلُ هذَا الخَلَلَ واضحًا[1].

وباستقراء النُّقود التي وُجِّهَتْ إلى النَّظريَّة وُجدَ أنَّها يُمكنُ تَصنيفُها إلى مَجموعَتَيْن من النُّقود تُمَثِّلان اتِّجاهَيْن؛ فالمجموعَةُ الأُولَى تُمَثِّلُ اتِّجاهَ نَقد الأساسِ الذي قامَتْ عليه النَّظَريَّةُ، وهوَ اختيارُ ثَلاثَة مُكَوِّنات دَلاليَّة للتَّعبير عن المَعنَى، والمجموعةُ الثّانيةُ تُمَثِّلُ اتِّجاهَ نَقد بعض جُزئيّات هذه النَّظريَّة، مِن نَحو افتقارها إلى تَعريفٍ دَقيقٍ للمَدلولِ، وأنَّها تَتَعامَلُ معَ الأشياءِ المادِّيَّة الملموسَة دونَ المَعنَويّات غيرِ

---

(1) The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 6.

المُحَسَّة ، وعَدَمِ تطرُّقها إلى مَعاني أَدَوات الرَّبط.

فأمّا اتِّجاهُ النَّقد الأوَّلُ فأبرزُ مَن ألفَيْتُهُ يَقفُ وقفَةً مُتأنِّيَةً في مُناقَشَة مُكَوِّنات نَظريَّة أوغدن ورتشاردز هوَ ستيفن أولمان. وقَبلَ أن أُفَصِّلَ القولَ في وجهَة نظره أَوَدُّ أن أُنَبِّهَ على أنَّهُ في مُناقَشَته لأُسُسِ النَّظريَّة لم يَظهَرْ بمَظهَرِ المُؤاخذ الرّافض وإنَّما بمَظهَرِ المُطَوِّرِ المُستَدرِك ، بل إنَّهُ صَرَّحَ منذُ بَدْءِ مُناقَشَته بإعجابه بالنَّظريَّة وبأنَّهُ إنَّما يَسيرُ في رِكابها ، غيرَ أنَّ ما هوَ بصَدَد فعله هو تَبسيطُ المَنهَجِ ومَنظومَة مُصطَلَحاته وتَعديلُهُما على وَفق حاجَة البَحث[١].

وتتلخَّصُ وجهَةُ نَظَرِ أولمان في اختياره التَّخلُّصَ من الشَّيء (المَرجع) نهائيًّا ؛ إذ يَرَى أنَّ دارسَ اللغة إنَّما تُهِمُّهُ الكَلماتُ لا الأشياءُ ؛ فما الشَّيءُ إلاَّ المَلمَحُ أو الحَدَثُ غيرُ اللغَويِّ الذي نتحدَّثُ عنهُ ، ولا شَكَّ في أنَّ هذا ممّا لا يتناوَلُهُ اهتمامُ اللغويِّ. ثُمَّ إنَّهُ لا عَلاقَةَ مُباشِرَةً بينَ الكَلمات والأشياء كما قد أوضَحَ أوغدن ورتشاردز في مُثَلَّثهما ، أمّا العَلاقَةُ الوَحيدَةُ التي يَرتَبطُ بها الشَّيءُ بأيِّ طَرَفٍ آخَرَ فهيَ الرّابطةُ بينَهُ وبينَ الفكرَة ، لكنَّ دراسَةَ هذه العَلاقَة ممّا يَخُصُّ عالمَ النَّفسِ أو الفَيلسوف ولا يَقَعُ في دائرة اهتمامِ اللغَويِّ. لذلكَ يَرَى أولمان أنَّ كُلَّ ما بوسعِ اللغويِّ فعلُهُ هو جَعْلُ بُؤرَة اهتمامه ضلعَ المُثَلَّث الأيسَرَ ، أي الخَطَّ الرّابطَ بينَ الرَّمزِ والفكرَة[٢].

وعلى الرَّغمِ ممّا ذَكَرْناهُ من أنَّ أولمان لم يُحاوِل الظُّهورَ بمَظهَرِ مَن يَعرضُ لجَوهَرِ النَّظريَّة نَراهُ يُشيرُ إلى جانبٍ رأى فيه قُصورًا فيها. وحاصلُ كَلامه أنَّ الأُنموذَجَ الذي قَدَّمَهُ أوغدن ورتشاردز إنَّما يَصفُ كيفيَّةَ تأثيرِ الكلمة في السّامعِ ، أمّا المُتكلِّمُ فيَبدو أنَّهُ يَتجاهَلُ وجهَةَ نظره. فسلسلَةُ الأحداث عندَ السّامعِ يَعرضُها المُثلَّثُ الأساسيُّ على النَّحوِ الآتي: عندَ سَماعه كلمةً ، لتَكُنْ (باب) مَثَلاً ، يَبدأُ بالتَّفكيرِ بباب ، وبذلكَ يَفهَمُ ما يَقولُهُ المُتكلِّمُ. أمّا السِّلسلَةُ عندَ المُتكلِّم فعلى العَكسِ من ذلكَ: يَبدَأُ

---

(١) يُنظر: (دَوْرُ الكلمةِ في اللغة) لِستيفن أُولمان: ٧٨.

(2)Semantics-An introduction to the Science of Meaning، Stephen Ullmann، p.57.

و(دَوْرُ الكلمةِ في اللغة) لِستيفن أُولمان: ٧٨.

بالتَّفكير بباب لسبب أو لآخَرَ ، فيُؤَدِّي به هذا إلى التَّلفُّظ بالكلمة المُعَبِّرَة عنهُ. فثَمَّةَ عَلاقَةٌ تَبادُلِيَّةٌ وتَعاكُسِيَّةٌ بينَ الاسمِ والفكرَة: فإن سَمِعْتَ الكَلمةَ فَكَّرْتَ في الشَّيء ، وإن فَكَّرْتَ في الشَّيء نَطَقْتَ بالكَلمة. وهذه العَلاقَةُ التَّبادُلِيَّةُ والتَّعاكُسِيَّةُ بينَ الاسمِ والفكرَة هيَ ما اقتَرحَ أُولمان تَسميَتَهُ مَعنَى الكلمة[١].

ولَسْتُ هُنا في مَقامِ الذَّبِّ عن النَّظريَّة والمُنافَحَة عنها ، فما أنا بالذي يَصرفُ بَصَرَهُ عن واضحِ الخَطَإ عَصَبيَّةً وانحيازًا لما اختارَ أن يَكتُبَ فيه ، وإنَّما وُكدي عَرضُ ما لَقيَتْهُ النَّظريَّةُ في الغَربِ من وجهات نَظرٍ نَقديَّة ، ثُمَّ غَربَلَةُ هذه الوجهات وبيانُ الحَقيقِ منها بأن يُوسَمَ بالعِلميِّ ، والجَديرِ بأنْ يُطَّرَحَ ويُوسَمَ بسوءِ الفَهمِ أو الجَورِ في الحُكمِ.

فإذا ما تَأمَّلْنا نَقدَ أُولمان وَجدْناهُ ينطَوي على اعتراضَيْنِ جَديرَيْنِ بالنَّظَرِ فيهما ، أحدُهُما أنَّ النَّظريَّةَ إنَّما تَصرفُ اهتمامَها إلى السّامِعِ ، أمّا المُتكلِّمُ فليسَ لَهُ مَكانٌ فيها. والحَقُّ أنِّي وَقَفْتُ أمامَ هذا الاعتراضِ وقفةً ليسَتْ بالقَصيرَة ؛ ذلكَ بأنَّ ما فَهِمْتُهُ من صَريحِ كلامِ مُؤَسِّسَي النَّظَريَّة لا يُؤَدِّي إلى هذه النَّتيجَة ، بل يَقودُ إلى ما يُضادُّها تَمامًا ، فلو عُدْنا إلى النَّصِّ المُؤَصِّلِ الذي شَرَحَ به أوغدن ورتشاردز مُثَلَّثَهُما الدَّلاليَّ لَوَجَدْناهُما يَنُصّانِ فيه على سَيرورة المَعنَى عندَ المُتَكَلِّمِ قبلَ السّامعِ بما لا يَدَعُ مَجالاً للشَّكِّ في اهتمامهما به ؛ إذ قَرَّرا أنَّ الكلمَةَ التي نَتكَلَّمُ بها مُسَبَّبَةٌ جُزئيًّا عن الفكرة التي نُنشئُها ، وأنّا حينَ نَسمَعُ ما يُقالُ تُسَبِّبُ الكلماتُ لنا أمرَيْنِ ، أحدُهما الفكرَةُ ، والآخَرُ اتِّخاذُ مَوقف مُشابه لفعلِ المتَكَلِّم ومَوقفه ، بحَسَب مُقتَضَيات الأحوال[٢]. ولا يَخفَى أنَّ المقصودَ بما يُشابهُ فعلَ المتَكَلِّمِ هوَ التَّكلُّمُ. فلَسْتُ أدري ، بَعدُ ، كَيفَ يُمكنُ أن يَكونَ الاهتمامُ بالمُتكلِّمِ أكبرَ من ذلكَ ، كما لا أعرفُ الفَرقَ بينَ ما ذَكَرَهُ أُولمان وعَدَّهُ نَقصًا في النَّظريَّة ، وهوَ بَدْءُ المُتكلِّمِ بالتَّفكيرِ بالشَّيء ليَقودَهُ هذا إلى التَّلفُّظ بالكلمة ، وبينَ ما نُصَّ عليه صَراحَةً في الفقرَة المنقولَة آنفًا.

(1)Semantics-An introduction to the Science of Meaning، Stephen Ullmann، p.57.

(2) The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 10-11.

أمّا ما اقتَرَحَهُ أُولمان من الاقتصار في مُكَوِّنات المُثَلَّث الأساسيِّ على طَرَفَي الضِّلعِ الأيسَرِ منهُ والعَلاقَة بينَهُما بزَعمِ أنَّ ما سوَى ذلكَ لا يَقَعُ في دائرَة اللغة ، فإنَّ هذا كانَ يُمكنُ أن يَكونَ مُقنعًا لَو أنَّ النَّظريَّةَ ساوَتْ بينَ أطراف أضلاعِ المُثَلَّث من جهَة ، وبينَ العَلاقات الرّابطة بينَها من جهَة أُخرَى ، لكنَّ واقعَ النَّظريَّة غيرُ ذلكَ تَمامًا ؛ إذ تَدرَّجَتْ دَرَجاتُ مُباشَرَة تلكَ العَلاقات ابتداءً بالعَلاقَة المُباشَرَة الخالصَة الوَحيدَة وهيَ الرّابطةُ بينَ الرَّمز والفكرة ، ومُرورًا بالعَلاقَة المَشوبَة ذات البُعدَيْن: المُباشرِ وغير المُباشر ، وهيَ الرّابطةُ بينَ الفكرة والمَرجع ، وانتهاءً بالعَلاقَة غير المُباشرَة ، وهيَ الرّابطةُ بينَ المَرجعِ والرَّمز. فأكسَبَ هذا التَّدرُّجُ الواعي في العَلاقات النَّظريَّةَ مَلمَحًا شُموليًّا استقصائيًّا لكلِّ ما من شأنه أن يُؤَثِّرَ في سيرورة تَكوُّن المعنَى ، بما يَضمَنُ عَدَمَ القَفزِ على أيِّ عُنصُرٍ أو عَلاقَة ، معَ عَدَمِ إغفال الفُروق في الأدوار ومنزِلَة كلٍّ منها في الوَقت نَفسه. والطَّريفُ أنَّ أُولمان نَفسَهُ لم يَستَطِعْ ، ولَو على مُستَوَى الصِّياغة فقط ، أن يَتجاوزَ الشَّيءَ(المَرجعَ) في المنقول عنهُ آنفًا في أثناء حديثه عن مُقتَرَحه ، وهو قولُهُ إنَّ سَماعَ الكَلمة يُؤدِّي إلى التَّفكيرِ في الشَّيءِ ، وإنَ التَّفكيرَ في الشَّيءِ يُؤدِّي إلى التَّكلُّم بالكَلمة.

وعَبَّرَ جون لاينز عن حقيقة ما جاءَ به أوغدن ورتشاردز بما يَكشفُ عن عدَم دقَّة اعتراضَي أُولمان السّابقَيْن ، وذلكَ بقوله إنَّ إسهامَ مُؤَسِّسَي النَّظريَّة ، بحَسَب ما قَدَّماهُ ، يتمثَّلُ في دَعواهُما تَحسُّنَ التَّواصُل وتَيَسُّرَ وُضوح الفكر في حال إدراك أنَّ العَلاقَةَ بينَ الكَلمة والشَّيءِ ثانويَّةٌ خالصَةٌ ، مَنسُوبَةٌ ، غيرُ سَببيَّةٍ[1] ، ناشئةٌ من

---

(١) يُلْحَظُ أنَّ جون لاينز يَصِفُ في هذهِ الفِقرَةِ مِن كلامِهِ عَلاقَةَ الكَلِماتِ بالأشياءِ عندَ أوغدِن ورِتشاردز بأنَّها غيرُ سَببيَّةٍ، في حينِ أنَّهُما هُما أنفُسهُما وَصَفاها بخِلافِ ذلكَ تَمامًا إذ قالا: ((والعَلاقَاتُ بينَ كَلِمَةٍ مّا والأشياءِ التي تُمَثِّلُها هذهِ الكَلِمَةُ غيرُ مُباشِرَةٍ...، وهي، على ما أَكَّدْنا، سَبَبِيَّةٌ)). The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 188.
وأَظُنُّ أَنَّ سببَ ذلكَ اختِلافُ زاوِيَتَي النَّظَرِ؛ فجون لاينز إنَّما كانَ يَنظُرُ، فيما أَرَى، إلى جِهَةٍ واحِدَةٍ هيَ قاعدَةُ المُثَلَّثِ، فحكَمَ مِن ثَمَّ بِأَن لا عَلاقَةَ سببيَّةً بينَ طرفَيها، إذ لا يُمكِنُ أَن تَكونَ العَلاقَةُ بينَ ما اصطُلِحَ عليهِ أَن يَكونَ رَمزًا لِشَيْءٍ مّا على نَحوٍ اعتِباطيٍّ وهذا الشَّيْءِ عَلاقَةً=

تَرابُطهما في ذهنِ المُتكلِّم والسّامعِ ، أو الكاتبِ والقارئ ، في أثناءِ التَّواصُلِ[1]. وقد أنصَفَ بيار غيرو أوغدن ورِتشاردز حينَ قَرَّرَ أنَّ لِمُثَلَّثِهما الفَضلَ في إعادَة دَمجِ الشَّيءِ المُسَمَّى الذي على الرَّغمِ من عَدِّه خارجَ نطاقِ اهتمامِ اللسانيّات لا يُمكِنُ أن يُغْفِلَهُ عالِمُ الدَّلالة[2]. وسَوَّغَ كروز إدخالَ الشَّيءِ في تحليلِ المَعنَى بأنّنا ما دُمْنا نَستَعمِلُ اللغةَ للتَّعبيرِ عن الأشياءِ في العالَمِ من حَولنا فَمِن الواضحِ أنَّ هُناكَ صِلَةً مّا بينَ الكَلماتِ والأشياء التي تُستَعمَلُ الكلماتُ للدَّلالة عليها. ومن الواضحِ أيضًا أنّا نَمتلكُ مَفاهيمَ أو تصوُّراتٍ عقليَّةً بِشَأنِ الأشياءِ في عالَمِنا ، وأنَّ كُلاًّ منها يتَّصِلُ بِكلماتِ لُغتِنا والأشياءِ نَفسها[3].

وما تَقَدَّمَ بيانُهُ من أهمِّيَّةِ الإضافَةِ التي أتى بها مُثَلَّثُ أوغدن ورِتشاردز ، المُتمثِّلَة على مُستَوَى العَناصرِ بالمَرجعِ ، وعلى مُستَوَى العَلاقات بينَ العَناصرِ بتَفصيلِ دَرَجَةِ المُباشَرَة في هذه العَلاقات ، كفيلٌ بِرَدِّ اعتراضِ كلود جرمان وريمون لوبلون اللذَيْن أقرَّا بأنَّ المُثَلَّثَ الدَّلاليَّ ((حَمَلَ بعضَ الدِّقَّة من جهة العَلاقَة بينَ المَفهومِ والشَّيء))[4] ، لكنَّهُما عادَا فانتَقَدَاهُ بأنَّهُ ((لم يُضفْ شَيئًا على صياغَة دي سوسير في مَجال المدلول نَفسه ، ولم يُقَدِّمْ إلى الدَّلالَةِ اللسانيَّة أيَّةَ قيمةٍ إضافيَّةٍ))[5] ، فلا داعِيَ إلى مَزيدٍ من القَولِ في رَدِّه.

=سببيَّةً؛ أمّا أوغدن ورِتشاردز فكانَ نظرُهُما، فيما أرَى كذلكَ، مُوَزَّعًا بينَ جِهَتَيْنِ، تَضُمُّ أُولاهُما طَرَفَيْ قاعدَةِ المُثَلَّثِ فقط، فحكَما مِنْ ثَمَّ على العَلاقَةِ بينَهُما بأنَّها غيرُ مُباشِرَةٍ، وتَشتَمِلُ الثّانيَةُ على أطرافِ المثلّثِ الثّلاثةِ جَميعًا، فحكَما مِنْ ثَمَّ على العَلاقةِ بينَ طَرَفَيْ قاعدَةِ المُثَلَّثِ بأنَّها سببيَّةٌ لأنَّهُما كانا يَنظُرانِ إليها في هذهِ الحالةِ بِوَصفِها تَمُرُّ عبرَ عَلاقَتَيْنِ سببيَّتَيْنِ هُما اللتانِ تَربطانِ الرَّمزَ بالفِكرةِ والفِكرةَ بالمَرْجِعِ، فكانَتْ غيرَ مُباشِرَةٍ باعتِبارِ الجهةِ الأُولَى، وسببيَّةً باعتِبارِ الجهَةِ الثّانيةِ.

(1) Semantics، John Lyons، Vol. I.، p 97.

(٢) يُنظر: (عِلمُ الدَّلالَة) لِبيار غيرو: ٢٨

(٣) يُنظر: (اللغةُ والمعنَى ومَعنَى الكَلِمَة: عِلم الدَّلالَة) تأليف د. آ. كروز- في ضِمنِ كتاب (الموسوعة اللغويَّة) لِلدُّكتور ن. ي. كولنج: ١٤٦/١.

(٤) يُنظر: (عِلمُ الدَّلالَة) لِكلود جرمان وريمون لوبلون: ٢٣.

(٥) نفسه: ٢٣.

ويُؤاخذُ فرانك بالمَر ، ويُشايعُهُ آخَرونَ في ذلكَ ، اتِّجاهَ دراسة المعنَى المُعتَمدَ على التَّصوُّرات بعامَّةٍ واتِّجاهَ أوغدن ورِتشاردز بِخاصَّةٍ بغُموضِ مسألةِ الارتباطِ بينَ الرَّمزِ والفكرة[1].

والحَقُّ أنَّ هذه المسألةَ لم تَغبْ عن ذهنِ مُؤَسِّسَي النَّظريَّة ، فلذا حاوَلا إيجادَ آليّات تُسهمُ في إزالة الغُموضِ الذي يَصْحَبُ في العادة مُصطَلَحَ الفكرة أو المَفهومِ أو المَدلولِ أو الإحالَة. وإحدَى هذه الآليّات تَتمثَّلُ في العَلاقات المُتَنَوِّعَة بينَ أطراف المُثَلَّث الثَّلاثة ، تلكَ العَلاقات المُشتَمِلَة على الانفعالات والمَواقف المُصاحِبَة ، وآليَّةٌ أُخرَى تتمَثَّلُ في(التَّعريف **definition**) الذي عَوَّلَ عليه أوغدن ورتشاردز كثيرًا في سَدِّ النَّقصِ المُسَبَّب عن غُموضِ المَدلول أو ما سَمَّياهُ الإحالَةَ **reference** ، حتَّى إنَّهما خَصَّصَا لَهُ وللتَّعريف بآليّاته فَصلاً كاملاً من فُصول كتابهما العشرَة. وفي هذا السِّياق يَنتَقدُ مُؤسِّسَا النَّظريَّة إغفَالَ بيئة المتحدِّث الملموسة والاكتفاءَ بالالتفات إلى 'الأفكارِ' الَّتي يُنظَرُ إليها بوَصفها 'مُعَبِّرًا عنها'. ويُؤَكِّدان صُعوبَةَ الوُصول إلى الأفكارِ على مَن يَطلُبُها من الخارجِ ، وأنَّ بنا حاجَةً إلى نَظَريَّة تَربطُ الكَلمات بالأشياء عبرَ الأفكارِ الَّتي ، إن وُجِدَتْ ، تَرمزُ إليها ، أي أنَّ الأمرَ يتطلَّبُ تَحليلات مُنفصلَةً لعَلاقات الكَلمات بالأفكار ولعَلاقات الأفكار بالأشياء. وفَوقَ ذلكَ ، بحَسَبِ ما يَرَى أوغدن ورتشاردز ، فإنَّ القسمَ الأعظَمَ من اللغة ، ولا سيَّما اللغةُ البدائيَّةُ ، لا يُعنَى ابتداءً بالأفكار البَتَّةَ ، إلاَّ إذا ضُمِّنَت 'الأفكارُ' الانفعالات والمواقفَ[2].

ويُبَيِّنان في مَوضعٍ آخَرَ أَهَمِّيَّةَ الأدوار التي تُؤدِّيها المَواقفُ المُصاحِبَةُ والتَّعريفاتُ ، فيقولان: ((ما دُمْنا غيرَ قادرينَ على مُلاحَظَة الإحالات مُباشَرَةً فعلَيْنا دراسَتُها من خلال العَلامات ، إمّا من خلال المَشاعرِ المُصاحِبَة وإمّا من خلال الرُّموز. والمَشاعرُ ، على ما هوَ واضِحٌ ، غيرُ كافيَةٍ ، والرُّموزُ تُقَدِّمُ دَلالَةً أشَدَّ حَسّاسيَّةً بِكثيرٍ. على أنَّ

---

(١) يُنظر: (مَدخَلٌ إلى عِلمِ الدَّلالَة) لِفرانك بالمَر: ٦٤، و(عِلمُ الدَّلالَة) لِكلود جرمان وريمون لوبلون: ٢٣، و(اللغةُ والمعنَى ومَعنَى الكَلِمَة: عِلم الدَّلالَة) تأليف د.آ. كروز- في ضِمنِ كتاب (الموسوعة اللغويَّة) لِلدُّكتور ن. ي. كولنج: ١/١٤٦.

(2)The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 7.

الرُّموزَ تُضَلِّلُ أيضًا ، فينبَغي ابتكارُ طَريقَة مّا للضَّبط ، ومن هُنا تأتي أهمِّيَّةُ التَّعريف. وحَيثُما كانَ ثَمَّةَ سَبَبٌ للاعتماد على القُوَّة الدَّلاليَّة للرُّموز فلا شَكَّ في أنَّ اللُّغَةَ المُجَرَّدَة من كُلِّ الأساليبِ البَديلةِ ستكونُ مَرغوبًا فيها عِلميًّا. لكنْ في مُعظَمِ الأُمورِ لا تُمكنُ السَّيطرةُ على ما يُمكنُ من غَدرِ الكَلماتِ إلاَّ بالتَّعريفات))(١).

أمّا مجموعةُ النَّقدِ الثّانيةُ فأَهَمُّ ما وَقَفْتُ عليهِ مِن الاعتِراضاتِ التَّفصيليَّةِ التي اشتَمَلَتْ عليها هيَ:

١. افتقارُ النَّظريَّةِ إلى تَعريفٍ دَقيقٍ للمَدلولِ:

ممَّن أخَذَ النَّظريَّةَ الإشاريَّةَ بذلكَ كلود جرمان وريمون لوبلون ، إذ قالا:((لَمّا يَستَطِعْ أيٌّ أحَد ممَّن اعتَمدوا على التَّصوُّر الثُّلاثيِّ للعَلامَة اللسانيَّة(دالٌ- مَدلولٌ- مَرْجعٌ) أن يتوصَّلَ إلى تَعريف لسانيٍّ دَقيق للمَدلول))(٢).

وليسَ بوُسعي الجَزمُ بأنَّ ما قَدَّمَهُ صاحبَا النَّظريَّة يُمَثِّلُ تَعريفًا لسانيًّا دَقيقًا للمدلول ، فالحُكمُ بذلكَ مَسألةٌ نسبيَّةٌ قد تكونُ مَوضعَ نزاعٍ ، ولا سيَّما أنَّ الدِّقَّةَ في التَّعريف قد تَكونُ من خَصائص العُلوم التَّطبيقيَّة التي تتعامَلُ في مُعظَم مَفاصلها معَ حَقائقَ قابلَة للتَّجريبِ والمُلاحَظَة المُباشرَة. غيرَ أنَّهُ يُمكنُني تأكيدُ أنَّ أوغدن ورتشاردز قد خرَجَا بتَعريفٍ ذي عَناصرَ مُحَدَّدَة وعَلاقات رابطَة واضحة المَعالم ، وفي ظَنِّي أنَّ هذا يُحَقِّقُ مُستَوًى مَقبولاً من الكفايَة في ظلِّ ما يَلُفُّ الكثيرَ من نَظريّات المعنَى من غُموضٍ بهذا الشَّأن ، إذ يُعَرِّفان الإحالَةَ ، وهيَ التَّسميَةُ التي اختاراها للمَدلول ، بأنَّها ((مَجموعةٌ من السِّياقات الخارجيَّة والسّايكولوجيَّة التي تَصلُ العَمليَّةَ الذِّهنيَّةَ بالمَرجع. فلذا لا يُحتَمَلُ البَتَّةَ وُجودُ إحالَتَيْن مُتشابهَتَيْن تَمامًا))(٣). ويَزيدان هذا التَّعريفَ وُضوحًا في مَوضعٍ آخَرَ بقولهما: ((ثَمَّةَ نُقطةٌ أُخرَى يَجبُ إيضاحُها تتعلَّقُ بالمَنحَى الذي على وَفقه يُمكنُ تَرَكُّبُ الإحالاتِ ؛ فالحديثُ عن إحالةٍ مّا يَعني الحديثَ عن

---

(1) The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 206.

(٢) يُنظر: (عِلمُ الدِّلالَة) لِكلود جرمان وريمون لوبلون: ٢٣.

(3)The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 90.

السِّياقات السّايكولوجيَّة والخارجيَّة التي تَصِلُ العَلامَةَ بِمَرجعها. وبذلكَ يَكونُ نِقاشُ تَرَكُّبِ الإحالاتِ نِقاشًا لِعَلاقاتِ السِّياقاتِ بِعضِها بِبَعضٍ)) [1].

٢. تَعامَلُ النَّظريَّةِ معَ الأشياءِ المادِّيَّةِ الملموسةِ دونَ المَعنويّاتِ غيرِ المُحسَّةِ، وعَدَمُ تطرُّقِها إلى مَعاني أَدواتِ الرَّبطِ:

سَجَّلَ النّاقدُ الأَدَبِيُّ الهِنديُّ دامودار ذاكور نَقدَهُ لنظريَّة أوغدن ورتشاردز بقَولِه: ((إنَّ هذه النَّظرِيَّةَ، شأنُها شأنُ وجهَةِ النَّظَرِ إلى المَعنَى عندَ قُدامَى الإغريقِ، بوُسعها تَسليطُ شَيءٍ من الضَّوءِ على مَعنَى الأشياءِ المَلموسَة، ولا سيَّما الأسماءُ، لكنَّها لا تُمدُّنا ولَو بِبَصيصِ نُورٍ في ما يتعلَّقُ بمَعنَى أَدَواتِ الرَّبطِ نَحوَ: **of**، و**with**، و**because**)) [2].

وكَلامُهُ هذا يَنطَوي على مُؤاخَذَتَينِ أُخراهُما مُسَبَّبَةٌ عن أُولاهُما؛ فأُولاهُما أنَّ مُعطَياتِ النَّظريَّة تُتيحُ الإفادَةَ في ما يتعلَّقُ بالأشياءِ المَلموسَةِ فَحَسْبُ، وأُخراهُما أنَّها تَفتَقِرُ إلى آليَّةٍ للبَحثِ في مَعاني أَدَواتِ الرَّبطِ اللغويَّة.

والذي أَراهُ أنَّ هذا النَّقدَ أكثَر ما يَنطَبِقُ على وجهَةِ النَّظَرِ المُسَمّاة (مَذهَبَ التَّسْميَة **Naming**) التي أَشَرْتُ إليها آنفًا؛ ذلكَ بأنَّ كلمةَ اللسانيِّينَ الغربيِّينَ مُجتمعَةٌ على أنَّ معنَى الكَلمة في هذا المذهَبِ هو الشَّيءُ المُشارُ إليه بها، فمَعنَى الطّاولَة **table**، مَثَلاً، هو الموضوعُ المادِّيُّ لَها. فلذلكَ كانَتْ هذه الوِجهَةُ هَدَفًا لسهامِ نَقدٍ كَثيرَةٍ، أَهَمُّها اقتصارُها على الأسماءِ وإغفالُها كيفيَّةَ التَّعامُلِ معَ مَدلولاتِ الصِّفاتِ نحوِ(حَسَنٍ، وجَميلٍ...إلخ)، والأفعال كالفعل(يمشي)، وبعضِ أصنافِ الخطابِ كحروفِ الجَرِّ، وأَدَواتِ الرَّبط، إلخ، والكَلماتِ المُجَرَّدَة نحوِ (الحُرِّيَّة)، أو الكَلِماتِ التي ليسَ لَها مَوضوعٌ حقيقيٌّ مُطابِقٌ في الواقِعِ نحوِ(جِنِّيَّة، وساحِرَة، إلخ) [3].

---

(1) The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 68.

(2) Linguistics Simplified-Semantics، Damodar Thakur، p. 125.

(٣) يُنظر: (مَدخَلٌ إلى عِلمِ الدِّلالَة) لِفرانك بالمَر: ٥٥- ٥٨، و(عِلمُ الدِّلالَة) لِكلود جرمان وريمون لوبلون: ٢٠، و(اللغةُ والمعنَى ومَعنَى الكَلِمَة: عِلم الدِّلالَة) تأليف د.آ. كروز- في ضِمنِ كتاب (الموسوعة اللغويَّة) لِلدُّكتور ن. ي. كولنج: ١٤٧/١.

فما اتَّهَمَ بـهِ دامودار ذاكور نَظريَّـةَ أوغدن ورتشاردز يَجعَلُهُ غيرُهُ مُوَجَّهًا صَوبَ نظريَّةِ التَّسميَةِ. واللافتُ للنَّظَرِ أنَّ النّاقدَ الهِنديَّ نَفسَهُ كانَ قد سَلَّطَ هذه المُؤاخَذَةَ نَفسَها على نَظَريَّةِ التَّسميَةِ من قَبلُ[١].

وعلى أيَّةِ حال ، فالذي رَأيتُهُ أنَّ النَّظريَّةَ التي جاءَ بها الرَّجُلانِ قد تَطرَّقَتْ تَطرُّقًا واضحًا إلى المُجَرَّداتِ من الكَلماتِ ، مُحاولَةً وَضعَ آليَّة واضحَة للتَّعامُلِ مَعَها ، وقد قَدَّمَ مُؤَسِّسا النَّظريَّة تَصوُّرًا للُغَة وعَناصرِها الرَّئيسِ منها وغيرِ الرَّئيسِ يُشَكِّلُ مَدخَلاً لهذه الآليَّة ، ذَهَبَا فيه إلى((أنَّ أفضلَ وَصف للُغَة ، وإن ذُكرَتْ كَثيرًا على أنَّها وَسيلةُ تَواصُلٍ ، هو أنَّها آلَةٌ ، وجَميعُ الآلاتِ ما هيَ إلاّ تَوسيعاتٌ ، أو تَهذيباتٌ لأعضائنا الحسِّيَّة. فالمقرابُ ، والهاتفُ ، والمجهَرُ ، ومُكَبِّرُ الصَّوت... قادرَةٌ على... تَقديمِ أعضاءٍ مُلائمينَ جُدُد إلى سياقات عَلاماتنا... فإذا لم نَستَطِعْ أن نُشيرَ فعليًّا إلى الدِّبَبَة التي قتَلْناها أخبَرْنا أصدقاءَنا عنها أو رَسَمْناها ، فَإن أُتيحَتْ لَنا آلَةٌ أفضَلُ قَليلاً من اللغة قَدَّمْنا صُورَةً فوتوغرافيَّةً لَها. والقياسُ نَفسُهُ يَصدُقُ على الاستعمالات الانفعاليَّة للُغَة: فالكَلماتُ يُمكنُ استعمالُها بوَصفها هراوَى ودَبابيسَ. غيرَ أنَّهُ يَشيعُ في التَّصويرِ الفوتوغرافيِّ أن يُخطئَ الهُواةُ في تَمييزِ نَتائجِ المُعالَجَة من سمات الأَشياء المُصَوَّرَة... فكذلكَ اللغةُ مَملوءَةٌ بعَناصرَ لا وَظيفَةَ تَمثيليَّةً أو رَمزيَّةً لَها ، مَرَدُّها إلى مُعالَجَة اللغة فَحَسْبُ))[٢]. ثُمَّ بيَّنَ أوغدنَ ورتشاردز أنَّ إحدى طَريقَتَيْ حُدوث التَّخيُّلات اللغويَّة تكونُ بسُوءِ فَهمٍ لوظيفة ما أَطلَقَا عليه اسمَ(المُكَمِّلات الرَّمزيَّة أو اللغويَّة) ، وهيَ الكَلماتُ التي سبَقَ أن ذَكَرا أنَّها عَناصرُ في اللغة لا تُؤَدِّي وَظيفَةً رمزيَّةً ، نَحو كَلمَتَي 'الحُرِّيَّة' و'الحُمْرَة' ، حتَّى إنَّ مَن يَستَعملُهُما يَفتَرضُ بإنشائه إحالَةً على الأَفعال الحُرَّة أو الأشياء الحُمر أنَّهُ يُحيلُ على شَيء مّا خارجٍ عن نطاق الزَّمان والمَكانِ ، على حَدِّ تَعبيرِ أوغدن ورتشاردز[٣]. على أنَّهُما يَعودانِ فَيُطَمْئنانِ مُستَعملَ

---

(1) Linguistics Simplified-Semantics، Damodar Thakur، p. 125.

(2) The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 98.

(3) The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 99.

مثلِ هاتَيْنِ الكلمتَيْنِ بتقريرِهما أنَّ استعمالَ مثلِ هذه المُكَمِّلات اللُّغَويَّة يُمكنُ أن يَكونَ غيرَ خَطِرٍ ، شَريطَةَ أن تُدرَكَ حَقيقَتُها ، أي أن يُدرَكَ أنَّها تيسيراتٌ في الوَصفِ ، لا ضَروراتٌ في بنيَة الأشياء[1].

وبَعدَ أن قَدَّمَ مُؤَسِّسَا النَّظريَّة بالمَدخَلِ السّابِق شَرَعَا يَسردان الآليَّةَ المُقتَرَحَةَ للتَّعامُلِ معَ ما أسمَياهُ(المُكَمِّلات اللغويَّة) ، وهيَ الكَلماتُ المُعَبِّرَةُ عن المُجَرَّدات ، فذَكَرَا أنَّ نَحوَ هذه الكلمات لا يُمكنُ عَدُّها ذَوَات وَظيفَة رَمزيَّة ، بَل هيَ استعمالاتٌ لَها مُشتَرَكَةٌ معَ أشياءَ مُعَيَّنَة ، يَنتُجُ من مَجموعِها استعمالٌ يُعَبِّرُ عن مَوقفِ انفعاليٍّ من الأشياء. ولم يَكتَف الرَّجُلان بالتَّنظيرِ لهذه المسألة ، بل إنَّهما آتيا بمثالٍ طَبَّقَا عليه هذا التَّنظيرَ ، فكانَ من ذلكَ أن قالا في سياقِ حَديثِهما عن مَحاذيرِ تَوسيعِ نطاق أساليب التَّعبيرِ العلميَّة لتَشمَلَ حَقلَ الفَلسَفة مَثَلاً: ((من هذه المَحاذيرِ ظُهورُ كَلمات ، لا يُعرَفُ لَها عَدَدٌ حتَّى الآن ، عُدَّتْ خَطَأً ذَوَات وَظيفَة رَمزيَّة من غيرِ أدنَى شَكٍّ. مثالُ ذلكَ كَلمةُ 'حَسَن'. فَمن المُحتَمَلِ أن تَكونَ هذه الكلمةُ في أساسِها مَجموعَةَ مُشتَركات لَفظيَّة عُهِدَ مُنذُ القِدَمِ نُطقُها مُرتَبطَةً بمَجموعةِ أشياءَ ، على نَحوٍ تَقريبيٍّ ، (سَريرٌ حَسَنٌ ، رَكلَةٌ حَسَنَةٌ ، طفلٌ حَسَنٌ ، إلَهٌ حَسَنٌ) لا صفَةَ مُشتركَةً بينَها. غيرَ أنَّ ثَمَّةَ استعمالاً آخَرَ غالبًا ما يَكونُ ظُهورُهُ مُؤَكَّدًا ، يُفتَرَضُ أن يَكونَ بعضُ ما أورَدْناهُ في الأقَلِّ مَظاهرَ تَحلُّلٍ لَهُ ، حيثُ يُزعَمُ أنَّ كلمةَ 'حَسَن' تُمَثِّلُ فكرَةً فَريدَةً غيرَ قابلة للتَّحليلِ. ويُقالُ إنَّ هذه الفكرةَ هيَ موضوعُ علمِ الأخلاق. ونَحنُ نذهَبُ إلى أنَّ هذا الاستعمالَ الأخلاقيَّ المُمَيَّزَ إنَّما هوَ استعمالٌ عاطفيٌّ خالصٌ. وإذا استُعملَت الكَلمةُ على هذا النَّحوِ فإنَّها لا تُمَثِّلُ شيئًا البَتَّةَ ، ولا تَكونُ لَها وظيفَةٌ رَمزيَّةٌ. لذلكَ ، نحنُ حينَ نَستَعملُها على هذا النَّحوِ في جُملَة '*هذا* حَسَنٌ' إنَّما نُحيلُ على *هذا* ، أمّا الزِّيادةُ 'حَسَنٌ' فلا تُحدثُ فَرقًا في الإحالة البَتَّةَ. في حينِ أنّا إذا قُلْنا: '*هذا* أحمَرُ' فإنَّ زيادَةَ 'أحمَرُ' على 'هذا' تَرمزُ إلى امتداد في إحالتنا ، أي إلى شَيءٍ مّا أحمَرَ آخَرَ. أمّا 'حَسَنٌ' فلَيسَتْ لَهُ وَظيفةٌ رَمزيَّةٌ مُقارِنَةٌ ؛ فهوَ لا يَصلُحُ إلاّ أن يَكونَ

---

(1) The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 101.

عَلامَةً عاطفيَّةً تُعَبِّرُ عن مَوقفنا مِن هذا ، ورُبَّما تُثيرُ مَواقِفَ مُشابِهَةً عندَ أشخاصٍ آخَرِينَ ، أو تَحُثُّهُم على أفعالٍ مِن نَوعٍ أو آخَرَ))[1].

أمّا ما يتعلَّقُ بعَدَمِ وَضعِ النَّظَريَّة الإشاريَّة آليَّةً للتَّعامُلِ معَ مَعاني أدَواتِ الرَّبط ، فقد أوضَحَ أوغدن ورتشاردز أنَّهُ على الرَّغمِ مِن أهمِّيَّة الأدواتِ النَّحويَّة في الكَلامِ وأنَّها عَناصرُ بنائيَّةٌ فيه ، لا يَقَعُ الحديثُ عنها في دائرة اختصاصِ المُشتَغلينَ بالدَّلالة وإنَّما تُلقَى مُهِمَّةُ ذلكَ على عاتقِ النَّحويِّينَ بخاصَّة والمَناطقَة كذلكَ ، ونَصُّ كَلامهما في ذلكَ هوَ: ((قد تَحوي الرُّموزُ أجزاءً ضَروريَّةً ، كالنَّفي ، وكلماتٍ نَحوِ 'الْ' ، و'الذي' ، وهيَ ليسَ لها في أنفُسِها مَراجعُ مُحَدَّدَةٌ. ودراسةُ نَحوِ هذه العناصرِ *البنائيَّة* غيرِ الرَّمزيَّة يَقَعُ على عاتقِ النَّحو. وتَظهَرُ هذه اللَمَحاتُ البنائيَّةُ في اللُّغة الاعتياديَّة في تَنَوُّعٍ شَكليٍّ مُحيِّر. فالتَّصريفاتُ ، والرَّوابطُ ، والمُوَزِّعاتُ ، والأفعالُ المُساعدَةُ ، وبَعضُ حُروفِ الجَرِّ ، والاستعمالُ الرَّئيسُ للفعلِ الرّابط ، وما إلى ذلكَ ، كُلُّ أولئكَ لَهُ هذه الوَظيفَةُ))[2]. وذَكَرَا في مَوضعٍ آخَرَ أنَّ التَّخَيُّلات اللغويَّةَ إنَّما تَحدُثُ بإحدَى طَريقَتَيْن ، إحداهُما ما سَبَقَ نَقلُها عنهما آنفًا وهيَ المُكَمِّلاتُ اللغويَّةُ ، أي الكَلماتُ التي تُمَثِّلُ المُجَرَّدات ، والأُخرَى((إضفاءُ بُعدٍ مادِّيٍّ على الآليّات البنائيَّة الرّابطَة نحوِ 'أو' ، و'إنْ' ، و'لَيسَ' ، إلخ ، التي لا تَستَهوي إلاّ المَناطقَةَ))[3].

والحَقُّ أنَّ ما طَرَحَهُ مُؤَسِّسَا النَّظريَّة ممّا يُؤَيِّدُهُ الكثيرُ مِن مُنَظِّري علمِ اللغة الحديث ؛ إذ يَنُصُّ جَون لاينز على وجوبِ التَّفريقِ بينَ مَجموعتَيْنِ من الكَلمات ، أطلَقَ على مُفرَدات إحداهُما اسمَ الكَلمات التّامَّة ، وعلى مُفرَدات الأُخرَى اسمَ الكَلمات الوَظيفيَّة. فالكَلماتُ التّامَّةُ هيَ التي تنتمي إلى مُعظَمِ أقسامِ الكَلامِ من الأسماء والأفعالِ والصِّفات وغيرِها. أمّا الكَلماتُ الوَظيفيَّةُ فيُمَثِّلُ لَها لاينز بأداةِ التَّعريف **the** ، وحروفِ الجَرِّ **of، at، for** ، وأدَواتِ الرَّبطِ **and، but** ، وأداةِ النَّفيِ **not** ، وهي تتميَّزُ عندَهُ

---

(1) The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 124-125.

(2) The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 88.

(3) The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، p. 99.

بانتسابها إلى مجموعة قليلة العدد ، وبأنَّها أَقَلُّ اتِّصافًا بالْمُعجَمِيَّة التّامَّة من الكَلمات التّامَّة[1]. فكَلامُهُ هذا واضِحٌ في أنَّ الأَدَوات التي ذَكَرَها والتي سَمّاها الكلمات الوَظيفيَّةَ تُفارِقُ الكَلمات التّامَّةَ في نَقصِ دَلالتِها الْمُعجَمِيَّة ، وفي أنَّ مُهِمَّتَها تأدِيَةُ مَعنًى وَظيفِيٍّ في الكَلامِ لا مَعنًى مُعجَمِيٍّ.

(١) يُنظر: (اللغةُ وعِلمُ اللغة) لِجون لِيونز: ٢١٦- ٢١٧.

المَبْحَثُ الثَّالِث

التلقّي العَرَبِيُّ لِنَظَرِيَّةِ المثلثِ الدلاليّ

ليسَ بِمُستَغرَبٍ ، بَعدَ ما رأَينا من أَخذٍ ورَدٍّ في فَهمِ نَظريَّة أوغدن ورتشاردز ونَقدها في الغَربِ ، أنْ يكونَ تَلقِّي الكثيرِ من الدّارسينَ العربِ لَها ولما دارَ حَولَها من جَدَلٍ ونَقدٍ في ديارِ نشأتِها مَشوبًا بِاضطرابٍ كبيرٍ في الرُّؤيةِ وبِتخليطٍ غيرِ قليلٍ في التَّوجيه.

وإذا ما أَرَدْنا أن نَضعَ أيدِينا على المصدرِ الأَوَّلِ الذي نَهَلَ منهُ مُعظَمُ الدّارسينَ العربِ في ما يتعلَّقُ بمُعطَيات هذه النَّظريَّة ، ومن ثَمَّ نَكونُ قد أَرَحْنا أنفُسَنا من عَناء مُلاحَقَة أقوال مَكرورة ينقُلُها خَلَفُ الدَّلاليِّينَ العربِ عن سَلَفهم ، كانَ علينا أَن نَرجعَ إلى كتاب(علم الدَّلالَة) للدُّكتور أحمد مُختار عُمَر ، الذي يُشَكِّلُ نُقطةَ ابتداء حقيقيَّةً لمُعظَمِ ما أُلِّفَ بَعدَهُ في الدَّلالَة في اللسانيّات العربيَّة ، ولا سيَّما ممَّن لا يُحسنونَ النَّهلَ المُباشرَ من مَنبَعِ اللغةِ الأَصليَّة التي كُتِبَتْ بها أَدَبيّاتُ علمِ الدَّلالة في الغَربِ. وعلى الرَّغمِ ممّا كانَ لهذا الكتابِ من فَضلِ إطلاعِ القارئ العربيِّ على مساحةٍ واسعة من حُقولِ الدَّلالة في اللسانيّات الغربيَّة الحديثة ، أَسهَمَ فيما يتعلَّقُ بمَوضوعنا في تَخليطِ أفكارِ مُطالعيه وتشتيت تَصوُّراتهم. على أَنّا نَسأَلُ اللهَ تَعالَى أَلاّ يُؤاخذَ كاتبَهُ بذلكَ ، بَل أَنْ يُجزلَ لَهُ المثوبةَ كِفاءَ ما نَفَعَ وبَذَلَ ، وأَن يتجاوزَ لَهُ عَمّا أَخطأَ فيه وغَفَلَ.

وسيكونُ مَنهَجي في النَّظَرِ في ما عَرَضَهُ الدُّكتور أحمد مُختار عُمَر ممّا يتعلَّقُ بنَظريَّة أوغدن ورتشاردز أن أتطرَّقَ أوَّلاً إلى ما فَسَّرَ به النَّظريَّةَ من حيثُ أُصولُها التي قامَتْ عليها ، ثُمَّ أتناوَلَ ما ذَكَرَهُ مِن مُؤاخَذاتٍ على النَّظريَّةِ ونُقودٍ لَها ، غيرَ مُغفلٍ في

ذلكَ كلِّه ذكرَ ما وَقَفْتُ عليه من آراء عَدَد ممَّن شايَعَ الدُّكتور في ما ذَكَرَهُ ممَّن جاءَ بَعدَهُ ، أو آراءِ مَن كانَ لهُ رأيٌ لَهُ صلَةٌ بِما قالَهُ الدكتور. وبعبارَة أُخرَى ، سأجعلُ كلامَ الدُّكتور محوَرًا تَدورُ حولَهُ سائرُ الأقوال ؛ تيسيرًا لمَن رامَ التقاطَ الفكرة بأيسر سبيلٍ ، ووَضعًا للأُمور في نِصابَيْها العِلميِّ والتَّأريخيِّ ؛ إذ كلُّ مَن جاؤوا بَعدَهُ عِيالٌ عليه بِنَحوٍ أو بآخَرَ.

فإذا ما ابتَدَأْنا بالتَّصَوُّر الذي قَدَّمَهُ الدُّكتور أحمد مُختار عُمَر للنَّظريَّة ألفَيْناهُ يُقَدِّمُ بينَ يَدَي كَلامه عليها مُخطَّطَ المُثَلَّث الذي أتَى به أوغدن ورتشاردز ، مُتَرجمًا عَناصرَهُ الثَّلاثَةَ بمُقابِلات مَقبولَة في الجُملَة ، وإن كُنتُ أُخالِفُهُ في بَعضِ ما اختارَهُ ، لكنَّ ذلكَ مِن مَواطِنِ الاجتهادِ التَّرجَميِّ ؛ إذ تَرجَمَ **Symbol** بـ(الرَّمز-الكلمة-الاسم) ، و**Thought or Reference** بـ(الفِكرَة-المَرجِع-المَدلول) ، و**Referent** بـ(الشَّيء الخارجيّ- المُشار إليه) [1].

ثُمَّ شَرَعَ الدُّكتور يُفَسِّرُ المَقصودَ بعَناصرِ المُثَلَّث والعَلاقات الرّابطة بَينَها ، بما لا يَخرُجُ عَمّا جاءَ في كِتاب(مَعنَى المَعنَى) لمُؤَسِّسَي النَّظريَّة. لكن لَفَتَ نَظَري كَثيرًا ما جاءَ في هامشِ الكتابِ من قَول الدُّكتور مُعَلِّقًا على طَبيعَة العَلاقَة بينَ الرَّمزِ والفكرة بأنَّها عَلاقَةٌ عَرَضيَّةٌ[2]. والحَقُّ أنِّي وقَفْتُ مَشدوهًا أمامَ هذه العبارة الوَجيزَة في ألفاظها الهائلَة في دَلالتها ؛ ذلكَ بأنَّها تَعني أحدَ احتمالَيْن ، أحدُهُما: أن أكونَ أنا وكلُّ مَن نَقَلْتُ عنهُم من عُلَماء الدَّلالة في الغَربِ واهمينَ وَهمًا شَديدًا في فَهمِ النَّظريَّة ؛ إذ لَم أقفْ ، كما لم يَقفْ أُولئكَ ، مِن كَلامِ صاحبَي النَّظريَّة على ما يَشفَعُ في فَهمٍ كهذا ، بل إنَّ صَريحَ كلامهما لَيَنطقُ بخلاف ذلكَ تَمامًا ؛ إذ أكَّدَا مرارًا وتَكرارًا ، على ما سبَقَ النَّقلُ عنهُما ، أنَّ العَلاقَةَ الوَحيدَةَ من بين العَلاقات الثَّلاث الواصلَة بينَ عناصرِ المُثَلَّث التي تَكونُ مُباشَرَةً خالصَةً هي التي تَصلُ الرَّمزَ بالفكرَة ، وأكَّدَا كذلكَ أنَّها عَلاقَةٌ سَببيَّةٌ. فهَل لِعَلاقَةٍ أن تَكونَ مُباشِرَةً وسببيَّةً وأن تَكونَ عَرَضيَّةً في الوقت

---

(١) يُنظر: (عِلمُ الدّلالَة) للدُّكتور أحمد مُختار عُمَر: ٥٤.

(٢) نفسه: ٥٤ (الهامش١).

نَفسه؟ ومَعلومٌ أنَّ ما هوَ عَرَضِيٌّ يكونُ زائلاً غيرَ دائمٍ وغيرَ أساسيٍّ إذا ما قيسَ إلى الجَوهريِّ والأساسيِّ، وهذا خلافُ ما بُنِيَتْ عليه النَّظَرِيَّةُ في أحَدِ أهَمِّ مُعطَياتها.

والاحتمالُ الآخَرُ: أنَّ الدُّكتور هوَ الواهِمُ في تَوصيفِ العَلاقَةِ المذكورة آنفًا. لكن إن كانَ الأمرُ كذلكَ فَمن أينَ أُتِيَ في هذا الفَهمِ الغريبِ الذي ليسَ لهُ فيه سَنَدٌ ولا سَلَفٌ؟ والذي تَوَصَّلْتُ إليه بَعدَ تأمُّلٍ ليسَ بالطَّويلِ أنَّ مَنشَأ هذا الوهمِ أمرانِ، أحدُهُما: التَّسرُّعُ في التَّرجَمَة، والآخَرُ: عَدَمُ التَّأنِّي في فَهمِ مُعطَيات النَّظريَّة.

أمّا أوَّلُ الأمرَيْنِ فَبيانُهُ يَشوبُهُ شَيءٌ من الطَّرافَة التي هيَ في غيرِ محلِّها؛ ذلكَ بأنَّ الذي تبيَّنَ لي أنَّ الدُّكتور لمّا رَجَعَ إلى ما أثْبَتَهُ مُؤَلِّفا كتاب(معنى المَعنى) حَولَ المُثَلَّث من إيضاحات وَجَدَهُما يُعَبِّرانِ عن بَعضِ ما تَتَّصفُ به العَلاقَةُ بينَ الرَّمزِ والفكرَةِ بكلمة لم يَقرَأها على وجهِها الصَّحيحِ بل زاغَتْ عَيْنُهُ زَيْغًا يَسيرًا لكنَّهُ كانَ كافيًا ليَمسَخَ الكلمةَ عَمّا أُريدَ بها وليُحيلَ المَعنى إلى ما لَم يَدُرْ بخَلَدِ مُؤَسِّسَي النَّظَريَّة فَضلاً عَمَّن جاءَ بَعدَهُما. وتَفصيلُ ذلكَ أنَّ الكَلمةَ المَعنيَّةَ هيَ بلُغَتِها الإنجليزيَّة الأُمِّ **Causal**، أي سَبَبيَّةٌ، فما كانَ من الدُّكتور إلاّ أن انحَرَفَتْ عينُهُ فقدَّمَتْ حرفَ الـ**S** على حرفِ الـ**U** فقرأَ الكلمَةَ **Casual**، التي تُتَرجَمُ بالعَرَضيَّة. أفرأَيتَ كيفَ يَجني على الباحثِ تَسرُّعُهُ، ولا سيَّما في مَوطنٍ يَستَحقُّ طُولَ النَّفَسِ وكثرةَ التَّأمُّلِ، هذا إن أتى من باحثٍ مّا، فكيفَ بمَن يتصَدَّى لمُهمَّة نَقلِ منظومةٍ دلاليَّة صَعبَةٍ من مَنشَئها إلى أهلِ جِلدَتِه ليَفهَموها ويَجعَلوها مُنطَلَقًا لإسهاماتِهم اللسانيَّة؟

أمّا الأمرُ الآخَرُ فلَو أنَّ الدُّكتور كانَ قد صَبَرَ نَفسَهُ على قراءَة النَّظريَّة ولو بالمُطالعَة المتأنِّيَة للمُثَلَّث وما أُثبتَ عليه وما عُلِّقَ بِه عليه لَكانَ لَهُ من كُلِّ ذلكَ عُدَّةٌ وزادٌ يُعينانه على دَفعِ الوَهمِ المذكورِ عن نَفسه.

وليسَ ما مَضَى المُؤاخَذَةَ الوحيدَةَ على ما قَدَّمَهُ الدُّكتور من تَصوُّرٍ كُلِّيٍّ للنَّظريَّة، بل إنِّي وَقَفْتُ على تخليط لَدَيْه انتقَلَ إلى كُلِّ مَن قَبسَ منهُ ونَهَلَ من مَعينه؛ فبَعدَ أن تحدَّثَ بإيجازٍ عمّا جاءَ به أوغدن ورتشاردز وذَكَرَ أنَّ ما قَدَّماهُ يُعَدُّ امتدادًا وتَطويرًا لما جاءَ به سوسير من قَبلُ، عَلَّقَ بِقَولِه إنَّ ما تَؤولُ إليه النَّظريَّةُ

إجمالاً هوَ أنَّ معنَى الكلمةِ هو إشارتُها إلى شَيءٍ غيرِ نَفسِها ، وهذا ممّا لا غُبارَ عليه ، لكنَّهُ ذكَرَ بعدَ ذلكَ ما يُمكنُ أن يُناقَشَ فيهِ كثيرًا ، وهوَ أنَّ ثَمَّةَ وجهَتَيْنِ أو رأيَيْنِ في هذه النَّظريَّة ؛ أحدُهُما يَسيرُ في اتِّجاه أنَّ مَعنَى الكلمةِ هوَ ما تُشيرُ إليه ، والآخَرُ يَنحو مَنحَى أنَّ مَعنَاها هوَ العَلاقَةُ بينَ التَّعبيرُ وما يُشيرُ إليه. فعَلَى الرَّأيِ الأوَّل تقتَصِرُ دراسةُ المَعنَى على دراسَةِ عُنصُرَيْنِ من عَناصِرِ المُثَلَّث هُما الرَّمزُ والمُشارُ إليه ، أمّا على الرَّأيِ الثّاني فلا بُدَّ من دراسَةِ العَناصرِ الثَّلاثة ؛ لأنَّ الوُصولَ إلى المُشارِ إليه يكونُ مِن طريقِ الفِكرةِ أو الصُّورةِ الذِّهنيَّةِ المُتوسِّطَةِ بينَ العُنصُرَيْنِ السّابقَيْن[١].

هذا ما ذَكَرَهُ الدُّكتور ، وقد يَرَى قارئُ كلامه أنَّ الرَّأيَ الثّانيَ هوَ المُعَبِّرُ الحقيقيُّ عن نَظريَّة أوغدن ورتشاردز. فإن كانَ الأمرُ كذلكَ ، وهو كذلكَ ، فَما قصَّةُ الرَّأيِ الأوَّل ، وكيفَ صيرَ إلى هذه القسمة الثُّنائيَّة في بيانِ حقيقة هذه النَّظريَّة؟

ولا أظُنُّهُ يَخفَى على مَن طالَعَ ما سُطِّرَ في هذا البَحث حتّى الآن أنَّ مَرَدَّ الرَّأيِ الأوَّل هذا إلى ما كانَ عليه أفلاطونُ ممّا سَبَقَ ذِكْرُهُ عنهُ ، وقد ذَكَرْتُ ثَمَّةَ أنَّ مَذهَبَ أفلاطونَ هذا أُطلَقَ عليه عُلَماءُ الدَّلالَةِ في الغَربِ اسمَ مَذهَبِ التَّسميَةِ **Naming** ، تَمييزًا لَهُ من مَذهَبٍ آخَرَ في دراسة المَعنَى هوَ مَذهَبُ التَّصوُّرات **Concepts** الذي يَنطَوي تَحتَهُ مَذهَبانِ فَرعيّان ، يُعزَى أحدُهُما إلى سوسير ويُسَمَّى نظريَّة العَلامَة **sign theory** ، والآخَرُ إلى أوغدن ورتشاردز وأُطلِقَ عليه اسمُ نَظريَّةِ المُثَلَّث السِّيميائيِّ **semiotic triangle** أو مُثَلَّث الدَّلالَة**the triangle of signification** أو المُثَلَّث الأساسيّ **basic triangle**. ويَضُمُّ كُلاًّ من مَذهَبَي التَّسميَة والتَّصوُّرات اتِّجاهٌ كبيرٌ في دِراسَةِ المَعنَى ذَكَرْتُ آنفًا أنَّهُ يُدعَى المَنهَجَ التَّحليليَّ أو الإحاليَّ **analytical or referential approach** ، بإزاء المَنهَجِ الآخَرِ الذي يُطلَقُ عليه اسمُ المَنهَجِ الإجرائيِّ **operational approach**. كلُّ ذلكَ مَسطورٌ في ما مضَى من البَحث ، وليسَ في هذا المَوضِعِ إلاّ إعادَةُ تَلخيصٍ وتَكرارُ تَنبيهٍ. وممّا يُلحَظُ أنَّ هذه الشَّبَكَةَ من

---

(١) يُنظر: (عِلمُ الدَّلالَة) لِلدُّكتور أحمد مُختار عُمَر: ٥٥.

التَّفريعات في تَسميات مَذاهب دراسة المَعنَى عندَ الغَرب لا تَشوبُها شائبَةُ التَّداخُلِ المُصطلَحيِّ ، ولا آفَةُ عَدَمِ الدِّقَّة في انطباق المُصطلَحِ على مَفهومه.

فإذا ما قَدمّنا إلى ما أنجَزَهُ دارسُو الدَّلاَلَة من العرب من مُقابلات لكُلِّ أُولئكُم الاصطلاحات ألفَيْنا تَخليطًا كبيرًا ، وشَتاتًا كثيرًا ، وتَخَبُّطًا في التَّسميَة والفَهم على حَدٍّ سَواء. فلَو ابتَدَأنا بكِتاب الدُّكتور أحمد مُختار عُمَر لَوَجَدْنا الخَلطَ في شَبَكَة المُصطلَحات أحَدَ الأسبابِ الرَّئيسة التي دَعَتْهُ إلى نسبَة رَأيَيْنِ في دراسَة المعنَى إلى النَّظريَّة الإحاليَّة referential theory التي كانَ قد عَزَاها أوَّلَ حديثه عنها إلى أوغدن ورتشاردز[1] ؛ فلَو أنَّهُ كانَ قد سَلَكَ مَسلَكَ عُلماء الدَّلالة الغَربيِّينَ في جَعلِ نظريَّة أوغدن ورتشاردز ، التي أسمَوْها نَظريَّةَ المُثَلَّث السِّيميائيِّ أو الأَساسيِّ ، إحدَى نَظريّات دراسَة المَعنَى المُنضَويَة تحتَ الاتِّجاه الإحاليِّ ، إذَن لَكانَ في مَنجاة ممّا وَقَعَ فيه من تَخليط جَعلِ اسمِ النَّظريَّة الإحاليَّة عَلَمًا على إنجاز أوغدن ورتشاردز ، والإقدام على جَعلِ النَّظريَّة التي نَسَبَها الغَربيُّونَ إلى أفلاطونَ رَأيًا آخَرَ لنظريَّة أوغدن ورتشاردز[2].

وقد فَطِنَ بعضُ المُشتَغلينَ بالمَعنَى من العَرَبِ إلى التَّناقُضِ الذي في طَرحِ الدُّكتور أحمد مُختار عُمَر ؛ إذ صَرَّحَ الدُّكتور محمَّد حسن حسن جبل بأنَّ ما فَهمَهُ من مَصادرِ علمِ الدَّلاَلَة المُترجَمَة إلى العربيَّة هوَ أنَّ المعنَى في النَّظريَّة الإشاريَّة هوَ ((العَلاقَةُ بينَ اللفظ والمَدلول الذي هو الفكرَةُ الذِّهنيَّةُ ، وهيَ عَلاقَةُ استدعاء ، أي كُلٌّ منهما يَستَدعي الآخَرَ ، أو هو الفكرةُ الذِّهنيَّةُ نَفسُها))[3] ، لكنَّهُ حينَ رَجَعَ إلى كتابِ الدُّكتور أحمد مُختار عُمَر ألفاهُ يَنُصُّ على غيرِ ذلكَ ، وهو ما سَبَقَ نَقلُهُ عنهُ[4].

---

(١) يُنظر: (عِلمُ الدَّلاَلَة) لِلدُّكتور أحمد مُختار عُمَر: ٥٤

(٢) تَبَنَّى الكثيرُ مِن المُصَنِّفِينَ في الدَّلالةِ مِن العربِ هذا التَّصوُّرَ الذي طَرَحَهُ الدُّكتور أحمد مُختار عُمَر، ومِن أُولئكَ الدُّكتور محمود فهمي زيدان في كتابِهِ (في فلسفةِ اللغة): ٩٦، ومَنقور عبد الجليل في كتابِهِ (عِلمُ الدَّلالَة): ٨٣- ٨٤، والدُّكتور محمَّد أحمد خضير في كتابِهِ (التَّركيبُ والدَّلالةُ والسِّياقُ): ١٧، وغيرُهُم.

(٣) (المَعنَى اللُّغَويُّ. دِراسةٌ عَرَبيَّةٌ مُؤَصَّلَةٌ نَظريًّا وتطبيقيًّا) لِلدُّكتور محمَّد حسن حسن جبل : ١٥٣ .

(٤) يُنظر: (المَعنَى اللُّغَوِيُّ) لِلدُّكتور محمَّد حسن حسن جبل : ١٥٣ .

وفي كَلامِ الدُّكتور محمَّد حسن حسن جبل خَلْطٌ آخَرُ في فَهمِ طبيعَةِ المَعنَى في نظريَّةِ أوغدن ورتشاردز ؛ فالاقتصارُ في دراسةِ المَعنَى على الرَّمزِ والمَدلولِ الذي ظَنَّهُ مَذهَبًا لأوغدن ورتشاردز إنَّما يُمَثِّلُ التَّبسيطَ الذي اقتَرَحَهُ ستيفن أولمان لمُعطَياتِ نظريَّةِ الرَّجُلَيْنِ ، أمّا الاقتصارُ على المَدلولِ فقط فيُنسَبُ إلى الفيلسوفِ الإنجليزيِّ جون لوك[١].

ووَقَعَ الدُّكتور البدوي زهران في تخبُّطٍ أشَدَّ ؛ إذ قَرَّرَ أنَّ التَّصنيفَ الأقربَ لنظريّاتِ المعنَى هو أنَّها على ثَلاثةِ أقسامٍ ، أحدُها ما دَعاهُ النَّظريَّةَ الإشاريَّةَ التي يَرى بعضُ المنتمينَ إليها المعنَى بوَصفِه المُسَمَّى نَفسَهُ ، ويَرَى بعضٌ آخَرُ أنَّ مَعنَى الاسمِ من مُسَمّاهُ[٢] ، فهذا اضطرابٌ في الفَهمِ. ثُمَّ ذَكَرَ أنَّ للنَّظريَّةِ اسمًا آخَرَ هوَ النَّظريَّةُ الاسميَّةُ في المعنَى[٣]. وهي نَظريَّةُ التَّسميَةِ عندَ أفلاطونَ نَفسُها المذكورةُ آنفًا ، فهذا تَخليطٌ في المُصطَلَحِ[٤].

وإذا ما انتَقَلْنا إلى ما نَقَلَتْهُ مُصَنَّفاتُ الدَّلالةِ في العربيَّةِ من مُؤاخَذاتٍ ونُقودٍ اعتُرِضَ بها على نَظريَّةِ أوغدن ورتشاردز وَجَدْنا غيرَ قليلٍ من الاضطرابِ أيضًا في هذا المَجالِ ، مَرَدُّهُ إلى الاتِّكاءِ على ما ذُكِرَ في كتاباتِ اللسانيِّينَ الغربيِّينَ من مُؤاخَذاتٍ ساقَها بعضُ دَلاليِّي الغَربِ من غيرِ تَفريقٍ ، في كثيرٍ من الأحيانِ ، بينَ ما هوَ مُوَجَّهٌ في الأصلِ إلى مَذهَبٍ إحاليٍّ آخَرَ غيرِ نظريَّةِ أوغدن ورتشاردز وما سيقَ في الأصلِ لنَقدِها بعَينِها ، ومن غيرِ عَرضٍ دَقيقٍ ، في الغالبِ ، لوجهَةِ نَظَرِ صاحبَي النَّظريَّةِ في ما صَحَّ أنَّهُ مُوَجَّهٌ في الأصلِ إليهما. وقد سَبَقَ أيضًا أن نُوقِشَ المُهمُّ من كُلِّ ذلكَ في المَبحَثِ الثّاني ، فلا داعيَ إلى إعادَةِ القَولِ فيه وتَكرارِ الكَلامِ عليه[٥].

---

(١) يُنظر: (عِلمُ الدّلالَة) لِلدُّكتور أحمد مُختار عُمَر: ٥٧.

(٢) يُنظر: (مُحاضَراتٌ في عِلمِ اللغةِ العامّ) لِلدُّكتور البدوي زهران: ٢/ ٢١١..

(٣) نفسه: ٢/ ٢١١.

(٤) وَقَعَ في شَرَكِ هذا الخلطِ المُصطلَحيِّ أيضًا مَنقور عبد الجليل في كتابِهِ(عِلمُ الدّلالَة): ٨٣.

(٥) مِن دَواعي الإنصافِ ومُقتَضَياتِ العَدلِ أن أذكُرَ أنَّ بعضَ الباحِثِينَ العربِ كانَ بِمَنجاةٍ مِن مُعظَمِ ما ذُكِرَ مِن تَخليطٍ واضطِرابٍ، وإن كانَ لم يُوَفِّ نظريَّةَ أوغدن ورِتشاردز ما تستحقُّهُ=

نتائج البحث

بَعدَ هذه الجَولَة ، أوَدُّ أنْ أُثبتَ عددًا من النَّتائجِ التي توصَّلَ إليها البَحْثُ ، وهيَ:

١. عُرِفَ مُنذُ أقدَمِ العُصورِ أنَّ للدَّلالَةِ عُنصُرَيْنِ هُما: الدّالُّ والمَدلولُ ، وأنَّ ارتباطَهُما يُؤدِّي إلى حُصولِ الدَّلالَة. لكنَّ المُشكلَةَ الرَّئيسَةَ تَكمُنُ في تَحديد طبيعَةِ هذَيْنِ العُنصُرَيْنِ ، وطَبيعَةِ العَلاقَةِ بينَهُما. ومن أقدَمِ الاتِّجاهات في ذلكَ (مَذهَبُ التَّسْميَة **Naming**) ، الذي تَبَنّاهُ أفلاطونُ ، إذ عَدَّ الدّالَّ **signifier** كلمةً في اللغة ، والمَدلولَ **signified** شَيئًا موجودًا في العالَمِ تُمَثِّلُهُ الكَلمةُ أو تُحيلُ عليه أو تَدُلُّ عليه. فخَيْرُ وسيلَة للحصول على المَعنَى على هذا المَذهَبِ هيَ الإشارَةُ باليَدِ إلى الشَّيءِ الذي تُمَثِّلُهُ الكلمةُ.

٢. حَدَثَ بَعضُ التَّطوُّرِ في مَفهومِ الدَّلالة وعناصرِها في العُصورِ الوُسطَى ؛ فبَعدَ أن كانَتْ كِيانًا مُزدَوِجَ البِنيَة أصبَحَ يُنظَرُ إليها بوَصفِها كِيانًا ذا أبعاد ثَلاثَة ، إذ قَرَّرَ السكولاستيُّونَ أنَّ الكَلمَةَ تَدُلُّ على الشَّيءِ من طريقِ تَوَسُّطِ المَفاهيم.

٣. أعادَ سوسير الاعتبارَ إلى قُطبَي الدَّلالَة الدّالِّ والمَدلول ، فالعَلامَةُ الألسُنيَّةُ عندَهُ هيَ تَداعٍ لِصورَتَيْنِ ذهنيَّتَيْنِ ، وشَيءٌ سَمعيٌّ دالٌّ أو اسمٌ ، ومَفهومٌ مَدلولٌ أو مَعنًى.

٤. بَعدَ أن كانَتِ الدَّلالَةُ عندَ سوسير كِيانًا ذا مُكَوِّنَيْنِ هُما الفِكرةُ والصُّورةُ

=مِن العَرضِ والبَيانِ، لكنْ حَسْبُهُ أنَّ مُطالِعَ ما كَتَبَهُ، وإن لم يَخرُجْ بتَصوُّرٍ مُفَصَّلٍ عن النَّظريَّةِ لِوَجازَةِ العَرضِ الذي قَدَّمَهُ لَها، فإنَّهُ لا يَخرُجُ، في الجُملَةِ، مُضطَرِبَ البالِ ولا مَكدودَ الخاطِر. مِثالُ ذلكَ ما سَطَّرَهُ الدُّكتور فَوزي حَسَن الشّايب في كِتابِهِ (مُحاضَراتٌ في اللسانيّات): ٤٤٠- ٤٤٥.

الصَّوتيَّةُ أصبَحَتْ عندَ أوغدن وِرتشاردز كياناً ذا أبعاد ثلاثة؛ أوّلها الرَّمزُ symbol؛ وثانيها الفكرَةُ أو الإحالَةُ reference؛ وثالثُها المَرجعُ referent.

٥. شَدَّدَ أوغدن ورتشاردز على سَيرورةِ المَعنَى عندَ المُتَكَلِّمِ قبلَ السّامعِ بما لا يَدَعُ مَجالاً للشَّكِّ في اهتمامهما به، بخلاف ما أُوخذا به من إهماله؛ إذ قَرَّرَا أنَّ الكلمَةَ التي نَتكَلَّمُ بها مُسَبَّبَةٌ جُزئيًّا عن الفكرةِ التي نُنشئُها، وأنّا حينَ نَسمَعُ ما يُقالُ تُسَبِّبُ الكلماتُ لنا أمرَيْنِ، أحدُهما الفكرَةُ، والآخَرُ اتِّخاذُ مَوقفٍ مُشابه لفعلِ المَتَكَلِّمِ ومَوقفه، بحَسَبِ مُقتَضَيات الأحوال.

٦. تُفارِقُ الأدَواتُ أو الكلماتُ الوَظيفيَّةُ الكَلماتِ التّامَّةَ في نَقصِ دَلالتها المُعجَميَّة، وفي أنَّ مُهمَّتَها تأديَةُ مَعنًى وَظيفيٍّ في الكَلامِ لا مَعنًى مُعجَميٍّ، فلا وَجْهَ لمُؤاخَذَةِ أوغدن ورتشاردز بعدَمِ اشتمالِ نَظريَّتِهما الدَّلاليَّةِ على مُعالَجَةٍ لَها.

٧. نَجدُ في مُصَنَّفات الدَّلالةِ في العربيَّة غيرَ قليلٍ من الاضطرابِ في الاعتراضات على نَظريَّة أوغدن ورتشاردز. ومَرَدُّ ذلكَ إلى الاتِّكاء على ما وَرَدَ في كتابات اللسانيِّينَ الغربيِّينَ من مُؤاخَذات ساقَها بعضُ دَلاليِّي الغَربِ من غيرِ تَفريقٍ، في كثيرٍ من الأحيانِ، بينَ ما هوَ مُوَجَّهٌ في الأصلِ إلى مَذهَبٍ إحاليٍّ آخَرَ غيرِ نظريَّة أوغدن ورتشاردز وما سيقَ في الأصلِ لنَقدها بعَيْنها، ومن غيرِ عَرضٍ دَقيقٍ، في الغالبِ، لوِجهَةِ نَظَرِ صاحِبَي النَّظريَّةِ في ما صَحَّ أنَّهُ مُوَجَّهٌ في الأصلِ إليهما.

مَصَادِرُ البَحْث

أوَّلاً: المَصادِرُ العربيَّة:

- . التَّركيبُ والدَّلالةُ والسِّياق- دِراسةٌ نَظريَّة، الدُّكتور محمَّد أحمد خضير، مكتبة الأنجلو المصريَّة، القاهرة، د.ط، ٢٠١٠م.
- . دَوْرُ الكلمةِ في اللغة، ستيفِن أُولمان، ترجمة الدُّكتور كمال بشر، دار غريب، القاهرة، الطَّبعة الثانية عشرة، د.ت.
- . عِلمُ الدَّلالَة، بيار غيرو، ترجمة أنطوان أبو زيد، منشورات عويدات، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٩٨٦م.
- . عِلمُ الدَّلالَة، كلود جرمان وريمون لوبلون، ترجمة الدُّكتورة نور الهُدى لوشن، المكتب الجامعيّ الحديث، الإسكندريّة، الطَّبعة الرابعة، ٢٠١١م.
- . عِلمُ الدَّلالَة، الدُّكتور أحمد مُختار عُمَر، مكتبة دار العروبة، الكويت، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- . عِلمُ الدَّلالَة- أصولُهُ ومَباحِثُهُ في التُّراثِ العربيّ، مَنقور عبد الجليل، اتِّحاد الكُتّاب العرب، دمشق، د.ط، ٢٠٠١م.
- . عِلمُ الدَّلالَة- إطارٌ جَديد، ف. ر. بالمر، ترجمة الدُّكتور صبري إبراهيم، دار المعرفة الجامعيَّة، الإسكندريَّة، د.ط، ١٩٩٥م.
- . عِلمُ اللغةِ العامّ، فردينان دي سوسور، ترجمة الدُّكتور يوئيل يوسف عزيز، منشورات جامعة الموصل، العراق، د.ط، ١٩٨٨م.
- . في فلسفةِ اللغة، الدُّكتور محمود فهمي زيدان، دار النَّهضة العربيَّة، بيروت، د.ط، د.ت.
- . اللغةُ وعِلمُ اللغة، جون لِيونز، ترجمة الدُّكتور مصطفى زكي حسن التوني، دار النَّهضة العربيَّة، القاهرة، الطَّبعة الأولى، د.ت.
- . اللغةُ والمعنَى ومَعنَى الكَلِمَة: عِلم الدَّلالَة، د. آ. كروز- في ضِمنِ كتاب (الموسوعة اللغويَّة) لِلدُّكتور ن. ي. كولنج، ترجمة الدُّكتور محيي الدِّين حميدي والدُّكتور عبد الله الحميدان، منشورات جامعة الملك سعود، الرِّياض، د.ط، ١٤٢١هـ.

- . مُحاضَراتٌ في عِلمِ اللغةِ العامّ، الدُّكتور البدوي زهران، دار العالم العربيّ، القاهرة، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- . مُحاضَراتٌ في اللِسانِيّاتِ، الدُّكتور حسن فوزي الشّايب، منشورات وزارة الثَّقافة الأردنيَّة، الطَّبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- . مَدخَلٌ إلى عِلمِ الدَّلالَة، فرانك بالَمر، ترجمة الدُّكتور خالد محمود جُمعَة، مكتبة دار العروبة، الكويت، الطَّبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- . المَعنَى اللُغَوِيُّ- دِراسةٌ عَرَبِيَّةٌ مُؤَصَّلَةٌ نَظريًا وتطبيقيًّا، الدُّكتور محمَّد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، القاهرة، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- . مُوجَزُ تاريخِ عِلمِ اللغةِ في الغَرب، ر. هـ. روبنز، ترجمة الدُّكتور أحمد عوض، منشورات عالم المعرفة- المجلس الوطنيّ للثَّقافة والفنون والآداب، الكويت، د.ط، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

ثانِيًا: المَصادِرُ الأَجنَبِيَّة:

1. Linguistics Simplified-Semantics، Damodar Thakur، Bharati Bhawan.
2. Semantics، John Lyons، Vol. I.، Cambridge University Press، 1977.
3. Semantics-A New Outline، F. R. Palmer، Cambridge University Press، 1977.
4. Semantics-An introduction to the Science of Meaning، Stephen Ullmann، Oxford Basil Blackwell، 1977.
5. The Meaning of Meaning، C. K. Ogden and I. A. Richards، Harvest HBJ Book، 1989.
6. The Principles of Semantics، Stephen Ullmann، Basil Blackwell، 1957.

البنيوية التكوينية في التلقي العربي
بين النظرية والتطبيق

د. حيدر فاضل عباس
كلية الاداب – جامعة بغداد

ملخص البحث

يتضح من أغلب الدراسات النقدية التي استهدت أو حاولت الاستهداء بالمنهج البنيوي التكويني أنها فارقت المسارات النقدية للمنهج ويعود السبب الأول في ذلك إلى القراءة الخاطئة للمنهج إما بسبب قصور ذاتي في فهم نصوص المنهج وتفسيرها ومن ثم توظيفها المضطرب وإما بسبب قصور في الترجمة نفسها وفي مشكلاتها الكثيرة. أما السبب الثاني فيعود إلى تعمد التفسير الخاطئ لنصوص المنهج بسبب المتبنيات الايديولوجية للناقد. وأما السبب الثالث فيعود إلى عدم اطلاع كثير من النقاد على المهادات الفلسفية للمنهج واقتصارهم على معرفة أدواته الإجرائية حسب ، وهو ما أفقر دراساتهم النقدية كثيراً ، ذلك أن الأدوات الإجرائية لا تمثل إلاّ الجانب المرئي من المنهج ، أما الجانب غير المرئي الذي يضبط الجانب المرئي منه ويوجه مساراته المعرفية فهو المهادات الفلسفية التي انبثق منها والبيئة الثقافية في إطارها التاريخي التي تولد منها.

المقدمة:

المناهج النقدية على تنوعها وتباينها لا تخرج عن قسمين رئيسين: تمثل أولهما المناهج السياقية التي تهتم بالسياقات المحيطة بالنص أكثر من النص نفسه، وتمثل ثانيهما المناهج النصية التي اقتصرت في مقاربتها للنص على بنياته اللغوية. وقد تطرفت مناهج كلا القسمين. فأما المناهج السياقية فقد بدت وكأنها تؤسس ذاكرة لنسيان الإبداع ذاته، وفي مقابل ذلك تطرفت المناهج النصية أيضاً إلى درجة بات معها الأدب، الذي امتدت لساحته فروع المعرفة المتنوعة أشبه، في ظلها، بأجنحة الطائر المحنط، لذا ظل اقتراب المناهج من حقيقة الإبداع اقتراباً بعيداً. فهل كان النجاح الذي حققته المناهج في تعاطيها مع الإبداع مصحوباً بإخفاق أكبر منه ؟! هل تمثل ثنائية الإبداع والنقد الممنهج أزمة متجددة ما برحت تلقي بظلالها القاتمة على الدراسات الأدبية.

إن المتتبع لمجمل ما حققته البنيوية في النقد الأدبي لا بد أن يلحظ أن شيئاً ما قد حدث في العلاقة بين النص والسياق أثّر في طبيعة النظرة للأدب ومهمته وأغراضه، سواء أكانت جمالية أم فكرية. بيد أن البداية المغلقة التي انطلقت منها البنيوية سرعان ما وضعتها في مأزق حرج، الأمر الذي قد يصح معه القول إن البنيوية التكوينية ربما جاءت لتصحيح المسار من خلال تأكيد الحضور المتزامن للنص والسياق، ولاسيما بعد أن عملت البنيوية التكوينية على إستثمار ما تلقته من البنيوية من جهة، وما أفادته من سوسيولوجية الأدب من جهة أخرى.

وقد ارتأيت أن أجعل بحثي هذا في ثلاثة مباحث أولها عرض تأريخي لتلقي المنهج في البيئة العربية، وثانيها أثر الترجمة في تلقي المنهج، وثالثها مفارقة التطبيق للنظرية.

ولا تزعم هذه الدراسة الإحاطة بكل شيء تصدَّت له. فالمعرفة في كل مجالاتها سلسلة مفتوحة ومستمرة، لا تدعي لنفسها الكمال، ففي ذلك نهايتها.

عرض تاريخي لتلقي المنهج في البيئة العربية

في البدء لا بد من الإشارة إلى أن الناقد المصري محمود أمين العالم كان يروج للفكر الماركسي منذ وقت مبكر جداً ، سابقاً المغرب العربي في الاتصال بالنقد الماركسي. وعلى الرغم من ذلك ظهرت البنيوية التكوينية في المغرب العربي قبل مشرقه ؛ ويعود هذا إلى أن العالم كان يستقبل أفكاراً ماركسية عامة ويروج لها بعد تبنيها ، فعلاقته بالفكر أكبر منها بالمنهج. إن هذا المنحى المعرفي في دراسته جعلها أقرب إلى الحديث الثقافي منها إلى البحث العلمي المتمثل في منهج معين. فكل ما وصل إليه هو بلورة اتجاه عام للنقد الاجتماعي ، في ضوء الفكر الماركسي ، وليس منهجاً خاصاً ، يتموضع في آليات نقدية واضحة ودقيقة.

فدراسات العالم النقدية يغلب عليها الاهتمام بالمضمون الاجتماعي القريب ، والتأويل المباشر للوقائع الاجتماعية والآثار الأدبية ، مع التضحية ، غالباً ، بتحليل النصوص الادبية تحليلاً جمالياً ، يراعي خصوصية الظاهرة الأدبية ، فقد ((نال تحليل مضمون الأثر معظم دراساته. وكان يرجو على الدوام أن يضع هذا المفهوم في صيغ عامة ، لكنه لم يبين لنا في دراساته كيف تنشأ هذه الصلة بين الأثر والمجتمع ، وكيف يؤثر هذا الأخير على العناصر المكونة للأثر))[1]. وبذلك تدفع دراساته الأدب نحو مفهوم الوثيقة أكثر من دفعه نحو مفهوم الأدب ذاته ؛ ذلك أن الاتجاه الأيديولوجي عنده هو المسيطر والغالب على تفكيره النقدي. ولذلك نراه عندما يتحدث عن منهج

---

(١) قضايا النقد الأدبي المعاصر، د. سمير حجازي: ٦١- ٦٢.

غولدمان يطلق عليه اسم((مدرسة النقد الاجتماعي))[1] ، ومعلوم أن زوايا الرؤيا وأبعاد النظرة الاجتماعية للنص الأدبي تتنوع بين نقاد هذا المنهج ويتفاوت مدى احتفائهم بالجانب الفني الخالص منه ولكنهم جميعاً يمثلون تياراً اجتماعياً في تذوق الأدب وتفسيره وتقويمه ، وهذا لا يقلل من منجز العالم ، فقد((ظهر الاتجاه الاجتماعي في النقد الأدبي ، متمثلاً في الكتاب الذي طرحه المفكران محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس(في الثقافة المصرية) الذي بشرا فيه بالأدب الملتحم بقضايا الواقع والمجتمع ، الساعي نحو المعرفة والاكتشاف))[2].

بعد ذلك واصل محمود أمين العالم نشاطه النقدي في هذا الاتجاه فكتب سلسلة مقالات نقدية حول المنهج الاجتماعي الجديد ونشرها في صحف ومجلات متنوعة. يقول الدكتور جابر عصفور في هذا الصدد: ((ومن الجدير بالذكر أن مقالة العالم عن (الأدب وقوانين السوق) ، التي نشرها في هذه السلسلة (أوائل نوفمبر ١٩٦٦) كانت تقديماً موجزاً للمدرسة الاجتماعية الجديدة لدراسة الأدب في فرنسا من خلال مدرسة غولدمان التي عرضت المقالة لبعض أفكارها عن رؤية العالم ، خصوصاً الأفكار التي تشير إلى كتابي(الإله الخفي) و(من أجل علم اجتماع للرواية).))[3].

ومن هنا يمكن عد دراسات العالم بدايات صامتة وهمساً خجولاً لطروحات هذا المنهج الذي سيزدهر في البلاد العربية ويثمر في مغربها قبل مشرقها بفعل العوامل التاريخية والاجتماعية الموضوعية. ولذلك جاءت دراساته إشارات تلميحية لمنهج غولدمان أكثر منها ممارسة نقدية وربما كان العالم واعياً لحقيقة عمله عندما جمع مقالاته وأصدرها في كتاب تحت عنوان((البحث عن أوربا)).

وبعد ما قدمه محمود امين العالم ، جاءت كتابات السيد ياسين في المسار نفسه ، لتتضافر مع جهود العالم في تعريف العالم العربي بالفكر الماركسي وتياراته الفلسفية

---

(١) ينظر : البحث عن أوربا، محمود أمين العالم: ١٠٧.

(٢) اتجاهات الأدب والثقافة في مصر في القرن العشرين، د.صلاح السروي، مجلة(أدب ونقد)، ع ٣٠٦، فبراير، ٢٠١١: ١٢.

(٣) نظريات معاصرة، د. جابر عصفور: ١٠٤.

ومناهجه الجدلية في معالمها الرئيسة. فقد كتب السيد ياسين عشر مقالات في مجال علم اجتماع الأدب ونشرها في غير مجلة وفي مدد زمنية متباينة ثم جمعها في كتاب عنوانه (التحليل الاجتماعي للأدب)(١) وقدمه بمقدمة سوغ بها جمع هذه المقالات بقوله: إنها((تمثل في الواقع مشروعاً متكاملاً ، الهدف منه رسم المعالم الأساسية لعلم الاجتماع الأدبي))(٢) ، لقد اشتمل هذا الكتاب على فصل تطبيقي لرواية (العيب) ليوسف إدريس نال منه الدكتور عبد الرحمن بوعلي بقوله: ((لا نعتقد أن السيد ياسين قد استطاع أن يطبق ، في الفصل الثامن من كتابه ، المنهج السوسيولوجي في تحليله لرواية يوسف إدريس(العيب). وما فعله في هذا الفصل لا يختلف عما ألفناه في النقد الاجتماعي))(٣). غير أن الدكتور عبد الرحمن بوعلي لم يقتنع بما ذكره السيد ياسين عن طبيعة دراسته حين قال: ((إن العرض السابق ليس سوى محاولة سريعة لتحليل رواية(العيب) تحليلاً سوسيولوجياً ، ولا يتسع المقام هنا لكي نتعقب كل ما تثيره الرواية من فروض علمية))(٤) ، لذلك نرى بوعلي ينكر على السيد ياسين تسويغه المذكور آنفاً بقوله: ((هل السرعة هي المبرر الوحيد لفشل السيد ياسين في تطبيق المنهج السوسيولوجي على رواية (العيب)؟ ألم يجد السيد ياسين من خيار أمامه إلا هذا المبرر؟ وما الداعي إلى طبع الكتاب طبعة ثانية مع أن السيد ياسين يعرف قصور محاولته ؟))(٥). وفي هذا تجاهل أيضاً لما ذكره السيد ياسين في المقدمة عن طبيعة دراسته ومدى طموحه بقوله: ((وإذا كانت القاعدة الأساسية في البحث العلمي أن المسح ينبغي أن يسبق التعمق ، فإن هذا الكتاب لا يطمح إلى أكثر من مسح الميدان وتخطيط الإطار النظري للموضوع ، تمهيداً للقيام بدراسات متعمقة في

---

(١) ينظر التحليل الاجتماعي للأدب، السيد ياسين: ٦.

(٢) المصدر نفسه: ٦.

(٣) في نقد المناهج المعاصرة- البنيوية التكوينية، د.عبد الرحمن بوعلي: ٢٧.

(٤) التحليل الاجتماعي للأدب، السيد ياسين: ١٢٨.

(٥) في نقد المناهج المعاصرة- البنيوية التكوينية، د. عبد الرحمن بوعلي: ٢٧.

مختلف جوانبه))[1] ، فهو لم يعد في كتابه هذا بتقديم المنهج السوسيولوجيا تقديماً علمياً تستوفى فيه مستوياته المعرفية وأدواته الإجرائية. زد على ذلك أن الدكتور عبد الرحمن بوعلي لم يراع الفارق الزمني بين صدور كتاب السيد ياسين ونقده له إذ يفصل بينهما نحو ربع قرن من الزمن ، وطبيعة دراسات النشأة في أي حقل معرفي غالباً ما يشوبها النقص إذ((يعد السيد ياسين أول من استخدم منهج الدراسات السوسيولوجية في الموضوعات الأدبية ، إذ عاش في فرنسا في الستينات ، إبان قيام معركة نقدية طرحت خلالها مشكلة علاقة النقد الأدبي بالعلوم الاجتماعية. ورغم أن كتابه(التحليل الاجتماعي للأدب)نشر للمرة الاولى عام ١٩٧٠ ، فإنه كان قد عمق معرفته النظرية لدراساته التطبيقية على الرواية المصرية في السنوات التالية ، حتى يمكن أن يقال إن هذا الكتاب كان أول ما نشر في هذا الصدد))[2].

يقول الدكتور بوعلي: ((إن كتاب (التحليل الاجتماعي للأدب) إن كان يعبر عن شيء فإنما يعبر عن محدودية في الفكر ، وانتفاخ في الذات))[3] ، وهذا الأسلوب الهجومي لا ينسجم مع روح النقد وطبيعته المعرفية الرامية إلى الحوار الموضوعي الرصين ، من أجل إغناء الذات والاخر ، ثقافياً وإنسانياً.

إن مأخذي على السيد ياسين مبالغته الكبيرة بأهمية المنهج السوسيولوجي من جهة ، والحط من شأن سائر المناهج النقدية من جهة أخرى ، مع اعتقادي بأهمية المنهج السوسيولوجي البالغة في الدراسات النقدية قديمها وحديثها. فقد طرح السيد ياسين تساؤلاً نصه((هل يمكن أن ندرس الأدب المصري ، وما يحفل به من ظواهر متعددة في مجالات الشعر والقصة القصيرة والرواية والنقد الأدبي ، بغير أن نستعين بالتحليل الاجتماعي؟))[4] ، ثم اجاب عن ذلك جازماً بقوله: ((إن ذلك مستحيل))[5].

---

(١) التحليل الاجتماعي للأدب، السيد ياسين: ٦.

(٢) اتجاهات النقد الروائي المعاصر، د. مصطفى عبد الغني، ١/ ٧٩.

(٣) في نقد المناهج المعاصرة- البنيوية التكوينية، د. عبد الرحمن بوعلي: ٢٦.

(٤) التحليل الاجتماعي للادب، السيد ياسين: ١٦٦.

(٥) المصدر نفسه : ١٦٦.

ويبدو أن السيد ياسين كان هنا تحت تأثير الهيمنة الفكرية للعلوم الاجتماعية في ذلك الوقت ، وما حققته من نتائج علمية باهرة جذبت إليها أنظار الدارسين والباحثين في العلوم الانسانية المختلفة ، ومنها الأدب ومناهجه ، لذلك نراه يؤكد بقوة أهمية المنهج السوسيولوجي مرة أخرى بقوله: ((وبغير هذا المنهج لا يمكن للباحثين أن يصلوا إلى نتائج سليمة في بحثهم للمشكلات المختلفة التي تعرض لهم))[١]. بعد ذلك يستمر السيد ياسين في تأكيد أهمية المنهج السوسيولوجي الذي يراه فاعلاً ومنتجاً عند تلاقح مستوياته الثلاثة ، فيقول: ((وخلاصة ما نريد أن نؤكد عليه ، أنه بغير اتباع منهج التحليل الاجتماعي ، لن يتاح لنا أن نفهم مختلف الظواهر الأدبية التي يحفل بها تأريخ الأدب المصري المعاصر. ونستطيع بهذا الصدد أن نعتمد على الإطار المثلث الجوانب الذي يرى عدد من الباحثين صلاحيته كإطار مرجعي للدراسة الاجتماعية للأدب وهو مكون من ثلاثة مجالات: دراسة المؤلف ، ودراسة الأعمال الأدبية ، ودراسة الجمهور))[٢].

ومن المحطات النقدية التي استقطبت اهتمام النقاد ولفتت الانظار بشدة إليها دراسته الناقدة يمنى العيد التي عنوانها(في معرفة النص – دراسات في النقد الأدبي) والتي أعلنت في مقدمتها بحذر أنها تبنت منهج البنيوية التكوينية في هذه الدراسة. فبعد أن تعرض تأريخ هذا المنهج بإيجاز شديد تقول: ((إني اخترت العمل على النص انطلاقاً من هذا التيار في خطوطه العريضة ، واستناداً إلى الفكر الماركسي في مفهومه للعلاقة بين البنية التحتية وبين البنية الفوقية ، التي يتميز عليها الأدب ، لا لينعزل ، بل ليستقل ، وليبقى في استقلاله قولاً لما هو حاضر فيه))[٣] ، ثم تؤكد التزامها بمنهج غولدمان حين تضيف القول: ((ليس النص داخلاً معزولاً عن خارج هو مرجعه(الخارج) هو حضور في النص ينهض به عالماً مستقلاً))[٤]. ولا تنفك تشدد

---

(١) التحليل الاجتماعي للأدب، السيد ياسين: ١٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ١٧٠.

(٣) في معرفة النص- دراسات في النقد الأدبي، د. يمنى العيد: ١٢.

(٤) المصدر نفسه: ١٢.

بعد ذلك على العلاقة الجدلية بين داخل النص وخارجه على امتداد صفحات دراستها فتقول: ((إن النص الأدبي ، على تميّزه واستقلاله ، يتكون أو ينهض وينبني في مجال ثقافي هو نفسه- أي هذا المجال الثقافي- موجود في مجال اجتماعي ، وإن ما هو داخل في النص الأدبي ، هو وفي معنى من معانيه(خارج) ، كما أن ما هو (خارج) هو أيضاً ، وفي معنى من معانيه داخل))[1].

وبعد ذلك تؤكد يمنى العيد أهمية منهج البنيوية التكوينية في دراسة النصوص الإبداعية وقدرته الفائقة على احتواء النص والواقع الذي يمتد فيه ويمتزج في نسيجه اللغوي بعد أن يولّد انساقه البنيوية ، مقابل عدم قدرة منهج البنيوية على ذلك ، فتقول: ((النص أو النصوص الأدبية التي يمكننا أن ننظر فيها في استقلالها ، كبنية ، هي ومن حيث وجودها في المجتمع ، عنصر في بنية هذا المجتمع. وإذا كان المنهج البنيوي لا يمكنه أن ينظر ، بحكم عامل العزل ، إلى هذه الصفة المزدوجة لموضوعه ، أي إلى كونه بنية وفي الوقت نفسه عنصراً في بنية ، فإنه ، أي المنهج البنيوي ، يتحدد كمنهج يقتصر على دراسة العنصر ، كمنهج غير قادر على إقامة الجدل بين الداخل و(الخارج) ، أو بتعبير جدلي ، على رؤية(الخارج) في هذا الداخل. إن إقامة مثل هذه العلاقة أو النظر بمثل هذه الرؤية هو نظر الفكر الماركسي كفكر جدلي تاريخي))[2]. ثم تؤكد بعد ذلك أهمية الأخذ بالمفهوم التطوري للتاريخ في دراسة النصوص الأدبية ، واستحالة عزل البنية عن إطارها الاجتماعي والتاريخي ، مهاجمة المنظور الاختزالي للمنهج البنيوي الذي ينظر للبنية بمعزل عن محيطها المنتج لها. تقول : ((غير أن الوهم الذي ولدته البنيوية يحمل تناقضه الذي ارتد ضدها. فالنشاط المعرفي ، إذ يخولنا إمكانية الكشف عن عناصر البنية في هويتها المنتظمة ، إنما يخولنا إياها بحكم مرور الزمن ، الذي أوصل البنية إلى هذه الهوية ، وبالتالي بحكم علاقات البنية التي تنهض بحركة هذا الزمن. فكيف نسقط هذه الحركة التأريخية للزمنٍ ، التي لا تصل البنية إلى

---

(١) في معرفة النص . دراسات في النقد الأدبي، د. يمنى العيد: ٣٨.

(٢) نفسه: ٣٨.

انتظامها إلا بها؟))[1].

وتستمر يمنى العيد في بسط المهادات الفلسفية والمعرفية لمنهج البنيوية التكوينية ، واستحضار أهم مفاهيمه الأساسية ، فتذكر مفهوم الفاعل الجماعي (الفاعل الاجتماعي التاريخي). فتقول: ((والنص الذي يقوله الكاتب ، هل يقوله كفرد معزول أو كفرد يتكون في موقع اجتماعي ويقول ما يقوله بلغة الجماعة وربما بلغة جماعته أو فئته الاجتماعية؟))[2] ، وتقرر أهمية القراءة السياسية وعدم إمكانية عزلها عن النص المقروء. فالهم الاجتماعي ذو وجه سياسي. فنحن((نتنكر للايدولوجيا ونحن ندافع عن مواقع منها))[3].

يتضح من نصوص يمنى العيد المذكرة آنفاً وغيرها أنها لا تتبنى منهج البنيوية التكوينية – نظرياً في الأقل- انطلاقاً من خطوطه العريضة ، كما زعمت ، بل تؤكد على أهميته في دراسة النص الإبداعي وقدرته في الكشف عن بنياته الدالة وعدم كفاية المنهج البنيوي لقراءتها فهل نجحت الناقدة في تبني هذا المنهج أو مقاربته كما تزعم في دراستها هذه؟.

توزّعت دراسة يمنى العيد بين أجناس أدبية متباينة. فقد تنقلت بين الشعر والرسالة والرواية ، ويعود هذا إلى طبيعة الكتاب التجميعية. ولو أنها اقتصرت على نصوص تنتمي إلى جنس أدبي معين لكان أفضل لدراستها ، بل ربما كان الأجدى أن تتناول بالدراسة نصوصاً تعود لمبدع واحد أو لمبدعين عدة ينتمون إلى حقبة تاريخية واحدة ؛ لتأتي دراستها أعمق وأنضج ، ذلك أن المنهج البنيوي التكويني الذي تبنته يتطلب ذلك.

وأفصحت الناقدة عن رغبتها في أن تزاوج بين منهجها الاجتماعي الأثير لديها والمنهج البنيوي ، فلم تثمر هذه المحاولة منهجاً بنيوياً تكوينياً ، بل أنتجت – ولاسيما

---

(١) في معرفة النص . دراسات في النقد الأدبي، د. يمنى العيد: ٥٩- ٦٠.

(٢) المصدر نفسه : ٣٨- ٣٩.

(٣) المصدر نفسه: ٥٨.

عند التطبيق- انفصالاً حاداً بين المنهجين. ولعل الاستنتاجات التي أوردتها بشأن رواية الطيب صالح(موسم الهجرة إلى الشمال) ، بعد أن قامت بعرض مضمون الرواية مثال واضح على الانفصال الحاد بين المنهجين. لذلك أخالف الناقد محمد عزّام في موازنته بين دراسة العيد للنص الشعري ودراستها النص السردي ، التي قال فيها: ((وكأنما هي تفلح في تحليل الحقل السردي أكثر منها في تحليل الحقل الشعري))[1] ؛ إذ أرى أن يمنى العيد لم تفلح في تحليل النص السردي في دراستها هذه في إطار منهج البنيوية التكوينية ، وإنما نجحت في عرض مضامين النصوص السردية ، وهذا لم يتضح كثيراً عند تناولها النصوص الشعرية ، ويعود هذا إلى طبيعة النص الشعري واختلافه عن النص السردي ، لا إلى تفوق يمنى العيد في دراسة النص السردي كما ذهب إلى ذلك الناقد محمد عزّام. وفي الوقت الذي لا أتفق فيه مع الناقد محمد عزّام في قوله السابق ، أميل إلى تأييد الدكتور سيد البحراوي حين يقول: ((لقد كان واضحاً أن يمنى العيد قد استفادت إلى حد كبير من مقولات باختين أساساً على المستوى النظري ، غير أن التأمل في دراساتها التطبيقية يكشف التردد الواضح بين أكثر من منهج ، وعدم القدرة على تحقيق التلاحم العميق بين النصي والاجتماعي))[2].

ومن الغريب أن يمنى العيد أهملت ذكر(الراوي)المهم في بنية أي رواية ، ولاسيما الرواية الواقعية التي تنتمي إليها روايات دراستها. ومثال على ذلك رسومها التوضيحية التي أوردتها لبيان هيكلية بنية رواية(موسم الهجرة إلى الشمال)[3]. وأرى أن هذه الرسوم التوضيحية والمعادلات الرياضية التي انتشرت في دراستها زادتها إبهاماً وتعقيداً إلى درجة أننا نشعر معها بأننا أمام نصوص من الطلاسم يستعصي على قارئها حلّ شفراتها ، ولاسيما أن الناقدة لم تمهد لرسومها بالشرح أو تردفها بالتعليق.

---

(١) تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، محمد عزّام: ٢٩١.

(٢) علم اجتماع الأدب، د. سيد البحراوي: ٥٨.

(٣) ينظر: في معرفة النص، د. يمنى العيد: ٢٦٠- ٢٦١.

ومما يلفت الانتباه قول يمنى العيد: ((تتعدد القصص في(موسم الهجرة إلى الشمال) كما يتعدد الرواة... إن مسألة تعدد الرواة والقصص نقطة لن نتعرض لها في هذه الدراسة وأن كانت جديرة بالتوقف والاهتمام))[1] ،ولا أعرف سبباً نقدياً وجيهاً لتركها التفصيل في مسألة تعدد الرواة ، وهي التي تبنت - نظرياً في الأقل- منهج البنيوية التكوينية ، وقاربت كثيراً منهج باختين. وكلا المنهجين يهتم كثيراً ويولي تعدد الرواة عناية فائقة ؛ لأنها ليست مسألة شكلية أو تقنية فحسب ، وإنما يعكس تعدد الرواة – في الغالب- تعدد الأيديولوجيات وصراعها. لذلك كان حرّياً بيمنى العيد أن تتوقف ملياً عند مسألة تعدد الرواة ، لتعزز حضور المنهج الذي تبنته دراستها.

ومما استوقفني أيضاً في دراسة يمنى العيد قولها: ((إننا نرى أن هذا التماسك بين مختلف عناصر القصيدة ، أو العمل الأدبي ، يظهر أكثر ما يظهر في الأعمال المتميزة ، في الأعمال الكبيرة التي يملك أصحابها القدرات الفنية على قول ما هو أساسي في عصرهم))[2] ،ومن الغريب حقاً أن تنسب يمنى العيد هذا الاستنتاج إلى نفسها!. أغاب عنها أشهر مفاهيم غولدمان ومحور منهجه(رؤية العالم) أم أنها أغفلت ذكره؟!

وغريب أن تأتي دراسة يمنى العيد في قسميها التنظيري والتطبيقي ، خلواً من ذكر أي مصدر من مصادر البنيوية التكوينية ، فضلاً عن المصادر الأخرى ، مع أنها تبنت منهج غولدمان ، تقول: ((الرواية كعمل أدبي قادر على قراءة الواقع الاجتماعي في تاريخيته قراءة تخلق عالمه المتخيَّل وتخصصه))[3]. إن قول يمنى العيد هذا مخالف لمنهج البنيوية التكوينية ، ذلك أن لوسيان غولدمان يرى أن التاريخ يشرح البنية ويفسرها وليس العكس.

ولم يقتصر جهد يمنى العيد النقدي على دراستها المذكورة آنفاً ، وإنما شفع بجهود أخرى ، منها(الراوي: الموقع والشكل- بحث في السرد الروائي).

---

(١) ينظر: في معرفة النص، د. يمنى العيد: هامش ٢٢٨.

(٢) المصدر نفسه: هامش ١٥٧.

(٣) المصدر نفسه: ٢٦١.

لم تكشف يمنى العيد في مقدمة كتابها هذا – كما هو متعارف عليه- عن المنهج الذي أرادته إطاراً لعملها النقدي ، بل تركت ذلك للمتلقي قائلةً: ((قمت ببحثي اعتماداً على منطلقات نظرية ، لا يصعب على القارئ المعني بمعرفتها ، كشفها في هذه المحاولة التي أقدم. علّه يحاول!))[١] وكأنَّ العيد تتهرب من تعيين المنهج الذي ارتضته لدراستها! ولكن عند العودة إلى متن دراستها يتضح أنها ترتكز كثيراً- في التنظير - على منهج لوسيان غولدمان ، البنيوي التكويني ، وهذا يتضح جلياً في أكثر من موضع. تقول: ((مع صدق التجربة والقول ، يقول الأديب ، أحياناً ، ما ليس يريد الكاتب قول يخون التعامل الفني مع العالم موقعاً كان يقصده الكاتب يغير اتساع زاوية النظر موقعاً كان الأديب يريد النهوض منه ، وقد يجد الكاتب نفسه يقول ، حين يرى من موقع شخصية ما من عالم شخصياته ، نقيض ما كان يودّ قوله))[٢]. من الواضح جداً أن مضمون كلامها هذا هو للوسيان غولدمان ، بل إنه من مرتكزات البنيوية التكوينية الرئيسة. فقد بنى غولدمان منهجه النقدي على تجاهل(قصدية المؤلف). وقد ذكرنا آراءه في هذا الشأن وفصلنا القول فيها ، في المبحث الثاني من الفصل الأول. ومن الغريب أنها لم تشر إلى غولدمان وإلى منهجه لا في هذا الموضع ولا في غيره ، بل خلت دراستها من ذكر أي مصدر لغولدمان أو لمنهجه البنيوي التكويني. وفي موضع آخر تقول: ((إذا كان اختزال مساحة الكلام باتجاه العودة به إلى حدود الموقع هو احياناً وقوع النص السردي في لا فنيته ، أي هو تعسّفه ، وتسخيره ، ولا حقيقته الاجتماعية ، فإن المبالغة في هذه الفنية بغية إسقاط موقع الكلام ، أو تغييبه ، هي ، أحياناً أخرى ، وقوع النص في الشكلية ، أي ، في عبثية الكلام ولا قوله))[٣] ،وفي هذا تحاكي يمنى العيد مفهوم(الفهم) و(التفسير) الذي جاءت به البنيوية التكوينية ، والذي يعد من مفاهيمها الرئيسة ، ومنطلقها الأول نحو فهم الأعمال الأدبية وتفسيرها.

---

(١) الراوي: الموقع والشكل- بحث في السرد الروائي: يمنى العيد، المقدمة: ١١.

(٢) المصدر نفسه: ٣٣.

(٣) المصدر نفسه: ١٧٩.

وعرضت يمنى العيد للعلاقة بين الكتابة والتحولات الاجتماعية لتخلص إلى ((الاعتقاد باستحالة النظر إلى الكتابة ، بل وحتى إلى أي نشاط آخر ، خارج التحولات الاجتماعية))[1]. ولكنها تعود لتنقض ما توصلت إليه حين تتناول بالنقد والتحليل بنية قصة(رائحة الصابون) للقاص إلياس خوري[2] ، إذ تقول: ((تتسق معظم عناصر البنية ، كما أظهرنا ، بالعلاقات في ما بينها. يولّد هنا الاتساق نوعاً من المرجعية الداخلية تكفل الاستغناء عن المرجعية الخارجية (الواقع الذي يعيشه القارئ أو يراه والذي يمكن للنص أن يحيل عليه) ، فتحيل الدلالات بعضها على البعض الآخر ، وتلتقي في قول لها))[3].

وعادت يمنى العيد في هذا الكتاب إلى دراسة رواية الطيب صالح(موسم الهجرة إلى الشمال) التي سبق لها أن تناولتها بالنقد في كتابها(في معرفة النص) ، ولكن هذه المرة من منطلق آخر هو موقع الراوي لا البطل ، وموقع البطل لا الراوي. تحت عنوان (بنية الموقعين في موسم الهجرة إلى الشمال). وكنا نأمل أن نلحظ تطوراً في منهجها النقدي ، ولكن الدراسة بقيت تعاني من انفصال حاد بين المنهجين الاجتماعي والبنيوي كمحاولتها السابقة في كتابها(في معرفة النص) ، وهذا واضح من طريقة دراستها وأسلوبها. فعندما أرادت أن تظهر الخلاف الواضح بين نظرة كل من البطلين لا الراويين إلى الآخر/الغرب قامت بسرد سلوك هذين البطلين عند عودتهما من الغرب تجاه بلدهما وبيان الفرق بينهما ، من دون أن تربط ذلك بدوافع خارجية معينة. لتخلص في النهاية إلى عزل النص الروائي عن مرجعه الواقعي قائلةً: ((أنّ تكون القراءة كالقول الروائي ، نقدية ، لا يعني تماهياً بينهما ، بل يعني نهوض العلاقة بين القراءة والمقروء(المكتوب) على مستوى العمل الفني نفسه ، وليس بينهما كموقعين ؛ واحد في الكتابة وآخر في القراءة ، مما يتيح للأدبي إمكانية(التنزه) عن الأيديولوجي ،

---

(١) الراوي: الموقع والشكل- بحث في السرد الروائي: يمنى العيد: ٣٨.

(٢) تطرقت في هذا الموضع وموضع آخر يأتي لاحقاً إلى نقد القصة لمجيئه في ضمن النتاج النقدي الروائي المدروس.

(٣) الراوي: الموقع والشكل، يمنى العيد: ١٠٣.

ليبقى قصراً على اتهام القراءة به حين تكون نقدية تطول الأيديولوجي في الأدبي))[1].

وبذلك يبقى المنهجان السوسيولوجي والبنيوي اللذان تتبناهما يمنى العيد ، في أغلب دراساتها- يتقاطعان ، بدل أن يعزز احدهما حضور الآخر ويسلكان سبيلين متعارضتين.

(١) الراوي: الموقع والشكل، يمنى العيد: ١١٣.

الترجمة وأثرها في تلقي المنهج

إن أشكال الاستقبال العربي للأدب الغربي الحديث ومناهجه النقدية لم تعرف طريقاً واحداً مرت منه عملية المثاقفة والاطلاع على فكر الآخر. فهناك الاتصال المباشر بالمتون النقدية الغربية ، ثم التلمذة عن طريق التبادل الثقافي والمعرفي بين الشعوب ، وأخيراً التواصل عبر الوسيط المترجم. وإذا كان المصدر الأول حاضراً بكثرة عند النقاد المغاربة ، والمصدر الثاني ضيقاً ومحدوداً في أفراد قلائل ، أو جماعات قليلة متفرقة في أزمان متباعدة لقلة البعثات العربية إلى العالم الغربي وتعثرها في الغالب ، فإن المصدر الثالث هو المعول عليه غالباً في تلقي البيئة الثقافية العربية لنتاج الفكر الغربي وعطاءاته المعرفية ، فقد كانت الترجمة ، وما زالت ، بوابة الشرق في مسعاه التثاقفي مع الغرب ، حتى ليمكن القول إن الاستقبال العربي للمناهج الغربية الحديثة هو من عطاء النشاط الترجمي في المقام الأول. بل إن((النهضة ، هي ، في تيارها العريض ، حركة ترجمة ، سواء اتخذت الترجمة الشكل المباشر من خلال نقل المؤلفات أو الشكل غير المباشر من خلال نقل الأفكار))[1].

ويمتاز عامل الترجمة من العوامل الأخرى التي صنعت النهضة العربية الحديثة ، لما له في الحياة الفكرية من أثر فاعل ومباشر إذ نجد تحولاً معرفياً كبيراً وسريعاً ظهر في الأدب العربي وفنونه بعد اتصال النقد العربي الحديث بالفكر الغربي ومناهجه

---

(١) الترجمة والايديولوجيا المترجمة، جورج طرابيشي، مجلة(الوحدة)، ع ٦١- ٦٢، تشرين الأول/أكتوبر، تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٩ : ٣٠.

النقدية عن طريق الترجمة. فقد حكم الأدب العربي بعد انطفاء عصوره الذهبية بُنى استبدادية هرمة إلى أن جاءت الترجمة فأخرجته من حال الركود والضعف الذي أصابه إلى التحديث والنهوض والتطور بحيث بات من الممكن القول: ((إن النقد العربي الحديث ينتمي إلى الاتجاهات النقدية الغربية أكثر من انتمائه إلى النقد العربي القديم))[١].

وليست الترجمة حدثاً طارئاً على الثقافات الإنسانية ، ومنها العربية ، ولكنها تحولت في العصر الحديث إلى ظاهرة مثيرة للاهتمام حتى إن القرن العشرين كان قد سمي((بعصر الترجمة))[٢]. فقد فتحت الترجمة لنا أبواب الحوار الواسع مع ثقافات الأمم من حولنا رفضاً أو قبولاً وأحياناً كثيرة تلاقحاً ليبقى حضورها المعرفي مستمراً في إثراء الثقافة العربية وإخصاب حقولها المتجددة. فهي عنصر رفدٍ للحضارات قديمها وحديثها ، شرقيها وغربيها ، ذلك((أن الاختلاط ليس عنصر ضعفٍ في اللغة ، بل هو عنصر قوة على خلاف الانعزال ، الذي ربما أدى إلى انقراض اللغة))[٣].

وربما مثلت ترجمة مصطلحات المنهج التحدي الأصعب الذي يواجه النشاط الترجمي ، فمهارة المترجم تظهر في قدرته على إيجاد التعبير المناسب ، وحنكته في صياغة الخطاب المحكم لما يقصده أو يريده صاحب المنهج من المصطلحات التي يجترحها أو يوظفها في منهجه النقدي لضبط مفاهيم نظريته. فالمصطلح وثيق الصلة بالمنهج ويدخل معه في علاقة جدلية حية ، ((فالمصطلح يمكّن من رصد جملة من المكونات ضمن نسق واحد ، مهما كانت نوعية النسق ، فلسفية ، أم أدبية ، أم اقتصادية ، تاريخية ، أو اجتماعية وبالتالي فإن المصطلح يسمح بالتحكم في ضبط الأسس المنهجية ، وفي المعرفة المراد إيصالها وتبليغها. وهذا الأمر يجعل من المصطلح رديفاً للمنهج المتبع في أي دراسة أو مقاربة كانت ، ويحيل إلى مرجعيات فلسفية

---

(١) هجرة النصوص – دراسات في الترجمة الأدبية والتبادل الثقافي، د.عبده عبود: ٢٢١.

(٢) هل الترجمة فن أم حرفة أم علم ؟، ترجمة : لمياء عباس، مجلة(المأمون) ،ع٢، ٢٠١١ : ١٨.

(٣) ينابيع اللغة الأولى- مقدمة إلى الأدب العربي منذ أقدم عصوره حتى حقبة الحيرة التأسيسية، سعيد الغانمي : ١٥.

وفكرية نظرية))[1] ، لذلك يتحرر المصطلح من بعض دلالته الأصلية أو جلها عند نزعه من سياقاته وتوظيفه خارج مدارات المنهج الذي يرتبط به أول مرة ، وهذا ما يحتم على المترجم أن ينظر في الآفاق الفكرية للمنهج و يتبصر مرجعياتها الفلسفية التي ولّدت هذا المصطلح ؛ ليتجنب الوقوع في محذور المصطلح العربي الغامض. إن معرفة النظريات لا تستقيم إلا بمعرفة مهاداتها.

فالمثاقفة -والترجمة منها- ، مفاعلة و((المفاعلة هي أكثر من تبادل الفعل ، هي تفاعل الفعل))[2] لذلك نقول إن الترجمة ليست لقاء بين اللغات المختلفة على ما مألوف مشهور ، وإنما هي لقاء بين البشر والثقافات على الرغم من اختلاف اللغات.

إن حضور المصطلحات القارّة في أية دراسة نقدية يؤدي إلى مزيد دقة واقتصاد لغويين يدفعان الدراسة نحو أفق منهجية علمية منفتح على مقاصد النص ، وبذلك لا يقع المتلقي العربي في التخبط والتشتت نتيجة الحواجز اللغوية التي تحول بينه وبين الوصول إلى مقاصد النص الأجنبي فمن((عوامل العطالة في حساسية الناقد العربي سيطرة المصطلح النقدي الخاطئ أو فقدان المصطلح المتبلور الذي يمكن أن يؤدي الفكرة أداء قائماً على التبصر والسبر والتمحيص))[3]. وأُنبّه هنا على أنه ليس ثمة ترجمة خالية من الهنات كلها ، ولو أفترضت أقصى درجات الدقة في الترجمة ، ذلك أن لكل لغة نحوها المختص بها والمختلف عن نحو غيرها ، فضلاً عن أن لكل لغة أنساقها الحاكمة عليها التي يستعصي حضورها في غيرها والترجمة((بمختلف تياراتها ، تعترف أنه إذا كان من الممكن تحقيق الحد الأدنى من التواصل من خلال الانتقال من لغة إلى أخرى ، فإن هناك فائضاً دلالياً تختزله العلامات الكبرى للغات الأصلية لا يمكن نقله بكل حمولاته الزاخرة من اللغة الأم إلى اللغة المستقبلة))[4].

---

(١) النقد العربي الجديد – مقاربة في نقد النقد، عمر عيلان : ٤٣

(٢) الترجمة والمثاقفة، الطاهر لبيب مجلة(العربية والترجمة)، السنة الثالثة، ع ٥- ٦ خريف ٢٠١٠ / شتاء ٢٠١١ : ٤.

(٣) النقد والحرية، خلدون الشمعة: ٨.

(٤) التأويل والترجمة – مقاربات لآليات الفهم والتفسير، تأليف جماعي : ١٤.

أسهمت الترجمة بشكل كبير وفاعل في التعريف بأعمال لوسيان غولدمان ومنهجه النقدي. فقد ترجم بدر الدين عرودكي الفصل الأخير من كتاب غولدمان (من أجل علم اجتماع الرواية) بعنوان(المنهج البنيوي التكويني في تاريخ الأدب) سنة ١٩٨٠[١] ، وظل عرودكي على صلة بكتاب غولدمان إلى أن نشر ترجمته ، كاملة بعنوان (مقدمات في سوسيولوجية الرواية) ، سنة ١٩٩٣[٢] وقبل ذلك عرف الدكتور صلاح فضل بمنهج غولدمان في الفصل الثالث من كتابه(منهج الواقعية في الإبداع الأدبي) الذي صدر بالقاهرة سنة ١٩٧٨ وكان معتمداً في ذلك على الترجمات الاسبانية لكتب غولدمان ، من مثل كتاب(الإله الخفي) الذي كان قد ترجم إلى اللغة الاسبانية وصدر في برشلونة سنة ١٩٦٨ ، وكتاب (من أجل علم اجتماع الرواية) الذي صدرت ترجمته في مدريد سنة ١٩٧٥. ولم تغفل قوائم مراجع الكتاب دراسة غولدمان(علم اجتماع الابداع الأدبي) التي صدرت ترجمتها الاسبانية في بوينس آيرس سنة ١٩٧١[٣].

وترجم مصطفى المسناوي لغولدمان كتاب(المنهجية في علم الاجتماع الأدبي)[٤]

---

(١) ينظر : المنهج البنيوي التكويني في تاريخ الأدب، لوسيان غولدمان، ترجمة : بدر الدين عرودكي، مجلة (الفكر العربي المعاصر)، ع١، ١٩٨٠ : ٤٢ وما بعدها. وكذلك غولدمان ولوكاش : الرؤية المأساوية للعالم، ميشال لووي، ترجمة : هنرييت عبودي، مجلة (دراسات عربية)، ع١٢، تشرين الأول، اكتوبر، ١٩٨١: ١٢٥ وما بعدها. وايضاً دفاعاً عن جمالية تستلهم علم الاجتماع – محاولة لبناء الجمالية لدى لوسيان غولدمان، جاك لينهارت، ترجمة : فهد عكام، مجلة (الموقف الأدبي)، ع١١٢، آب، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٠.

(٢) ينظر : مقدمات في سوسيولوجية الرواية، لوسيان غولدمان، ترجمة بدر الدين عرودكي، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ١٩٩٣. وكذلك مقدمة إلى مشكلات علم اجتماع الرواية، لوسيان جولدمان، ترجمة : خيري دومه، مجلة (فصول)، مج١٢، ع٢، ١٩٩٣، ٣٤ وما بعدها. وكذلك سوسيولوجيا الأدب – ببليوجرافيا شارحة، اعداد : د. محمد حافظ دياب، مجلة (المنار)، ع٥٨، اكتوبر، ١٩٨٩: ١٣٢– ١٤٧.

(٣) ينظر: نظريات معاصرة، د. جابر عصفور : ٨٤– ٨٥.

(٤) المنهجية في علم الاجتماع الأدبي، لوسيان غولدمان، تعريب مصطفى المسناوي، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٥.

سنة ١٩٨٥ ، بينما ترجم نادر ذكرى كتاب غولدمان الموسوم بـ(المادية الديالكتيكية وتأريخ الأدب والفلسفة)[١]سنة ١٩٨٦.

ولقد تواصل إثراء المكتبة العربية بترجمة أعمال غولدمان ولكن بطريقة انتقائية لنصوص معينة من نتاجه النقدي ، وفي مدد زمنية متباعدة[٢].

وبذلك كان اطلاع النقد العربي الحديث على فكر غولدمان ومنهجه النقدي اطلاعاً متناثراً لا تنتظمه قراءة شاملة لمشروعه المعرفي. ولكن بترجمة كتابه(الإله الخفي) عام٢٠١٠م ، بعد ترجمة أعمال نقدية أخرى له من قبل ، استوفى مشروع غولدمان حضوره المعرفي كاملاً تقريباً في البيئة الثقافية العربية ، بعد أن بقي منهجه النقدي مبعثراً في الاستقبال العربي مدة تزيد على نصف قرن! وهذا يعود إلى أسباب عدة منها ، أن نصوص غولدمان عسيرة الترجمة ، لأن صاحبها يدخل في تصنيفات شائكة ويتعالق مع علوم كثيرة يصعب على المترجم العجل متابعتها فضلاً عن الإحاطة بتفاصيلها الدقيقة. وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد نديم خشفة: ((إن القليل من كتابات غولدمان ترجم إلى اللغة العربية ويرجع ذلك إلى عدد من العوامل في رأينا. أولها عمق آرائه الفلسفية والنقدية مما يتطلب ثقافة واسعة من القارئ ، وشروحاً إضافية من المترجم. وثانيهما إهماله لتعبيره اللغوي وانسياقه وراء أفكاره مما يؤدي إلى ركاكة العبارة وصعوبة ترجمتها ، وهو في هذا المنحى قريب من أستاذه لوكاش. وثالثها اتجاهه الماركسي الذي يثير كثيراً من التحفظ لدى بعض الناشرين))[٣].

يتفادى كثير من النقاد الإشارة إلى التيار الماركسي وتفريعاته مثل(الاشتراكي) و(الواقعي) و(الأيديولوجي) و(الجدلي) وغيرها. وهذا التفادي يعود إلى((طبيعة الثقافة

---

(١) المادية الديالكتيكية وتأريخ الأدب والفلسفة، لوسيان غولدمان، ترجمة: نادر ذكرى، دار الحداثة، بيروت – لبنان، ١٩٨٦.

(٢) ينظر : على سبيل المثال كتاب الرواية والواقع الذي اشترك في تأليفه ناتالي ساروت وآلان روب غرييه ولوسيان غولدمان والذي طبع في مستهل الستينيات غير أنه لم يترجم إلا في تسعينيات القرن العشرين. ينظر : الرواية والواقع، ناتالي ساروت وآلان روب غرييه ولوسيان غولدمان، ترجمة : د.رشيد بنحدو، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ط١، ١٩٩٠.

(٣) تأصيل النص – المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان، د. محمد نديم خشفة : ٢٠.

العربيـة ، وهيمنـة الثقافـة الدينيـة الـتي تصـطدم بالمـدلولات البعيـدة للماركسـية أو حتـى الاشتراكية ، إضافة إلى الحمولات السياسية للصفتين التي تستلزم الابتعاد تفادياً لغضب السلطة السياسية. غير أن من المحتمل أن يكون التفادي مدفوعاً أحياناً ، في بعض المناطق العربية ، برغبة معاكسة هي الابتعاد قدر الإمكان عن السلطة السياسية ، بحيث يتفادى النقد أن يصير مذهباً أو تياراً سياسياً رسمياً ، فيفقد مصداقيته النقدية أو العلمية))[1].

وأهم مما تقدم وأجدر بالإشارة بشان حركة الترجمة العربية أنها لم تكن ذات طابع منهجي متجانس يطمح إلى تقديم مشروع نقدي متكامل ، وإنما كان اختيار النصوص المترجمة يعتمد على شهرة أصحابها ، وانتقاء أشهر نصوصهم ، وعلى ذائقة المترجم وميوله الفكرية ، ويخضع لسلطان السياسة أكثر مما يستجيب لاحتياجات المنظومة الثقافية العربية ويغذي أنساقها الاجتماعية الأصلية وتطوراتها الدائمة. وكذلك كثيراً ما خضعت مشاريع الترجمة العربية لرغبات دور النشر والتسويق ، وهذه الرغبات أدت ، في كثير من الأحيان ، إلى الانتقائية ، والعجلة والاختزال الشديد والإيجاز المخل ، وتهميش المهادات الفلسفية للنظريات والمناهج التي قدمتها الترجمة. وتبعاً لذلك كثيراً ما انزاح المصطلح إلى مقاصد لا يرمي إليها صاحب المنهج ذلك((أن استحضار مرجعية المصطلح من شانه أن يكسب مستعمل المصطلح حذراً علمياً كبيراً ، يمكنه من الامساك بعنان المصطلح أثناء اشتغاله في خطاب مغاير. ومن ثم تكون قوة تحليله مرهونة بقدرة تحمل المصطلح لانتاج فعله ، حينما يؤخذ من مرجعية أجنبية ويشتغل خارجها))[2]. وبذلك لم تقدم الترجمة ، على الرغم من أهميتها البالغة ، معرفة منظمة ومنتظمة ، بل قدمت نصوصاً تفتقر ، في كثير من الأحيان ، إلى التجانس المعرفي ، وترتب على هذا الامر أن كان التبعثر المعرفي من أبرز سمات الاستقبال العربي لنتاج الآخر. وإذا زدنا ، على هذا التبعثر المعرفي ، ((تبني وجهة نظر الاخر بوصفها وجهة نظر عالمية صحيحة ليس في معرفة الآخر

---

(١) استقبال الآخر – الغرب في النقد العربي الحديث، سعد البازعي : ١٤٤- ١٤٥.

(٢) مدخل إلى علم المصطلح، أحمد بوحسن مجلة (الفكر العربي المعاصر) ع ٦٦- ٦٧ ١٩٨٩ : ٧٣.

فحسب ، وإنما في معرفة الذات أيضاً))[1] ، كانت النتيجة ظهور نوع من التبعية الثقافية لفكر الغرب بدلاً من الدخول معه في مثاقفة خلاقة.

تباينت مواقف النقاد العرب من المصطلح الأجنبي **(Genetic Structuralism)** فعبروا عنه بمقابلات عربية أكثرها تداولاً مصطلحان:

أولهما: البنيوية التكوينية ، وهو المصطلح الأثير في المغرب العربي[2] ، وقد تواطأ عليه جمهرة واسعة من النقاد منهم: محمد برادة[3] ، ومحمد بنيس[4] ، وسعيد علوش[5] ، وأدريس الناقوري[6] ، وعبد السلام المسدي[7] ، وتوفيق الزيدي[8] ، وحميد لحمداني[9] ، ونبيل سليمان[10] ، وسامي سويدان[11] ، وإبراهيم خليل[12] ، وإلياس خوري[13] ، وبدر الدين عرودكي[14] ، وعبد الله إبراهيم[1] ، وميجان الرويلي وسعد

---

(١) استقبال الآخر – الغرب في النقد العربي الحديث، د. سعد البازعي: ١٢٩.

(٢) ينظر: سوسيولوجيا الأدب- الآليات والخلفية الإيبيستيمولوجية، يوسف الأنطاكي: ٢٩.

(٣) ينظر: محمد مندور وتنظير النقد العربي، د. محمد برادة : ٢٠، وينظر كذلك الرواية المغربية، عبد الكبير الخطيبي، ترجمة محمد برادة: ٧.

(٤) ينظر: ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب، مقاربة بنيوية تكوينية، محمد بنيس:

(٥) ينظر: الرواية والايديولوجيا في المغرب العربي ١٩٦٠- ١٩٧٥، سعيد علوش : ١٢.

(٦) ينظر: المصطلح المشترك، أدريس الناقوري: ١٦.

(٧) ينظر: قضية البنيوية – دراسة ونماذج، عبد السلام المسدي: ٥٢.

(٨) ينظر: أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث من خلال بعض نماذجه، توفيق الزيدي: ٤٤.

(٩) ينظر: الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي – دراسة بنيوية تكوينية، حميد لحمداني:١١، والفكر النقدي الأدبي المعاصر- مناهج ونظريات ومواقف، د. حميد لحمداني: ٧٠، وبنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، د. حميد لحمداني: ١١٣، وكذلك ينظر في التنظير والممارسة – دراسات في الرواية المغربية، حميد لحمداني:١٤.

(١٠) ينظر: وعي الذات والعالم، نبيل سليمان : ١٢، وينظر كذلك أسئلة الواقعية والالتزام، نبيل سليمان : ١٨.

(١١) ينظر: أبحاث في النص الروائي العربي، د. سامي سويدان : ١٩.

(١٢) ينظر: مقالات ضد البنيوية، مجموعة مؤلفين، ترجمة ابراهيم خليل : ٢١.والنقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، د. ابراهيم محمود خليل : ٧٢.

(١٣) ينظر: دراسات في القصة العربية – وقائع ندوة مكناس، مجموعة مؤلفين : ٦٣.

(١٤) ينظر: مقدمات في سوسيولوجية الرواية، لوسيان غولدمان، ترجمة بدر الدين عرودكي: ٢٢٩.

البازعي[٢] ، وعبد الله أبو هيف[٣] ومحمد خرماش[٤] ، وفيصل دراج[٥] ، ومحمد عزام[٦] ، وسامي عبابنة[٧] ، وكمال أبو ديب[٨] ، على الرغم من أن أبو ديب يستعمل مصطلحات مجاورة من نوع(البنية التوليدية ، البنى المولدة ، المحور التوالدي)[٩].

وتردد محروس محمد القللي بين مصطلحي(البنيوية التكوينية) [١٠] و(البنيوية التوليدية)[١١] ، وتابعه في هذا التأرجح بين المصطلحين بسام قطوس[١٢] ، في حين استقر نور الدين صدار على مصطلح(البنيوية التكوينية) [١٣].

وثانيهما: البنيوية التوليدية ، وهو المصطلح المفضل في المشرق العربي[١٤] ، وقد شاع لدى صلاح فضل[١٥] ، وجابر عصفور[١] [١] ، وسيد البحراوي[٢] ، وقصي

---

(١) ينظر : البناء الفني لرواية الحرب في العراق- دراسة لنظم السرد والبناء في الرواية العراقية المعاصرة، عبد الله ابراهيم : ١٣.

(٢) ينظر : دليل الناقد الأدبي، د.ميجان الرويلي، ود. سعد البازعي: ٢٨٢.

(٣) ينظر: النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد، د. عبد الله أبو هيف: ٢٤٧.

(٤) ينظر : إشكالية المناهج في النقد الأدبي المغربي المعاصر، د.محمد خرماش: ٢.

(٥) ينظر : نظرية الرواية والرواية العربية، د. فيصل دراج : ٥١.

(٦) ينظر : تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية – دراسة في نقد النقد، محمد عزام : ٢٣١.

(٧) ينظر : اتجاهات النقاد العرب في قراءة النص الشعري الحديث، د.سامي عبابنة : ٢٣٠.

(٨) ينظر : ينظر إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، د. يوسف وغليسي: ١٤٩

(٩) ينظر : الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي – البنية والرؤيا، كمال أبو ديب : ٣٩٢، ٤٠٩، ٤١٢.

(١٠) ينظر : المرجعيات في النقد والادب واللغة مؤتمر النقد الدولي الثالث عشر ٢٧- ٢٩ تموز ٢٠١٠م اشراف وتحرير د. ماجد الجعافرة ود. امجد طلافحة، ١ / ١٠٧.

(١١) ينظر : المصدر نفسه، ١/ ١٢١.

(١٢) ينظر : المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، د. بسام قطوس: ١٣٣.

(١٣) ينظر : المرجعيات في النقد والادب واللغة مؤتمر النقد الدولي الثالث عشر ٢٧- ٢٩ تموز ٢٠١٠م اشراف وتحرير د. ماجد الجعافرة ود. امجد طلافحة، ٢/ ٥٨٥.

(١٤) ينظر : سوسيولوجيا الأدب- الآليات والخلفية الإيبيستيمولوجية، يوسف الأنطاكي: ٢٩.

(١٥) ينظر: مناهج النقد المعاصر، د. صلاح فضل : ٤١، ومنهج الواقعية في الابداع الأدبي، د.صلاح

الحسين[٣] ، وحسام الخطيب الذي وصفها بالبنيوية المتطورة قائلاً: ((نرى أن لوسيان غولدمان يمثل البنيوية المتطورة ، وهي تسمى البنيوية التوليدية))[٤]. ومحمد علي الكردي الذي استبدل بالبنيوية البنائية ليكون المصطلح عنده (البنائية التوليدية) [٥].

وثمة مصطلحات أخرى معبرة عن منهج لوسيان غولدمان أقل شيوعاً من المصطلحين المذكورين آنفاً.

فضل: ٢٤٣.

(١) ينظر: عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو، أديث كيرزويل، ترجمة: جابر عصفور: ٢٧٣. وكذلك: الماركسية والنقد الأدبي، تيري ايجلتون، تقديم وترجمة: جابر عصفور، مجلة (فصول) مج ٥، ع٣، ابريل، مايو، يونيو، ١٩٨٥: ٣٠، ونظريات معاصرة، جابر عصفور: ٨٣.

(٢) ينظر : علم اجتماع الأدب، د. سيد البحراوي : ٢٧.

(٣) ينظر: السوسيولوجيا والادب– البحوث والباحثون وسبل الارتياد، د. قصي الحسين: ١٢٧.

(٤) جوانب من الأدب والنقد في الغرب، د. حسام الخطيب : ٤٤٦.

(٥) ينظر: الرؤية الاجتماعية في النقد الفرنسي المعاصر، د.محمد علي الكردي، مجلة(عالم الفكر)، مج١٥، ع٤، ١٩٨٥ : ١١١.

مفارقة التطبيق للنظرية

يتضح من أغلب الدراسات النقدية التي استهدت أو حاولت الاستهداء بالمنهج البنيوية التكويني أنها فارقت المسارات النقدية للمنهج ، ويعود ذلك إلى أسباب أهمها:

١-ضعف التيار الفكري والفلسفي الذي نهلت منه هذه الدراسات على مستوى المنهج والمصطلح. فالبنيوية التكوينية – كغيرها من المناهج – تشكو الفقر في بعض مستوياتها المنهجية ولاسيما مستوى تحليل البنيات اللغوية الدقيقة ، وإن التفت إليه لوسيان غولدمان في أخريات حياته. ((لقد خان العمر غولدمان ، فلم يتمكن من تطوير تقصيه للأعمال الأدبية ، وتمحيص وصف العلاقات القائمة بين اللغة الأدبية وبين البنى الاجتماعية التي تنشأ عنها أو التي تعبر عنها وتتجاوزها))[1]. إن التطبيقات النقدية العربية لم تسلم من العيوب التي شابت النظرية الأم ، فظلت العلاقة بين البنية اللغوية والبنية الاجتماعية من العلاقات التي يصعب القبض عليها ، ذلك أن الأدب بنية لغوية تتغير ببطء ، وأن المجتمع أو الواقع بنية تتغير بسرعة.

٢- عدم تقيدها –إلا قليلاً منها-بشرط مهم من شروط البنيوية التكوينية. وهو ضرورة الاشتغال على نصوص فكرية وفنية تتوافر فيها مقاييس الجودة الفنية العالية والنضج الفكري العميق الذي تتجلى فيه قيم مرحلة تاريخية حاسمة.

---

(١) النقد الأدبي في القرن العشرين، جان إيف تادييه: ٢٤٤.

إن الأعمال العظيمة وحدها هي التي تفصح باتساقها عن رؤية للعالم ووعي جماعة أو طبقة اجتماعية معينة ، لأنها هي التي تشتمل على بنية الوعي الاجتماعي الجماعي التي تظهر رؤية للعالم كلية دالة من القيم والمعايير. إننا بصدد وعي الممكن الذي يستبطنه العمل الأدبي ، وعلى الناقد أن يحلله ويعيد بناءه في مفهوم رؤية العالم. فخلاصة المنهج البنيوية التكويني تكمن في إضاءة العلاقة بين الأدب والمجتمع بتقدير البنية ومحتواها.

٣- اشتغالها على نصوص تجريبية غير مستقرة في انساق واضحة ، تمر كموجات سريع ولا تراكم تقاليد أدبية يمكن أن تشكل مفاتيح لمقاربتها بنجاح. كل ذلك أربك بعض النقاد عند اجراء منهج البنيوية التكوينية على هذه النصوص.

٤- عدم استقرار أغلب النقاد العرب في العصر الحديث على منهج معين ، وسرعة تنقلهم بين المناهج النقدية الحديثة المتباينة ، وعدم صبرهم على منهج معين والتمرس به ، ليبقى حاضراً في دراساتهم النقدية حتى ينضج لديهم.

٥- امتلاك النصوص المنقودة خصوصية جمالية تختلف عن النصوص التي نقدت على وفق هذا المنهج في فضاءاته الغربية. ومن هنا كان لزاماً على النقاد العرب استيعاب أفكار هذا المنهج ومبادئه استيعاباً واعياً يراعي خصوصية الثقافة العربية.

٦- إن كثيراً من كتب النقد العربي التطبيقي هي في الأصل مجموعة دراسات وأبحاث أو مقالات كتبت في مدد زمنية متباعدة وبدوافع نقدية متباينة ، وهذا جعلها تفتقر إلى أفق منهجي متجانس وواضح تستند إليه.

٧- إنَّ المناهج السوسيولوجية مناهج واسعة تمتد آفاقها الفلسفية في حقول معرفية متنوعة وكثيرة ، وهذا جعل ضبط حدودها المعرفية عسير على غير الباحث المدقق.

٨- كثرة تفريع النقاد للمفاهيم النظرية التي يرتكز عليها منهج البنيوية التكوينية بما أضعف الدراسات النقدية التطبيقية إلى درجة الضياع المعرفي في نسيج المادة

النقدية إذ تمر مروراً هلامياً من غير أن تُحدد مفاصل عملها المعرفي الضابط فتتحول هذه المفاهيم إلى جزء من النص المنقود ، بعد أن تدخل دائرة التبعية المعرفية للنص بدلاً من أن تكون منطلقات موجهة للناقد وعلامات يهتدي بها.

٩- حرص الناقد على المحافظة على نقاء النظرية في التطبيق وإبعادها عن كل ما قد يهجنها بما أوقعه في أن يغيّر منطلقاته النظرية باستمرار وهذا أضر بممارسته الاجرائية على الرغم ممّا قد يتوافر له من أدوات المنهج أو بعضها. يقول الدكتور محمد برادة: ((إن المنهج ليس غاية في حد ذاته ، وليس هناك منهج يحقق المعجزات ، لأن جوهر المسألة متصل دائماً بالأسئلة الكامنة التي ينطلق منها الباحث أو الناقد ، وبالطريقة التي يطرحها ومدى ارتباطها بالتحولات الكمية والنوعية المبررة للتساؤل))[1].

١٠- غياب العمل النقدي المؤسسي العربي الذي أضعف دراسات النقاد العرب ، فمع تعقد العلوم الإنسانية وتطورها الهائل أصبح من العسير على الناقد مواجهتها بمفرده ، ولاسيما مواجهة منهج مثل البنيوية التكوينية ؛ لكونه ((منهجاً يتطلب أبحاثاً تجريبية طويلة ، مجراة بصبر: فهي ذاتها يتعين أن تتكامل وتراجع طيلة هذه البحوث))[2]. فضلاً عن ذلك((إن النص الروائي ، بحكم طوله واتساع فضاء الكتابة فيه ، يحتاج إلى الاستعانة ببرنامج إحصائي ، وتصنيفي يعوض النقص الذي يحدث في عملية استيعاب جميع جوانبه بسبب محدودية الذاكرة عند النقاد ، وعدم القدرة على ضبط وتسجيل جميع العلاقات المكنة في النص ، مما يترك مجالاً واسعاً للاختلاف في الاستنتاجات بينهم))[3]. وربما كان أقوى ما دفع النقاد العرب إلى النزعة

---

(١) في الكتابة والتجربة، د. عبد الكبير الخطيبي : ٨.

(٢) البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، مجموعة مؤلفين : ٤٢.

(٣) بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، د. حميد لحمداني : ١٤٣.

التركيبية في دراساتهم النقدية ، ولاسيما ما يتعلق منها بالرواية ، طبيعة الرواية ذاتها ، فهي جنس أدبي واسع ، سعة الحياة نفسها ، ويستضيف أجناساً أدبية متباينة ؛ وهذا جعل مقاربتها بمنهج واحد محفوفاً بالمخاطر. إن الرواية عالم متعدد المداخل ، والناقد الذي يحاول أن يدخل هذا العالم بمنهج واحد قد يفتح باباً إليه ولكن ستبقى أبواب أخرى موصدة أمامه ، لا يملك مفاتيحها. أي أنه سيبقى حبيس أفق من آفاق النص السردي المتعدد المستويات ، ويغفل آفاقاً أخرى ، وهذا التجاهل لا بد أن يؤدي إلى تزييف هذا العالم التخييلي ، بتقديم صورة مشوّهة أو غير مكتملة له ؛ لذلك تبقى مقاربة الناقد للنص السردي محكومة –غالباً– بالقصور ، وغير قادرة على إيفاء مستويات الرواية جميعاً حقها من الكشف. ومن هذا المنظور يصبح((بوسعنا أن نعد الرواية تآلفاً لمناهج بحث مختلفة مشروطة بتحقيق كل منهج لغايته الكاملة استناداً إلى الافتراضات والطرق الخاصة به))[(١)] ، لذلك ساد الاعتقاد بين النقاد بأن((أي منهج قاصر وحده عن الإحاطة بالمعطيات الكلية للنص الأدبي ، وليس التداخل المشار إليه بين مناهج متعددة إلا محاولة لتلبية حاجة أساسية في عملية التحليل الأدبي حيث تتعدد أبعاد النص ذاتها وتتنوع وتتطلب مساهمة أكثر من منهج في استقصائها. إن اعتماد المنهج المركب أو المتعدد يعني في العمق إصغاء وافياً لكلام النص نفسه))[(٢)].

١١- التلقي المبكر لمنهج البنيوية التكوينية ، إذ لم تكن مقولاته قد اتضحت بعد ، وهذا انعكس سلباً في الدراسات التطبيقية ، إذ لم تكن الترجمات شاملة كل أبعاد هذا المنهج فلم يميز بعض النقاد بين منهج لوسيان غولدمان وغيره من المناهج السوسيولوجية في ذلك الوقت المبكر من تلقي هذا المنهج.

---

(١) الرواية شكلاً فنياً ومؤسسة اجتماعية، ميشيل زيرافا، ترجمة : حسين علوان حسين، مجلة (الثقافة الاجنبية)، ع١، ١٩٩٣: ٦٩.

(٢) أبحاث في النص الروائي العربي، د. سامي سويدان: ١٩.

وأسهم عامل آخر في ضعف الدراسات التطبيقية العربية لهذا المنهج ، هو قلة الدراسات النقدية التطبيقية الغربية المترجمة فالممارسة التطبيقية تغني((وتحفز الممارسة النظرية ، وترفع من درجة حرارتها. تفيدها بقدر ما تستفيد منها ، تطرح عليها الأسئلة بقدر ما تتقبل منها الأسئلة))[1].

١٢-الهوس بالتخصص المبالغ فيه الذي شكَّل قوة معرفية صارمة ومنهجية ضاغطة على الناقد تسيره فلا تتيح له فرصة قراءة النص من زوايا أخرى. وكأن الناقد في حقل تخصصه ليس إلا متمماً للآلة النقدية المتمثلة في رسم رياضي هندسي ، وعليه أن يصالحها ، معتقداً أن المنهج العلمي الرصين ، ينبغي أن يتحرر من كل تدخل ذاتي للناقد. فثمة نقاد يتعاملون مع الإبداع ((وكأنهم يتعاملون مع علوم تطبيقية كالرياضيات والفيزياء وعلوم الحياة ، لا مع فن وأدب ونقدهما))[2]. بل إن بعض النقاد بالغ كثيراً في هذا الأمر فأحال النصوص الإبداعية إلى جداول احصائية ورسوم بيانية ومعادلات رياضية طمست الإبداع وأضاعت نقده[3].

١٣- إن النقد الخلاّق لا يمكنه الانبثاق إلا من نصوص خلاقة ، لأن الضعف الأدبي لا يولد إلاّ عوقاً نقدياً. فالشكلانية الروسية ما كان لها أن تحقق تلك الوفرة في التنظير ، والتماسك في التحليل ، لو لم يُغثها إبداع الشعر الروسي ذي الرؤية المستقبلية ، الذي كان ماياكوفسكي قطبه الأبرز ، وكذلك كانت نصوص الشعراء التصويريين الامريكيين ، بزعامة عزرا باوند ، هي ما حفز النقد الامريكي الجديد ، الذي ازدهر في العشرينيات من القرن العشرين. ((إن قواعد بناء التراجيديا ، وكل ما ذكره أرسطو عن الصراع والحوار والاكتشاف

---

(١) درجة الوعي في الكتابة، نجيب العوفي: ١٢.

(٢) أيقونات الوهم – الناقد العربي وإشكاليات النقد الحديث، أ.د.نجم عبد الله كاظم :١٠.

(٣) ينظر: لغة الشعر في (زهرة الكيمياء) بين تحولات المعنى ومعنى التحولات، د. عبد الكريم حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٢.

والانقلاب والبطل التراجيدي جاء استقراء لرائعة سوفوكل المعروفة(أوديب ملكاً) الإبداع هو الذي كان دائماً يقنن لنفسه))[1].

١٤- المعرفة الفلسفية التي تكاد تغيب لدى أغلب نقادنا ، وهذا مما أفقد الممارسة النقدية كثيراً من زخمها المعرفي وبريقها الإبداعي ، ذلك أن كبار النقاد العالميين انطلقوا إلى النقد من رحاب الفلسفة ، ومنهم صاحب منهج البنيوية التكوينية لوسيان غولدمان.

١٥- قلة الاطلاع ، وضعف مواكبة ما يصدر في المنهج.

١٦- رغبة النقاد في الحديث عن المناهج النقدية الحديثة كلها دفعة واحدة ، في ممارسة انبهارية بها أكثر منها معرفية ، وهذا ممّا دفع جهودهم النقدية نحو التشتت والضياع النقدي بدلاً من أن تكون هذه المناهج إطاراً لدراساتهم يعمل على تقوية تماسكها واثرائها.

وعلينا أن ندرك أن الفرق بين النظرية والممارسة هو كالفرق بين((سهولة قول الفعل وصعوبة فعل الفعل))[2] ، ويبقى التحكم الكلي في المنهج مطلباً غير سهل المنال ، فهو يحتاج إلى ممارسة مستمرة وخبرة كبيرة ، وهذا لا يتأتى للناقد إلا بالوعي الكامل للمرتكزات الفلسفية والمعرفية للمناهج النقدية وانتقاء الأداة الاجرائية المناسبة للنص ، وحسن استثمارها في مجال التأويل. (وإذا كان المنهج الاجتماعي الجدلي قد وضع قوانينه الأساسية في الميدانين ، الاقتصادي والاجتماعي ، فإنه لم يصل حتى الان إلى قوانين تمتلك نفس الوضوح في الميدان الابداعي ، ومنه معرفة أسرار الكتابة. ووضعية المدرسة البنيوية أكثر صعوبة ، بحيث إن الدارسين والمهتمين بهذا النوع من المناهج لم يصلوا هم أنفسهم إلى الوضوح التام ، وكل دراساتهم تقدم عادة كاقتراحات ، لأن هذا المنهج ما يزال في بدايته))[3].

---

(١) المرايا المحدبة- من البنيوية إلى التفكيك، د.عبد العزيز حمودة : ٥١.

(٢) ممارسات في النقد الأدبي، يمنى العيد: ٥.

(٣) ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب- مقاربة بنيوية تكوينية، محمد بنيس : ٢٧.

إنَّ موضوعية النقد الأدبي في نظرنا لا تتعلق باختيار منهج البنيوية التكوينية أو غيره ، وإنما تتعلق بمدى دقة الناقد في تطبيق المنهج الذي ارتضاه ، ولكن على الناقد النابه أن يُحسن((اختيار النصوص التي لها قابلية على الانضواء ضمن المنهج الذي يتقن الناقد تطبيقه))(١). فالمنهج يحاول دائماً بأدواته المتنوعة أن يتملَّك النص تملكاً كاملاً ، في حين يقاوم النص أبداً هذا التملّك بثورته الدائمة للخروج من أسوار المنهج معتمداً في ذلك على فيض دلالاته التي يولدها ويبثها باستمرار باتجاهات متباينة ، فالناقد-بين رغبة امتلاكه للنص وممانعة النص لذلك-عليه أن يقف متأملاً أدوات منهجه باستمرار ذلك ((أن المنهج - أي منهج- ليس أسلوباً جاهزاً ، وهو وإن كان له مفهومه وقوانينه العامة والواضحة ، فإنه يبقى انبناء يتحقق بالممارسة ، كما تبقى له خصوصيته وتنوعه اللذان هما خصوصية النص ، موضوع الدراسة ، وتنوعه أيضاً))(٢). لذلك لا بُدَّ للناقد من التعامل بمرونة مع المنهج في مواجهة النص. فالمطلوب استيعاب المنهج والتمكن من أدواته وإلا فقدنا السيطرة عليه ووقعنا في أسره بدل تملّكه والإفادة منه أو وقع هو في أسرنا وفقد فاعليته.

ينبغي استثمار المناهج الغربية بطريقة ذكية تراعي هويّة النصوص العربية وخصوصياتها ومسارها التاريخي وعلاقتها الجدلية بالمنظومة الثقافية والسياسية والاجتماعية التي أرتبطت بها. كي نتفادى الوقوع في دائرة المثاقفة الأسيرة للمناهج الغربية الحديثة.

إن عملية الإبداع الأدبي وتبعاً لها النقدي ، لم يكن لها مفهوم ثابت عبر مسيرة تأريخ الأدب ونقده لكل الأمم وأجيالها ، بل خضعت لمنطق التحول والتغير تبعاً للمستويات الثقافية وما يقطعه الفكر النقدي من مراحل على درجات سلم التدرج والترقي ، وما تبلغه المجتمعات من تقدم وتطور في الحس الحضاري ، لذلك لا ينبغي

---

(١) سرديات النقد في تحليل آليات الخطاب النقدي المعاصر، حسين خمري: ٥٤.

(٢) الدلالة الاجتماعية لحركة الأدب الرومنطيقي في لبنان بين الحربين العالميتين، يمنى العيد:٧.

لنا أن ننكر دور هذه الثقافة في مستوياتها المعرفية المختلفة في تغيير زاوية النظر إلى الأشياء المحيطة بنا. إن كل مرحلة فكرية وتاريخية ينتج عنها مفهوم خاص ، وكل تحول في بنية مجتمع ما ينتج عنه تصور جديد ، وعلى هذا النحو تتقدم المفاهيم وتتعمق التصورات بسبب التحولات الكبرى التي تخضع لها المجتمعات الإنسانية في حقبها التاريخية الحاسمة ، وتبعاً لذلك تظهر باستمرار مناهج وتختفي أخرى أو تتوارى في غيرها ، فلماذا نعيب على النقد العربي الاستعانة بالمناهج الغربية الحديثة ، وننكر على نقادنا استعارة هذه المناهج في دراساتهم النقدية والإفادة منها؟ فإذا كان على النقد العربي ألاّ يؤسس سلطته النقدية على مرجعيات مستعارة من خارج بيئته الثقافية ، فإن عليه كذلك ألاّ يتجاهل المعطيات الحضارية والمعرفية للشعوب الأخرى ؛ لأن الأدب العربي الحديث ، مثل غيره من الآداب الحديثة الأخرى ، أدب مثاقفة الآخر. لذلك من التعنت النقدي زعم أنَّ إدراكنا لهذه المناهج لا يزيد من معرفتنا بحقائق إبداعنا العربي الحديث فـ((لا معنى لتجاهل كل معطيات الحضارة الإنسانية بدعوى أنها أفكار مستوردة ، ولسوف يكون موقفنا يدعو إلى السخرية إذا أغلقنا في وجهها نوافذنا ، وهي موجودة بالفعل داخل بيوتنا))[١]. ولكن على الناقد العربي أن يختار المنهج القادر على مواجهة النص مع احترام خصوصيته متفادياً الوقوع في ما يؤخذ على((النقاد العرب الذين يعمدون إلى اختيار مناهجهم وأدواتهم التحليلية من مستودع المناهج الأجنبية بدون أن يتمثلوها تمثلاً نقدياً ، وبدون مراعاة خصوصية المعطيات التي يدرسونها))[٢]. فلا بد من أن تكون للثقافة العربية أنساقها الفكرية الحاكمة عليها ، وأنظمتها الجمالية المتوارية في منظومتها الفكرية ، لذلك ينبغي التوقف عن الانفتاح التغريبي الارتهاني ، والبدء بانفتاح تكاملي تفاعلي متكافئ قوامه المثاقفة المتعقلة ، من أجل تحقيق الذات العربية العقلانية. فالذاتية المؤصَّلة إن اكتسبت شيئاً من خارج ذاتها فإنما تكتسب ما تولد منه قوة مغيّرة لذلك الخارج بما

---

(١) تناقضات في الفكر المعاصر، أمير اسكندر : ٢١٥.

(٢) محمد مندور وتنظير النقد العربي، محمد برادة : ١٤.

يلائم طبعها ومزاجها وذاتيتها ، وبذلك لا تعد هذه القوى غازية لكيانها ، بل مغذية له. فالأصالة حريصة على حرمة ذاتها الفاعلة ؛ فهي لذلك تسعى إلى تجديدها باستمرار. فليس الخطر في المثاقفة ، بل في عدم توظيف المعرفة التي يقدمها الآخر بوصفها مُعاقلة ، أي تبادلاً عقلانياً بين أطراف عدة.

وعلى الرغم من كل ما أخذ على النقاد لا ينبغي أن يبخسوا حقهم فأقل ما يُحمد للنقد العربي الحديث أنه ثاقف الفكر الغربي بمفاهيم جديدة ولم يقف متصاغراً أمامه مهما كان تفوقه ، وسعى إلى تحقيق الحداثة في بنية العقل العربي نفسه ومن ثم إثبات حضوره وتجاوز التبعية للآخر.

نتائج البحث

١- تحكم النظرة التركيبية جلّ النتاج النقدي العربي فقد ظل منظور التذبذب بين الدراسات النصيّة والمقاربات السياقية التي تحيط بالنص وتتخلله ، القاسم المشترك في النقد العربي الحديث.

٢- إن النقد العربي الحديث نقد توفيقي في أغلبه ، لكن توفيقيته ليست سمة نقص دائماً ، بل هي سمة تتطلبها ، في كثير من الأحيان ، النصوص الأدبية ، ولاسيما النصوص الغنية والمعقدة التي يصعب إخضاعها لعملية التفسير والتحليل في ضوء نظرية واحدة أو منهج نقدي محدد ، وفي أحيان أخرى تكشف عن قصور في فهم المناهج الغربية الحديثة والوعي الخاطئ لها.

٣- ما يحكم حركة النقد العربي الحديث – ومنه المغربي – هو التنوع والاختلاف فثمة تجارب أجيال من النقاد تعاقبت ، وما زالت تتعاقب على المشهد النقدي الحديث ، كل جيل يحاول أن يطبع جزءاً من هذا المشهد ببعض خصوصياته. فإذا كان جزء من النقد الحديث ، بحكم تأريخ وجوده ، مرتبطاً بسياقات غير أدبية وظل في مجمل نتاجاته أسير إكراهات ايديولوجية وفكرية واضحة ، فإن هذا النوع من الكتابات النقدية في مرحلة الستينيات ، وجزء كبير من عقد السبعينيات ، يُعَدُّ في تصورنا إحدى صيغ هذا التنوع الذي يمثل ضمنياً تنوع الكتابات الإبداعية وتحولاتها الكبرى ، فالنقد بقي مشدوداً إلى تجليات النصوص الإبداعية ، لم يغادرها كلياً بحثاً عن أفق جديد لكتابة نقدية تغاير أنساق النصوص إلا حين غادرتها النصوص نفسها.

المصادر والمراجع

أولاً: الكتب:

١. ابحاث في النص الروائي العربي، د. سامي سويدان، مؤسسة الأبحاث العربية، ش. م. م. بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٦.

٢. اتجاهات النقاد العرب في قراءة النص الشعري الحديث، د. سامي عبابنة، عالم الكتب الحديث، اربد – الاردن، ط٢، ٢٠١٠.

٣. اتجاهات النقد الروائي المعاصر، د. مصطفى عبد الغني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج١، ٢٠٠١.

٤. أثر اللسانيات في النقد العربي الحديث من خلال بعض نماذجه، توفيق الزيدي، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٨٤.

٥. استقبال الآخر- الغرب في النقد العربي الحديث، سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٤.

٦. إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، د. يوسف وغليسي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٨م.

٧. إشكالية المناهج في النقد الأدبي المغربي المعاصر – البنيوية التكوينية بين النظر والتطبيق، د. محمد خرماش، مطبعة آنفو – برانت، فاس، ط١، ٢٠٠١.

٨. أيقونات الوهم – الناقد العربي وإشكاليات النقد الحديث، أ. د. نجم عبد الله كاظم، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، ط١، ٢٠١١.

٩. البحث عن أوروبا، محمود أمين العالم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٧٥.

١٠. البناء الفني لرواية الحرب في العراق – دراسة لنظم السرد والبناء في الرواية العراقية المعاصرة، عبد الله إبراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٨.

١١. بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، د. حميد لحمداني، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، ط٢، ١٩٩٣.

١٢. البنيوية التكوينية والنقد الأدبي، مجموعة مؤلفين، راجع الترجمة : محمد سبيلا، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٨٤.
١٣. تأصيل النص – المنهج البنيوي لدى لوسيان غولدمان، د. محمد نديم خشفة، مركز الانماء الحضاري، حلب، ط١، ١٩٩٧.
١٤. التأويل والترجمة – مقاربات لآليات الفهم والتفسير، تأليف جماعي- إشراف إبراهيم أحمد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف الجزائر، ط١، ٢٠٠٩.
١٥. التحليل الاجتماعي للأدب، السيد ياسين، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٠.
١٦. تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية - دراسة في نقد النقد، محمد عزام، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣.
١٧. تناقضات في الفكر المعاصر، أمير إسكندر، منشورات وزارة الاعلام، الجمهورية العراقية، دار الحرية للطباعة – مطبعة الجمهورية - بغداد ١٩٧٤.
١٨. جوانب من الأدب والنقد في الغرب، د. حسام الخطيب، منشورات جامعة دمشق، ط٨، ٢٠٠١.
١٩. دراسات في القصة العربية – وقائع ندوة مكناس، مجموعة من المؤلفين، مؤسسة الأبحاث العربية، ش. م. م، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٦.
٢٠. درجة الوعي في الكتابة – دراسات نقدية، نجيب العوفي، دار النشر المغربية، ١٩٨٠.
٢١. الدلالة الاجتماعية لحركة الأدب الرومنطيقي في لبنان بين الحربين العالميتين، يمنى العيد، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٩.
٢٢. دليل الناقد الأدبي – إضاءة لأكثر من خمسين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً، د. ميجان الرويلي و د. سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠.
٢٣. الراوي : الموقع والشكل – بحث في السرد الروائي، يمنى العيد، مؤسسة الأبحاث العربية ش. م. م. بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨٦.
٢٤. الرواية المغربية ورؤية الواقع الاجتماعي - دراسة بنيوية تكوينية، حميد لحمداني، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٥.
٢٥. الرواية والأيديولوجيا في المغرب العربي ١٩٦٠- ١٩٧٥، سعيد علوش، دار الكلمة للنشر، ش. م. م، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨١.
٢٦. الرؤى المقنعة – نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي - البنية والرؤيا، كمال أبو ديب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.
٢٧. الرؤية الاجتماعية في النقد الفرنسي المعاصر، د. محمد علي الكردي، مجلة عالم الفكر،

مج١٥، ع٤، يناير – فبراير – مارس، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٨٥.

٢٨. سرديات النقد في تحليل آليات الخطاب النقدي المعاصر، حسين خمري، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١١.

٢٩. سوسيولوجيا الأدب – الآليات والخلفية الإبيستيمولوجية، يوسف الأنطاكي، تقديم. د. محمد حافظ دياب، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩.

٣٠. السوسيولوجيا والأدب – البحوث والباحثون وسبل الارتياد، د. قصي الحسين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٩٩٣.

٣١. ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب – مقاربة بنيوية تكوينية، محمد بنيس، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٥.

٣٢. عصر البنيوية من ليفي شتراوس إلى فوكو، أديث كيرزويل، ترجمة : جابر عصفور، دار آفاق عربية للصحافة والطباعة والنشر، بغداد، العراق، ١٩٨٥.

٣٣. علم اجتماع الأدب، د. سيد البحراوي، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان – مصر، ط١، ١٩٩٢.

٣٤. في الكتابة والتجربة، د. عبد الكبير الخطيبي، ترجمة د. محمد برادة، منشورات الجمل، بغداد، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.

٣٥. في معرفة النص – دراسات في النقد الأدبي، د. حكمت صباغ الخطيب (يمنى العيد)، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ١٩٨٥.

٣٦. في نقد المناهج المعاصرة – البنيوية التكوينية، د. عبد الرحمن بو علي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط١، ١٩٩٤.

٣٧. قضاياً النقد الأدبي المعاصر، د. سمير سعيد حجازي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧.

٣٨. قضية البنيوية – دراسة ونماذج، د. عبد السلام المسدي، دار أُمية، تونس، ط١، ١٩٩١.

٣٩. لغة الشعر في (زهرة الكيمياء) بين تحولات المعنى ومعنى التحولات، د.عبد الكريم حسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٢.

٤٠. المادية الديالكتيكية وتاريخ الأدب والفلسفة، لوسيان غولدمان، ترجمة: نادر ذكرى، دار الحداثة، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٨١.

٤١. محمد مندور وتنظير النقد العربي، د. محمد برادة، منشورات دار الآداب، بيروت ، ط١، ١٩٧٩.

٤٢. المدخل إلى مناهج النقد المعاصر، د. بسام قطوس، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية – جمهورية مصر العربية، ط١، ٢٠٠٦.

٤٣. المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيك، د. عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٨.
٤٤. المرجعيات في النقد والأدب واللغة، مؤتمر النقد الدولي الثالث عشر ٢٧- ٢٩ تموز ٢٠١٠م، المجلد الأول والمجلد الثاني، إشراف وتحرير الأستاذ الدكتور ماجد الجعافرة والدكتور أمجد طلافحة، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ط١، ٢٠١١.
٤٥. المصطلح المشترك – دراسات في الأدب المغربي المعاصر، إدريس الناقوري، دار النشر المغربية، ١٩٧٧.
٤٦. مقالات ضد البنيوية، جون هال ووليام وبويلوور ووليامز شوبان، ترجمة إبراهيم خليل، عمان، ط١، ١٩٨٦.
٤٧. مقدمات في سوسيولوجية الرواية، لوسيان غولدمان، ترجمة بدر الدين عرودكي دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية – سورية، ط١، ١٩٩٣.
٤٨. ممارسات في النقد الأدبي، يمنى العيد، دار الفارابي – بيروت، ١٩٧٥.
٤٩. مناهج النقد المعاصر، د. صلاح فضل، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٥.
٥٠. المنهجية في علم الاجتماع الأدبي لوسيان غولدمان، ترجمة : مصطفى المسناوي، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨١.
٥١. نظرية الرواية والرواية العربية، د. فيصل دراج، المركز الثقافي العربي، بيروت – لبنان، الدار البيضاء – المغرب، ط٢، ٢٠٠٢.
٥٢. نظريات معاصرة، د. جابر عصفور، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق– سوريا، بيروت – لبنان، ط١، ١٩٩٨.
٥٣. النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد، عبد الله أبو هيف، منشورات اتحاد الكتاب العرب – دمشق، ٢٠٠٠.
٥٤. النقد العربي الجديد – مقاربة في نقد النقد، عمر عيلان، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٠.
٥٥. النقد الأدبي في القرن العشرين، جان إيف تادييه، ترجمة د. قاسم المقداد، منشورات وزارة الثقافة – المعهد العالي للفنون المسرحية، دمشق، ١٩٩٣.
٥٦. هجرة النصوص – دراسات في الترجمة الأدبية والتبادل الثقافي، د. عبدة عبود، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط١، ١٩٩٥.
٥٧. وعي الذات والعالم، نبيل سليمان، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ط٢، ٢٠٠١م.

٥٨. ينابيع اللغة الأولى – مقدمة إلى الأدب العربي منذ أقدم عصوره حتى حقبة الحيرة التأسيسية، سعيد الغانمي، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي، أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠٠٩.

ثانياً: البحوث و الدوريات:

١. اتجاهات الأدب والثقافة في مصر في القرن العشرين، د. صلاح السروي، مجلة أدب ونقد، ع٣٠٦، فبراير، السنة السابعة والعشرون، الأمل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١١.
٢. الترجمة والأيديولوجيا، جورج طرابيشي، مجلة الوحدة، ع٦١ و٦٢، تشرين الأول / أكتوبر، تشرين الثاني / نوفمبر، المغرب /باريس، ١٩٨٩.
٣. الترجمة والمثاقفة، الطاهر لبيب، مجلة العربية والترجمة، السنة الثالثة، ع٥ و ٦، المنظمة العربية للترجمة، لبنان، خريف ٢٠١٠/ شتاء، ٢٠١١.
٤. الرواية شكلاً فنياً ومؤسسة اجتماعية، ميشيل زيرافا، ترجمة حسين علوان حسين، مجلة الثقافة الأجنبية، ع١، السنة الثالثة عشرة، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ١٩٩٣.
٥. مدخل إلى علم المصطلح، أحمد بوحسن، مجلة الفكر العربي المعاصر، ع٦٦ و٦٧، مركز الإنماء القومي، بيروت، باريس، ١٩٨٩.
٦. المنهج البنيوي التكويني في تاريخ الأدب، لوسيان غولدمان، ترجمة بدر الدين عرودكي، ع١، آيار، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٨٠.
٧. هل الترجمة فن أم حرفة أم علم ؟، ترجمة لمياء عباس جاسم، مجلة المأمون، ع٢، السنة السابعة، مطبعة الوقف الحديثة، وزارة الثقافة، جمهورية العراق، ٢٠١١.

المصوتات الطويلة بين العربية ولهجات شبه الجزيرة العربية
المصوتات الطويلة في اللغة العربية

أ. د. ولاء صادق محسن
كلية التربية للبنات / جامعة بغداد

تميزت اللغة العربية بالإعراب الذي جعلها تتسم بسمات ، لعل من أبرزها التقديم والتأخير ، فالفاعل في لغتنا يبقى فاعلاً في الجملة تقدم أم تأخر والمفعول به يبقى مفعولاً به تقدم أم تأخر ، وكذا الحال مع الاسم المجرور فالإعراب إذاً هو الذي منح لغتنا الحرية المطلقة ، من هنا تميزت بأنها لغة الإعجاز والإيجاز فضلاً عما يؤديه الإعراب من مزايا أخرى.

ولو أتينا إلى علامات الإعراب في الأسماء لوجدنا أنها(الفتحة والضمة والكسرة) أي المصوتات القصيرة و(الألف والواو والياء) أي المصوتات الطويلة. ولما كان علماؤنا منهمكين في دراسة كل ظاهرة ، كان من الطبيعي ألا تفوتهم دراسة هذه العلامات ، ومن أي الأصوات هي وأنواعها ، ولما كان لكل عالم رأيه واجتهاده ، كان من المسلم به اختلاف وجهات النظر فيها ، ومن هؤلاء أبو القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) الذي ذهب إلى أن المصوتات الطويلة(الألف والواو والياء) هي أسبق وجوداً من المصوتات القصيرة(الفتحة والضمة والكسرة) وذلك من خلال ما قاله مستفهماً: (أن قال قائل: لم جعل رفع الاثنين بالألف ومن المتفق عليه أن الألف منها تولد الفتحة التي هي علامة النصب؟ لأن أكثر العلماء على أن هذه الحركات

الثلاث مأخوذة من الواو والياء والألف ، استناداً إلى قول الخليل ((الفتحة من الألف والكسرة من الياء والضمة من الواو))[١] ولم يقل الألف من الفتحة والياء من الكسرة الكسرة والواو من الضمة وهذا يعطينا دليلاً أن المصوتات الطويلة سبقت القصيرة قال ابن جني(ت ٣٩٢ هـ)((كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة))[٢]. يؤيد ما ذهبنا إليه الذي تابعنا فيه رأي الزجاجي(ت ٣٣٧ هـ) ما نقله السيرافي(ت ٣٦٨ هـ) عن الخليل أنه قال: "الحركات يزدن على الحروف وأصل الحروف والحركات مأخوذة منها والدليل على أن الأصل الحروف أنه يجوز أن يوجد حرف ولا حركة وهو الحرف الساكن ولا يجوز أن توجد حركة في غير حرف قال فالفتحة من الألف والكسرة من الياء والضمة من الواو يعني أن الفتحة تزاد على الحرف و مخرجها الألف وكذلك الكسرة من مخرج الياء والضمة من مخرج الواو"[٣]. فضلاً عن ذلك نلاحظ أن المصوتات الطويلة(الألف والواو والياء) دونت قبل مثيلاتها (الفتحة والضمة والكيرة) فهذه لم تدون إلا في منتصف القرن الثاني للهجرة وقد اشتق رسمها من المصوتات الطويلة. في حين أن الأخيرة ظهرت في المصحف العثماني ومصحف الإمام علي(عليه السلام) والمصحف الكوفي ووجدت في بنية الألفاظ وفي آخرها نحو الأسماء الخمسة وجمع المذكر السالم والأفعال الخمسة ولما كان ظهور(الألف والواو والياء) سابقاً على ظهور(الفتحة والضمة والكسرة) سمي النوع باسم الأصل.

ذهب ابن جني في كتابه الخصائص إلى أن المصوتات الطويلة أصول والمصوتات القصيرة فروع عندما تحدث عن حذف أصوات العلة من أواخر الأفعال المجزومة فقال:

---

(١) إحياء النحو للأستاذ إبراهيم مصطفى، ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، مصر، ١٩٥٩.

(٢) أقسام الأخبار لأبي علي الفارسي(ت ٣٧٧ هـ)، تحقيق الدكتور علي المنصوري، المنشور في مجلة المورد- المجلد(٧)العدد ٣، ١٩٧٨.

(٣) الإيضاح في علل النحو لأبي القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي(ت ٣٣٧هـ)، تحقيق الدكتور مازن المبارك، ط٥، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٦.

((ومن ذلك حذفهم الأصل لشبهه عندهم بالفرع ، ألا تراهم لما حذفوا الحركات- ونحن نعلم أنها زوائد في نحو لم يذهب ولم ينطلق- تجاوزوا ذلك إلى أن حذفوا المنجزم أيضاً الحروف الأصول فقالوا: لم يخش- ولم يرم- ولم يغز...))[1].

ذهب ابن الدهان(ت ٥٦٩ هـ) فيما بعد إلى مثل هذا القول إذ قال: ((إنما كانت الحركات ثلاثاً)) لأن الحروف التي هي أصول لها ثلاثة"[2] فلما كانت المصوتات الطويلة أصولاً والمصوتات القصيرة فروعاً كان من طبيعة الأشياء أن يوجد الأصل قبل الفرع.

أقول: مما يعزز القول: أن المصوتات الطويلة أصول للمصوتات القصيرة ما نلاحظه في أثناء الجزم(لم يغز) نلاحظ هنا أن(الواو) قد قصرت إلى ضمة ، في حين أن الضمة تحذف عند الجزم. نقول: (لم يدرس) وكذا القول في(لم يسع) و(لم يمش) ففي الفصل الأول قصرت(الألف إلى فتحة) وفي الفصل الثاني قصرت(الياء) إلى كسرة. أن هذه الأمثلة تعطينا دليلاً لا يقبل الشك أن المصوتات الطويلة(الألف والواو والياء) أثبت وأن مثيلاتها القصيرة تنوب عن الأصل أي(عنها) في حين لا شيء ينوب عن الفتحة والضمة والكسرة. وكذا الحال في قولنا لم يقل من أصل لم يقول قصرت الواو وصارت ضمة.

وكذا الحال عند إسناد الفعل نحو(تنصرون) إلى نون التوكيد الثقيلة أو الخفيفة ، نلاحظ أن(الواو) قصرت إلى ضمة والضمة دلت على الواو. كذلك عند إسناد الفعل المعتل بالألف إلى واو الجماعة نحو يرضى عند الإسناد يصبح يرضون أي بتقصير الصائت الطويل إلى صائت قصير ومثله ينهى ، ينهون ، يبلى ، يبلون. وليس الأمر مقتصراً على هذه الأمثلة بل نلاحظ أن هناك العديد من الظواهر التي قصرت فيها(الألف والواو والياء) وصارت(فتحة وضمة وكسرة). ومن مظاهر تقصير المصوتات

---

(١) تأملات في بعض ظواهر الحذف الصرفي، د. فوزي الشايب، بحث في حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية العاشرة، ١٩٨٨- ١٩٨٩.

(٢) تاريخ علم اللغة، جورج مونين، ترجمة الدكتور بدر الدين قاسم، دمشق، ١٩٧٢.

الطويلة ما نلاحظه اليوم في لهجتنا العامية ولاسيما إذا وقع هذا الصوت متطرفاً سواء أكان قصيراً أو طويلاً ، فالتخلص من القصير ما نلاحظه من تخطي لهجاتنا من الإعراب ، أما تقصير المصوتات الطويلة فكما نلاحظ أن(أبو محمد) صارت تلفظ (أب محمد)[1] ، كما نلاحظ كلمة(دكتور) صارت تلفظ عند بعض المصريين (دكتر) أي بتقصير(الواو).

قال ابن جني(ت ٣٩٢ هـ): ((أعلم أن الحركات أبعاض حروف المد واللين ، وهي الألف والياء والواو ، فكما أن هذه الحروف ثلاثة ، فكذلك الحروف ثلاث وهي الفتحة والكسرة والضمة ، فالفتحة بعض الألف ، والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو ، وقد كان متقدمو النحويين يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة ، والضمة الواو الصغيرة ، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة))[2].

وقال أيضاً: ((ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف ، أنك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذي هي بعضه ، وذلك نحو فتحة عين عمر ، فأنك إن أشبعتها حدثت بعدها ألف ، فقلت عامر ، وكذلك كسرة عين عنب ، إن أشبعتها نشأت بعدها ياء ساكنة وذلك قولك عينب وكذلك ضمة عين عمر ، لو أشبعتها لأنشأت بعدها واواً ساكنة وذلك قولك عومر ، فلولا أن الحركات أبعاض لهذه الحروف وأوائل لها ، لما تنشأت عنها ، ولا كانت تابعة لها))[3].

هذا ما يتعلق باللغة العربية ، وأما ما يتعلق بوجود المصوتات الطويلة (أ ، و ، ي) في لهجات شبه الجزيرة العربية ، فقد لفت انتباهي وجود ألفاظ في اللهجة الآشورية مدونة بالواو رفعاً نحو(أيدو) أي(يد) و(ملاحو) أي ملاح و(تربيتو) أي تربية إلى جانب الألفاظ(مو وكو وبو) ووجدتها مدونة بالألف نصباً نحو(ما وك اوبا) ومدونة

---

(١) تاريخ اللغات السامية لإسرائيل ولفنسن، مطبعة دار القلم، بيروت، ١٩٨٠.

(٢) الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ)، تحقيق محمد علي النجار، ط٢، دار الهدى للطباعة والنشر، بلا تاريخ.

(٣) دراسات في الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، الدكتور صلاح الدين المنجد، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٢.

بالياء جراً نحو(مي وكي وبي) ثم قصرت هذه الأصوات إلى أصوات قصيرة بالضمة رفعاً وبالفتحة نصباً وبالكسرة جراً ، ووجد المثنى في الأكدية وهذا ما يرفع بالألف والنون وينصب ويجر بالياء والنون* بيد أن هذه المصوتات(الألف والواو والياء) لم تضمحل نهائياً وإنما بقيت آثارها وهذا ما وجدناه في بعض الأسماء في اللهجة الآشورية نحو(مو وما ومي) وبقيت في جمع المذكر السالم وهذا هو الحال في اللغة العربية ، إذ نجد آثار المصوتات الطويلة شاخصة في الأسماء الخمسة (أخو ، أبو ، ذو ، فو ، حمو) وفي المثنى وفي جمع المذكر السالم[١].

ومما تجدر الإشارة إليه أن السريان كانوا إذا انتهت الكلمة في لغتهم بحركة الحقوا بها حرفاً من حرف العلة خطاً وهي (الألف والواو والياء) فإن كانت الحركة زقاقا أي (ضمة مائلة إلى الفتحة) أو فتاحاً (فتحة مطبقة أو مشبعة) أو رباصاً(كسرة مطبقة أو مشبعة بإمالة) الحقوا بها ألفاً وأن كانت حباصاً(كسر مشبع مع الياء أي مد الياء) الحقوا بها يوذا(الياء) وإن كانت عصاصاً(ضمة مطبقة أو مشبعة) أو رواحاً[٢] أو عماقا الحقوا بها واواً ولو تتبعنا اللغة السريانية لوجدناها لغة القحطانيين الذين سكنوا اليمن ومن شعوبها كهلان ومنها الأزد بتعبير آخر أقول إن اللهجة السريانية كانت تثبت الألف في نهاية الكلمة التي تنتهي بالفتحة ، والواو في نهاية الكلمة التي تنتهي بالضمة ، والياء في نهاية الكلمة التي تنتهي بالكسرة ، ومثل هذا ما وجد في لغة الأزد التي اثبتت أصوات العلة في الاسم المنون عند الوقف عليه ثم تلتها مرحلة الوقف على المنون المنصوب بالألف[٣]

---

* سر صناعة الإعراب لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ) تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد رشدي شحاته، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ٢٠٠٠.

(١) ظاهر الإعراب في النحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم، الدكتور أحمد سليمان ياقوت، ط١، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض، ١٩٨١.

(٢) ظاهرة الرفع في اللغة العربية، ولاء صادق محسن، رسالة ماجستير، كلية الآداب، ١٩٨٥.

(٣) علم اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي، ط٧، دار النهضة، مصر، ١٩٧٣.

النقد اللساني وتحليل البنى السردية

أ.م. د. سعيد عبد الهادي المرهج
كلية التربية للبنات/جامعة بغداد

ملخص

ولد نقد القرن العشرين في حاضنة لسانية ، وفي هذا البحث سنتوقف عند أثر اللسانيات الوظيفية ، وهو ما لم يتوقف عنده إلا قلة من المختصين. ولن نقف عند نقد الوظيفيين للشعر ، بل سنقف عند نقدهم للرواية ، بقراءة ما قدمه(روجر فاولر ١٩٣٩- ١٩٩٩). وتأتي أهمية هذا البحث من كونه يسلط الضوء على درس نقدي لم يحظ بالشهرة في ثقافتنا العربية ، ولم يقف عنده أحد من الدارسين نقدا أو تبنيا ، بالرغم من أنه يقدم حلا مناسبا للخلط السائد في الكثير من الدراسات الأكاديمية أو النقدية بين الفني والموضوعي(البنيوي/السيميائي). لقد انشغل النقاد المعاصرين بعرض وتطبيق منهج(جيرار جينيت) ومن بعد منهج(غريماس ومدرسته) وأصبحا موضة نقدية متحكمة بمجريات النظر النقدي العربي.. وما نسعى إليه بعرضنا ونقدنا لنظرية روجر فاولر الانفتاح بدرسنا النقدي نحو ضفاف مختلفة قد تثري بحثنا وتدعم نقدنا للنظريات المتداولة ، مولدة وجهة نظر تركيبية بالمنجز النقدي ، وتحليلية غنية في التعامل مع النص الإبداعي. وقد خرجنا من درسنا لمل قدمه فاولر بإن مساحة النقد اللساني ، برغم سعتها المطروحة في أفكاره ، إلا أنها مساحة قادرة على منحنا منهجا يمكن له أن يتجاوز الأحادية التي عرفتها المناهج السائدة ، والأحادية الأعمق التي عرفتها الدراسات الأسلوبية في بعديها المحلي(العربي) والعالمي. إذ جرى التأكيد على لغة النص وشكله ، واستبعد المحتوى. ومن جانب آخر نراه منهجا أكثر مرونة من

مناهج تحليل الخطاب التي جرى التسويق لها بقوة مؤخرا. ثم إن مجالنا النقدي بحاجة إلى أن يتسع برؤاه ، في الوقوف عند مختلف الاتجاهات النقدية ، ومن تفاعل هذه الاتجاه يمكن له أن يكون خصبا معطاءً. لكن من جانب آخر فإن هذا المنهج بسعته المطروحة يمكن أن يكون تلفيقا مخلا إذا أسيئ تطبيقه ، فليس من الممكن اعتماده من قبل الدارس ما لم يكن ملما ، إلى حد ما باللسانيات الوظيفية ، فضلا عن جهدي غريماس وجينيت ، لكي يحافظ على قاعدة ارتكازه ولا يضيع بين مدارس كان لها أثرها في تشكل نقد فاولر.

١- مقدمة

هل يمكن أن نتحدث عن نقد أدبي في القرن العشرين بعيدا عن اللسانيات؟ إنه سؤال يكاد يجمع المختصون بشأن إجابته ، إذ ليس من نقد في هذا القرن إلا وكان مُرحّلا لنظرية لسانية إلى فضائه ، فكان أثر اللسانيات السوسيرية ، ومن ثم اللسانيات التوليدية التحويلية معروفا ، ولم يكن هذا الأثر محدودا باللسانيين أو نقاد الأدب فحسب ، بل امتد إلى الشعراء والجماليين أيضا ، فهذا بول فاليري يقول: "ليس الأدب ، ولا يمكن أن يكون ، إلا توسيعا لبعض خصائص اللغة واستعمالا لها"[(١)]

لكن في هذا البحث سنتوقف عند أثر اللسانيات الوظيفية ، وهو ما لم يتوقف عنده إلا قلة من المختصين. ولن نقف عند نقد الوظيفيين للشعر ، بل سنقف عند نقدهم للرواية ، بقراءة ما قدمه(روجر فاولر ١٩٣٩- ١٩٩٩). وتأتي أهمية هذا البحث من كونه يسلط الضوء على درس نقدي لم يحظ بالشهرة في ثقافتنا العربية ، ولم يقف عنده أحد من الدارسين نقدا أو تبنيا ، بالرغم من أنه يقدم حلا مناسبا للخلط السائد في الكثير من الدراسات الأكاديمية أو النقدية بين الفني والموضوعي (البنيوي/ السيميائي).

---

(١) الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، د. ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٥.

لقد انشغل النقاد المعاصرين بعرض وتطبيق منهج(جيرار جينيت) ومن بعد منهج (غريماس ومدرسته) وأصبحا موضة نقدية متحكمة بمجريات النظر النقدي العربي.. وما نسعى إليه بعرضنا ونقدنا لنظرية روجر فاولر الانفتاح بدرسنا النقدي نحو ضفاف مختلفة قد تثري بحثنا وتدعم نقدنا للنظريات المتداولة ، مولدة وجهة نظر تركيبية بالمنجز النقدي ، وتحليلية غنية في التعامل مع النص الإبداعي.

٢- في الوظيفية

بدءا من المهم الوقوف عند اللسانيات الوظيفية ذاتها ، ومعرفة كنهها ، لأنها الحاضنة التي ولد فيها درس(روجر فاولر) النقدي ، قبل الوقوف عند توظيفها في النقد الأدبي. والوظيفية كما يحدها(ديكرو) في معجمه ، هي: "البحث عن الوظائف التي تؤديها(اللغة) في التواصل: العناصر ، والأصناف ، والآليات ، التي تتدخل فيها. وإن هذه الوظائف لتكون... قائمة في أصل التنظيم والبنية الداخلية للغات"(١). أما (مارتينيه) فيقول: "يستعمل مصطلح "وظيفي" هنا بالمعنى الأكثر تداولا للمصطلح ، ويقضي بأن تحلل الملفوظات اللغوية اعتمادا على الكيفية التي تساهم بها في سيرورة التواصل"(٢). ويمكن أن نتحدث عن مدرستين وظيفيتين: الأولى الوظيفية البنيوية التي تشكّلت بفضل الدرس الصوتي والنحوي لمدرسة براغ ، وكان أثرها حاضرا فيما قدمه مارتينيه. والأخرى الوظيفية الإنكليزية التي انطلقت من فيرث(١٨٩٠- ١٩٦٠) وتلامذته ، وبتأثير من الانثربولوجي(برونسيلاف مالينوفسكي ١٨٨٤- ١٩٤٢) الذي قادته دراسة لغات الشعوب البدائية إلى تأكيد أهمية سياق الموقف في فهم الكلام المنطوق. وهناك من يربطها(الوظيفية الإنكليزية) بالبنيوية برغم تعدد اتجاهاتها "ينبغي وضع الوظيفية ضمن مجموع الحركة البنيوية ، فهي بنيوية خاصة يمكن تسميتها

---

(١) الألسنية والنقد الأدبي(في النظرية والممارسة) الدكتور موريس أبو ناضر، دار النهار للنشر، بيروت، ط١، ١٩٧٩.

(٢) أنثروبولوجيا اللغة، أندريه جاكوب، تر ليلي الشربيني، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، سلسلة المشروع القومي للثقافة ٣٦٠، ط١، ٢٠٠٢.

بالبنيوية الوظيفية. وإذا أردنا دمج الوظيفية في إحدى الأطروحات النقيضة المصنفة للتيارات اللسانية التي تكون "القارة البنيوية" فينبغي أن نعارضها بالشكلانية: إذ بينما تحظى الصور اللغوية داخل المجتمع بأهمية أكبر في الوظيفية ، تجعل الشكلانية الاشتغال الداخلي للنسق اللغوي في صلب اهتماماتها"[١] ، فيما ذهب(المتوكل) إلى التمييز بين ما هو وظيفي ، وما هو غير وظيفي[٢]. وعدّ كل نظرية تذهب إلى أن الخصائص التداولية تحدد الخصائص البنيوية نظرية وظيفية[٣] ، فيما رأى مارتينيه أن "اللغة أداة تواصل ازدواجية النطق (ثنائية التقطيع) وذات طابع صوتي"[٤]. وعلى وفق هذا ذهب الوظيفيون إلى القول بأن "الفروق بين اللغات الطبيعية تكمن في الخصائص الصورية(الصرفية والتركيبية والصوتية) أكثر مما تكمن في الخصائص الوظيفية(الدلالية والتداولية) وإن هذه الفروق يجب أن ترصد ، بالتالي ، في مراحل التسطيح ، أي عن طريق قواعد التعبير"[٥]. لذا رأت النظرية الوظيفية أن القدرة التواصلية مجموعة من القدرات التواصلية أو (الملكات) تفعَّل وتتفاعل في عمليتي إنتاج الخطاب وفهمه وفقا للموقف التخاطبي ونمط الخطاب"[٦]. هذا التأكيد على البعد التواصلي يوضح ، بما لا يقبل الشك ، أهمية البعد الاجتماعي في اللسانيات الوظيفية ، هذا البعد الذي لا يمكن أن يتجلى ، تواصليا ، إلا من خلال النصوص ، لذا اتجه الوظيفيون نحو(الخطاب) وكان لـ(سيمون ديك ١٩٤٠- ١٩٩٥) وهو أحد مبدعي

---

(١) التركيبيات الوظيفية، قضايا ومقاربات، د. أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠٠٥.

(٢) الثقافة والمجتمع، رايموند وليامز، تر: وجيه سمعان، مراجعة: محمد فتحي، دار الشؤون العامة (مشروع النشر المشترك) بغداد، ط١، بلا.

(٣) دلالة السياق، إعداد د. ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، جامعة أم القرى، السعودية، ط١، ١٤٢٣.

(٤) دليل السوسيولسانيات، تحرير فلوريان كولماس، ترجمة الدكتور خالد الأشهب والدكتورة ماجدولين النهيبي، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.

(٥) علم الدلالة، أف.آر. بالمر، تر مجيد الماشطة، منشورات الجامعة المستنصرية، بغداد، ط١.

(٦) علم اللغة النظامي(مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي) الدكتور محمود أحمد نحلة، ملتقى الفكر، مصر، ط٢، ٢٠٠١.

هذا النحو ، دور الريادة ، إذ يقول "لا يتكلم مستعملو اللغة الطبيعية بعبارات أو جمل معزولة ، بل يؤالفون فيما بينها ، في إطار تمديدات أطول وأعقد وهي ما يمكن أن ننعتها عموما بـ"الخطاب". إن الخطاب هو أكثر(بكثير) من متوالية اعتباطية من الجمل. ينتج عن ذلك أنه ولو امتلكنا أفضل نظرية للجملة ، فإن هذه النظرية سينقصها الكثير ، إذا أردنا اعتبارها مكونا في نظرية أشمل للقدرة التواصلية لمستعملي اللغة الطبيعية. أضف إلى ذلك أنه ما دامت الجمل ، في بنيتها الداخلية ، تتأثر بعوامل خطابية متنوعة ، فإن نظرية "أفضل" للجملة(المعزولة) هي ببساطة مستحيلة. بناء على ذلك ينبغي لنظرية النحو الوظيفي ، إذا وافقناها في ما تطلبت من أنماط الكفايات ، أن تدرس في نهاية المطاف النحو الوظيفي للخطاب. بعبارة أخرى ، ينبغي أن تبين كيف تتآلف الجمل في تمديدات متلاحمة لحديث أو حوار أو نص مكتوب"[1]. هذا المسعى يمكن أن نجد له تجسيدا مباشرا ، متأثرا بأعمال ديك نفسه ، عند أحمد المتوكل ، وآخر عند روجر فاولر ، الذي وظف طروحات هاليداي (١٩٢٥).

٣- فاولر وأسلافه

يمكن ، إذا اعتمدنا التوزيع القومي ، أن نتحدث عن تقاليد لسانية إنكليزية ، بمقابل الأخرى ، الجرمانية أو الفرنسية[2] ، فيما نستطيع أن نتحدث عن تأسيس انجلو أميركي ولد مع تشارلس بيرس ، وتطور مع موريس ، وضع البراغماتية أساسا إلى جانب التركيب والدلالة في التحليل اللغوي ، والبراغماتية تعني ، في معناها الأوضح ، دراسة المعنى في الألفاظ اللغوية عند مستخدميها ومفسريها[3] ، وهذا(الأس) انشغل به

---

(١) فلسفة اللغة، الأستاذ الدكتور محمد مهران رشوان، والدكتور عصام زكريا جميل، دار المسيرة، الأردن، ط١، ٢٠١٢.

(٢) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، أوزوالد ديكرو، جان ماري سشايفر، ترجمة د. منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧.

(٣) اللسانيات والرواية، روجر فاولر، ترجمة الأستاذ الدكتور أحمد صبرة، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، ط٢، ٢٠١٠.

فلاسفة اللغة في مدرستي كامبيردج وأكسفورد ، ومثّل اتجاها وسم الفلسفة الإنكليزية في القرن العشرين[١] ، والتأكيد على المؤول فتح الباب أمام النظر في السياق ، وإن كان السياق أُريد به عند فلاسفة التحليل وعلى رأسهم(فريجه) أن لا معنى للمفردة إلا ضمن الجملة ، فإنه هنا اتخذ معنى أبعد من ذلك. لكن السياق بمعناه الحالي أُخذ من التقليد الأنثروبولوجي ، وتحديدا مما قدمه مالينوفسكي ، الذي ذهب إلى القول بأن اللغة أسلوب عمل وليست تصديقا للتفكير ، لذا لا يمكن فهمها مقطوعة عن سياق حالتها[٢]. هذه الرؤية استلهمها(فيرث) وأضاف بأن سياق الحالة جزءا من أداة اللساني. إذ رأى أن عناصر النص(اللغوي) تتألف من: "الصفات المشتركة المتصلة بمن يشتركون في الحديث ممن لهم علاقة بالحدث اللغوي ، وهذه الصفات أهمها: أحداث لغوية صادرة عنهم ، وأحداث غير لغوية ، وأشياء خارجية ذات صلة بالحديث ، وآثار خارجية ذات صلة بالحديث"[٣]. هذه النظرات لم تصبح نظرية إلا مع مايكل هاليداي[٤] ، الذي ذهب إلى القول بأن السياق يتكون من ثلاثة مظاهر: المجال ونوع الخطاب ، والمشتركين فيه ، ومن هذا التقسيم اتجه نحو توزيع النص بين ثلاثة مكونات: المكون الفكري ، والمكون العلائقي ، والمكون النصاني اللغوي[٥] ، ولم يتوقف عند الجملة ، بل امتد اشتغاله ليشمل النصوص اللغوية بجميع تجلياتها ، وقدّم مفهوم الاتساق(الانسجام) النصي بوصفه المميز الأساس بين ما هو نص وماهو ليس بنص ، مفترضا توافر النص على جملة من الخصائص طرحها في كتابه (**Cohesion in English**). وهذا (الانتقال من درس الجملة

---

(١) اللسانيات الوظيفية(مدخل نظري) د.أحمد المتوكل، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط٢، ٢٠١٠.

(٢) اللغة والخطاب الأدبي، مجموعة كتاب، اختيار وترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣.

(٣) اللغة والمعنى والسياق، جيفري ليش وجيني توماس، ضمن الموسوعة اللغوية، تحرير الأستاذ الدكتور ن. ي. كولنج، ترجمة الدكتور محي الدين حميدي والدكتور عبد الله الحميدان، جامعة الملك سعود، السعودية، ط١، ١٤٢١هـ.

(٤) مبادئ التداولية، جيوفري ليتش، تر عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ط١، ٢٠١٣.

(٥) مبادئ السنية عامة، أندريه مارتينيه، ترجمة ريمون رزق الله، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٠.

إلى النص) يعد تطورا كبيرا في الدرس اللساني. أثر بشكل مباشر فيما قدمه فاولر ، لذا جاء كتابه النقد اللساني ، في الكثير من فصوله ، شارحا وناقدا وموسعا لفرضيات هاليداي "حسب نظرية هاليداي اللسانية ، فإن للغة ثلاث وظائف تؤديها بشكل متزامن ومتواصل ، ويسمي هاليداي هذه الوظائف بالنصية ، والبينشخصية والتصورية(أو التجاربية). وما يعنينا هنا الوظيفة "التصورية" ؛ وبعض جوانب الوظيفة النصية يناقشها الفصلان ٥ و٦ ، أما الوظيفة البينشخصية فستكون عموما محور الفصلين ٧ و٨"[١]. وهذا يؤكد حجم تأثير هاليداي ، ومن ثم تحرك النقد اللساني في الفضاء الوظيفي[٢].

٤- نظرية فاولر اللسانية

مهد التحليل النصي لهاليداي الطريق أمام (روجر فاولر*) أي تطبيق الوظيفية في درس الأدب ، لكنه لم يكتف بما قدمته اللسانيات الوظيفية لدى استاذه وزملائه ، بل امتد ببصره صوب الشكلانيين الروس ، وما قدمته مدرسة براغ ، فضلا عن البنيوية الفرنسية والتوليدية الاميركية. إذ أكد بوضوح أنه ، وإن انطلق من هاليداي ، كان انتقائيا ، "سأحاول في هذا الكتاب أن أربط معا تيارات متعددة في تخطيط مبدئي وفق منهج جديد ، وسأحاول أن أكون انتقائيا في رسم هذه المداخل المتعددة"[٣] ، ويوضح بعضا من مداخله بالقول: "يمدنا تشومسكي في نحوه التحويلي بتفسير للفكرة التقليدية عن الأسلوب على أنه علاقة بين المعنى والتعبير ، بينما يجعلنا المدخل الوظيفي لهاليداي نفكر في السبب الذي من أجله يختار مستخدم اللغة بنية جملة معينة ولا يختار أخرى ، ويمدنا هاليداي ببعض المصطلحات الجيدة في

---

(١) معجم الأسلوبيات، كاتي وايلز، ترجمة خالد الأشهب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠١٤: ٦٣٧.

(٢) نحوَ نحْوٍ وظيفي للخطاب، سيمون ديك، ترجمة ربيعة العربي، موقع الحوار المتمدن http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=352264

❖

(٣) النص والسياق، فان ديك، تر: عبد القادر قنيني، منشورات أفريقيا الشرق، بيروت، ط١، ٢٠٠٠.

الإجابة عن هذا السؤال ، إنني سوف استخدم هذا الوصف اللساني للتركيز جزئيا على الأساليب التي تغني بها الجمل المفردة الأشكال النصية الأكثر اتساعا. وفي العلاقة بين الأصوات داخل الرواية- هذا الموضوع الذي عالجه نقاد المدرسة اللسانية الروسية التي أسسها ميخائيل باختين... إن الإنشغال الرئيسي لهذا الكتاب ، بالنسبة لقارىء الرواية وناقدها سينصب على أهمية بنية الجملة ، وأهمية التحويلات في تحليل الجملة الواحدة بشكل متراكم في تحليل عمل كامل ، بمعنى أن تحليلاتي الوصفية والتعميمات التي يمكن أن تستخلص منها ستتأسس على نموذج أصيل في لسانيات الجملة[١].

ويشير فاولر في مقدمته لكتابه (اللسانيات والرواية) إلى أنه سيقدم منظورا جديدا في نقد الروايات ، وجدّتُه متأتية ، كما يشير ، من كونه كُرِّس لدراسة اللغة العادية ، وليس الاعمال الأدبية[٢]. والمنظور الذي يتحدث عنه هو المنظور اللساني ، مؤكدا أنه استخدمه لسيادة فكرة التقنية ، وكون "الالتفات إليها(التقنية) هو الأساس الوحيد لفهم طبيعة السرود النثرية[١]. فضلا عن كونها(الرواية) إبداعا لسانيا. وهو لكي يطبق تحليلا لسانيا فإنه ينطلق من فرضية شاعت عند علماء التحليل النصي ، مفادها: أن بنية النص(الخطاب) تشبه بنية الجملة. الأمر الذي يقوده إلى القول بأن "أبواب (مقولات) البنية التي نقترحها لتحليل الجمل المفردة(في اللسانيات) يمكن أن تمتد لتطبق على البنية الأكثر اتساعا في النصوص"[٣]. نرى أنه في هذا النص يبين مرجعياته (اللسانية) المباشرة ، لكنه في أماكن لاحقة يشير إلى باختين وبارت وليفي شتراوس وتودوروف[٤]. إذ يقول في مقدمته لكتابه النقد اللساني "ركزنا بشكل

---

(١) النظريات اللسانية الكبرى (من النحو المقارن إلى الذرائعية) ماري آن بافو، وجورج إليا سرفاتي، ترجمة محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠١٢.

(٢) النقد اللساني، روجر فاولر، ترجمة د. عفاف البطاينة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠١٢.

(٣) الوظيفية بين الكلية والنمطية، د. أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط، ط١، ٢٠٠٣.

(٤)

أساسي على تطوير بعض محاجّة الكتاب المتعلقة بالبنية اللسانية الاجتماعية ، وبالتداولية... كما وظفنا بشكل أكبر نظرية باختين في تعدد الألسن ، رابطين إياها بمصطلحي السيميائية الاجتماعية والسجل النصي من عند هاليداي"(١). إذن ما يسعى إليه فاولر يمكن عده تطويرا لما سبق أن قدمه أستاذه هاليداي ، من تطويع لنحو الجملة لتحليل النصوص. ومن ينظر في كتابه(النقد اللساني) يرى هيمنة فرضية سابير وورف(٢) ، فهو يقول: "يبدو أن البشر لا يحتكون بالعالم الموضوعي مباشرة ، بل يرتبطون به عن طريق أنظمة التصنيف التي تبسّط الظواهر الموضوعية ، وتجعلها موضوعات طيعة ، ومقتصَدة ، ومادة سائغة للفكر والفعل ، بعبارة أخرى ، يبتكر البشر العالم مرتين: في المرة الأولى يغيّرونه بواسطة التكنولوجيا ، وفي المرة الثانية يقومون بإعادة تأويله عن طريق إسقاط التصنيفات عليه"(٣). وهذا الكلام لا يمكن إخراجه من دائرة النسبية اللغوية التي ذهب إليها سابير وورف في فرضيتهما. وهذه النسبية تجعل من الفعل اللغوي ابداعي في أساسه ، ومن ثم مضاعف الابداع في جانبه الأدبي. من هنا يمكن فهم تأكيد فاولر ضرورة أن يكون النقد اللساني قادرا على التعامل مع النص المنتج ، من دون النظر فيما إذا كان أدبيا أم لا. كما لم يقصر وظيفة النقد على النص فقط ، بل وسعه ليكون مرادفا للمعرفة الشمولية "إن الدافع الأساسي لممارسة النقد لا يمكن أن يكون السلبية ، وإنما هو التشكيك الفضولي المجدي. فالنقاد مهتمون بظروف المعرفة في مجتمعاتهم والقيود المفروضة عليها ؛ وبطرق انتاج المعاني ؛ وبمضامين أنظمة المعاني المؤثرة في أفراد مجتمعاتهم ؛ وبالتالي بنسبية معرفتهم الخاصة ومكامن إبداعيتها"(٤). وإذا كان هنا يبين شروط الناقد ، فإنه في مكان مكان لاحق يوضح شروط النقد اللساني نفسه ، بالقول: "إن النقد تحليل واع للعلاقات بين العلامات/الدوال – الكلمات ، والمركبات... إلخ ، التي ينتجها الناس ،

---

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

وبين المعاني التي يتناقلونها ، وتحليل هذه العلاقة هو بالضرورة استكشاف للأصول الاجتماعية للمعاني ، والأغراض الاجتماعية للغة المحكية والمكتوبة. وعليه ، فإن النقد ليس مسعى ذاتي التبرير أو ذاتي الاكتفاء ، ولا هو ضرب من ضروب اللامبالاة. إن النقد شكل من أشكال المراس الاجتماعي"(١).

٥- التحليلية البنيوية

يطلق على تحليله تسمية(التحليل البنيوي) ويوضحه بالقول: "يركز التحليل البنيوي - وهو مقاربتي..- على النص بوصفه موضوعا... اقترحَت(نظريته) أساليب تترابط بها الرواية الفردية أو القصة بالسياقات الأوسع من الكتابة والقراءة والبنية الاجتماعية"(٢). فيما أسماه(منهجه) في كتابه النقد اللساني(المنهج التحليلي **Analytic method**): "إن الغرض الرئيسي لهذا الكتاب إذا ، هو أن نطرح أهمية المنهج التحليلي المستنبط من اللسانيات للنقد ، وأن نبيّنه"(٣). وبرغم أن الكلام السابق يشير إلى منهجين مختلفين إلا أن المطلع على ما كتبه(فاولر) يدرك أن المنهج واحد ، وإن اختلفت المسميات. من هنا يمكن أن نطلق عليه(البنيوي التحليلي) مقابل (البنيوية التركيبية*) ، فهو بنيوي لكونه يسعى لاستكشاف بنية النص المدروس ، وتحليلي لأنه ينطلق من الكلية إلى تحديد الجزئيات المشكلة للنص ، ولم يتوقف عند الوحدات المكونة للنص فحسب ، بل اتجه نحو التحليل السيميائي ليعزز الجانب الفني. من كل ما سبق نجد أن اعتماد البنيوية التحليلية في وصف اتجاهه في النقد دقيق إلى حد كبير. وسعى إلى خلق تكامل بين البنيوية والسياقية "عن التحليلات البنيوية والتحليلات السياقية يمكن أن تتكامل ، وأنا أريد منّا أن نفكر في التحليل البنيوي بوصفه نقطة أساسية في النشاط التفسيري من أجل وضع العمل في إطار

---

(١)

(٢)

(٣)

❖

القيم للمجتمع. عن نموذج التحليل البنيوي الذي أقترحه يدعو ويتطلب وصفا محددا للبنية اللسانية... إن فئة(الخطاب) كما أتصورها منطقة خصبة للتطوير في اللسانيات، وآمل أن أرى قدرتها على صنع إسهام أصلي في دراسة على اجتماع الرواية"[١].

فيما لا يميز في تحليله بين النص العادي والنص الأدبي، ويرى: "أن اللغة الشعرية ليست كيانا موضوعيا متميزا، وإنما هي مفهوم متخيل أنتجته مؤسسة الأدب عن طريق النشر، والمراجعات والنقد، والتنظير والتدريس"[٢]. فيما يكون النقد جزءا من الحيز الاجتماعي، لكن هو الجزء الناقد المشكك، الواعي بخطورة ما أسماه الاعتيادية والشرعنة، التي تسيّر معظم الأفعال، والأقوال البشرية، لهذا ذهب إلى القول بأن "النقد ليس إصدار أحكام وحسب، أي الزعم بأن عملا ما عمل جيد أو سيئ. فمهما يكن، فإن الناقد الجاد يعرف أن المسائل المرتبطة بالقيم(أخلاقية كانت أو اجتماعية) تدخل في حيّز نقده طالما أن الأعمال التي يستكشفها ومعانيها قد خرجت من رحم التفاعل الحاصل بين الفرد والمجتمع"[٣]. وليس مستغربا أن يحيلنا هذا القول نحو المدرسة الاجتماعية الإنكليزية وعلى رأسها رايموند ويليامز، الذي سبق له أن أكد في كتابه(الثقافة والمجتمع) التحولات العميقة في المدلولات اللغوية المرتبطة بالتحولات الاجتماعية "لم أختص في بحثي واستقصائي بتمييز المعاني فحسب، بل بارتباطها بمصادرها وبمؤثراتها... سأهتم بوجه خاص بالتطورات العامة التي طرأت على معاني اللغة، وهذه التطورات دائما ما تكون أكثر من مجرد تطورات شخصية"[٤]. وهذا(نسق مضمر) لم يشر إليه فاولر. وهو نسق يتضح بشدة حين نقارن ما سبق أن طرحه رايموند وليامز بقول فاولر: "الهدف الأساسي من النقد اللساني في المجال الأول هو تحدي هالة القدسية التي تحيط بممارسة ما، أي توضيح الممارسات التي تُستعمل اللغة فيها لتقديم مفاهيم منحازة ومنزاحة لتبدو وكأنها بريئة وطبيعية. أما في المجال

---

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

الثاني ، فيهدف النقد إلى التمحيص -الذاتي ، والتيقظ لنفاذ القيم الاجتماعية إلى خطابنا الخاص ، والتي قد نرغب ، بعد التأمل ، في اجتثاثها أو مقاومتها"[١]. وهذا الفهم يغلب عليه البعد المعرفي - الاجتماعي لا البعد اللساني. الأمر الذي يؤكد أن ثمة مؤثرات أخرى لم يشر إليها فاولر صراحة ، منها ، فضلا عن وليامز ، ميشيل فوكو ، الذي تحول النقد اللساني بعد فاولر باتجاه مقولاته صراحة. وضمن هذا المساق يمكن أن نفهم توحيده النظر في النص الإبداعي والنص اليومي(الاعتيادي) ، "لو أردنا تطبيق اللسانيات على الرواية ، فيجب أن نفترض أن الفئات التي يمكن تطبيقها على اللغة العادية ، قابلة للتطبيق أيضا على النصوص الروائية ، ولن تسلبها التقنية أو طبيعة موضوعاتها قوتها من خلال مهابة القيود الاستهلالية التي تنشأ عن القدرة الخاصة المفترضة في الأدب"[٢] فهذه الرؤية وإن كانت وليدة تأثره المباشر بأستاذه (هاليداي) فإنها أيضا تتفق تمام الاتفاق مع معظم الطروحات البنيوية ، وعلى رأسها طروحات بارت وفوكو.

لكن يبقى مسيره المباشر مرتبطا بأستاذه هاليداي ، فهو عندما يبتغي من دراسته إعطاء الأولوية للغة ودراسة طبيعة تشكلها في النص الأدبي ، أو تشكل هذا النص لغويا ، إنما يسعى لتوظيف منهج لساني في دراسة النص ، ومنهجه ، كما أشرنا من قبل ، هو اللسانيات الوظيفية. إذ سبق لهاليداي أن أوضح هذا بجلاء ، بقوله: "عندما نتحدث(إذا) عن الدراسة اللسانية للنصوص الأدبية ، فإننا لا نقصد دراسة اللغة فحسب ، وإنما دراسة مثل هذه النصوص بواسطة مناهج اللسانيات"[٣] ، ويؤكد فاولر أن "اللسانيات ليست إجراء استكشافيا ، وليست إجراء نقديا: لذلك فهي بحاجة لأن توجهها فرضيات أولية تتم مراجعتها في ضوء الأدلة اللغوية ، ويتم تعديلها وتأكيدها تدريجيا بتدرج التحليل"[٤] ، هذه الفرضيات الأولية عند فاولر فرضيات المدرسة

---

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

الوظيفية "في اعتقادي ، فإن... الوظيفية تنسجم انسجاما تاما مع افتتان النقد الأدبي بالبحث التفسيري ، وهي بذلك مساعد طبيعي له ومصدر للأفكار"'' لكنه ، وكما أشرنا من قبل لا ينسى البعد الاجتماعي "إن فئة(الخطاب) كما اتصورها منطقة خصبة للتطوير في اللسانيات ، وآمل أن أرى قدرتها على صنع إسهام أصلي في دراسات علم اجتماع الرواية"(١) ، وهو عندما يتحدث عن البعد الاجتماعي ، فإنه يربطه بما يسميه "التقاليد" ويرى أن "التأسيس التنظيمي للمجتمع(مشتملا على قواعد الكتابة) يتعالى ويتحكم في الفرد ، وتحدد الأشكال اللفظية التي يستطيع(أو تستطيع نشرها) أو تحدد الاستجابة لها ، هذا التحكم يطبق على الروائي مثلما يطبق على القارىء ، إنه يستطيع(أو تستطيع الكتابة) بوضوح ضمن الاحتمالات التي تمده بها أنظمة التقاليد التي تحدد الثقافة"(٢). فيما يتحدث في مقدمته لكتاب(اللسانيات والرواية) بأنه سيقدم منظورا جديدا في قراءة الرواية. منظور اعتمد الدرس اللساني الذي انشغل ، من قبل ، بدراسة وتحليل الجملة(٣). "إنني سوف أطرح بعض الأفكار العامة المأخوذة من نحو النص ، مفترضا أن النص له بنية كلية شبيهة ببنية الجملة الواحدة"(٤) ، ويعزز هذا بقوله: "الالتفات إلى التقنية هو الأساس الوحيد لفهم طبيعة السرود النثرية"(٥). ويوضح مفهوم التقنية بالقول: "عالم الرواية الخارجي عالم مصطنع منشأ من خلال تقنية الراوي ، ويجب أن نكون معنيين بالوسائل التي يتحقق بها هذا العالم"(٦). ثمّ ينطلق من مسلمة أساس ، مفادها: "سوف أوكد على أن بنية النص تشبه بنية الجملة... هذا يعني أن أبواب البنية التي نقترحها لتحليل الجمل المفردة

---

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

يمكن أن تمتد لتطبق على البنية الأكثر اتساعا في النصوص"[١]. بعدها يبدأ اشتغاله اللساني معتمدا لسانيات تشومسكي(التحويلية): "إن التحويلية عمليات شكلية تحول المعنى المجرد إلى بنية سطحية بواسطة سلسلة منتظمة من التغيرات البنيوية"[٢] ، منها يعود بالالماح إلى مدرسة براغ ، وجهود جاكوبسن "من أجل تنظيم شكل بنيته اللسانية يتمتع الكاتب باختيارات متسعة في أساليب التعبير ، وتؤثر الاختيارات التي يصنعها بقوة على منظور المعنى بتوجيه انتباهنا إلى المحتوى ، وإلى بنية العالم المرسوم في الرواية ، بطريقة أو أخرى"[٣] ، وما سبق يدعمه قوله: "وسيلتنا الوحيدة للاقتراب من المعاني الكامنة للنصوص تكون عن طريق نظم وأشكال واختيارات الكلمات التي نواجهها في السطح ، هذا يعني أننا نختبر المعنى عن طريق الشكل فقط بواسطة إدراك القواعد التحويلية التي توظفها النصوص ، وإن المعنى يأتي إلينا عن طريق الشكل الذي يُعبر من خلاله"[٤]. بعده يضع تقابلات بين الجملة والنص ، ومن ثم فالجملة تقابل العمل الروائي ، والبنية السطحية تقابل النص ، والصيغية(الجهوية) تقابل الخطاب ، فيما الخبر يقابل المحتوى. وتمييزه بين النص والخطاب هنا مختلف عن التمييز البنيوي ، وإن اتفق مع تمييز(جيرار جينيت) إذ أراد بالنص سلسلة من الجمل ترتبط بالشكل من خلال تتابع مستمر ومتماسك. فيما أراد بالخطاب: الحوار ووجهة النظر ، والاتجاه ورؤية العالم. فيما أراد بالمحتوى: الحبكة والشخصية ، والثيمة[١]. ثم يعود نحو البعد الاجتماعي المضمر: "يُخلَق الخطاب الروائي من تفاعل الأعراف الثقافية ، وتوظيف المؤلف التعبيري لهذه الأعراف كما تشفر في اللغة ، ونشاط القارئ في إدراك المعنى من النص"[٥]. ويتجلى هذا المنهج بوضوح في كتابه(اللسانيات والرواية)إذ يوزع الكتاب بين فصول خمسة أساسية: (مبادئ ، عناصر ، النص ،

---

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

الخطاب ، الروائـي والقـارئ والجماعـة) في المبـادئ يتحـدث عـن البنيـتين السـطحية والعميقة للنص ، بعد مقارنته النص بالجملة ، ووقوفه عند الإسـناد الجملـي ، ووصـفه المسند بـ(النواة الدلالية) للقضية وتوزيعه الفعل(المسند) ، بين فعل(حركة) وفعل حالة (سـكون) ، ويـأتي تحليلـه(الـذري) هـذا وليـد موقفـه الـذاهب إلى أن "تحليـل الجـزء الإخباري للبنية العميقة(يشكل) أهمية بالغة: إنـه لـب المضـمون المعـرفي الـذي ينـبني عليه المعنى الكلي"[١] ، ثم يدرس التحويلات ، أي عمليات تحويل البنية العميقة إلى بنية سطحية ، بحسب النحو التوليـدي ، وتـأتي أهميـة دراسـة التحـويلات مـن كونهـا (التحـويلات) هـي مـن يحـدد (المنظـور) فالتحويـل اختيـار ، والاختيـار منظـور. وفي (العناصر) يبدأ بدرس(نحو النص) الذي يبنى كالاتي:

بنية سطحية

تحويلات

بنية عميقة دلالية (صيغة* + إخبار)

الإخبار=مسند + اسم (ضمن أدوار)

يسحب هذه المتوالية على النصوص الكبرى. منطلقا مـن كـون البنيـة السـطحية للنص لها خواصها ، مثل: "المتواليـة ، الإيقـاع ، التعبيريـة المكانيـة ، والزمانيـة لمختلـف الأصـناف: تـرقيم الصـفحات ، وضـع الفقـرات ، تقسـيم الفصـول والأقسـام الأخـرى ، تنويعات الطباعة أينما أملاها الروائي"[٢]. في حـين أن البنيـة العميقـة تـرتبط بالحبكـة القصصية ، بوصفها متوالية أفعال ومسندات "وكما أن الأفعال في الجمـل تختـزل إلى عدد قليـل مـن الأنـواع العناصـرية ، فالمسـندات القصصـية قد تنقسـم إلى جملـة مـن أوليـات أساسـية تعـيّن سلسـلة الإمكانيـات الفعليـة بالنسـبة للإنسـان والمواضـيع الأخرى"[٣]. ومن ثـم استعرض جهـود بـروب والسـيميائيين الفرنسـيين في هـذا المجال

---

(١)

❖

(٢)

(٣)

مبينا حاجة النظرية العاملية إلى التطوير ، مؤكدا محدودية تطبيقها ، واقتصارها على (القص النموذجي/النمطي) مثلما هو عند بلزاك وأقرانه ، وليس الفردي ، مثلما هو عند جويس وأقرانه. ومن بعد ينتقل للتحيل الدلالي للاسم بوصفه(مفردة- كلمة): "يمكن تمييز البنود –المفردات- المعجمية الواحدة عن الأخرى من خلال السمات المتأصلة للمعنى ، وهي سمات تحدد أي الموضوعات تستخدمها في الإشارة ، ويلجأ أحد الاقتراحات لوصف سمات المعنى إلى الاسم المحرم نوعا ما للتحليل المركب ويعد كل بند معجمي مجموعة ، أو حزمة من المركبات ، يطلق عليها السمات المميزة ، أو السمات الدلالية ، أو السيميمات ، وتتميز الكلمات طبقا للسمات التي تمتلكها"[1]. وهذا التحليل يفيد في بيان طبيعة القوالب المتحكمة في القص لمرحلة تاريخية معينة ، ومن ثم يقف عند الصيغة عادا إياها ملازمة لكل فعل لغوي ، مكتوب أو شفوي "لا توجد في النصوص الحقيقية والملفوظات محتوى بدون صيغة"[2] ، ويختم بتطبيق ما سبق بيانه على نص قصصي لهيمنغواي. مبتدئا ببيان التماسك النصي فيه ، والتكرار والتوازي ، ثم تنويعات الخطاب(الصيغة) مؤكد أن الخطاب هنا ينطبق على وجهة النظر ، ثم يبين العوامل(الفواعل) وبالرغم من فقر التحليل وافتقاره إلى العمق المرجو من صاحب(وجهة نظر جديدة) إلا أنه يبين صحة ادعاء المؤلف بتوفيقية وجهة نظره هذه.

وفي فصل(الخطاب) يدرس وجهة النظر بتوسع ، ويرى أنها تستخدم بمعنيين: الأول جمالي/إدراكي ، والمعنى الثاني إيدولوجي...الأول يشبه زاوية النظر في الفنون التشكيلية يقوم فيه "المؤلف بتوجيه نفسه وقارئه في ما يتعلق بمضمون عالمه المتمثل"[3]. فيما يؤكد الثاني أن ليس هناك رواية محايدة ، موضوعية. ويذهب فاولر إلى القول بأن "الطابعين البلاغي والموقفي شرطان حتميان لاستخدام كل لغة ،

---

(١)

(٢)

(٣)

وليسا فقط خاصية للأدب على وجه الحصر"[١]. ويرى أن جملنا "تقطع الحوادث والعمليات والناس الذين نشير إليهم ، وتحللهم وفقا لنماذج معينة لكيفية تجلي العالم في ثقافتنا ، وفي بنيتنا العقلية البايلوجية المحددة"[٢]. وهذا ما يطلق عليه تسمية (أسلوب العقل **mind style**[*]) ومن ثم يقف عند ما يسميه البعد اللساني الاجتماعي في الخطاب. إذ يذهب إلى القول بأن "المنظورات المألوفة الفردية عن الواقع تنتج عن مكانة هذا الفرد داخل البنية الاقتصادية الاجتماعية"[٣]. ومن ثمّ فهو يؤكد ضرورة معرفة حياة المؤلف لفهم الثيمات المتحكمة بأعماله[٤].

ويميز بين رؤية(منظور) داخلية وأخرى خارجية: الداخلية تكشف لنا بواطن وعي الشخصية من خلال تيار الوعي ومناجاة النفس أو المونولوج الداخلي[١] ، فيما الخارجي تكون الشخصية فيه مبهمة ، ومن ثمّ فهو يقود إلى العزلة وخلق فجوة بين المراقب والشخصية[٥]. ويختم كتابه بحديثه عن التناص"إن العمل يتكون من طروس من الكتابات الأولى ، ومجازيا مثل الورق الذي يكتب عليه أكثر من مرّة ، ويعاد استخدامه على أنه ورق نفيس مع بعض الآثار نصف ممحوة من نصوص سابقة"[٦]. وهكذا نرى أننا أما عمل متسع في مداه النظري ، لأنه يسعى بيكون بوتقة تصهر معارف القرن العشرين اللسانية والنقدية ، فضلا عن الاجتماعية ، وإذا كانت هذه الفضيلة الأساس لها العمل ، والممثل لما أسماه فاولر(وجهة النظر الجديدة في دراسة الرواية) فإنها تمثل مشكلة المنهج أيضا ، فمن المستبعد أن نجد باحثا يستطيع السيطرة على المداخل المطروحة جميعها ، وهذا القصور نراه في تطبيقات فاولر نفسه في كتابيه

---

(١)

(٢)

❖

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

المشار إليهما هنا. وهو قصور يحتاج إلى وقفة موسعة مع تطبيقات فاولر. لكن يبقى مثل هذا المنهج ضرورة لتجاوز ثنائية الشكل/المحتوى التي شغلت ، ومازالت ، معظم الأعمال النقدية ، إن في قرننا هذا ، او في سابقه.

٦- الأسلوبية والنقد اللساني

الحديث عن اللسانيات وتطبيقاتها النقدية في الغالب يقود باتجاهين: الأسلوبية وعلم النص(تحليل الخطاب) ، ولم نتحدث عن كلا الاتجاهين فيما سبق حتى لا يُولَّد اعتقاد بعلاقة فاولر بأي منهما. فلم يطرح أو يختط طريقا(منهجا) أسلوبيا ، ولم ينشغل ، في جميع ما كتب ، بالدرس الأسلوبي ، وإن قال: "النقد اللساني ليس مجرد نقد للغة ، بل هو نقد يوظف اللسانيات"[١] ، لكن التوظيف المقصود هنا ليس توظيفا أسلوبيا. إذ إن "هدف أغلب الدراسات الأسلوبية هو تبيان كيف يشتغل النص: لكن ليس فقط لوصف السمات الشكلية للنصوص في حد ذاتها ، ولكن لأظهار دلالتها الوظيفية في تأويل النص ، أو لربط التأثيرات الأدبية أو الموضوعات بالمسببات اللغوية"[٢] ، هذا التحديد يوضح الفرق بين الأسلوبية والنقد اللساني ، لكون الأخير لم يغفل دور القارىء ، وأنشغل بالسياق بحكم انبثاقه من المدرسة الوظيفية. برغم أن هناك من يعدهما مترادفين[٣]. ويمكن أن نرى في التطور الذي آل إليه النقد اللساني السير باتجاه أكثر خصوصية ، وأعمق تمايزا ، فنورمان فيركلوغ وروث ووداك وبول شيلتون توجوهوا صوب الأيديولوجيا وتأثير الأنظمة الاجتماعية على انتاج الخطاب[٤].

أما إذا نظرنا للعلاقة بين النقد اللساني وتحليل الخطاب ، فسنرى أن عمل فاولر كان تطويرا لعمل هاليداي ، كما أشرنا من قبل ، لكنه لم يحصر نفسه في الأطر

---

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

النصية التي سيطرت تمام السيطرة على عمل الأخير. وعلى وفق هذا يمكن أن ربط بين ما قدمه(فاولر) وبين أعمال لسانيين نصيين ، لم ينشغلوا بالنص فحسب ، بل امتدت رؤاهم لتتسع للسياق والتلقي ، وعلى رأس هؤلاء(فان ديك[1]).

٧- الخاتمة

من كل ماسبق يمكن أن نخرج بالقول إن مساحة النقد اللساني ، برغم سعتها المطروحة في أفكار فاولر ، إلا أنها مساحة قادرة على منحنا منهجا يمكن له أن يتجاوز الأحادية التي عرفتها العديد من المناهج السائدة ، مثل: منهج جينيت ، وتأكيده الجانب الفني ، ومنهج غريماس ، وتأكيده الجانب الثيماتي. والأحادية الأعمق التي عرفتها الدراسات الأسلوبية في بعديها المحلي(العربي) والعالمي. إذ جرى التأكيد على لغة النص وشكله ، واستبعد المحتوى. ومن جانب آخر نراه منهجا أكثر مرونة من مناهج تحليل الخطاب التي جرى التسويق لها بقوة مؤخرا. ثم إن مجالنا النقدي بحاجة إلى أن يتسع برؤاه ، في الوقوف عند مختلف الاتجاهات النقدية ، ومن تفاعل هذه الاتجاه يمكن له أن يكون خصبا معطاءً. لكن من جانب آخر فإن هذا المنهج بسعته المطروحة يمكن أن يكون تلفيقا مخلا إذا أسيئ تطبيقه ، فليس من الممكن اعتماده من قبل الدارس ما لم يكن ملما ، إلى حد ما باللسانيات الوظيفية ، فضلا عن جهدي غريماس وجينيت ، لكي يحافظ على قاعدة ارتكازه ولا يضيع بين مدارس كان لها أثرها في تشكل نقد فاولر.

---

(١)

ملكة النطق عندالفلاسفةالمسلمين في ضوء اللسانيات

د. كريم عبيد علوي
كليةالتربيةللبناتجامعةبغداد

ملخصالبحث

تناولهذاالبحثتنظيراتالفلاسفةالمسلمينحولالقدرةالإنسانيةالتيينطلقمنهاالذهنفيإدراكهل لعلامةاللسانيةوتمثلهللأشياءوالتييستطيعمنخلالهاالتواصلمعالآخر ؛موازناًإياهامعالتصوراتال لسانيةالحديثةوالتصوراتالسايكلوجيةفيمايتعلقبانبثاقملكةالكلامومراحلنمواللغةوتطورها ؛م بيناًالعلاقةالمفصـــــليةبيناللغةوالفكرفيتلكالمراحل.

وقدتتبعبنحوتفصيلياجهازالإدراكيالبشـــــريوعلاقتهبإنتاجالكلاموفهمه.

وقداهتمبموازنةالكلامعندالفلاسفةالمسلمينبالإشاراتالحيوانيةالغريزيةالتيتطلقهابعضأنواعالح يواناتلبعضضمنالوظيفةالصوتيةالتنبيهيةمتتبعاًبمقاربةمنهجيةالمزاياالتيرصدهاالفلاسفةالمسلم ونللعلامةاللسانيةفيمايتعلقبكفاءتهاالإيصاليةفيالإخباروسماتهاالبنائيةمقارناًإياهابالسماتالتي شخصتهااللسانياتللكلامثلمفهومالإزاحةوالمفهومالخطيفيإنتاجالكلامومفهومالانبناءالمزدوج وكذلكالقدرةالتوليديةالانتاجيةللكلام.واهتمأيضاهذاالبحثبربطالقدرةالكلاميةبالقدرةالترميز يةللإنسانبنحوعامضمنتصوراتالفلاسفةالمسلمينحولمفهومالمنطقبوصفهسمةنوعيةللبشرفيالت مييزوالاستنتاجوالتواصلاللغويوالإشاري.

نفذتاللسانياتفيدراستهااللغةالبشريةإلىالقدرةالبايولوجةبوصـفهاسمةنوعيةكليةواحدةبن حويجلوانبثاقتلكالقدرةوأثرهافياكتســـــباللغة ، والموقعالوظيفيلتلكالقدرةضـــــمنمراحلالإدراكالذهني ، مبينةارتباطهذهالملكةبالقدرةالترميزيـــــةبنحوعام ، ومؤكدةفيالوقتنفسهتلكالخصوصيةاللسانيةالتيمتازبهاالنوعالانسانيموازنةبماعندالحيواناتمنأنظم ةإشاريةلاترتقيإلىالقدرةالتعبيريةالتيتمتازبهالغةالبشر.

لقد اختزنت الفلسفة الإسلامية في مصادرها التراثية الأمّ معالجات تسبر الملكة اللسانية عند البشر وارتباطها بالإدراك الذهني ضمن معالجاتهم لملكة النطق، وارتباطها ببقية القوى الإدراكية الأخرى ومعالجات أخرى توزعت في أبواب شتى بعضها انطلق من إيضاح مفهوم التمثلات وما تضطلع به من وساطة بين الدال اللساني ومرجعها الموضوعي الخارجي، وأخرى وازنت بين إشارية الحيوان ومزايا اللغة الإنسانية في الإيصال.
وهذه المعالجات الفلسفية الإسلامية سينطلق منها هذا البحث واقفاً عند أرهاصاتها النظرية التفصيلية منتهجاً مبدأ موازنة تلك النظرات مع الدراسات اللسانية المعاصرة.

وقبل النفاذ إلى المباحث التفصيلية لا بد من إيضاح مفهوم التمثلات **Representations**، لقد ارتبط هذا المفهوم بمصطلح الإدراك وظيفياً ((والإدراك: تمثُّل حقيقة الشيء عند المدرك يشاهدها ما به يدرك))(١).

إنَّ الموضوع الخارجي لا يمكن حضوره في الذات المدركة؛ لكينونته المنفصلة فما يحضر في الذهن إنما هو صور تتوسط بينه وبين الذات المدركة.

وهذه الصور هي تمثلات تنفك فيها الإدراك من الارتباط بالموضوع.

والتمثل ((هو بداية المعرفة.

فالإدراك الحسي لا يفهم إلا بواسطة التمثلات، إذ إن الإحساسات الابتدائية ليست بحد ذاتها إحساسات، إلا بقدر ما هي تصبح تمثلات ذهنية فالتأثير الخارجي هو غامض من دون بدون تمثل، فالتمثل هو الواسطة الضرورية بين الشيء والذات. فالشيء والذات هما من طبيعة مختلفة تماما. والربط بينهما لا يتم إلا بتوسط التمثل. فالتمثل هو واقع ذهني، لا يمكن أن يلغى، وإلا تلاشت المعرفة. فهو الشرط الضروري للإدراك شرط منطقي أبستمولوجي ويمكن القول بأن له وجودا أنطلوجيا، وبالرغم من أنه يتلاشى ويفلت، وعلى الذات استحضاره، وأن تناضل للاحتفاظ به، فهو لا يدوم في الزمان. الزمان المتسلط على الذات يعدم التمثلات، ولكن الذاكرة يمكنها أن تستحضر الذكريات)) (٢).

لقد كان أمراً جوهريًا –في تصور الفلاسفة المسلمين– أن الذهن يحتفظ بصورة ممثّلة عن الموضوع الخارجي تُستَدعى حين الاستذكار، وتنقدح منها المعرفة في تجربة المشاهدة الأُولى وتنفك عن الارتباط بالموضوع. وهذا ما يشير إليه مسكويه: ((إن النفس ترى عند غيبة المرئيات ما تراه من حضورها. وذلك بحصول صورها في الحاس المشترك.

وهذه حال يجدها الإنسان من نفسه ضرورة....
وإلا فمن أين لنا صورة بغداد وخراسان والبلاد التي شاهدناها مرة، ثم نازلنا بها.
وصورة أصدقائنا فيها، وجميع ما نتذكره منذ الصّبا ولا حصول لهذه الصورة في الحاس المشترك)) (٣).

لقد نفذ الفلاسفة المسلمون إلى العملية الإدراكية، والسلسلة الإجرائية المفصلية التي تنتهجها هذه العملية، في استثبات الصور وتمثيلها، من خلال المفهوم الحسّ المشترك. وما يعنينا هنا هو أن نؤكد أن مفهوم التمثّلات في الحاس المشترك قد مثل مصداقاً أعم عبر مفهوم الصورة؛ إذ اشتملت على العلامة اللسانية، والصور الشكلية في رسم الحرف إلى جنب مختلف المحسوسات من صور تجسيدية (إيقونية) وغيرها.
((فلولا هذا الحاس المشترك العام الذي تثبت فيه صور المحسوسات ولا تزول، لكنّا إذا أبصرنا شيئا أو سمعناه ثم زال عن بصرنا وسمعنا زالت صورتها البتة حتى لا يمكننا أن نعرف صورتها إلا إذا وقعت أبصارنا وأسماعنا عليه ثانياً، ولكنا أيضاً مع إبصارنا له ثانيا وثالثا لا نعلم أنها الأول، وكذلك المسموعات. ولولا أننا نستثبت صورة المحسوسات أولاً أولاً في هذه القوة أعني الحاس العام المشترك لكنا لا نستفيد بالقراءة ورؤية الرقص والحركات كلها التي تنتهي مع آنات الزمان شيئا البتة، لأن البصر مستحيل بقراءة الحرف بعد الحرف، وبالحركة بعد الحركة فلا تثبت الحالة الأولى بمناستحالتها، ولو ثبتت الأولى لما حصلت الثانية، لكنا لأمر بالضد فيوجدنا هذه الصور بعد مفارقتها، كأنها نصب عيوننا تراها النفس))(٤).
وبين ثنايا النص فهم عميق، وسابق لما يشير إليه (سوسير) من الطبيعة الخطية للدال، ففي السلسلة الكلامية يبرز عنصر الزمن شرطاً ضرورياً ضمن تحقق كينونة الدال، فهو ذو بعد زمني واحد فلا يمكن أن ننطق بصوتين في وقت واحد، بخلاف الدوال البصرية ذات الأبعاد المتعددة كإشارات الملاحة(٥).

فمفهوم الاستحالة عند مسكويه يدلل على التعاقب الزمني الفيزياوي، فشرط ضروري أنّ يستحيل الدال كي يتعاقب الآخر ضمن السلسلة الكلامية.
إنَّ ربط هذا الفهم عند مسكويه بالحس المشترك مكنه من النفاذ إلى دوال بصرية يحكمها المبدأ نفسه، على خلاف ما قرره (سوسير) من كون الدال البصري لا يحكمها المبدأ الخطي، فالحركات الإشارية والرقص، دوال بصرية ولا تحصل بصور

ةمتزامنة ،إذتخضعللاستحالةالزمنية ،فيتمثلهاالذهنضمنحسهالمشترك ،ومنثميدركاللاحقفي تمكنالذهنمنإدراكتناهالرسومالتشكيليةالمرسومةفيالهواءعبرحركاتالرقص ،وكذلكالنغموالألحانإذ تخضعلمبدأالاستحالةالزمني.

إنَّهذاالفهمالعميقلطبيعةالدالالخطيةعندمسكويهإنمامكنهمنهعهواعتبارمفهومالإدراك ومبدأالتمثلالذييتخطىحاجزالزمن ،بيدأنأنموذجالدالالعنـــــــــــد (سوســـــــــــير) علىالرغممنارتباطهبالتصورالنفسيكانأنموذجابنيوياًلايمتبصـــــــــــــلةلكيفيةتمثلالخارج. إنالتمثلاللغويهوالعلامةاللسانيةمنظوراًإليهاخارجفاعليتهاالبنيويةداخلالنسق ؛إذطبيعةالبحث الفلســـــــــــــــفيتحتمالانطلاقمنمبدأالتمثلفياكتناهواقعالعلامة ،وارتباطهابالإدراك. وأيفهمللمعرفةبوســـــــــــــــــــــــــــــــــــعهأنيتخطىالواقعالخارجي ،إذ ((التمثيلالمعرفيهوشيءيقفبديلاًلشيءآخر ،أوفيموضـعه ،وهذاهومايطلقعليهعلماءالعلاماتم صـــطلحالعلامة... ومنالأفكارالعلاميةالواسعةالانتشارالقولإنالواقعهودائمامُمثل ،أويتمتمثيلهعلىنحومعين ،وإنما نتعاملمعهعلىأنهخبرةمباشرة ،إنماهوفيحقيقةالأمرخبرةتتوسطهاشفراتالإدراك ،أوتقومبالوسا طةمعها ،كماأنالإدراكالحسينفسه ،يشـــــــــــــــــــــــــــتملعلىتمثيلعقليمعين))(٦). ولوفرضالعكسجدلاًبمعنىلايتهيأللذهنأنيتمثلالتجربةبعيداًعنسياقالمشاهدة ؛وبقيمشـدوداًللمع اينةالحسيةفكيفسيتسنىلهأنيتأملتجربته ،ويكيِّفواقعه ،وينظمهعبرتراكمالخبرات ؛وهولايتم كنأنينفصلعنه؟بلكيفسيتواصـلمعالآخرفيالتخاطبمندونتعيينمرجعياتواقعيةتنطلقالإحالةالل سانيةبتعيينها ،تهيؤهاتمثلاتلغويةقبليةمشتركة؟

ويشـــــــــــــــــــــير (توماســــــــــــــــــــــيللو) إلىأنمبدأالإزاحةاللسانيالذييتيحالحديثعنأشياءخارجســــــــــياقالحدثإنماأتاحتهالتمثلات ((إنالرموزاللسانيةتحررالمعرفةالبشريةمنالموقفالإدراكيالمباشرولايتأتىهذافقطعنطريقتهيئةالمرج عيةلأشــــــــــــــــــــــــــــــياءقائمةخارجهذاالموقفالإزاحة**displacement**... وإنماعنطريقتهيئةإمكانيةتوفرالكثيرمنالتمثيلاتالمتزامنةعنكلموقفإدراكيواقعأوممكن))(٧).

إنَّالإمكانالموضوعيينعكسفيماتمثلهالدوالاللسانيةفيالحديثعنالمستقبل ،وأساليبالخيالا لفنية ،والتمويهوالكذبونحوه.

لقدشكلتقوىالحسعندهمصيرورةالتمثلإذالإحساستمثلصورةالشيءالخارجيفيالنفس(٨).

بوساطةماتؤديهالقوىالحسيةالعضويةالتيهيأعضاءالبصر ،والسمع ،والشم ،والذوق ،واللمسإذ ((القوةالمدركة.. فيالظاهرهذهالحواسالخمس))(٩).

وتنعتهذهعندهمبـ(القوىالحسيةالخارجية) أو (القوىالظاهرة)(١٠).

ويتمحورالبحثعندهمفيقوىالنفسالناطقة ،فهيالمدركةفيالحقيقةإذ ((إنالحواستدركالمحسوساتفقطوأماالنفسفانهاتدركأسبابالاتفاقاتوأسبابالاختلافاتالتيمنالمحسوساتوهيمعقولاتها...

وكذلكإذاحكمتعلىالحسانهصدقأوكذبفليستأخذهذاالحكممنالحسّ ؛لأنهلايضادنفسهفيمايحكمفيهونحننجدالنفسالعاقلةفيمانستدركشيئاكثيراًمنخطأالحواسفيمبادئأفعالهاوتردعليهاأحكامها))(١١).

إنَّارتسامالصورةفيالذهننتيجةالأثرالذيتقبلهالنفسمنالمؤثرالخارجيالفاعلليسمنشأنهوحدهأنيولدالمثالالمجرد ؛فهوارتسامزائلبزوالالمؤثروغيابه ،فالتجريدلايتولدإلاحلظةإدراكالتمثللللصورة ،وليسمجردارتسامالتمثل ،فربمايكونالذهنغيرملتفتلانطباعالصورةفيه ،إلىجنبعدمالثبات ،فالصورةانفعالقابللانعكاسالفعلبالنحوالذييحصلفيالمرآة.

إنَّالتجريدرهينالثبوت ،ورهينإدراكحصولالصورةأي: إدراكالإدراك.

وهذاماتضطلعبهأولقوةمنالقوىالباطنةفيالذهنالتيتسمىبـ(الحسالمشترك) التيتمثلمستودعالمحسوساتالخارجيةالتيتحفظوتخزنصورالمحسوسات ،وتستدعيهابغيابمؤثرهاالخارجيكمافيالتخيل ،والتذكر ،والنوم. وينعتهاابنسينابمركزالحواسوبـ (الخيال)(١٢).

وينعتهاابنملكاالبغدادي

((الإدراكالمشتركوهومايشعربهالإنسانمننفسهمنتمثلصورالمحسوساتفيذهنهحتىيلحظهابذهنهمعغيبةالأشخاصالمحسوسةفيرىبذهنهوفيسرهمايراهابالعينوهولايراهابالعينويسمعكمايسمعبالإذنوهولايسمعبالإذن..))(١٣).

وتقسمإلىقابلة ،وهيالحاسبالحقيقة ،وتسمىفنطاسياوأخرىحافظةوتسمىخيالية(١٤).

وقبلذلكتتمكنمننسبالإحساساتالمتغايرةللشيءالواحد ،إذتنسبللتفاحةمثلاطعماً ،ولوناً ،ورائ

حةفيآنواحدبعدأنأدتالحواساالخارجيةتلكالمدركاتبنحومتخصصومتمايزعنالآخروبوساطةهذاا لحسنحكمعلىكلجزءمنأجزاءالتفاحةبالحكمنفسه(١٤).
وكذلكإذارأتالعسلمثلاًفالمشاهدةالبصريةبوساطةهذهالقوةكفيلةبتمثلالصورةالذهنيةلطعمه ، وذوقه(١٥).
ومنرأىصورةشخص ،وسمعصوتهللمرةالأولىفهوبعدحين ،وإنلميرشخصه ،فبمجردسما عصوتهسوفيتمثلفيذهنهصورتهالشخصيةالراسخة.
وكذلكتقومبالتمييزبينالأشياءالمتباينةبنحوالحلاوةغيرالسواد(١٦).
والقوةالأخرىهيالوهم ،أو (القوةالواهمة) وتدركماأداهاإليها (الحسالمشترك) منمعانجزئيةمنالمحسوساتمثلشجاعةزيد ،وسخائه ،وإدراكالشاةعداوةالذئبحينهروبها.
وعندهذهالقوةينتهيمايشتركبهالإنسانمعالحيوانمنقوى ؛إذفيالإنسانقوتانهما: المتخيلة ،والعاقلةالتيمنخواصهاالنطق.
وثمةقوتانأُخريانهماالحافظةوالذاكرة ،فالأولىتستودعفيهاالصور ،والمعانيالمدركة ،والثانيةتستدعيالمخزونتبعاًلحالاتشعوريةتتطلبذلك. ويوضحابنرشدخواصهاالفكرية ((أماالقوةالمفكرة.. بهذه.. نرويفيالمجهولحتىنستنبطه. ولذلكلاتوجدهذهالقوةإلاللإنسان.
وأماالقوةالذاكرةوالحافظةفموضعهمامؤخرالدماغ ،ولافرقبينالذاكرةوالحافظةإلاأنالذكرهوحفظمنقطعوالحفظذكردائم.
والفرقبينالذاكرةوالحافظةوبينالمتخيلةأنالمتخيلةتحضرصنمالشيءالمحسوسبعدغيبةالمحسوسات ،ولذلكلمتكنحسا.
والقوةالحافظةإنماتحفظمعنىذلكالصنم ،وكذلكالذاكرةإنماتتذكرذلكالمعنىالذيللصنم))(١٧).
أماالقوةالمتخيلةف
((هيالتيتحفظرسومالمحسوساتبعدغيبتهاعنمباشرةالحواسلهافتركببعضهاإلىبعضتركيباتمختلفةوتفصلبعضهاعنبعضتفصيلاتكثيرة مختلفةبعضهاصادقوبعضهاكاذبوذلكفياليقظةوالنوممعيا))(١٨). وتنعتهذهالقوةأيضابـ (المتصرفة) فتضطلعبوظيفةإدراكيةفيبالغالأهميةتتلخصبتحليلالصورالمركبةالمستودعة ،وتجريدصورفرعيةمنها ،وتركيبهامعصورأخرىفتولدصورةجديدةبعضهايطابقممثلهاالموضوعيالخارجيالممكنا

لوجود ،وبعضاً آخر لا يطابق صورة تمثله فهو محض تخيل كإنسان يطير ،أوجبل من ذهب: شأن الصور الشعرية المجازية غير الحقيقية ،فالأولى تسمى مفكرة إذا استعملها العقل. والثانية متخيلة إذا استعملها الوهم (١٩).

إن القوة المفكرة تنعت بالقوة الناطقة.

وقد مثّلت فصلاً للنوع الإنساني عن جنسها الحيواني ضمن الحد المقوِّم لماهيته وأنه: (حيوان ناطق) ،لأن النطق هو من خواصها الملازمة ،وآثارها الواضحة ،لذلك أصطلح عليه بذلك ،نص على ذلك ابن سينا بقوله:

((ومن الحيوان الإنسان يختص بنفس تسمى نفساً ناطقة ،إذ كان أشهر أفعالها وأولى آثارها الخاصة بها النطق. وليس يعنى بقولهم نفس ناطقة أنها مبدأ النطق فقط ،بل جعل هذا اللفظ لقباً لذاتها))(٢٠).

وذلك يكون ضمن اعتماد المجاز المرسل الذي يسمى الكل باسم الجزء ،حتى إن علم المنطق الذي يدرس سنن التفكير السليم ،وأصول الاستنتاج سمي بالاسم ذاته عند الفلاسفة المسلمين على الرغم من أن أصل التسمية اليونانية هي (الأرغنون) التي تعني الوسيلة بمعنى تهيّؤ الإعداد السليم للفلسفة بنحو ما يذهب إليه أرسطو(٢١). وقد تمثل الفلاسفة المسلمون هذا التصور في حدهم له ،وكونها آلة تجنب الخطأ في التفكير والتفلسف ((المنطق فإنها الآلة في تقويم الفهم والعقل الغريزي))(٢٢).

ولكنهم لم ينطلقوا اللاصطلاح عليها إلا من سمة النطق ،وقد ذكر إخوان الصفا في تعريفه((واعلم أن النظر في هذا النطق والبحث عنه هو معرفة كيفية إدراك النفس معاني الموجودات في ذاتها بطرق الحواس وكيفية انقداح المعاني في فكرها من جهة العقل الذي يسمّى الوحي والإلهام ،وعبارتها عنها بألفاظ بأي لغة كانت يسمى علم المنطق الفلسفي))(٢٣). ولا نجد في كتاب النفس لـ(أرسطو) الذي فرع هذه التقسيمات للقوى الإدراكية تفصيلاً ؛مشفوعاً بتحديد تقطيع الصوت ،وانتاج اللغة(٢٤) بالنحو الذي نجده عند الفلاسفة المسلمين ،ولاسيما إخوان الصفا ؛إذ قرروا ((إذا حصلت رسوم المحسوسات في جوهر النفس ،فإن أول فعل القوة المفكرة فيها هو تأملها واحدة واحدة لتعرف معانيها وكمياتها وكيفياتها وخواصها ومنافعها ومضارها.

فإذا حصل العلم بهذه المعاني ،أودعتها القوة الحافظة إلى وقت التذكار.

فإذا أراد الإنسان الإخبار عن معلوماته للمخاطبين له والجواب للسائلين له عن متصوراته ومفهوماته است

عانتعندذلكالقوةالمفكرةبالقوةالناطقةفيالنيابةعنهافيالجوابلغيرهاكمايســـتعيناالملكبحاجبهوترجمانهفيالنيابةعنـــــــــــــــــــــــــــــــــــهفيالخطابلغيره))(٢٥).

أماالكيفيةالذهنيةلذلكفقدتلخصتبآليةالتضمين ،والتأليفبينالمعاني ،والأصواتاللغوية ؛ثمتتمظهرفيالأداءالملفوظبوســـــــــــــــــــــــــــــــــــاطةالقوةالمعبرة:

((منشأنالقوةالناطقة ،إذااستعانتبهاالقوةالمفكرةفيالنيابةعنهافيالجوابوالخطاب ،أنتؤلفألفاظاًمنحروفالمعجمبنفحاتمختلفالسماتالتيهيالكلامثمتضمنتلكالألفاظالمعانيالتيهيمصورةعندالقوةالمفكرة ،فتدفعها ،عندذلكإلىالقوةالمعبرةلتخرجهاإلىالهواءبالأصواتالمختلفةفياللغاتلتحملهاإلىمسامعالحاضرينبالقرب))(٢٦).

إنَّالقوتينالناطقة ،والمعبرةلاتتضحانإلاعندإخوانالصفافياستقلاليتهماعنالقوةالمفكرة. وهذهالاستقلاليةعلىالرغممنأهميتهامثّلتفيحقيقةالأمرالتبعيةالآليةللمفكرة ،وماتضطلعانبهمنوظيفةترجمــــــــــــــــــــــــــــــــــةالمعاني ،وإخراجها.

ولميفصِّلواالقولحولالكيفيةالتيتقومبهاالناطقةفيتأليفالألفاظ ،وتركيبها.

ويؤكدإخوانالصفاالآليةالمفصليةالتراتبيةلقوىالنفسالإدراكيةالمؤديةلإنتاجالكلام ،فـ ((القوةالمتخيلةإذاتناولترسومالمحسوساتمنالقوةالحاسة ،أدركتوأدتإليهافتجمعهاكلهاوتؤديهاإلىالقوةالمفكرةالتيمجراهاوسطالدماغ ،حتىتميزبعضهامنبعض ،وتعرفالحقمنالباطل ،والصوابمنالخطأ ،والضارمنالنافع ،ثمتؤديهاإلىالقوةالحافظةالتيمجراهامؤخرالدماغلتحفظهاإلىوقتالحاجةوالتذكار ،ثمإنالقوةالناطقةتتناولتلكالرسومالمحفوظة ،وتعبرعنهاعندالبيانللقوةالسامعةمنالحاضرينفيالوقـــت))(٢٧). ولميقتصـــرالأمرعلىإنتاجالكلامبلإنفهمه ،وتمثلمعانيهارتبطبهذهالقوة ((والقوةالناطقةهيالتيبهايدركالإنسانآخرمثلهعلىماهجسفينفسه ،وهيبالجملةإخبارأوسؤالأوأمر ،والسؤالفهواقتضاءإخبار ،والإخبارتعليم ،والســـــــــــــــــــــــؤالتعلّم. وهذهالقوةهيالتيبهايعلمالإنســـــــــــــــــــــــــــــــــانأويتعلم. وهذهالأقسامالثلاثةإنماتكونإذاكانالإنســـــــــــــــــــــــــــانعلىالمجرىالطبيعي. فالنطقبألفاظيخطربالوضعبتلكالمعانيالتيتهجسفينفسالناطقبها))(٢٨).

إنأيإخلالبهذهالتراتبيةالمفصليةيؤديإلىالإخلالبالإدراكالســـــــــــــــــــــليم. منهناتبرزقيمةاللغة ،وتأثيرهافيحصولالإدراكبغيابمراحلالتخيل ،وانفعالهابمقابلةالمحسوسعنطري

قما تثيره ألفاظها من استدعاء لصور معاني المحسوسات المودعة في الذهن ((ومن خواص هذه القوة أنها تعجز عن تخيل شيء لم تؤد إليه حاسة من الحواس وذلك أن كل حيوان لا بصر له فهو لا يتخيل الألوان، وما لا سمع له فلا يتخيل الأصوات، ولا يتوهمها؛ لأن التخيل أبداً في تصوره للأشياء تبع للإدراك الحسي، والعقل في استنباطها تبع للدليل النفسي. فأما الإنسان فإنه لما كان فيه فهم الكلام أمكنه أن يتخيل المعاني إذا وصفت له))(٢٩).

إنَّ فقدان القدرة الكلامية لمن لا سمع له منشؤها تعذر حصول الصورة السمعية في خياله للصوت اللغوي المنطوق بسبب فقدان الحس السمعي، وبذلك فهو لا يستطيع أن يتمثل في الذهن ضمن قواها الواهمة لتلك الصور السمعية كي يحاكي نغمتها في النطق، إذ ((كل صوت له نغمة وصيغة وهيئة روحانية خلاف صوت الآخر، فإن الهواء من شرف جوهره ولطافة عنصره يحمل كل الصوت بهيئته وصيغته، ويحفظها لئلا يختلط بعضها ببعض، فتفسد هيئتها، إلى أن يبلغها أقصى غاياتها عند القوة السامعة لتؤديها إلى القوة المتخيلة)) (٣٠).

إنما نعتوه بالصيغة، والهيئة الروحانية (النفسية) للصوت يمثل مرحلة من التجريد المحلل المنتزع للقيمة الوظيفية للصوت بما يميزه من نظيره الآخر كي يسهل تخيُّله وتمثُّله نطقاً. إنَّ هذا التصور يقترب كثيراً من المفاهيم اللسانية الصوتية عن (الفونيم).

وإذا كان المثال الأثر المؤثر ضمن مبدأ العلية السببية؛ فهو يتضمن إلى جنب ذلك ضمن الفهم الفلسفي الإسلامي صورة الاستجابة النفسية لمثير خارجي، يبقى فيها التمثل مرهوناً بقابلية الذهن لحصول الاستجابة الحسية ضمن المدركات المحسوسة الموضوعية، فتكف الدوال اللسانية عن إحالتها المرجعية التي هي غير محصلة ذهناً، فيعجز ذهن المستقبل عن تخيُّلها ما لم يتمثل في ذهنه بديل موضوعي للشيء المراد تخييله إياه، وبذلك تكون المطابقة متعذرة في اقتضاء الطبع. يذهب إلى ذلك ابن سينا مؤكداً ((إنما يمكننا أن نخيِّل بالقول لما كان نفسه محسوساً من جنس الألوان والأرايح والطعوم والأصوات والملامس وأيضاً ما يجري معها كالأشكال والحركات والسكونات والمقادير والأعداد والأوضاع، ومع ذلك فإن القول لمن لا يكون وقع له الخيال بل مذكراً أو منبهاً فإن المحسوس لا يمكن أن يخيل البتة إلا بالقول وإنما ابتداء إلا أن يقرب المحسوس من حاسته ولهذا لا يمكن أن يفهم الأكمه هيئة لون، والعنِّين لذة الجماع، فكيف ما ليس ذاته محسوسة البتة ومع ذلك بالقول، والقول لا يخيّل المحسوس فضلاً عن غير المحسوس))(٣١).

إن الأكمه على سبيل المثال لا يتمثل في ذهنه الألوان.

وفيالنظامالإشارييكونالبديلالموضوعيالمقرونبالعلامةاللسانيةسطحاًمتفاوتاًمنناحيةكونهخشناًأ وأملس ،فيشار إليهبأن (هذا أبيض) فياللفظللأملس ،وللخشنبلفظأسودكييدركالفارقالموضوعيبينهما.

ومنبعدأدركابنرشدأثرالتخيللمجرداتالصورالصوتيةفيعمليةالتصويتمنوهابـ((أنالت صويتوهوالمسمىنغمةهوالذييكونعنالحيوانبماهوحيوان ،وذلكإنمايكونعنتخيلماوشوقوبآلةمح دودةوهيآلات التنفس.

الدليلعلىأنالتصويتيحدثمنقرعالآتالتنفسالهواءالذيبهيكونالتنفسأنلانقدرأنتنفسونصوتمعاولك ونالنغمةلاتحدثإلاعنتخيللايسمىالسعالنغمة))(٣٢).

إنالأصواتغيراللغويةنحوالسعالهيأصواتعفويةلاتنشأعنالتخيُّلكماهوالحالفيسائرالأصو اتالقصديةالتيتتضمنكذلكالأصواتالإشاريةللحيوانات ،فعنصرالشوقالذييمثلالإرادةالانفعالي ةالتيتهدفللتنبيهفحسبلايتأتىلهالتصويتمالميتخيَّلصورةالصوتالمجرد ،والأمركذلكينسحبعلىا لأصواتاللغويةوإنكاننصابنرشدعاما ؛ولكنفيتفريقهبينالأصواتالبشريةغيراللغويةنحوالسعاليت ضحضمنيةقصدهفيالأصواتاللغوية ،وأثرالتخُّيلوقواهفيإنتاجها. والحقأنثمةإفادةمن (أرسطو) بهذاالتصور ،فهويشير إلىذلكمنقبل ((ليسكلصوتيخرجعنالحيوانطقاإذيمكنأنيحدثالمرءدوياباللسانأوعندالسعالفالواجبأنيكونالقارع متنفساويصحبفعلهشيءمنالتخيل ،لأنالنطقهوولاريبصوتلهمعنى ،وليسفقطدويالهواءالمتنفس كالسعالفهومصادفةتحدثبواسطةهذاالهواءالموجودفيالقصبةالهوائيةمعالقصبةنفسها. والدليلعلىذلكأننالانستطيعالكلامفيحالةالشهيقأوالزفيربلعندمانمسكعنالتنفسفقطلانالحركات تحدثمعالهواءالمنحبسعلىهذاالنحو))(٣٣).

لقدارتبطمفهومنمواللغةعندالطفللدىإخوانالصفابتطورقوىالحسالباطنية ؛إذالمفصل يةالتراتبيةالإدراكيةبينهاتمثلفيالوقتنفسهمراحلظهورالقوى ،وانبثاقهاضمنتطورالإدراكالذهني ،وترقيمعارفالطفل: فـ((فهمالكلاموالأقاويلومعرفتها ،إنماهيمتأخرةعنفهمالمحسوسات... وذلكأنالطفلإذاخرجعنالرحمفانهفيالوقتوالساعةتدركحواسهمحسوساتها ،فيحسبالقوةاللا مسةالخشونةواللين ،وبالقوةالباصرةالنوروالضياء ،وبالقوةالذائقةطعماللبنوبالقوةالشامةالروائ ح ،وبالقوةالسامعةالأصوات ،ولكنلايعلممعانيالكلاموالأصواتإلابعدحين ،فأولشيءيحسبالل

مسفيتأملالأناللمسأعمالحواس ،ثميحسـبالطعمفيميزلبنأمهمنغيره.
ثميميزبينالروائحفيعرفالشمثميميزالصوتالشديدالجهيروبينالصوتالضـعيفالخفيف ،ثميفرقبينال
صور ،ثميميزعلىممرّالأوقاتبيننغمةالأمونغمةالأبوالإخوةوالأخواتوالأقرباءوغيرهمثمشيئابعـ
دشيءعلىالتدريج ،وعلىهذاالمثالفهمهومعرفتهبسائرالحواسومحسوساتها ،إلىأنتتمسنالترب
يةويغلقبابالرضـاع ،ويفتحالكلاموالنطق.
ثمبعدذلكتجيءأيامالكتابةوالقراءةوالآدابوالصنائعوالرياضياتوسماعالأخباروالروايات...))(٣٤).

إنتأخرظهوراللغةيرتبطبإحكامالقوةالمفكرةلوظيفتهاالأدائيـةفيالإدراك
((منعتالقوةالناطقةأنتعبرعلىألسنةالأطفالحكمشيءمنمعانيالمحسوسات ،لأنالمفكرةبعدلمتحك
ممعانيها ،ولمتميزهاتمييزاصـحيحا.فإذامضتسـنينالتربية(٣٥)...
أطلقلسانالمولودبالعبارةوالبيانعنمعانيالمحسوساتالتيأدتالحاسةإلىالمفكرة))(٣٦).

ومنهنايتأكدأنظهورملكةالنطقمرتبطفيتصـورهمبترقيالمدركاتالعقلية.
وهوأمريلتقيمعماقررهعلماءالنفسأكثرممايلتقيمعتصوراللسانيين ؛إذتضطلعاللغةفيتصوراتعلما
ءالنفسبتطورالإدراكالذهنيضمنمراحلنموالقدراتالتفكيرية ،وكذلكالقدراتاللغوية ،وإنلميكنل
لغةبعدمسـتقلكماهوالحالعند (سوسـير) ،وبنحوتفصـيليعند (جومسـكي)
ضـمنمفهومالقابلية
((وقدوجدبياجيهأناللغةأهميةكبيرةفيتكوينالبنياتالمنطقيةعندالطفل ،لأنهذهالبنياتتوجدمتأخ
رةعندالأطفالالبكمعنهاعنـدالأطفالالطبيعيين))(٣٧). ففيتصـور (بياجيـه)
أناللغةلاتظهربنحوفاعلوحاسمضمننموالإدراكالذييمربهالطفلمالمتستحكممدركاتهاالحسية
،وترتقيقدراتهاالعقليةالاستنتاجيةفيرصدمحيطهاالخارجيوصولاًإلىخطاطاتذهنيةيكتشففيها
آليةعملالأشياءالخارجية ،فتنبثقعندهعمليةالترميزالتيتتكئعلىالتمييز ،والتجريد ،والتقسيم
بينالأشـياءعندذاكتتهيأاللغةبالتكون.
فهيمصداقترميزيضمنقدراتهالترميزيةالتيترتهنبالذكاءالإنساني ،بمختلفمسـتوياته(٣٨).
وليسـتغريزةفطريةنوعيةبنحومايذهبإليه (جومسـكي)
الذييقررذلكمؤكداأنأذكىالقردةلايمتلكالقدرةاللغوية(٣٩) ،فيحينمنهوبمستوىمنالبلادة ،والغ

باءمنبنياالإنسانيتمتعبقدراتتوليديةخلاقة ،ومعرفةضمنيةباللغةعلىحدسواء.

وفيتصــــــــــــــــــــــــــــــــور(بياجيـــــــــــــــــــــــــه)

أناللغةبعدمايتهيألهاهذاالظهور ؛فإنهاتسهمبنحوبالغفيارتقاءملكاتهاالتصورية ،والتجريدية ،مقسمًااللغةعلىطورينرئيسينمنلحظةالنمو ،وصولاًلاستقراراللغةفيوظيفتهاالاجتماعيةالتواصلية ،وكذلكالتمثليةالإدراكيــــــــــــــــة. فيصـــــــــــــــطلحعلىالمرحلةالأولى:

بالمرحلةالذاتية ،وعلىالثانيةبالاجتماعيـــــة. والأولىتتضمنثلاثمراحلتبدأبأصـــــواتالمناغاة. ويتحسسالطفلبهاقدرتهعلىالتصويتملتذاًبهذهالعمليةالتصويتيةبسماعهلأصواته ،ثمحوارهالداخليلنفسه ؛وأخيراًمايتيحهاللعبمنظهورالرفقة ،والتصويتالجماعي ؛فيصــوت ،ولكنيبقىمحاوراًلذاتهكماهوحالالبقيةفحوارهممعذاتهملابقصدالتواصل ،وبعدذلكتبدأالمرحلةالاجتماعيةذاتالوظيفةالتخاطبية ،فتتلاشـــــىعندئذتلكالمرحلةالأولى(٤٠). لقدرفضــــعالمالنفس

(فيجوتســـكي)

كوناللغةالذاتيةفيمراحلظهورهالاتتضمنغاياتتنبيهيةاجتماعية ،مؤكداًأنالتفكيرينموأولابخطمنفصلعنالنمواللغويفيشكلهالصوتيالبسيطوصـولاًإلىتطورهالبنائي ،والخطانبعدحينمنالنموالعقلي ،والنمواللغويلتقيـــان.

وبعدارتقاءلغةالتخاطبالاجتماعييستبطنالطفلنظامهاالبنيويفتتحولفكراًداخلياً ؛فلاتنعكسالأشياءالخارجيةفيإدراكهلهابمايخالفالكيفيةالتييقتضـــــيهاهذاالفكر(٤١) (أينظامهــــاللغوي) لتهيمنهذهالوظيفةعلىالوظيفةالذاتيــــــــــة. ويـــــــــــرىبخلاف (بياجيــــــــــه) أنهالاتختفيبنحومطلقفربماتظهرلضروراتنفسيةومقتضياتذاتية(٤٢).

إن (سوســـير)

قداقتربمناقشاًمنملكةالنطق ،فيخضمانشغالهبتقريرموضوعاللســـــــــــــــــــــــــــانيات.

إنتحديدموضـــوعالبحثعندهمثلمنعطفاًمهماً.

وهوالذيأكسباللسانياتهويتهاالعلمية ،مقرراًأناللغةوحدهاهيموضوعاللسانيات ؛لتماســـــكها. أمااللسانفهوغيرمتماسك ،وغيرمنسجم ؛فهويتضـــــمنجوانبعدة: جانــــب (فيزيـــاوي) الذييتمثلبماديةالصوت ،وانتقالهعبرالوســـــــــــائط ،وجانب (فيزيولـــــــــــوجي) يتمثلبإنتاجالصوتمنالناحيةالعضوية ،وكذلكاستقبالهمنالسامع ،وجانبنفسي (سايكلوجي).

وتتعاضدهذهاالجوانبضمنمفهومالدائرةاللسانيةالتيتبدأمنالباثوتنتهيباالمستقبل.
إناللسانيتضمنالجانبالفرديوالاجتماعي ،بيدأنالجانبالنفسيوبالعلاقةالرابطةلوجهيالعلامةاللسانية (الصورةالسمعية ،والمفهوم)
هوالذييمثلالجانبالاجتماعيللغةالذييتحققفيهامفهومالنظامعبرعلاماتهاالعرفية.
هذاالمبدأهوالذييجعلاللغةبتصورهقابلةللتصنيفالأمرالذييحققالتجانس(٤٣).
الأمرالذيلايتأتىلملكةاللغةالطبيعيةالفطريةوفيماالواعترضمعترضجدلا–كمايرىسوسير-منجعلالملكةموضوعاًأولىمناللغة ،فالملكةهيالتييعتمدعليهااللسان ،واللغةأمرمكتسب ،فاللغةينبغيأنتخضعللملكةالطبيعية. يرى (سوسير)
أنليسثمةمندليلعلىفطريةاللغة ،وكوناللسانخصصللنطقمثلماخصصتالرجلانللمشي ،فأعضاءالنطقلاصلةلهاباللغةبوصفهانظامًا ،فالأجهزةالكهربائيةفيإرسال (شفرةمورس)
هيخارجالشفرةتنفسها.
فليستجزءامنها ،فالتصويتلايؤثربالنظامشبهاذلكبـ(السمفونية) ،فالأخطاءفيأثناءالعزفلاتؤثرفيها. فهيمنفصلةعنالأداء. ويؤكداختلافاللغويينفيهذاالرأيرافضاًرأي
(وتني)(٤٤) ،بأناختيارجهازالنطقوقعبالمصادفةواللغةحالهاحالأينظامإشاريرمزي ،كانيمكنأنيقعالاختيارعليهعوضاًعنها.
وهوفيالوقتالذييرفضمسألةالمصادفةفياستعمالأعضاءالنطقيؤكدأناللغةلاترتقيإليهابقيةالأنظمةالإشارية ؛وإنكانتذاتطابعاجتماعيمثلماهيالأنظمةالإشارية. أماالرأيالتشريحيللعالم (بروكا)
الذياكتشفأنالثلثالأيسرمنالجزءالأماميمنالمخهوالمسؤولعنالجانبالطبيعيللسانيؤكد(سوسير)
أنهذاالجانبيشملكذلككلمايتعلقباللسانحوالكتابة ،وإنالإصابةبـ(الأفازيا):
اضطراباتالنطق ،وفهمالكلام ،يرتبطبإصابةمراكزمعينةمنالدماغ(٤٥).
ولايرتبطبملكةالنطقبالأصوات ،أوبكتابةالرموزبلفيسوءاستغلالوسيلةللتعبيرعنإشاراتنظاممحددمنأنظمةاللسانليؤكدأن((قيامالأعضاءالمختلفةبوظائفهايكمنوراءهملكةعامةتتحكمبالإشاراتوهيالملكةاللغويةالحقيقية))(٤٦). ويؤكدأهميةالخصيصةاللغويةالاجتماعيةلاالفطريةإذ
((ملكةالنطقبالكلماتسواءأكانتطبيعيةأملافممارستهذهالملكةلايكونإلابمساعدةالوسيلةالتيتبدعهاالمجموعةوتضعهافيخدمةهذهالملكة))(٤٧).

والأمر الجدير بالذكر أن الرأي التشريحي عند ابن سينا فيما يتعلق بملكة اللسان ؛ لا ينفصم عن الآخر عن قدرات العقل المنطقية ؛ ضمن ما أكده في مصنفه القانون من أن الخَرَس في الكلام إنما ينشأ من آفات الدماغ أو الأربطة المتصلة بعضلات اللسان ونحوه (٤٨)، في حين أهتم (ياكوبسن) بر اضطرابات النطق، وتفسيرها في ضوء بنيوية النسق، وعلاقات التوزيع، والاختيار في المحورين: الأفقي، والعمودي ؛ فالحبسة في بداية الكلام منشؤها اضطراب في المحور العمودي ؛ في حين أن اضطرابات النطق التجاورية بأخطائها النحوية التركيبية يعزى لاضطراب التوزيع في المحور الأفقي (٤٩) وهذا تفريع لما أصله (سوسير) بأولوية النظام على الملكة.

وفي تصور (جومسكي) لملكة اللغة (القابلية اللغوية) دعامتا نظريتان تؤسسان فلسفتها المعرفية هما: الجانب الخلاق، وفطرية اللغة الإنسانية. ففي الأول ينطلق من رصد القدرة التوليدية على الفهم، والإنتاج لجمل اللغة مؤكداً قصور التحليل البنيوي اللساني الذي يعتمد التقطيع، والتصنيف بالانطلاق من الاستقراء الوصفي، فذلك من شأنه أن يرصد البنى المولدة الناجزة، ولا يأبه بالممكنات غير الناجزة ليميز من ثم بين الأداء اللفظي، والكفاية اللغوية، فالأول هو انعكاس محدود للكفاية اللغوية ؛ فموضوع اللسانيات عنده هو الكفاية اللغوية وليس الأداء الذي يمكن أن يخضع للوصف (٥٠)، ليؤسس لمبدأ التفسير والافتراض في فحص تلك الكفاية في طابعها الذهني ؛ المتمايز عن بقية الأجهزة الإدراكية العصبية الأخرى، فعلى الرغم من مناهضته للتصورات البنيوية اللسانية في التحليل عد بنيوياً ؛ إذ تمحور البحث عنده في تلك الملكة بعيداً عن ملاحظة الأداء. أما في قضية فطرية اللغة فهو يرفض التصور السلوكي الذي يرى أن اكتساب اللغة يرتهن بالمثير، والاستجابة ؛ فالمرء لا يولد وذهنه صفحة بيضاء ؛ إذ هو مزود بأنظمة فطرية ؛ إدراكية منطوية في البنية التشريحية الذهنية. ويتحدث (جومسكي) عن حالة البداءة عند الطفل. وهي مرحلة تجريبية ؛ يكتشف فيها الطفل بنحو فطري غير واع النظام النحوي المناسب لمحيطه، فأي طفل مهما كان أصلها لعرقي يكتسب لغة المحيط ؛ بسبب أن اللغات بمختلفها تخضع لمنظومة النحو الكلي العالمي الذي هو شبكة من الأنحاء الممكنة، تشترك بخصائص شكلية عامة. والطفل بتحسسه للمحيط الخارجي يجرب سلسلة من الأنحاء وصولاً للنظام النحوي الذي يحقق له الكفاية التواصلية في الانسجام مع لغة محيطه. وهو في كل ذلك يجرب ويغير بوضع القيود فهو يضبط مفتاحاً من سلسلة المفاتيح، والخيارات التي تتيحها

شبكةالأنحاءالذهنية ،فاللغةهيحصيلةتفاعلعاملينهماالحالةالبدائية ،وســـــيرورةالخبرة(٥١).

ليؤكدأناللغةشيءيحصللنا ،وينموفينامثلماأيعضومنالأعضــــــاءالحيوية (البايولوجيــــــة) ولانتعلمهافهيفطريةفينا(٥٢).

إنملكةالنطقالتيمثلتسمةالافتراقللمشتركالإدراكيبينالحيوانوالإنساناكتسبتفيضــوءتـ صوراتالفلاسفةالمسلمينجانباًتعضيدياًفيالمقابلةبينإشاريةالحيوان ،ولغةالإنسانمنخلالرصدجمـ لةمنالسماتالتكوينيةالفارقةوصولاًإلىتلكالملكةأي (القوةالناطقة).

إنالسمةالتيتدمغالأصواتاللغويةعندابنحزمفيإجرائهالتفريقيبينأصواتالحيوان ،والإنسـ انهيسمةالقصـــد

((أماالصوتالذييدلبالقصدفهوالكلامالذييتخاطببالناسبهفيمابينهمويتراسلونبالخطوطالمعبرةعنـ هفيكتبهملإيصالمااستقرفينفوسهممنعندبعضهمإلىبعضوهذهالتيعبرعنهاالفيلسوفبأنسماها الأصـــواتالمنطقيةالدالة))(٥٣).

إنأصواتالحيواناتتدلبالطبعضمنالإشارةإلىبعضهاالآخرإلىحاجاتهاالغريزية ؛فهيلاتعدوالتنبيـ ه ،والإخطار ،ولايقتصرالأمرعلىالحيوان ؛فالإنسانفيانفعالاتهتصدرعنهأصواتتعبرعنمختلفأنـ واعهـــا.

وقدأكدذلكالفارابيمنقبلوبخلافماذهبإليهابنحزممنأنسمةالإعلام ،والقصـدتوجدفيلغةالحيوانعلـ ىحدسواءعلىالرغممنتركيبيةاللغةالإنســانية

((صنفيكونعنانفعالاتوعنأحوالللذةأومؤذيةفإنالإنسانوسائرالحيواناتالمصوتةلهابالطباعفيكلحالمنأ حوالهااللذيذةأوالمؤذيةنغمتستعملها ،وهذهسوىالأصواتالتيتســتعملهاالحيواناتعلاماتيؤذنبهابـ عضهابعضاًبأمرمنالأمور ،وأكثرهذهفيالإنسان ،وهيالأصواتالتييركبالإنسانمنهاالألفاظوهيخاصـ ةالإنسان))(٥٤).

وتأكيدالهذاالفهميشرعبالتنويهبأمثلةالانفعالاتالتيتقتضيتصويتاًيضطلعبوظيفةنفسيـ ةلاتخاطبيـــة

((والأصواتوالنغمالتييستعملهاالحيوانعندالانفعالاتالحادثةفيها ،ليستهيالتييستعملهاالإنســانعـ لاماتفيالدلالةعلىالأمور ،أماتلكفهيبمنزلةالأصواتوالنغمالتيتسمعمنالحيوانوالإنسانعندطربهـ ا ،فإنفيطباعالحيواناتوالإنسانإذاطربتأنتصوتنحواًمامنالتصويت ،وكذلكإذالحقهاخوفصوّتتصـ

فاآخرمنالتصويت ،والإنساناإذالحقهأسفأورحمةأوغضبأوغيرذلكمنالانفعالاتصوّتأنحاءًمنالأصـ
واتالمختلفة ،وأمثالهذهالأصواتوالنغمإذااستعملتربماحصلعنهاانفعالماأوازدياده ،وربمازالالانفعالأ
وانـــتقص))(٥٥).
ويعزوإخوانالصفاالفرقبينإشارةالحيوانالإخطارية ،وإشارةالإنسانالتخاطبيةلصفةالإسنادالمنبثـ
قةعنالقوةالناطقةالمفكرة ؛التيتحلىبهاالثانيـــدونالأول
((فالإنسانإذاسمعصوتالخشبوالحديدوالماءوالريحأمكنهأنيخبرعنصوتكلّواحدمنها ،وينسبهاإلى
ماحدثعنهوخرجمنــه.
والحيوانلايعرفذلكولايمكنهأنيعبرعنهويُفصّلكماعبرالإنســانبقوةالنطقوالبيانعماسمع.
وبهذافضلالإنســـانعلىغيرهمنالحيوان))(٥٦).
إنهذهالدلالةالتعيينيةالتفصيليةيعبرعنهاخيرتعبيرابنسينامنوهاًبهاإلىجنبسمةالخلقالتوليدي
؛فيإشارةالتدليلالإنسانيالمستوعبلأغراضهغيرالمنتهية ،وماتستلزممنمواضعةقياساًبالإشارةالط
بيعيـــةللحيوان ((وفيالحيواناتالأخرىأيضاأصواتيقفبهاغيرهاعلىحالفينفســـها.
لكنتلكالأصواتإنماتدلبالطبعوعلىجملةمنالموافقةأوالمنافرةغيرمحصلةولامفصـــلة.
والذيللإنسانفهوبالوضع ،وذلكلأنالأغراضالإنسانيةتكادأنلاتتناهى ،فماكانيمكنأنتطبعهيعلى
أصواتبلانهاية ،فممايختصبالإنسانهذهالضرورةالداعيةإلىالإعلاموالاستعلاملضرورةداعيةإلـ
ىالأخذوالإعطاءبقدرعدلولضروراتأخرى ،ثماتخاذالمجامعواستنباطالصـــنائع))(٥٧).
وبذاتالفكرةيهجسالرازيمردداًماأكدهابنســـينا:
((وأماالحيواناتالأخر ،فإنأغذيتهاطبيعيةوملابسها مخلوقةمعها ،فماكانبهاحاجةإلىالكلامومـ
عذلكفإنلهاأصواتايقفبهاغيرهاعلىمافينفوسها ،ولكنّدلالةتلكالأصواتدلالةجُمَليةعلىحصو
لالملائمةأومنافرة ،وأماالأصواتالإنسانيةفإنهاتدلدلالةتفصيليةولعلالأمورالتييحتاجالإنسـانإلـ
ىأنيعبرعنهاأمورغيرمتناهيـــة))(٥٨).
إنالافتراضالطبعيللإشارةاللغويةالمتنعالذيضربهجدلاًابنسينالاينحصربالتدليلعلىقيمةالوضـ
ع ،بلعلىالسعةالإخبارية ؛التيتضطلعبهاالإشـــارةغيرالطبعية (العرفيـــة).
وهذاماهتمتبهاللسانياتفيإبرازقيمةالعلامةاللسانيةليسعلىصعيدالموازنةمعإشارةالحيوانفحسـ
ببلمعبقيةالأنظمةالسيميائيةالأخرى ،ولاســـيما (الإيقونيـــة) منــــها

((فلئنتمثلتالقيمةالأوليةلنظريةالاصطلاحاللغويفيأنهاكشفتالقيمةالنسبيةللعلامةاعتماداعلى صفتهاالعرفيةفإنالاستثمارالأبستيميالأقصىيكونفيمقارنةالنظاماللغويبأينظامسيميائيآخر يصلحأنيكونأداةتواصلإخباري:
ذلكأنهذهالقضيةيحكمهاقانونصارمودقيقهوقانونالتناسبالطرديبيناعتباطيةأينظامعلاميوسعةإبلاغهوهومايفضيإلىالقولبأنمنطقيةالعلاقةبينالدالوالمدلولتتناسبتناسباعكسيامعطاقةالنظامالعلاميالمعنيفيالإبلاغ:
فكلماثقلتكثافةالتعسفالاقترانيفيأينظامإبلاغينزعجهازهالتعبيريإلىطاقتهالقصوىفالشحنةالاعتباطيةفيكلحدثتواصليهيالمولدالدائملسعةالنظامالإبلاغيالذيفيهيندرجذلكالحدث))(٥٩).
إنالتمثلالذهنيلمدلولاتالأصواتالطبعيةالحيوانيةلايستدعيسوىتصور ؛يدركفحواهابنحومباشر ،ولايتطلبتفكيكبنيةالمرسَلة ؛لبساطتها،عكسنظيرهالكلام ؛إذالدلالةالتصوريةالتينتجهاالبنيةالسطحيةللملفوظ ؛لاتَشفُّعنقصديةالمرسلةماالمتكفعليهاعملياتعقليةتأويليةتنتهيبالدلالةالتصديقيةالمدركةللمعنىالقصدي. ولايحصلكلذلكفيالتدليلالطبعيالتنبيهي ((..وكلصوتمنهذهالأصواتعندالحاسةالسامعةكيفيةوماهية.
فماهيةصوتالإنسانأنهغرضمفهومدالّعلىمعنى ،فتحتاجالقوةالمفكرةإلىأنتفكرفيهوتفتشعنمعناهوأصواتالحيواناتغيرمفهومة ،ولكنالقوةتقضيعليهاأنهاماصوتتإلالحاجة ،وماأرادتبهإلاّسببأكلوشربونكاح..))(٦٠).
الأصواتالطبيعيةمصداقللمؤشرالذييحكمالذهن ؛بوساطتهعلىوجودشيءما ،ويقومبالاستدلالبوجودممثلهالموضوعيالمصاحبضمنمبدأالسببيةالملازم.
ولعلأوضحسمةتفرقبينالمؤشر ،والرمزالذيهومصداقأعمتنضويتحتهالعلامةهيسمةالإزاحةالتيلايمكنأنيضطلعبهاالمؤشرلخاصيتهالملازمةبالموضوع ؛نقيضالإزاحةفيالعلامةاللسانيةالتيتعملبغيابالمشارإليه ؛فمفهومالإزاحة: ((يشير..
إلىقدرةالكلماتعلىالإحالةإلىأشياءغائبةوقدوصفهوكيتعمليةالإزاحةهذهبأنهاالخاصيةالأساسيةفيتصميماللغةكعلاماتمؤشرية**indexical**وتصلإلىمراحلأرحبمنالتعبيركماتفسرالتفكيرالتأمليوالاتصالعنطريقاستخدامنصوصيمكنفصلهاعنواضعيهاأومؤلفيها ،ودونالحاجةإلىالرجوعإليهم))(٦١).

وفي ضوء القوى النفسية الباطنية يتضح اختصاص الإنسان بملكة النطق، وافتقار الحيوان الأهمة
وة؛ وهي القوة المفكرة التي تحلل المدركات الخارجية، ومن ثم تعيد تركيبها بإشارة صوتية مشفوعة للتدليل
على مقاصدها المتنوعة، فما يظهر من محاكاة صوتية عند بعض الحيوانات لكلام البشر لا يصدر عن اقت
ضاء آلية التحليل والتركيب، فهو محض تقليد؛ لذلك جهد ابن حزم في دحض مبدأ القصد الذي تصدر
عنها الحيوانات في تصويتها

((فإن شغب مشغب بما يظهر من بعض الحيوان غير الناطق من كلام فهو كالذي يعملها الزرزور والبغبغاء والع
قعق من حكاية كلام يُدرى فيه قائما المعنى، فليس ذلك كلاما صحيحا ولا مقصودا به إفهام معنى ولا يع
د مما علم ولا يضعه موضعه ولكن يكرره كما يكرر سائر تغريده كما عُوِّدَه.

وكثير من الحيوان في طبيعته أن يصوت بحروف ما على رتبة ما.

وذلك كله بخلاف كلام الإنسان الذي يعبر به عن أنواع العلوم والصناعات والأخبار وجميع المرادات))(
٦٢). والحق أن ثمة قصدية في التصويت الحيواني كما أكد الفارابي، وهو ما سيذهب إليه (جومسكي)
أيضا.

وفي ضوء قوى الإدراك فإن للحيوان قدرة على تمثل الموجودات؛ ضمن حسها المشترك، وقواها الواهمة ا
لتي يثبتها الفلاسفة المسلمون له، فهو إذ يصوت تنبيها لخطر ما إنما يتمثل صورتها القبلية المودعة في نفسه، ل
كن لا يتأتى له التقطيع الصوتي، وتركيبه، فهو من مقتضيات ملكة النطق التي تفصل الموجودات وتركبها في ا
لإعلام.

لقد ارتبطت مسألة إنتاج الكلام، وفهمه (الخصيصة النوعية للإنسان)
بامتلاكه للقوى الناطقة.

وهي ملكة الاستنتاج، والاستدلال نفسها التي تركب القضايا، وتقيس على مقدماتها، فلم تختص الملك
ة اللسانية ببعد تكويني متميز نظير ما تؤكده الأبحاث (البايولوجية) واللسانية.

وهذا ما يشير إليه عبد اللطيف البغدادي بقوله:

((الحواس الخمس لكل واحد منها إدراك خاص ومدرك خاص، وجميع ذلك يشترك فيها الحيوان الناطق وا
لأعجم، وإنما يختلف بالأقل والأكثر والأقوى والأضعف سوى اللسان وحاسة السمع، فإن لكل منهما فعلا يخ
ص الناطق وحده غير عقلها المشترك فيه، وهذان الفعلان الخاصان أحدهما مبدأ إفادة القوة الناطقة وهو الل
سان في تقطيعها لحروف، ونظم الكلمات، وتركيب القضايا والمقدمات والتعبير بهما عما حصل عند القوة

الناطقةمنالعلوموالمعارفوعلىطبقاتها ،وأماالثانيوهومبدأاستعادةالقوةالناطقةماحصــلعندنظير تهاوتقدمتهابعلمه ،وإمالقوةإدراكأوجودةحدسوإمالإحساسانفردتبهوإمالإلهاماختصــتبه ،أوو حيأوغيرهمنطرقالعلم ،وذلكهومجرىالســـــــــــــــــــــــــــــــــمع))(٦٣).

أمااللسانياتفقدانطلقتفيدراستهاللإشارةالحيوانيةنحوتأكيدالكفايةالإيصاليةالتيتضطلعبهااللغة الإنسانيةبمايتيحهنظامهاالبنائيمناتساعللتعبيرعنمدركاتالإنسانموازنةبمحدوديةالإشارةعندالحيو ان ،إلاأنهاوبعدحينوعلىيــــــــــــــــــــد (جومســــــــــــــــكي) لمتطمئنإلىتلكالمقارباتبقدرماأولتالاهتمامبالســــــــــــــؤالعن (جوهريةاللغــــــــــــــة) وارتباطهبالمعرفةالضمنيةبقواعدهاالتيتتيحهاالملكةالفطريةالتيهيخصيصةنوعية.

وللحيواناتاللغاتأنفسهافيكلمكانتوجدفيه(٦٤) ،فيحيناللغاتالبشريةتختلففيخصائصه ا ،وأنظمتهاالبنائيةبحسبالمقتضــياتالتزامنية ،و ((هناكبضعخصائصجوهريةتفصل ،بشكلملحوظالعلاماتاللفظيةعنجميعأنواعالرسائلالحيو انيــة.

ومنهاعلىســبيلالمثالقوةاللغةالتخييليةوالإبداعية ،وقدرتهاعلىالتعاملمعالتجريداتوالتخييلا ت ،والتعاملمعالأشياءوالحوادثبمعزلعنالمكانوالزمانوبشكلمغايرلوجودالحيواناتالمقتصرعلىالـ (هنــــــــــــــا) و(الآن) ومنهاأيضاالتراتبالبنيويللمكوناتاللســــــــــــــــانية))(٦٥).

وفيطليعةتلكالخصائصالبنيويةهيالســمةالتوليديةالخلاقةإذ ((نظمالاتصالالتيتستعملهاالكائناتالحيةالأخرىمنغيربنيالإنسانليستلهاهذهالقدرةغيرالمحدودة التيتملكهااللغةالإنسانيةإذانمعظمنظمالاتصــاللدىهذهالكائناتذاتقدراتمحدودةأومغلقةبمعنىأ نهالاتستطيعأنتنقلإلاعددامحدوداضئيلامنالرسائلالغريزيةذاتالدلالةالثابتةكمالايستطيعالحي وانأيضاأنينوعأويكوّنجملاجديدة ،وهويشبهفيذلكتلكالرسائلالبرقيةالتييرسلهاالإنســانعنطريق شفرةدوليةلهادلالاتثابتةومحددةســــــــــــــــــــــــــــــــــــلفا))(٦٦)

وللنحللغةرمزيةقائمةعلىالرقص ،ورسمدوائرمعينــــــــــــــــــــــــــــةفيالهواء.

وتدلفيهابقيــةالنحلعلىوجوداللقاحفيالحقول.

ويبرزفيهاجانبالإزاحة ؛إذالتدليلقائمبغيابالمشــــــــــــــــــــــــــــــــــــارإليهأي: إمكانيةالكلامعنشيءبعيدعنافيالمكان ،والزمان ،وعلىالرغممنذلكفالأمرلايعدوالإشارةالمجرد

ة ؛ فالتأشير لا يتضمن متصور النحلة عنه ، والمشار إليه هو هو دائماً ، فلا يعدو الأمر الإرشاد إلى الاتجاه الذي ينبغي اتباعه للوصول ، وكذلك المسافة اللازمة ، فلغة النحل تفتقر إلى مفهوم الإسناد الناتج عن العمـ لية التصورية حول الشيء ، كما لا يوجد حوار بين أفراد النحل ورد على الرسالة المرسلة سوى ردود أفعال تمثل استجابة في امتثال للإشارة (٦٧).

إن رواية الماضي واستشراف المستقبل ونسج الخيال واستعمال الألفاظ في المداهنة ، والمماحكة ، والخـ داع مثلما تستعمل في الصدق كلها من سمات اللغة البشرية ، ولا تعرفها اللغة الحيوانية (٦٨) ، وما كان لها أن تكون كذلك لولا سمة الإسناد المنبثق عن إمكانية الذهن البشري للتصور ، ثم الإسناد.

وإلى جنب الفكرة التوليدية التي تسم اللغة الإنسانية بميسم ها يقف إلى صـــــــــــفها مفهوم (الانبنـــــاء المزدوج Double Articulation الذي أصَّـــلَهُ (أندريه مارتينيـــــه) هذا المفهوم يصبغ اللغة الإنسانية بخصيصـــــــــة بنائية. وهي فكرة قبلية عند إخوان الصـــــــفا. وفيما أشار إليها بن سينا ، ومن بعده الرازي في الدلالة التفصيلية تصور واضح عنها ، وإن لم يمتد النقاش عند دهم إلى المستوى البنيوي ، فالفكرة المراد إيصالها عبر المنطوق من الكلام تظهر بمستويين بنائيين مختلف ين ، فـــــــــ الأول: يتم تحليل الفكرة المراد إيصالها فيه إلى سلســــــــــــلة من الوحدات. ولكل وحدة شكل صـــوتي ، ومعنى. وكل وحدة من الوحدات الناتجة عن المستوى الأول تنقسم أيضاً إلى وحدات من نوع آخر ؛ فمن يعاني ألماً في رأسه يمكن أن يعبر عن ذلك بصـــرخات انفعالية لا إرادية. وقد تكون تلك الصرخات مقصودة ؛ بغية إيصال الإحساس بالألم إلى الآخرين عبر تأوهات ، أو صرخات وفي ذلـ كما يشبه المرسلة الحيوانية التي تعبر عن ألم ، أو جوع أو ، رغبة ، أو إشعار للآخرين من نوعها باقتراب حيوانـ فترس ، ولكن لا يرتقي أن يكون تواصلاً لسانياً ؛ فالمرســـــــــــــــلة لا يمكن تجزئتها وتحليلها (٦٩). وهي تعبر عن الإحساس بالألم على نحو مجمل ، وغير محلل ، أو مفصل نظير التعبير اللســــــــــاني: (أعاني من ألم في رأســـي) ففي المستوى الأول تحلل الفكرة الألم في وحدات معنوية ؛ ذات شكل صـــوتي ، ودلالي (أعـــــــاني) ، و (مــــــــــن) ، و (ألم) ، و (رأس) ، و (الياء الضــــــــــمير). وهذه الوحدات لها القابلية على التشـــــاكل ، والبناء بكيفيات مختلفة ؛ للتدليل على أفكار مختلفة. ولا تتمكن أي وحدة من الوحدات أن تعبر عن الفكرة وحدها من التقطيع بدون انبنائها مع الوحـــــدات الأخر. وفي المستوى الثاني تُجزأ كل وحدة إلى سلسلة من الأصـــــــــوات المفردة (الفونيمـــــــات)

التيلاتحملأيمعنىسوىاضـــــــطلاعهابأثروظيفي ؛تتمايزعبرهالكلماتعبرمفهومالتقابل ؛إذ (فـــــونيم) الـــــــراءمن (رأس) يقابـــــــل (الفـــــاء) مــــــن (فـــــأس) فتنتهيالسلسلةعبرأصواتمحدودةليستذاتمعنى ،ولكنالممكناتالتشـــــكيلية (الفنولوجيـــــة) تكونلاحدلهامنخلالانبناءالفونيماتالمحدودةممايعدسمةاقتصاديةفيالنظاماللغويالأمرالذييجعلهذهالسمةخصيصةجوهريةفياللغةالإنسانية ؛لايوجدلهانظيرفيالإشاراتالحيوانية(٧٠).

ومماسبقبحثهيتضحأنَّملكةالنطقعندالفلاسفةالمسلمينارتبطتبالقدرةالذهنيةالإدراكيةوتميزهالتمثلاتالذهنعنمحسوســــــــــــــــــــــــــــــــــــــاتهاالغائبة ، وبذلكافترقتعنالإشارةالطبعيةالغريزيةالحيوانيةالتيلاتظاهياللغةالإنسانيةمنناحيةالاتساعالتعبيري ، ونظامهاالتركيبيالبنيويالمستوعبلمقاصدالإبلاغالتيلاحصرلهاعلىوفقآليةالانبناءالمزدوج.

الهوامش

(١) الكفـوي ،أبوالبقاءأيوببنموسىالحسـينيت ١٠٩٤هـالكليات ، مؤسسةالرسـالة (بيروت ١٩٩٨) ، ص ٦٦.

(٢) أدهم ، سامي ، إبستمولوجياالمعنىوالوجود. نقدالتطورية. مركزالإنماءالقومي ، (بيروت ، بدونتاريخ) ، ص ١٢ـ ١٢.

(٣)مسـكويه ، أبوعليأحمـدالخازن ، ت ٤٢١هـالهواملوالشوامل ، الهيئةالمصريةالعامةللكتاب ، (القاهرة ، ٢٠٠٩) ، ص ١٢٩.

(٤) المصدرنفسه ، ص١٢٩ـ ١٣٠.

(٥)سوسير ، فردينانـدي ، علماللغـةالعام ، ترجمةيوئيليوسفعزيز ، دارآفاقعربيـة ، (بغداد ، ١٩٨٥) ، ص ٨٩.

(٦)تشاندلر ، دانيال ، معجمالمصطلحاتالأساسيةفيعلمالعلامات (السيميوطيقا) ، ترجمةشاكرعبدالحميد ، أكاديميةالفنون (مصر ، بدونتأريخ) ص ١٨٤.

(٧)توماسـيللو ، ميشـيل ، الأصولالثقافيةللمعرفةالبشـرية ، ترجمةشـوقيجلال ، هيئةأبوظبيللثقافةوالتراث ، (أبوظبي ، ٢٠٠٦) ، ص ٢٦.

(٨)ابنسـينا ، أبوعليالحسـينبنعبداللهت ٤٢٨هـالشفاء ، قسـمالطبيعيات ، الـنفس ، تحقيقالأبالدكتورجورجقنواتي ، وسعيدزايد ، منشوراتذويالقربى (قم ، ١٤٣٠) ، ص ٥٢.

(٩) ابنسـينا ، أبوعليالحسـينبنعبداللهت ٤٢٨هـ ، عيونالحكمـة ، تحقيقعبدالرحمنبدوي ، دارالقلم(بيروت ، ١٩٨٠) ، ص ٣٦.

(١٠) الفـارابي ، أبونصـرمحمد ، ت ٣٣٩هـ ، كتابعيونالمسائلفيالمنطقومبادئالفلسفةضمنكتاب (مبادئالفلسفةالقديمة) ، المكتبةالسلفية ، (القاهرة ، ١٩١٠) ، ص ١٦.

(١١) مسكويه ، احمدبنمحمدبنيعقوب ، تهـذيبالاخلاق ، دارالكتبالعلمية ،(بـيروت ، ١٩٨٥) ،ص ٧ وينظرمسـكويه ، احمدبنمحمدبنيعقوبفياللذاتوالالامضـمن

:رسالتانفياللذاتوالآلاموالنفسوالعقللمسكويه ، منشوراتالجمل (بيروت ، بغداد ، ٢٠٠٩) ، ص ٢٣.

(١٢) ابنسيناابوعلياالحسينبنعبداللهت ٤٢٨ هالنفسمنالشفاء ١٤٧.

(١٣) البغدادياابوالبركاتهبةاللـــــــــهابنعليبنملكا ، ت ٥٤٧هـــــــــ ، الكتابالمعتبرفيالحكمـة ، دائرةالمعارفالعثمانيـة (حيدرأبادالـدكن ، ١٣٥٨هـ) ، ج ٢ ، ص ٣٤٠.

(١٤) ابنســـينا ، أبوعلياالحســـينبنعبداللهت ٤٢٨هـــ ، المبـــدأوالمعاد ، نشرعبداللهنوراني ، (طهران ، ١٩٨٤) ، ٩٣.

(١٥) ابنرشـــد ، أبوالوليـــد ، محمدبنأحمـــد ، ت ٥٩٥ ، كتابـــالنفس ، تقديموضبطوتعليقموفقفوزيالجبر ، دارالتكوين ، (دمشق ، ٢٠٠٦) ، ٦١.

(١٦) ابنســـــــينا ، أبوعلياالحســـــــينبنعبداللهت ٤٢٨هـــــــــ ، مبحثعنالقوىالنفسانيةضــــــــمن : كتـــــــاب : أحوالالنفسابنســــــــينا ، تحقيقوتقديمأحمـدفؤادالأهواني ،دارإحياءالكتبالعربيـة ، عيسـىالبابيالحلبي ، (مصـر ، ١٩٥٢) ، ص ١٦٦.

(١٧) المصدرنفسه ، ص١٦٦.

(١٨) ابنرشد ، الكلياتفيالطب ، مركزدراساتالوحدةالعربية ، (بيروت ، ١٩٩٩) ص ٢٠٩.

(١٩) الفـارابي ، فصـولمنتزعة ، تحقيقوتقـديموتعليقفوزيمتريالنجار ، دارالمشـرق (بيروت ، ١٩٨٦) ، ص ٢٨.

(٢٠) ابنسينا ، القانونفيالطب ، دارصـادر ، (بـيروت ، بـدونتأريخ) ، ج ١ص ٧١-٧٢ ، وينظرالـــرازي ، فخرالـــدين ٦٠٦هـــ ، كتابالنفسوالروحوشـــرحقواهما ، تحقيقمحمدصغيرحسينمعصـومي ، معهدالأبحاثالاسـلامية (إسـلامآباد ، بـدونتأريخ) ، ص ٧٧.

(٢١) ابنسينا ، عيونالحكمة ، ص ٤٠.

(٢٢) بلانشـــــي ، روبـــــير ، المنطقوتأريخهمنأرسطوحتىراســــل ،

ترجمةالدكتورخليلأحمدخليلالمؤسسةالجامعيةللدراساتوالنشر ، (بيروت ، بدونتأريخ) ، ص ٣٧.

(٢٣) مسكويه ، تهذيبالأخلاق ، دارالكتبالعلمية ، (بيروت ، ١٩٨٥) ، ص ٥٩ـ ٦٠.

(٢٤) إخوانالصفاء (المؤلفونمجهولون) ، رسائلإخوانالصفاءوخلانالوفاء ، مؤسسةالأعلميللمطبوعات ، (بيروت ، ٢٠٠٥) ، ج ١ ، ص ٣٣٠.

(٢٥) طاليسأرسطو ، كتابالنفس ، ترجمةأحمدفؤادالأهواني ، الهيئةالمصريةالعامةللكتاب ، (القاهرة ، ٢٠٠٩) ، ص ٩٣ومابعدهامنصفحات.

(٢٦) إخوانالصفاء ، المصدرالسابقج ٣ ، ص ٢٠٠.

(٢٧) المصدرنفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠١.

(٢٨) المصدرنفسه ، ج ٢ ،ص ٣٩٧.

(٢٩) ابنباجة ، أبوبكرمحمد ، ت ٥٣٣ ، كتابالنفس ، تحقيقمحمدصغيرحسنالمعصومي ، المجمعالعلميبدمشق (دمشق ، ١٩٦٠) ، ص ١٩٦.

(٣٠) إخوانالصفاء ، المصدرالسابق ، ج ٣ ص ٣٤١.

(٣١) المصدرنفسه ، ج ٢ص ٣٤٥.

(٣٢) ابنسينا. تسعرسائلفيالحكمة ، (مصر ١٩٠٨) ، ٤٥.

(٣٣) ابنرشد ، كتابالنفس ، ص٤٢.

(٣٤) طاليس ، أرسطو ، كتابالنفس ، ص ٧٤.

(٣٥) إخوانالصفاء ، المصدرالسابق ، ج ٢ص ٣٣٨ـ٣٣٩.

(٣٦) المصدرنفسه ، ج ٢ص ٣٤٩.

(٣٧) سليم ، دمريم ، علمتكوينالمعرفة ، معهدالإنماءالعربي ، (بيروت ١٩٨٥) ، ص ٦٤.

(٣٨) جرين ، جودث ، التفكيرواللغة ، ترجمةوتقديم ، الدكتورعبدالرحيمجبر ، الهيئةالمصريةالعامةللكتاب ، (مصر ، ١٩٩٢) ، ص ١٢٣ ، وينظرسليم ، د. مريمالمصدرالسابق ، ص ٢٠٤ـ ٢٠٥. وينظر: ميشال ، زكريا ،

قضاياألسنيةتطبيقية ،دارالعلمللملايين ، (بيروت ، ١٩٩٣) ، ص ٨١.

(٣٩) جومسكي ، نعوم ، اللغةومشكلاتالمعرفة ، ترجمةحمزةبنقبلانالمزيني ، دارتوبقا (الدارالبيضاء ، ١٩٩٠) ، ص ٦٥.

(٤٠) ريشـــــل ، مــــارك ، إكتســـاباللغة ، ترجمةكمالبكــــداش ، المؤسسةالجامعيةللدراساتوالنشـر ، (بيروت ، ١٩٨٤) ، ص ١٢٧ــ ١٢٩. وينظـر: أوكـان ، عمـر ، اللغـةوالخطاب ، أفريقياالشـرق ، (المغرب ، ٢٠٠١) ، ص٢٣ــ ٢٤. وينظـر: بـوردن ،جلوريــا ، ج ، أساســياتعلمالكلام ، دراســةفيفيزيولوجياالكلاموسمعياتهوإدراكه ، ترجمةمحييالدينحميدي ، دارالمدى (دمشق ، ١٩٩٨) ، ص ١٩.

(٤١) فيجوتسـكي ، ل ، س ، التفكيرواللغـة ، ترجمةالدكتورطلعتمنصـور ، مكتبةالانجلومصرية ، (مصر ، ١٩٦٧) ، ص١٤٤ـ١٤٥.

(٤٢) المصدرنفسهص ٢٧٠ــ ٢٧١. وينظرجـرين ،جوديـث ، المصدرالسـابق ، ص١٢٤ـ ١٢٥ وينظرريشل ، مارك ، المصدرالسابق ، ص ٢٦ـ ٢٧.

(٤٣) ينظر: سوسير ، المصدرالسابق ، ص ٢٦ـ ٢٧.

(٤٤) وإلىهذاالمذهبينزعروسوفقدنصـــــــــــــــــــــــــــــــــقائلا: ((إنَّاختراعفنتبليغأفكارناليسمديناًللأعضاءالتيتخدمهذاالتبليغبقدرمايرجعإلىملكةتخصالإنسانهيالتيتجعلهيستخدملتلكالغايةأعضــــــاءهبلتحمله ، إذامااانعدمتتلكالأعضـــــــاء ، علىأنيســـتخدمغيرهالعينتلكالغاية..)) ينظرروســـو ، جانجــاك ، محاولةفيأصـــلاللغات ، ترجمةمحمدمحجوب ، دارالشؤونالثقافية ، (بغداد ، ١٩٨٦) ، ص ٣١.

(٤٥) سوسير ، المصدرالسابق ، ص ٢٨.

(٤٦) المصدرنفسهص ٢٩.

(٤٧) المصدرنفسه ٢٩.

(٤٨) ابنسينا ، القانونفيالطب ، دارصـادر ، (بيروت ، بـدونتأريخ) ، ج ٢ ، ص ١٧٩.

(٤٩) جاكوبســن ، رومــان ،وهالــة ، أساسـياتاللغة ، ترجمةسـعيدالغانمي ، المركزالثقافيـــالعربي ، (بـــيروت ، الدارالبيضـــاء ، ٢٠٠٨) ص ١١١٨ـــــ ١١٩وص ١٣٠.

وينظر بركة ، فاطمة الطبال ، النظرية الألسنية عند رومانيا كوبسن ، دراسة ونصوص ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، (بيروت ، ١٩٩٣) ، ص ٢٧.

(٥٠) جومسكي ، نعوم ، جوانب من نظرية النحو. ترجمة مرتضى جواد باقر ، نشر جامعة البصرة ، (الموصل ، ١٩٨٥) ، ص ٢٨-٣٠.

(٥١) جومسكي ، نعوم ، آفاق جديدة في دراسة اللغة والعقل ، ترجمة عدنان حسن ، دار الحوار ، (دمشق ، ٢٠٠٩) ، ص ٣٦- ٣٧. وينظر: جومسكي ، نعوم ، اللغة ومشكلات المعرفة ، ترجمة حمزة بن قبلان المزيني ، دار توبقال (الدار البيضاء ، ١٩٩٠) ، ص ٦١- ٦٢.

(٥٢) المصدر نفسه

(٥٣) ابن حزم ، أبو محمد علي بن سعيد الأندلسي ، ت ٤٥٦هـ ، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية ، تحقيق الدكتور إحسان عباس منشورات مكتبة الحياة ، ص ١٢.

(٥٤) الفارابي ، كتاب الموسيقى الكبير ، تحقيق وشرح غطاس عبد الملك خشبة ، دار الكتاب العربي (القاهرة ، بدون تأريخ) ، ص ٦٣.

(٥٥) المصدر نفسه ص ٦٣- ٦٤.

(٥٦) إخوان الصفا ، المصدر نفسه ، ج ٣ص ٨٨.

(٥٧) ابن سينا ، كتاب النفس من الشفاء ١٨٢.

(٥٨) الرازي ، فخر الدين ، المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات ، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي ، دار الكتاب العربي ، (بيروت ، ١٩٩٠) ، ج ٢ ص ٤٢٢.

(٥٩) المسدي ، عبد السلام ، مباحث تأسيسية في اللسانيات ، دار الكتاب الجديد (ليبيا ، ٢١٠) ، ص ٤١.

(٦٠) إخوان الصفا ، المصدر السابق ، ج ٣ ص ١٠٨.

(٦١) تشاندلر ، دانيال ، المصدر السابق ، ص ٥٤.

(٦٢) ابن حزم ، المصدر السابق ، ص ١٢.

(٦٣) البغدادي ، عبد اللطيف ، ت ٦٢٩هـ مقالتان في الحواس ومسائل طبيعية ،

دراسةوتحقيقبولغليونجيوالدكتورسعيدعبده ، وزارةالإعلامالكويتية ، (الكويت ، ١٩٧٢) ص ٩٣ـ ٩٤.

(٦٤) روسو ، جانجاك ، المصدرالسابق ، ص ٣١.

(٦٥) ياكوبسن ، رومان ، الاتجاهاتالأساسيةفيعلماللغة ، ترجمةعليحاكمصالح ، وحسنناظم. المركزالثقافيالعربي ، (المغرب ، ٢٠٠٢) ، ص ٨٣ـ ٨٤.

(٦٦) ليونز ، جون ، نظريةتشومسكياللغوية ، ترجمةحلميخليل ، دارالمعرفةالجامعية ، (الأسكندرية. ١٩٨٥) ، ص ٥٨.

(٦٧) جومسكي ، نعوم ، اللغةوالعقلواللغةوالطبيعة ، ترجمةرمضانمهلهلسدخان ، دارالشؤونالثقافيةالعامة ، (بغداد ، ٢٠٠٥) ، ص ١٧. وينظرمارتان ، روبير ، المصدرنفسه ، ص ١١٦ـ ١١٧.

(٦٨) كوريااليس ، مايكل ، فينشأةاللغة ، منإشارةاليدإلىنطقالفم ، ترجمةمحمودماجدعمر ، سلسلةعالمالمعرفة (٣٢٥) المجلسالأعلىللثقافةوالفنونوالآداب ، (الكويت ، ٢٠٠٦) ، ص ١٦.

(٦٩) مارتينيه ، أندريه ، مبادئألسنيةعامة ، ترجمةريمونرزقالله ، دارالحداثة ، (بيروت ، ١٩٩٠) ، ص ١٨ ،.

(٧٠) المصدرنفسه ، ص ١٨ـ ٢٠.

العلامة اللغوية والاتجاهات السيميائية

أ.م.د.أثير محمد شهاب

كلية التربية للبنات/جامعة بغداد

أسهمت الدراسات اللغوية الحديثة على يد العالم السويسري فردينان دي سوسير في وضع اللبنات الأولى لعلم العلامات اللغوية على الرغم من تنازع الأمر بين أسبقية بيرس على سوسير[١] في الأصول لعلم العلامات ، ومع وجود هذا النزاع فإن الأسبقية لدراسة العلامة اللغوية تبقى من نصيب سوسير الذي أكد ذلك بقوله: ((اللغة نظام من الإشارات))[٢].

ويبدو أن الحديث عن الأصول والبدايات يضع الدراسة في خانة الدراسات المستهلكة ، فلا ضير من تخطي مسألة أصول الدراسات السيميائية والفروقات بين كل نوع(سيمياء التواصل ، والثقافة ، والدلالة)[٣] ، للوصول إلى الاهتمام باللغة بوصفها علامة بخلاف العلامات غير اللغوية.

---

(١) ينظر: شفرات الجسد، جدلية الحضور والغياب في المسرح، عواد علي: ٣١.

(٢) علم اللغة العام، فردينان دي سوسير: ٣٤.

(٣) للإطلاع على عمل وبدايات الاتجاه السيميائي وحقوله، ينظر: معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، مجموعة كتاب، وينظر: الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي، غريب طارش الساعدي،اطروحة ماجستير.

وتبقى أهمية العلامة في حياتنا أكثر تأثيراً من بقية أنظمة الاتصال الأخرى ، نتيجة التماس اليومي معها ، وهذا التماس جعل حياتنا مؤطرة داخل هذا الحقل وأن أي إلغاء للعلامة سوف((يخل بتوازن المجتمع والفرد معاً))[1] ، بمعنى تحولها إلى جزء من النسيج الإدراكي للمجتمع على الرغم من مقولات أرسطو – أثناء حديثه عن التعرف وأقسامه- التي تعيب النوع الأول من التعرف بالعلامات ، لأنها تستخدم ((لضعف الفكر))[2] ، ولا أعرف القصد الذي قدمه أرسطو لرفضه ، ويبدو السبب من خلال ارتباط العلامة في مفهومها بالبدائية والشعائريات بوصفها قاتلة لعمل الفكر.

إنّ شيوع العلامة اللغوية يعني الانتقال باللغة من التفكير الذهني إلى التفكير البصري ، أي استقبال اللغة ومن ثمّ تحويلها إلى صورة ذهنية لها أصل مرجعي صوري في الواقع ؛ لأن البشر في طبيعتهم((يودعون في اللغة نظرتهم للعالم))[3] والانتقال بالتفكير اللغوي من الذهني إلى الصوري يجسد–بالنتيجة – فكرة نقل المحسوسات الخارجية إلى واقع لغوي أكثر أدبية ، وهو ما أكده روبرت شولز بقوله: ((وكلما حاول الكاتب إرجاع ظاهرة المطر التي لا يمتلك منها سوى الاحساسات إلى مجرد كلمات ، زاد ذلك الفضاء امتلاء واتساعاً من الناحية المادية المجسدة ويمكن لكل اتساع في وصف المطر أن يكون أكثر أدبية))[4] وقد تذبذبت الآراء في دراسة السيمياء للعلامات اللغوية ، على أن بعضهم من يرى خلاف ذلك[5] فضلاً عن رفض بعضهم إشارة العلامة اللغوية إلى وجود المرجع ، بدءاً من تقسيم سوسير وانتهاء برفض إيكو الذي يقول: ((إنّ مشكلة المشار إليه تخرج عن نطاق علم

---

(١) سيميولوجيا اللغة، إميل بنفنست، ضمن: مدخل إلى السيميوطيقا: ١٧٨.

(٢) فن الشعر، أرسطو: ٩٢.

(٣) السيميوطيقا، حول بعض المفاهيم والأبعاد، سيزا قاسم، ضمن مدخل إلى السيميوطيقا: ٣٩.

(٤) السيمياء والتأويل، روبرت شولز: ٥٤.

(٥) علم الإشارة (السيميولوجيا)، جيرو: ٢٦.

السيميوطيقا))[1] ، وقد خالفه بعضهم ، في أن إلغاء المرجع ينفي الثبات والمصداقية عن توصيف العلامات بالعلم[2] ؛ لأن المصداقية تتحدد في ضوء مطابقة الصورة العلامة للواقع المشار إليه ، وقد ابتعد كوهين عن قبول العلامة وما تشير إليه لاعتقاده (بصدفة) إشارة الدخان إلى النار ، إذ من المحتمل عدم إشارة الدخان إلى النار[3] ، وخارج إطار العلمية ، فإن اللغة سوف تتراجع إذا ما اهتمت بالمرجع ؛ لأن ((تغذية اللغة بالخبرات اللالغوية الجديدة هي التي تحفظ اللغة من الاضمحلال)) [4].

ومفهوم المشار إليه وضع السيمياء ضمن الدراسات النصية التي تهتم بعلاقة العلامة بسياقها اللغوي والتركيبي من جهة ، وخارج نصية من خلال إحالتها إلى واقع خارجي يطابق الصورة الذهنية من جهة أخرى ، وقد أشار الباحث غريب طارش إلى أن الواقع الخارجي لا يشبه ذلك الواقع الذي تدرسه المناهج السياقية ؛ لأنه يدرس ويتجلى((من خلال البنية الداخلية للنص لا العكس ، كما تنظر إلى ذلك المناهج الخارجية)) [5] ، وثمة رأي يؤشر الفرق الحاصل بين الإشارة إلى العالم الخارجي وعدمها من خلال نوعية الدراسة ، فإذا كانت الدراسة سيميائية فإنها لا تحيل إلى واقع خارجي ما عدا العلاقات داخل اللغة ، وإذا كانت الدراسة دلالية ، فإنها تهتم ((بالعلاقة بين العلامات والأشياء التي تشير إليها))[6] ، ولم يكتف النقاد بما قيل في المشار إليه الى هذا الحد ، إذ اتجه موكاروفسكي إلى بيان خصوصية العلامة من خلال إشارتها إلى أكثر من مشار إليه ، أي مرونتها في الإشارة إلى أكثر من واقع

---

(١) السيميوطيقا، حول بعض المفاهيم والأبعاد، ضمن: مدخل إلى السيميوطيقا : ٢٢- وما بعدها، وينظر: السيمياء والتأويل،روبرت شولز: ٥٢- وما بعدها.

(٢) م.ن :٢٣.

(٣) ينظر: اللغة العليا، كوهين:٢٠٣، للإطلاع على المزيد ينظر: مقالات في الأسلوبية، د. منذر عياشي: ٢٢٧- وما بعدها.

(٤) السيمياء والتأويل، روبرت شولز: ٥٣.

(٥) الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي، غريب طارش الساعدي، رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة المستنصرية،المقدمة.

(٦) السيمياء والتأويل، روبرت شولز:٨٥.

وصورة[1] ، ويبدو لي أن هذا التصوّر ينطبق على العلامات المسرحية التي تحيل بالضرورة — إلى واقع اجتماعي/سلوكي/نفسي ، على خلاف العلامة الشعرية التي تجتهد في نفي صلتها بالواقع ؛ لأنها — في بادئ الأمر- تحيل إلى الواقع الخارجي ، وعند ربطها بسياقها ينتفي ذلك الواقع ، لتتجسد دلالة العلامة سياقياً.

وقد أكد إمبرتو إيكو على أن العلامة المسرحية تُجسد المكان والزمان والواقع ، في حين العلامة اللغوية تشير لفظياً إلى الواقع والزمان والمكان[2] ، والإشارة تعني — هنا — الإحالة ضمن الفاعلية النصية وليس التجسد الخارجي.

وثمة مسألة تحتاج إلى بيان ، هي دراسة أغلب الباحثين[3] الخلاف الحاصل بين سوسير وبارت حول أيهما أشمل السيميولوجيا أم اللسانيات؟ فقد قال سوسير: إن علم اللغة جزء من السيميولوجيا ، في حين عدّ بارت اللسانيات أشمل من السيميولوجيا ، ويبدو لي أن سوسير لم يقل بشمولية السيميولوجيا ، وإنما تجسدت نظرته من خلال محاولته وضع اللغة في مصاف العلوم الأخرى التي تعتمد التبويب والضبط ، يقول: ((تمكنا للمرة الأولى من إدراج علم اللغة في مصاف العلوم ، فذلك لأننا تمكنا من إلحاقه بالسيميولوجيا))[4] وليس من باب إلحاق علم اللغة بالسيميولوجيا على أنها أشمل.

وثمة قضايا تحتاج الى بيان منها وظائف العلامة وطرائق استقبالها وحرارتها وبرودتها وأقسامها سنحاول توضيحها ، وأول القضايا قضية وظيفة العلامة ، وكما هو معروف فإن وظائف العلامة تتحدد في ضوء الخط الذي تتواصل ضمنه(سيمياء التواصل ، والثقافة ، والدلالة) ومع وجود هذه الأنواع ، إلا أن السمة المهيمنة على

---

(١) ينظر: السيميوطيقيا، حول بعض المفاهيم والأبعاد، ضمن: مدخل إلى السيميوطيقا: ٢٥-٢٦.

(٢) ينظر: سيمياء العرض المسرحي، إمبرتو إيكو: ٢٠٦.

(٣) ينظر: مبادئ في علم الأدلة، رولان بارت: ٢٧، ودليل الناقد الأدبي: ١٠٧.

(٤) فصول من دروس في علم اللغة العام، فردينان دي سوسير، ت. عبد الرحمن أيوب، ضمن: مدخل إلى السيميوطيقيا: ١٥٠.

وظيفة العلامة سمة((قصد إيصال المعنى))[1] ، والوصول إلى الإبلاغ[2] ويتضح أن قصد الإيصال يقع ضمن مفاهيم الاتصال أو الالتقاء مع الآخر ، أما خارج الالتقاء مع الآخر ، فإنها تبتعد عن التوصيف بالعلامة ، والسبب يعود إلى خروج الإشارة والعلامة عن تسميتها حينما لا يكون هنالك قصد في إيصال الدلالة ، من ذلك اختلف النقاد في تسمية الإشارية علامة ، والسبب بحسب قولهم: ((ليس في نية السماء الغائمة أن تخبرنا بشيء)) [3] ، وانتفاء صفة النية ، دليل على انتفاء صفة القصد التي تكون من أولويات سيمياء التواصل ، لذلك وضعت أسس ووظائف عدة للعلامة:

١-التواصل: قصد إيصال المعنى.

٢-الاصطلاح والتواضع بين مستعملي العلامة.

٣-العلة: أي العلاقة القائمة بين الدال والمدلول على أساس وجود العلة[4].

وقد أضاف (زيك) وظائف أخرى تحدد نوعية العلامة تبعاً لأدائها داخل الفعل الدرامي((الأولى... وصفية ، أي إنها تحدد بشكل فعال مكان وشخصيات الحدث ، والثانية وظيفية أي إنها تشارك في الحدث الدرامي))[5] ، ويمكن حصر هذه الوظائف بما اختصره موريس ، من أن((العلاقة بين الإشارة والمجموعة الاجتماعية هي علاقة دلالية ، والعلاقة بين الإشارة والإشارات الأخرى هي علاقة تركيبية ، إما العلاقة بين الإشارة ومستعمليها فهي علاقة وظيفية))[6]. والقضية الثانية هي طرائق استقبال العلامة اللغوية ، والأمر –هنا– لا يخلو من إشكال يتعلق في ربط دارسي العلامة

---

(١) علم الإشارة(السيميولوجيا)، جيرو: ٥٢.

(٢) ينظر: السيميائية، جاك جينيناسكا، تر. محمد خير البقاعي، م. نوافذ، ع ١٣، ٢٠٠: ٤٠.

(٣) علم الاشارة السيميولوجيا، جيرو:٥١.

(٤) ينظر :م.ن :٥٥.

(٥) العلامات في المسرح، بيتر بوغاتيريف: ٥١.

(٦) علم الإشارة السيميولوجيا، جيرو: ١٦.

أغلبهم طرائق استقبالها بمخطط ياكبسون ولوتمان[1] ، أي الابتعاد عن طرائق استقبال العلامة إلى الاهتمام بنوعية الإيصال ووظيفته الذي يحدده حضور أحد الأطراف أوغيابه أو اتجاه الرسالة من متكلم إلى مخاطب أو من متكلم إلى متكلم.

والابتعاد عن هذا يحرف طرائق إيصال العلامة عن سياقها ؛ لان استقبال العلامة لا يعتمد على نوعية الحضور أو تركيز الخطاب تجاه نقطة معينة ، وإنما يعتمد على نقل دلالة العلامة من وإلى بمعزل عن اتصاف هذا الخطاب بالتعبيرية أو الفنية أو الشعرية ؛ لأن القصد –بسبب التواصل– يضع إيصال الدلالة من أولويات بحثه ، وقد لخص بعضهم طرائق استقبال العلامة وإيصالها في ضوء الوظيفة التي تتمتع بها ، فقالوا: إن ((تواصل سوسير حدث اجتماعي ، وتواصل بلومفيلد سلوكي ، وتواصل شينون وويفر نقل خبري))[2] ، واعتماد مخطط ياكبسون أو غيره لا يضعنا في الأساس الحقيقي للاستقبال ، لأنه يصح على نقل اللغة بوصفها لغة ، ولا يصح على اللغة بوصفها علامة ، لذلك كان لا بد من رسم حدود جديدة لإيصال العلامة اللغوية ، ويخيل إليّ أن طرائق نقل العلامة اللغوية واستقبالها يتم في ضوء نقل اللغة من سياقها البصري – الكتابي ، والسمعي- الكلامي إلى سياق ذهني يحوّل وينتج صورة علامية.

وأما حرارة العلامة وبرودتها ، فتُحدد – بحسب **Mcluhan**[3]- وطبيعة الإبلاغ وعدد المعلومات المتوفرة داخلها ، والتي تهيء فرصة تميز العلامة عن غيرها من العلامات التي لا تحتوي إلا على عدد قليل من المعلومات التي تنقلها ، فضلاً عن ذلك يبقى موقف متميز لحرارة العلامة وبرودتها من حيث أهمية الأخبار والمعلومات التي تقدمها ، فقد تحتوي علامة ما على خبر واحد يكون أكثر أهمية من أخبار عدة تتضمنها علامة أخرى ، والأهمية –بطبيعة الحال– تنقل العلامة من درجة حسيّة –

---

(١) ينظر: السيميوطيقا في الوعي المعرفي المعاصر، أمنية رشيد، ضمن: مدخل إلى السيميوطيقيا: ٩- وما بعدها.

(٢) معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة: ٨٨ – ٩١.

(٣) ينظر: علم الإشارة السيميولوجيا، جيرو: ٤٤.

برودة – إلى أخرى – حرارة -.

والقضية الأخيرة التي نسعى إلى فحصها ، قضية تقسيم العلامات ، وأعتقد أن هذا المحور قد لاقى ما لاقى من اختلاف بسبب تنّوع الدراسات السيميائية التي تقسم العلامة انسجاماً مع خطّها وتوجّهها الذي تسعى إليه ، فقد صنفت العلامة – في بادئ أمرها – في ضوء المستوى الاجتماعي والسلوكي[1](أي انتماء العلامة إلى فئة اجتماعية أو إلى سلوك معين) ، ودراسة العلامة في ضوء هذا الاتجاه يجعلها قريبة من الدراسات النقدية السياقية التي تعنى بما هو خارج العلامة من وقائع.

وصنف بعضهم العلامات إلى طبيعية واصطناعية[2] ، وسمعية وبصرية[3] ، وتتسم الدراسات أغلبها التي تصنف العلامات بأحاديّة نظرتها ، فأمّا أن تنظر إلى العمل نظرة انطولوجية((تعنى بماهية العلامة أي وجودها وطبيعتها وعلاقتها بالموجودات الأخرى التي تشبهها والتي تختلف عنها) أو براجماتية((تعنى بفاعلية العلامة وتوظيفها في الحياة العملية التواصلية ونقل المعلومات))[4] والانعتاق من هذه النظرة الأحادية فيها من الصعوبة الشيء الكثير ، والسبب يعود إلى أن العلامة في طبيعتها تتضمن واقعين ، سياقي/وغير سياقي ، ودراستها لا بد من الأخذ بواحد من دون الآخر ، أمّا الاتفاق على الأخذ بالجانبين فسوف يّوجه الدراسة نحو رؤية نقدية متعددة يصعب حصرها.

وهناك تصنيف يتم في ضوء اكتساب العلامة وتشكلّها(ثقافية ، وطبيعية ، وطبيعية ثقافية)[5] ، غير أن التصنيف الأشمل والأفضل هو تصنيف كافزان[6] ، الذي قدم أكثر

---

(١) ينظر: علم الإشارة السيميولوجيا، جيرو: ١٤٠ – وما بعدها.

(٢) ينظر: سيمياء المسرح والدراما، كير إيلام: ٣٣، وسيميوطيقيا السينما، يوري لوتمان، كتاب: مدخل إلى السيميوطيقيا: ٢٦٩.

(٣) ينظر: العلامة في المسرح، كافزان، م. الحياة المسرحية، ع ٣٤- ٣٥، ١٩٩٠.

(٤)السيميوطيقيا حول بعض المفاهيم، سيزا قاسم، كتاب: مدخل إلى السيميوطيقيا: ١٩.

(٥) ينظر: علم العلامات السيميوطيقا، فريال جبور غزول، كتاب: مدخل إلى السيميوطيقيا:١٠.

(٦) ينظر بحث كافزان : العلامة في المسرح، م. الحياة المسرحية، ع٣٤ – ٣٥، ١٩٩٠. وتلى تصنيف كافزان تصنيف أسلن الذي نقد بسبب وضع العلامات غير السمعية في العلامات السمعية، ينظر: المسرح والعلامات، الين استون، وجورج سافونا،١٥٢.

من مقترح في تصنيف العلامات عبر دراسته المهمة لأنواع العلامات المسرحية ، وإليك مخططه:

١- الكلام ٢- النبر	النص المنطوق		علامات سمعية	زمان	علامات سمعية – ممثل
٣- إيماء ٤- حركة ٥- تحرك	التعبير الجسدي	ممثل	علامات بصرية	فضاء-زمان	علامات بصرية – ممثل
٦- مكياج ٧- تسريحة ٨- لباس	المظهر الخارجي للممثل			فضاء	
٩- إكسسوار ١٠- ديكور ١١- إضاءة	مظهر المكان الحركي	خارجاً عن الممثل		فضاء وزمان	علامات بصرية خارجاً عن الممثل
١٢- موسيقى ١٣- مؤثرات صوتية	مؤثرات سمعية غير منطوقة		علامات سمعية	زمان	علامات سمعية خارجاً عن الممثل

ويتضح من تصنيف كافزان ، أنه قدم أنموذجاً يتلاءم مع طبيعة التواصل وطرائق العرض المسرحي التي تقدم أنموذجها العلامي مباشرة للقارئ عبر التقسيم البصري – السمعي ، أو الفضاء الزماني – المكاني أو مظاهر الحركة الشخصية – الممثل.

اللسانيات والتراث العربي، أية علاقة؟
لسانيات النص أنموذجا

د.خالد حميد صبري
كلية ابن رشد للعلوم الإنسانية

إشكالية التراث في الوعي العربي المعاصر

شغلت إشكالية (التراث والحداثة) أو (الأصالة والمعاصرة) مساحة واسعة في الفكر العربي المعاصر. وتتمحور هذه الإشكالية حول أثر التراث ، بكل ما أنتجه فكريا وسياسيا واجتماعيا وغير ذلك ، في حياتنا المعاصرة ، وكيفية توظيفه في معالجة ما نواجهه من قضايا ومشكلات ، "هل نأخذ بالغرب أم بأسلافنا حكما على مشكلاتنا؟ "(١).

يعرّف محمد عابد الجابري التراث بأنه "كلّ ما هو حاضر فينا أو معنا من الماضي ، سواء ماضينا أم ماضي غيرنا ، سواء القريب منه أم البعيد"(٢) ، ولأن حديثنا في إطار التراث العربي ، فهو يعني كل ما هو حاضر فينا ومعنا من الماضي العربي. وحضور الماضي في تفكيرنا يعني "أن الماضي مرتبط مباشرة بالحاضر ، فهما متصلان ، وما التراث إلا هذا الأثر المتبقي من الماضي ، والذي هو حاضر بشكل أو بآخر فينا"(٣).

---

(١) إشكالية الأصالة والمعاصرة في الوطن العربي (بحث) ٩٠.

(٢) التراث والحداثة: دراسات ومناقشات٤٥.

(٣) التراث والمنهج بين أركون والجابري ٥٥.

معجميا "التراث والميراث ما وُرِثَ"[1] ، فهما بمعنى واحد ، غير أن الجابري حين يقارن بين المفهومين يجد أن الأول اتخذ ، في الخطاب العربي الحديث والمعاصر ، دلالة مغايرة ، بل مناقضة لدلالة الثاني ؛ إذ يعني الميراث ما يُوزَّع بين الوَرَثَة من تركة أو نصيب ، في حين أن دلالة التراث —اليومَ- تعني كل ما هو مشترك بين العرب من تركة فكرية وروحية تجمع فيما بينهم ، لكي يصبحوا جميعا خلفا لسلف واحد[2]. فـ"إذا كان (الإرث) أو (الميراث) هو عنوان اختفاء الأب وحلول الابن محله ، فإن (التراث) قد أصبح ، بالنسبة إلى الوعي العربي المعاصر ، عنوانا على حضور الأب في الابن ، حضور السلف في الخلف ، حضور الماضي في الحاضر... ومن هنا يُنظر إلى (التراث) لا على أنه بقايا ثقافة الماضي ، بل على أنه(تمام) هذه الثقافة وكليتها: إنه العقيدة والشريعة ، واللغة والأدب ، والعقل والذهنية ، والحنين والتطلعات ، وبعبارة أخرى ، إنه في آن واحد: المعرفي والأيديولوجي ، وأساسهما العقلي ، وبطانتهما الوجدانية في الثقافة العربية الإسلامية"[3].

أخذت إشكالية التراث تُطرح منذ أن بدأ رواد النهضة العربية العمل على إحياء تراث الأمة العربية-الإسلامية لمواجهة الغزو الأجنبي ؛ فقد "عمل خطاب النهضة على توظيف التراث بشكل مضاعف عندما دعا إلى الانتظام فيه والعودة إلى الأصول ، في سبيل نقد الماضي القريب والحاضر وبناء المستقبل من جهة ، وفي سبيل التصدي لتحديات الغرب والدفاع عن الذات من جهة ثانية. بات التراث مع الخطاب النهضوي مطلبا ضروريا يتمّ الارتكاز عليه من أجل القفز نحو المستقبل ، ومن أجل دعم الحاضر من خلال إثبات الذات وتدعيمها في مواجهة التقدم الغربي"[4].

إن عودة النخبة العربية إلى تراثها جاء نتيجة الصدمة التي ولدتها الحداثة ، بعد احتكاك العرب بالثقافة الغربية ، ولم تكن عودة ذاتية ناتجة عن قراءة الواقع العربي وفهم أزماته ؛ ولذلك يصف نصر حامد أبو زيد خطاب النهضة العربي بأنه كان"مسكونا

---

(١) لسان العرب (ورث) ٤٨٠٩/٦.

(٢) ينظر: التراث والحداثة: دراسات ومناقشات ٢٤.

(٣) التراث والحداثة دراسات ومناقشات ٢٤، وينظر: الثابت والمتحوّل بحث في الإبداع والإتباع عند العرب ٢٢٨/٣، وإشكاليات القراءة وآليات التأويل ٢٣١.

(٤) التراث والمنهج بين أركون والجابري ٥٦.

بخطاب الآخر الأوروبي في بنيته ، ذلك أن الأسئلة والإشكاليات التي انشغل بها خطاب النهضة كانت مطروحة عليه من خارجه ، أي من الخطاب الأوروبي. ويُعتبر هذا الوضع الناتج عن مسكونية خطاب الآخر في خطاب النهضة مسؤولا إلى حدّ كبير عن القراءة التلفيقية الموجهة أيديولوجياً ، والتي أنتجها خطاب النهضة عن التراث العربي الإسلامي"[1].

انتُقد موقف القارئ العربي المعاصر للتراث ؛ لأنه لم يكن قارئا حياديا ، بل كان مؤطرا بتراثه ، فبدلا من أن يعمل على احتواء التراث ، فإن هذا التراث هو الذي احتواه احتواءً أفقده استقلاله وحريته. "لقد تلقى القارئ العربي ويتلقى تراثه منذ ميلاده ككلمات ومفاهيم ، كلغة وتفكير ، كحكايات وخرافات... كمعارف وحقائق ، كل ذلك من دون نقد ، وبعيدا عن الروح النقدية ، فهو عندما يفكر ، يفكر بواسطته ومن خلاله ، فيستمد منه رؤاه واستشراقاته مما يجعل التفكير هنا عبارة عن تذكر"[2]. أي إن الذاكرة وضعت مكان العقل ، فهي التي تنوب عنه وتقوم بعمله ؛ لأن العودة إلى السلف لا تتطلب جهدا عقليا ، فالذاكرة هي التي تقوم باستحضار السلف ، لكي يتم البناء عليه ، والتحرك في إطاره. لقد هيمنت فكرة(النموذج-السلف) على جانب كبير من الخطاب العربي الحديث والمعاصر ، وكانت –بحسب الجابري- من أهم أسباب فشله ؛ لأنه خطاب لم يتحدث باسم ذات واعية ، لها استقلالها وشخصيتها ، إنما يتحدث باسم مرجعية تعتمد بالدرجة الأولى على توظيف الذاكرة ؛ لذلك عُدَّ الخطابُ العربي خطابَ ذاكرة لا خطابَ عقل ، وهو أمر خطير على الصعيد الفكري ؛ "ذلك أن المفاهيم فيً هذه الحالة ترتبط ، لا بالواقع الذي يتحدث عنه الخطاب ، بل بواقع آخر هو الذي يؤسِّسُ ، في الوعي والوجدان ، النموذجَ-السلف صاحب السلطة المرجعية الموجهة"[3].

ومما يؤخذ على القارئ العربي أيضا أنه ليس فقط مؤطرا بتراثه ، وإنما هو مُثقل بحاضره ؛ لا يرى فيه ما يعينه على النهوض ، لهذا هو مُجبَر على العودة إلى التراث

---

(١) النص والسلطة والحقيقة ٥.

(٢) نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي ٢٢.

(٣) الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية نقدية١٩٨، ينظر: التراث والمنهج بين أركون والجابري ٢٧٧-٢٧٨.

من أجل طلب السند والعون، والبحث عن الحلم الضائع، عسى أن يحقق بعض آماله ورغباته في التقدم والازدهار العلمي والعقلاني[١]؛ "لذلك تجده، عند القراءة، يسابق الكلمات بحثا عن المعنى الذي يستجيب لحاجته، يقرأ شيئا ويهمل أشياء، فيمزق وحدة النص ويحرّف دلالته، ويخرج به عن مجاله المعرفي التاريخي... إنه يقرأ كلّ مشاغله في النصوص قبل أن يقرأ النصوص"[٢].

وعليه انقسم المفكرون والباحثون العرب بشأن التراث على فئات ثلاث:

-الأولى ترى العودة إلى التراث أمراً ضروريا؛ إذ لا توجد إمكانية لأي تجديد في الثقافة والفكر العربيين إلا من داخل تراثنا، "يجب إدماج التراث في الحياة العربية فكريا وسياسيا واجتماعيا انطلاقا من أن بناء مستقبل عربي أصيل له خصوصيته الذاتية والموضوعية أمر غير وارد خارج نطاق التراث"[٣].

- الثانية تعارض العودة إلى التراث، وتدعو إلى "التحرر من تبعية الماضي وروحه وما ورثناه عنه من قيم وأفكار، حتى نتمكن من الإبداع خارج التراث"[٤]، ويُسمى المنتمون إلى هذه الفئة الحداثيين، والحداثة العربية[٥] هي "تلك الأفكار التي تتخذ من النموذج المعرفي الغربي مرجعا لها في بحثها عن النهضة والتقدم"[٦]، على أن اتخاذ النموذج الغربي مرجعا يختلف عن مجرد الإفادة منه؛ لأن إمكانية الإفادة تدخل في إطار عملية التثاقف بين الأمم، والحكمة ضالة المؤمن، كما يقال[٧].

- وهناك فئة ثالثة تحاول أن تفصل بين التراث والحداثة، وتعطي كل واحد منهما خصوصيته، وتتعامل معه ضمن سياقه الطبيعي، من غير إسقاط مفاهيم هذا الطرف على ذاك. وتعتقد هذه الفئة أن هذا الفصل سيخلص المتلقي العربي من أية حساسية

---

(١) ينظر: التراث والمنهج بين أركون والجابري ٥٧.

(٢) نحن والتراث: قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي ٢٣.

(٣) اللسانيات العربية الحديثة ١٣٢- ١٣٣.

(٤) المصدر نفسه ١٣٣.

(٥) هناك تعريفات كثيرة لمفهوم الحداثة العربية، وحتى الحداثة الغربية، لكننا اقتصرنا على ما يمكن أن يقرب التصور الذي له علاقة بموضوعنا.

(٦) النص والتراث- قراءة تحليلية في فكر نصر أبو زيد ١٧، وينظر: ثقافتنا في ضوء التاريخ ٢٠٠.

(٧) ينظر: النص والتراث- قراءة تحليلية في فكر نصر أبو زيد ١٧.

في التعامل مع الحداثة ، كما أنه سينظم التراث في الوعي العربي من خلال إعادة ترتيبه في سياقه التاريخي ، لكي يُصار إلى إدخاله في التاريخ ، فيدخل معه العرب في التاريخ[1].

إشكالية التراث في اللسانيات العربية

إن طبيعة الموقف العربي من التراث والحداثة التي أوجزناها في الصفحات الماضية ، قد انعكست على مجال اللسانيات بكل تفاصيله ، بل إن اللسانيات –كما يبدو- كانت في قلب ذلك الصراع.

بدأت إشكالية التراث تظهر على سطح البحث اللساني العربي منذ أن شرع الباحثون الرواد بإدخال النظريات اللسانية الغربية في المحيط العربي.

ويرى فريق من الباحثين أن الإشكالية الأساسية التي يعانيها البحث اللساني العربي الحديث "هي إشكالية تغييب التراث ومنه النظرية النقدية العربية"[2] ، فاللسانيات الحديثة –في نظر هؤلاء الباحثين- لم تستطع أن تملأ –وحدها- الساحة اللغوية العربية ، وظلت عاجزة عن إقناع المتلقي العربي بنجاعة مناهجها ونظرياتها ، يقول منذر عياشي: "لا تزال اللسانيات في العالم العربي ذلك المجهول الذي يثير فينا ريبا وشكّا ، وتوجسا وخوفا ، أكثر مما يثير فينا نزعة -ولو فضولية- لمعرفة موقعنا من واقع الثقافة والعلم والمعرفة في العالم"[3] ؛ ولذلك يرى هذا الفريق أن الحلّ البديل يكمن في "ربط الصلة بين النظريات الغربية والتراث العربي ، نظرا لوجود تشابه يكاد يكون مطلقا بينهما ، عسى أن يتحقق لنا تفسير هذه المناهج الغربية في ضوء التراث"[4].

ويجد القارئ في كثير من المؤلفات اللسانية العربية الحديثة رغبة واضحة وصريحة

---

(١) ينظر: النص والتراث قراءة تحليلية في فكر نصر أبو زيد ٢٣- ٢٤، ونقد العقل العربي في الميزان ١٥ وما بعدها، والتراث والمنهج ٢٤٣ وما بعدها، وثقافتنا في ضوء التاريخ ٢٠٥- ٢٠٦، والدين والنص والحقيقة قراءة تحليلية في فكر محمد أركون ٣٨- ٣٩.

(٢) الظاهرة الدلالية ١٣.

(٣) قضايا لسانية وحضارية ١١.

(٤) الظاهرة الدلالية ١٥.

في ربط النظريات اللسانية ومناهج التحليل فيها بالتصورات اللغوية العربية القديمة، بحيث أصبح هذا الربط "من المسائل الملحة والقضايا الهامة التي تطرح نفسها على أذهان العلماء والباحثين، وبخاصة بعد ظهور علم اللغة الحديث، كعلم مستقل، له كيانه المتميز بين بقية العلوم الأخرى"[١]، لعل في هذا الربط إسهاما في تأصيل علم اللغة عند المثقفين العرب[٢].

وقد يكون السبب في مقارنة اللسانيات بالتراث رغبة اللسانيين في جعل القارئ العربي يستأنس باللسانيات في ضوء ما لديه من تصورات لغوية قديمة، غير أن "هذه العملية لها انعكاسات منهجية سلبية إذا لم يُحْسَنْ تقديمها على أكمل وجه؛ لأنها تقود غير المتمكن من البحث اللساني قديمه وحديثه إلى الاعتقاد الخاطئ بأن الفكر اللغوي القديم يغني كلياً عن اللسانيات"[٣].

إن الرغبة في المقارنة بين اللسانيات والتراث تطورت، وأصبحت محور كتابة قائمة الذات، أُطلِقَ عليها(لسانيات التراث) التي حاولت مقاربة الفكر اللغوي العربي القديم من حيث هو تصورات ومفاهيم وطرق تحليل في ضوء النظريات اللسانية الحديثة[٤].

ويمكن القول بأن العودة إلى التراث اللغوي -كما هو الشأن في التراث العربي عموما- مرت بثلاث مراحل: مرحلة الإحياء التي اقتصرت على نشر هذا التراث، ومرحلة الوصف التي جرى فيها التعريف بالتراث من خلال تقديم رجالاته وتحديد محتوياته وقضاياه الكبرى، والمرحلة الثالثة هي مرحلة التفسير أو النقد، وفيها عمد الباحثون العرب وغيرهم إلى تمحيص التراث وتحليله تحليلا نقديا، من أجل استكشاف خصائصه، وتوضيح أسسه النظرية والمنهجية، ووضعه في إطار الفكر الإنساني عامة[٥].

إن مرحلة النقد والتفسير التي تطلبت الاعتماد على تصورات جديدة وأدوات

---

(١) أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث ١.

(٢) ينظر: علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة ٣، وأسئلة اللغة أسئلة اللسانيات ١١٩- ١٢٠، ومدخل إلى علم النص (الصبيحي) ١٣٩.

(٣) اللسانيات العربية الحديثة ١٠٦.

(٤) المصدر نفسه: ١٣٥.

(٥) المصدر نفسه: ١٣٤.

معرفية حديثة ، أنتجت ما يُعرف بمفهوم (القراءة الجديدة) أو (إعادة القراءة) للتراث في ضوء معطيات الفكر اللساني الحديث ، غير أن هذه القراءة لم تكن على نمط واحد ، بل خضعت لأكثر من توجه ، واتخذت أكثر من منطلق ، ويمكن تقسيمها – تبعا للباحث مصطفى غلفان- على ثلاثة أصناف:

١-قراءة تمجيدية ، تعطي النظرية اللغوية العربية المنزلة العليا ، وتضفي عليها نوعا من العظمة ، وتقدمها على النظريات اللسانية الحديثة ، انطلاقا من كون "الفكر اللساني العربي أسبق تاريخيا من النظرية اللسانية المعاصرة. إن العرب بحكم مميزات حضارتهم...أفضى بهم النظر إلى الكشف عن كثير من أسرار الظاهرة اللسانية مما لم تهتدِ إليه البشرية إلا مؤخرا بفضل ازدهار علوم اللسان في مطلع القرن العشرين"[١]. إن هذا النمط من القراءة هو ما تتصف به أغلب لسانيات التراث العربية.

٢- قراءة إصلاحية ، تسعى إلى تنقية النحو العربي مما علق به من شوائب ، مثل التجريد والتعليل والحذف والعامل والتقدير ، ويمكن أن يُعدّ تمام حسان أبرز نموذج لهذا النمط من القراءة ، فقد "حاول إيجاد العلاج على طريقة تختلف اختلافا عظيما أو يسيرا عن الطريقة التي ارتضاها القدماء"[٢] ، بل عَدَّ حسان مشروعَه "أجرأ محاولة شاملة لإعادة ترتيب الأفكار اللغوية تجري بعد سيبويه وعبد القاهر"[٣].

٣- قراءة تفاعلية ، تسعى إلى تقديم النظرية اللغوية العربية القديمة في إطارها التاريخي المنتجِ لها ، وتعطيها مكانتها الطبيعية اللائقة بها ؛ "لخلق نوع من التفاعل بين الفكر اللغوي العربي القديم والنظريات اللسانية الحديثة القائم على الأخذ والعطاء والقرض والاقتراض بينهما"[٤]. ويرى الباحث أحمد

---

(١) التفكير اللساني في الحضارة العربية ٢٦.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها ٩.

(٣) المصدر نفسه ١٠.

(٤) اللسانيات العربية الحديثة ١٣٧.

المتوكل أن القراءة التفاعلية تطمح إلى تحقيق ثلاثة أهداف متكاملة:

- "صوغ النظريات القديمة في قالب جديد ، يتيح المقارنة بينها وبين الحديث من النظريات.
- تطعيم النظريات اللسانية الحديثة العامة بروافد نظرية جديدة قد تثبت ما اتُّفقَ عليه في الغرب ، وقد تدحضه.
- خلَق نموذج لغوي عربي (أو نماذج عدة) يضطلع بوصف اللغة انطلاقا من النظريات القديمة بعد أن تُقولَب وتُمحَّص في إطار النظرية اللسانية وأن تحتك بما تفرع ويتفرع عنها من نماذج لغوية"[1].

وعُدَّ الباحث أحمد المتوكل أبرز من كتب في هذا الاتجاه[2].

وقد توصل لسانيو التراث إلى نتائج لا تخلو من إشكالات وتناقضات ، فقد زعموا أن النظرية اللغوية العربية القديمة هي نظرية وصفية[3] ، وتوليدية[4] ، ووظيفية[5] في الوقت نفسه ، ولم يأبه لسانيو التراث بأن هذه الاستنتاجات المتناقضة تفقد التراث اللغوي العربي (خصوصيته) الحضارية ، وذلك حينما تجعله قابلا لأن يصاغ حاضرا ومستقبلا في أية نظرية لسانية ممكنة اليوم وغدا ، فليس معقولا أن يكون النحو العربي بنيويا وتوليديا ووظيفيا في أسسه النظرية والمنهجية ، وكل توجه من هذا القبيل يوقعنا في "مفارقة منهجية ومغالطة إبستمولوجية. إن ما يكون بنيويا تصنيفيا لا يمكنه أن يكون ، في الوقت ذاته ، توليديا تحويليا ، نظرا لاختلاف الأسس النظرية

---

(١) نحو قراءة جديدة لنظرية النظم عند الجرجاني ٩١.

(٢) ينظر: اللسانيات العربية الحديثة ١٣٨.

(٣) ينظر: تعليم اللغة بين النظرية والتطبيق (بحث) ١١٣، وأهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث ٢٧، ونظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ٣٣- ٣٤.

(٤) ينظر: تعليم النحو بين النظرية والتطبيق (بحث) ١٢٤- ١٢٥، ونظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ٤٦،٥٤، والنحو العربي والدرس اللساني الحديث ١٥٥، وأصول تراثية في علم اللغة ٥٠.

(٥) ينظر: استراتيجيات الخطاب ٦- ٧.

والمنهجية بين التصورين"[1].

كما تغفل لسانيات التراث أن النظريات اللسانية الحديثة خضعت لعمليات تحديث وتطوير وإعادة نظر مستمرة ، حتى غودرت نماذجها الأولى بعد أن طرحت نماذج بديلة لها ، تتجاوز نقاط الضعف المرصودة على الأولى ، كما في النظرية التوليدية مثلا ، ومع ذلك نجد بعض الباحثين مازال يصر على مقارنة النظرية اللغوية العربية بتلك النماذج المهجورة[2].

إشكالية التراث في لسانيات النص العربية

إن الصراع بين التراث والحداثة في الوعي العربي عموما وفي اللسانيات خصوصا قد امتدَّ بنحو طبيعي إلى لسانيات النص ، فقد أدخلت لسانيات النص العربية نفسَها ، منذ لحظة ولادتها ، في دائرة ذلك الصراع ، وهذا ما نجده واضحا في الكتابة النصية الأولى في الثقافة العربية ، وهي كتابة محمد خطابي ؛ إذ جعلت المقترحات العربية(التراثية) جنبا إلى جنب مع المقترحات الغربية(الحديثة). إن الجمع بين هذين الصنفين المنتميين إلى بيئتين معرفيتين مختلفتين زمانا ومكانا -وبغض النظر عن دواعيه التي سنتوقف عندها بعد قليل- يمكن أن يفسر لنا أن أي جديد ليس له الدخول إلى حرم الثقافة العربية إلا عبر نافذة التراث ، فمن هذا التراث يكتسب الجديد شرعيته وهويته ، وهو ما يعني ضمنا أن العقلية العربية لا يمكن مخاطبتها إلا عبر تلك النافذة ، نافذة التراث.

توجه قسم من اللسانيين العرب النصيين إلى التراث العربي الإسلامي بحثا وتفتيشا عن أية إشارة أو فكرة تدخل في مجال النص. وقد اختلفت المجالات المقصودة من باحث إلى آخر ، فمنهم من توجه إلى النحو والبلاغة ، ومنهم من توجه إلى التفسير وعلوم القرآن ، وثالث ذهب إلى مباحث النقد الأدبي ، وغيرهم من

---

(١) اللسانيات العربية الحديثة ١٥٨، وينظر: قضايا إبستمولوجية في اللسانيات ٢٨٢.

(٢) ينظر: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث ٥، واللسانيات العربية الحديثة : ١٤٣.

جمع بين أكثر من مجال في دراسته. كما تباين حجم المساحة المخصصة للمباحث التراثية في الكتابات النصية العربية ، فبعض الكتابات كانت خالصة للمقارنة بين لسانيات النص والتراث ، ككتابة محمد الشاوش (أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية) ، وكتابة أشرف عبد البديع عبد الكريم (الدرس النحوي النصي قي كتب إعجاز القرآن الكريم) ، وكتابة محمد عبد الباسط عيد (النص والخطاب قراءة في علوم القرآن) ، وكتابة أحمد محمد عبد الراضي (نحو النص بين الأصالة والمعاصرة) ، أما البعض الآخر فخَصَّصَ للمباحث التراثية جزءا من كتابته ، كما هي الحال في دراسة محمد خطابي (لسانيات النص) ، ودراسة عمر أبو خرمة (نحو النص نقد النظرية وبناء أخرى) ، وغيرها.

قدم الباحثون العرب في لسانيات النص تفسيرات مختلفة لعودتهم إلى التراث ، فمحمد خطابي ، مثلا ، علَّلَ الأمرَ بكون النصوص التي يحللها عربيةً ، وهو ما يستدعي مساءلة التراث اللغوي العربي القديم ، على الرغم من قناعته وإيمانه بأن النص العربي لا يسلك ، في اتساقه وانسجامه ، سبيلا مخالفا تماما للنص الغربي ، بحيث تعجز الأدوات التي اقترحها الغربيون عن مقاربته من هذه الزاوية[1] ، إن العودة إلى التراث –في نظر خطابي- "تعني إعادة الحياة إلى هذه الإسهامات باعتبار أن فيها نظرات لا تقل أهمية وخصوبة عمّا قدمه الغربيون"[2].

أما الباحث محمد الشاوش فكان محور كتابته البحث عن الأصول التي اعتمد عليها المنوال اللغوي العربي في معالجة مسألة العلاقات بين الجمل. ولم يعتد الشاوش بما تثيره إشكالية القديم والحديث ؛ فهو يرى أن وصفَ النحو العربي بأنه تراث قديم وصفٌ يستدعي المراجعة ؛ لأن العلوم الإنسانية عموما لا تخضع لمعيار الزمن ، فهي تختلف عن "العلوم التي يكون المسار فيها في التاريخ خطيّا يتجاوز فيه اللاحق السابق ويعوضه. وإذا سلّمنا بما تقدّم من ناحية ، وأقررنا من ناحية أخرى بقوة بعض المناويل

---

(١) ينظر: لسانيات النص (خطابي) ٩٥.

(٢) المصدر نفسه ٩٥.

مما أنتج الفكر الإنساني في بلاد المشرق أو في بلاد الغرب وتواصل انفتاح بعض ما فيها من ميادين البحث وجداوله استقام لنا التعبير عن احترازنا الشديد من استعمال القيدين (قديم) و(حديث) متى علّق الأمر بـ(النظرية النحوية العربية) أو غيرها ، فالنظريات في العلوم الإنسانية لا تقيّم باعتبار أعمارها كما تقيّم الأجسام برائز الفحم١٤ (c14). وبهذا الوضع تكون النظريات النحوية العربية قابلة لأن تُقارن بمختلف النظريات النحوية واللسانية"[١].

ولأن الشاوش يعلم أن المقارنة قد تتجاوز تعديد وجوه الاتفاق والاختلاف بين النظريات لتنتقل إلى مرحلة التقويم ، وهي ، من ثَمَّ ، تكون مهدّدة بالوقوع في المفاضلة والمفاخرة ، فتنقلب نصرة لإحدى النظريات على الأخرى ، يساعد على ذلك ضرورة انتماء الدارس حضاريا وثقافيا إلى واحدة منها ، بيّن أن عمله بعيد عن أمر المفاضلة والمفاخرة ؛ لأنهما يتوقفان على الإيمان المسبق بفضل شيء على آخر ، ثم الاستدلال على وجاهة ذلك المعتقد بجميع الوسائل[٢].

كما بيّن الشاوش أن هناك مقاييس عامة يمكن تحكيمها في تقويم النظريات والمقارنة بينها ، وهي مقاييس "لا يختلف الناس في شأنها ، لصدورهم فيها عمّا تمليه قوانين العقل وسنن العادة والعرف ، وهم يعمدون إليها بالخصوص متى اتفقت الظواهر المُقارّن بينها وتماثلت"[٣]. ومن تلك المقاييس:

- "فضل السابق على اللاحق متى اتفقت النتائج وتماثلت.
- فضل الكثير على القليل.
- فضل الظاهر الصريح على الضمني الخفي.
- فضل من لم تتوفر له آلات الاكتشاف على من توفرت له"[٤].

ويرى الشاوش أن تلك المقاييس إنْ روعيت فإنها ستقي الدارس من الوقوع في

---

(١) أصول تحليل الخطاب ١/ ١٩.

(٢) ينظر: المصدر نفسه ١/ ١٩.

(٣) المصدر نفسه ١/ ٢٠.

(٤) المصدر نفسه ١/ ٢٠.

المفاضلة ، أو الانحياز لإحدى النظريات على سواها.

كما نبه الشاوش على تهيّبه من الوقوع في (الإسقاط) ، أي "اقتباس مفهوم من نظرية حديثة ، واستعماله في نظرية أخرى متقدمة عليها في الزمان"[1] ، معتمدا في ذلك على ما أوتي من الفطنة والحصافة ، وما ألزم به نفسه من الموضوعية والعدل ، وهي صعوبة يعترف الشاوش بأنها اعترضته ، ثم يقول: "وحاولنا أن نتخلص منها وأن نقلص من وقعها علينا ، وقد وفقنا في تحقيق ذلك أحيانا ، ولعلنا وقفنا دونه أحيانا أخرى"[2].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف لدراسة تأخذ على عاتقها البحث عن أصول نظرية غربية حديثة في تراث عربي قديم ، أن تتجنب الإسقاط؟ فمعلوم أن هدف مثل هذه الدراسة الكشف عن مفاهيم تلك النظرية في مقولات التراث ، أي إن زاوية النظر إلى التراث محددة بما تقوله تلك النظرية ، ومجال البحث محدد بمدى توافق بعض الظواهر التراثية مع مفاهيم لسانيات النص ، وهو ما يعني -ضرورةً- اقتباس مفاهيم هذه النظرية الحديثة واستعمالها وتوظيفها في التراث العربي ، فكيف لا يحدث الإسقاط إذن؟

صحيح أن الشاوش تعهد بعدم الوقوع في المفاضلة أو الإسقاط ، لكنه لم يسلم منهما ، ويكفي ، للاستدلال على ذلك ، أن نحيل على بعض النصوص التي سترد فيما بعد.

بدأ الشاوش حديثه عن جذور الترابط النصي في التراث العربي بنظرية النظم التي أسسها عبد القاهر الجرجاني ، وهذه النظرية قائمة -كما هو معروف- على توخي معاني النحو ، "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التي نُهجت ، فلا تزيغ عنها"[3]. واستدلّ الجرجاني على هذا الرأي بذكر مجموعة من الأبواب التي

---

(١) أصول تحليل الخطاب ١/ ٢٠.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢٠.

(٣) دلائل الإعجاز ٨١.

يترتب على اختلاف نظمها اختلاف معناها ، منها: الخبر ، والشرط والجزاء ، والحال. وهذه الأبواب جميعا تقع في إطار الجملة. غير أن الجرجاني يضيف إليها ضربين من المباحث ، الأول في قوله: "وينظر في الجمل التي تُسرد فيعرفَ موضع الفصل فيها من موضع الوصل ، ثم يعرفَ فيما حقُّهُ الوصلُ موضعَ (الواو) من موضعِ (الفاء) ، وموضعَ (الفاء) من موضع (ثمّ) وموضع (أو) من موضع (أم) وموضع (لكنّ) من موضع (بل)" [١] ، أما الضرب الثاني ففي قوله: "ويتصرف في التعريف ، والتنكير ، والتقديم ، والتأخير ، في الكلام كله ، وفي الحذف ، والتكرار ، والإضمار ، والإظهار ، فيصيبَ بكلٍّ من ذلك مكانَه ، ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له"[٢].

ويرى الشاوش أن هذا الترتيب لم يكن وليد الصدفة ، وإنما هو رؤية واعية للأصول المتحكمة في نظم الجملة وفي نظم ما يتجاوزها من تراكيب ، وهو الأمر الذي دعاه إلى القول: "لعمري إنك لواجدٌ في هذا الكلام أفضل تخطيط وأحسن تصنيف لما أصبح يُسمى بنحو النص أو بتحليل الخطاب ومسائله ، وأفضل تفصيل للأبواب والمسائل التي اعتُبرت محققة لاتّساق النص وترابط أجزائه. يكفي لإدراك ذلك أن تقارن بين هذه المسائل التي ذكرها الجرجاني والمسائل التي أقام عليها هاليداي وحسن مظاهر الاتّساق في مؤلفهما(cohesion 1976) ، وهذا المشروع الذي أشرنا إليه عند الجرجاني تخطيط لا يضاهيه إخراج في استيعاب التصنيف النحوي للعلاقات الجملية والظواهر التي تؤسسها وتقوم عليها ، لو أُخرج عليه مؤلف في النحو لأغنى عن جميع ما وُضع في نحو النص"[٣].

لا أحد يستطيع التقليل من أهمية نظرية النظم ، أو النيل من مكانتها التاريخية والمعرفية ، أو إنكار ما بينها وبين لسانيات النص من تقارب في بعض الوجوه ، لكننا في الوقت نفسه يجب أن نعترف بأن الباحثين العرب لم يطوروا هذه النظرية ، أو

---

(١) دلائل الإعجاز ٨٢.

(٢) المصدر نفسه ٨٢.

(٣) أصول تحليل الخطاب ١/٢١٠.

يعيدوا إنتاجها ، ولم يعتمدوا عليها أساسا ومنطلقا في تحليلاتهم اللغوية ، وظلت محصورة في مجال البلاغة ، ولم ينتقل التفكير اللغوي العربي إلى مستوى النص إلا بفضل اللسانيات الغربية. أما كلام الشاوش في النص المذكور آنفا فهو كلام لم يخرج –أيضا- عن دائرة الافتراض(لو أُخرج عليه مؤلف لأغنى عن جميع ما وضع في نحو النص) ، فهو مجرد تشخيص للمشكلة ، وليس دليلا على تجاوزها.

إن النظرية اللغوية العربية برُمَّتها ، وليس النظم وحدها ، لو قُدِّر لها من التطور ما قُدِّر في قرونها الأولى ، لاحتلت اليوم –بلا شك- مكانة مرموقة بين اللسانيات العالمية.

ومن الباحثين العرب من بالغ كثيرا في تفسير كلام الجرجاني ، كعمر أبو خرمة الذي يرى أن الجرجاني كان يقصد بالنظم صناعة النص ، وأن علم النحو الذي ينبغي أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه ليس نحوا جمليا فقط ، إن نحو الجملة جزء يسير من علم النحو هذا ؛ لذلك فهو يستنتج أن الجرجاني كان يتحدث عن أربعة أنحاء[1]:

١- نحو الجملة ، ويشمل أبواب الخبر ، والشرط والجزاء ، والحال.
٢- نحو ما فوق الجملة[2] ، ويشمل الحروف التي تشترك في معنى ، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى.
٣- نحو النص ، ويشمل مواضع الوصل والفصل بين الجمل.
٤- نحو الأسلوب ، وهو يختلف عمّا يُعرف بعلم الأسلوب أو الأسلوبية ، ويشمل التعريف والتنكير ، والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار ، والإضمار والإظهار. ويرى أبو خرمة أن نحو الأسلوب يمكن أن يُقاس به "تمايز النصوص بعضها

---

(١) **نحو النص نقد النظرية وبناء أخرى ٤٤- ٤٥.**

(٢) **علما أن هذا المصطلح (نحو ما فوق الجملة)، أو(لسانيات ما فوق الجملة) شاع استعماله في اللسانيات العربية الحديثة مرادفا لنحو النص أو لسانيات النص، ولم يُخصص هذا التخصيص، غير المدعوم بأي ضابط علمي، إلا عند أبو خرمة، فكل ما هو فوق الجملة يقع –بالتأكيد- ضمن نشاط لسانيات النص.**

عن بعض ؛ إذ هو المُظهِر لوعي الناص ، أو الناظم ، في تركيب كلامه ، حسب توالي المعاني في النفس من جهة ، وتأثيره في المتلقي من جهة ثانية"[1]

ويبالغ أبو خرمة في الحديث عن الدراسة النصية عند القدماء ، وكأن هناك نظرية ناضجة متكاملة ، جرى العمل بها على وفق منهج معروف ؛ إذ يقول: "تضافرت جهود نحوية وبلاغية لتوسيع علم النحو ، ليشمل دراسة النص ، من حيث هو نص ، ودراسة أثره من حيث هو اختيار للناص أو الناظم"[2].

وفي مقابل ذلك يذهب أحد الباحثين إلى أن مفهوم النظم الذي يقدمه عبد القاهر الجرجاني "إنما هو(نظم الجملة) وليس(نظم النص) ، ذلك أن عبد القاهر ركز... على كشف العلاقات النحوية الرابطة بين المفردات داخل البيت ، ولم يتجاوز ذلك إلى النص بتمامه. ويرجع هذا –فيما أرى- إلى أداة النظم التي قال بها عبد القاهر ، وهي (النحو) ، فالنحو –فيما قدمه النحاة العرب-(نحو الجملة)"[3].

ومن اللسانيين العرب الذين حاولوا التفتيش عن ملامح الترابط النصي في التراث العربي هو الباحث محمد عبد الباسط عيد الذي لم ينكر نفوره من "حرص جُل الباحثين على تأصيل كل جديد وافد بالبحث عن جذوره في التراث ، يتلمسون لذلك أوهى الصلات وأوهن العلاقات ، وكأن العالم كله قد توقف إزاء تراثنا ، وكأن شرعية التراث رهن بأن ينطق بهذه النظرية أو تلك!!"[4].

أعلن عيد أن هدف دراسته(النص والخطاب ، قراءة في علوم القرآن) هو تقديم قراءة لهذا الأفق التراثي المتمثل بعلوم القرآن ، لكنه بين أنه "ليس من غاية هذه القراءة أن تُدلِّ بالتراث ، فتزعم سبقه للنظر المعاصر في هذه المقولة أو تلك ، فمثل هذا المسعى لا مبرر له ، ولا جدوى منه ، خاصة ونحن نُقرُّ بأننا نتقدم صوب التراث

---

(١) نحو النص- نقد النظرية وبناء أخرى ٤٦.

(٢) المصدر نفسه ٧٩.

(٣) بلاغة النص ٢٩- ٣٠.

(٤) النص والخطاب قراءة في علوم القرآن ٨.

برؤى الحاضر ومنجزاته"[1].

إن القراءة التي ينشدها هذا الباحث قراءة يلتقي فيها وعيان متجادلان: القارئ والمقروء ، وهذا اللقاء يؤكد أن العلاقة بين القارئ والنص ليست علاقة تقابل وتضاد ، وإنما هي علاقة يكون فيها النص جزءا من وعي القارئ ، وجزءا من بنية تفكيره[2]. "فالرغبة في تدعيم وجودنا بقراءة تراثنا ، وتراث غيرنا ، تخلقه هذه الحالة من الجدل التي تنهض –ضرورةً- على أسس ذاتية ، وعلاقات جدلية تمكننا في نهاية الأمر من تجاوز حالة النقل المعرفي إلى المشاركة في إنتاج المعرفة ، وهذا هدف جدير بأن نسعى إليه. ولكي نسهم في الثورة المعرفية التي تحيط بنا ، علينا أن نفعل ذلك من خلال تراثنا ، من وعينا به ، وهذا لن يكون بمعزل عن قراءة جادة متسائلة ، يثرى بها الماضي والحاضر"[3].

فالقراءة هنا –بحسب الباحث نفسه- قراءة تفاعلية ، لا تمجد التراث ، وليس دافعها مجرد الحنين إلى الماضي ، أو لتأسيس شرعية الحاضر ، وتأصيله في الماضي ، "فمثل هذا الطرح يوشك أن يرحل دون عودة ، إننا نعود إلى التراث لـ(تحقيقه) بمفهوم الجابري[4] ؛ لنعيد قراءته ؛ لنتمكن به من تأكيد ذواتنا وتدعيم هويتنا ، والمشاركة في إنتاج المعرفة"[5].

وتقرر إحدى الباحثات -بشكل إطلاقي- أن النحو العربي "قدم نظرية نحوية نصية تقترب في معطياتها من الدرس اللساني الحديث ، كما اتضح عند النحاة القدامى: الخليل(ت١٧٥هـ) ، وسيبويه(ت١٨٠هـ) ، والفراء (ت٢٠٧هـ) ، والأخفش

---

(١) النص والخطاب قراءة في علوم القرآن ١٣.

(٢) ينظر: المصدر نفسه ١٣.

(٣) المصدر نفسه ١٣.

(٤) تحقيق التراث عند الجابري لا يكون بالتقوقع فيه والوقوف عنده، وإنما بوضعه ضمن سياقه التاريخي المنتج له. ينظر: التراث والحداثة دراسات ومناقشات ١٠٥.

(٥) النص والخطاب قراءة في علوم القرآن ١٤.

(ت٢١٥هـ) ، وعبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، وابن هشام (ت٧٦١هـ)" [١].

تعتمد هذه الباحثة في حكمها هذا على كلامٍ لعبد الرحمن الحاج صالح ، ذكره محمد الأخضر الصبيحي في كتابه (مدخل إلى علم النص) ، هذا نصه: "وفي ضوء النظريات التي وضعها اللسانيون في زماننا هذا ، حدث اكتشاف آخر مهم بالنسبة إلى الباحثين في اللسانيات بصفة عامة ، والباحثين العرب بصفة خاصة ، وهو وجود مجموعة من المفاهيم والتصورات العلمية ، وبجانبها مجموعة من المناهج التحليلية عند أقدم النحاة العرب لا تقل أهمية عمّا أثبتته اللسانيات الحديثة ، وأجلُّ هؤلاء النحاة وأكثرُهم أصالةً هم الخليل بن أحمد ، وسيبويه ، والأخفش الأوسط ، وأبو علي الفارسي ، وابن جني" [٢].

ولم تلتفت هذه الباحثة إلى أن كلام الحاج صالح يعود إلى سنة١٩٧٧ ، وأن لسانيات النص لم تكن –وقتئذٍ- قد دخلت إلى الثقافة العربية ، أي إنه كان يتحدث عن لسانيات الجملة حصرا ، والنظريات المرتبطة بها كالوصفية والتوليدية.

إن أية دراسة ، في أي مجال علمي ، تكتسب قيمتها من مدى إسهامها في تطوير مجال البحث المنتمية إليه وتعميقه وتشخيص مشكلاته ، أما استهداف المقارنة لذاتها فلا يفيد النظر العلمي في شيء ، ومن ثم لن تكون له أهمية تذكر [٣] ، يقول مصطفى غلفان: "ليس المهم في شيء أن نصل إلى مثل هذا التقارب ، إن عمق المشكل يكمن في مساءلة الأسس المنهجية والأبعاد النظرية للنشاط اللغوي العربي ونظيره الغربي الحديث. قد يحصل الالتقاء والتشابه بين الفكر اللغوي القديم والفكر اللساني الحديث في كثير من المجالات المعرفية ، كما يحدث صدفة أو عفويا بين جميع الثقافات الإنسانية. إن ما يتعين القيام به وتوضيحه بالبحث والتنقيب هو كيف وُضِعَ هذا المفهوم أو ذاك في إطار نظري معين؟ كيف يتم توظيفه؟ ما علاقته بمفاهيم

---

(١) النحو القرآني في ضوء لسانيات النص ٢٠.

(٢) أثر اللسانيات في النهوض بمستوى اللغة العربية (بحث) ١٠٤، وينظر: مدخل إلى علم النص (الصبيحي) ٣٦.

(٣) ينظر: قضايا إبستمولوجية في اللسانيات ٢٧٨.

أخرى؟ من المؤكد أن انتقاء المفاهيم وعزلها عن الإطارين النظري والمنهجي اللذين يتحكمان في هذه المفاهيم لا يقود إلى نتيجة منهجية مفيدة"[١].

إن النظر في مبادئ التراث وتقييمها أمر مشروع ، ولا سيما إذا كان الهدف هو تطوير الفكر اللغوي العربي القديم ، لكن ما يجب أن يتوخاه الباحث هو الابتعاد عن النزعة التمجيدية أو التعظيمية لمقولات التراث ؛ لأنها تتنافى مع مفهوم النظرية وشروطها ؛ إذ يجب أن تكون النظرية "قابلة للإبطال ، أو على الأقل قابلة للتجاوز ، في حين يكون ما تنادي به لسانيات التراث المتمثل في قابلية الفكر اللغوي العربي للقولبة والاندماج في مجموع النظريات اللسانية الحديثة أمرا مستحيلا ، فلا يمكن ، على الأقل من الناحية النظرية ، البرهنة على صحة النظريات ، كل ما يمكن القيام به هو البرهنة على خطئها ، وكل نظرية لا تقبل الإبطال والدحض هي ميتافيزيقا. (إن الفرق بين العلم والميتافيزيقا هو الإبطال"(**falsification** [٢].

ومما يجب التنويه به أن معظم لسانيات التراث جعلت الهدف المركزي من المقارنة البحث عن(أصالة) التراث اللغوي وإثباتها ، وهو ما يجعل تلك الأصالة مرتبطة أساسا بهذا الشكل من المقارنة ، أي إن التراث اللغوي العربي يكتسب أصالته بالارتباط المباشر بالنظريات اللسانية الحديثة ، "والواقع أن أصالة الفكر اللغوي العربي ليست مرتبطة بمدى ملاءمته لما تقدمه النظريات اللسانية الحديثة. إن اللسانيات الحديثة ليست مقياسا لتقويم أصالة التفكير اللغوي العربي القديم. إن أصالة هذا الفكر مرتبطة بالإطار الحضاري العربي الإسلامي ، وبالشروط التاريخية التي وجهت التفكير اللغوي العربي في المسار الذي سار فيه بكل الملابسات والأبعاد المعروفة"[٣]. وهذا ما لم يفطن إليه أغلب لسانيي التراث.

---

(١) اللسانيات العربية الحديثة ١٥١.

(٢) المصدر نفسه ١٥١.

(٣) المصدر نفسه ١٥٣- ١٥٤، وينظر: قضايا إبستمولوجية في اللسانيات ٢٨٠.

في اللسانيات القانونية
مقاربة تداولية لمبدأ الكم الخطابي في لغة القانون

د. مرتضى جبار كاظم

إطار تعريفي:

تندرج هذه المعالجة في إطار مشروع(حوار الاختصاصات) الذي يعكس صور وسنن التفاعل والتضافر المعرفي بين النظريات اللسانية الحديثة والأنساق العلمية الأخرى.

يُقارب هذا البحث نمطا خطابيا ذا خصوصية معرفية بالغة الأهمية ، ذلك هو (الخطاب القانوني) ، فهو خطاب متعدد المرجعيات: الثقافية ، والاجتماعية ، والدينية ، والسياسية ، والتاريخية ، واللغوية. كما تتأتى خصوصيته من المهام التي يضطلع بها ؛ فهو يشتغل على تنظيم السلوك الاجتماعي ، وضبط حدود الحقوق والواجبات بين الأفراد.

ويحدد البحث دائرة اشتغالته بمتابعة إشكالية معرفية تدخل في صميم الدرس اللساني التداولي مؤدّاها: يمكن أن تكون كمية المعلومات المراد إبلاغها بالخطاب القانوني أكثر من أن تحتملها الدوال الوضعية ، كما أنَّ كمية المعلومات التي تدل عليها العناصر الوضعية قد تكون أكثر مّما يقصده المشرِّع القانوني.

ويرجع هذا الشأن إلى طبيعة اشتغال اللغة البشرية التي لا تتوافر على الحسم الدلالي ، وهو ما يتسرب إلى الأنشطة اللغوية البشرية كافة التي من جملتها (الخطاب القانوني) ، ولم يجد المُشرِّع بُدّاً من التعبير عن هذه الحالة بتوصيفه النص بأنَّه((قال

أكثر مّما أراد))[١] مرةً ، وبأنّ النص((قال أقل مّا أراد))[٢] مرةً أخرى. وهذان التوصيفان يؤكدان انزياح البنيات عن مراكزها في لغة الخطاب القانوني التي تطمح أن تكون لغة مضبوطة مقننة.

يُشار إلى التداولية غالباً بأنَّها دراسة الاستعمال اللغوي في السياق[٣] ، فسؤالها التأسيسي هو البحث في كيفية تفاعل البِنى والمكوِّنات اللغوية مع عوامل السياق لغرض تفسير الملفوظات ومساعدة السامع على ردم الهُوّة التي تحصل أحيانا بين المعنى الحرفي والمعنى الذي يقصده المتكلم[٤]. وقد أحدث هذا الحقل المعرفي الخِصب تحولاً مهماً في الدرس اللساني ، فكرّس مساراته لطرح مشاريع متعددة في دراسة ظاهرة "التواصل اللغوي".

إذن ، التداولية نظرية "استعمالية" من حيث دراستها اللغة في إطار استعمال الناطقين بها ؛ انطلاقاً من أنَّ المعنى ليس متأصلاً في الكلمات وحدَها ، ولا مرتبطاً بالمتكلم وحدَه ، ولا السامع وحدَه ، بل صناعة المعنى تكمن في تداول اللغة واستعمالها بين المتكلم والسامع في سياق محدَّد(مادي ، واجتماعي ، ولغوي ، ومؤسساتي...) وصولاً إلى المعنى الكامن في خطابٍ ما.

والتداولية – أيضاً - نظرية "تخاطبية تنظيمية" من حيث معالجتها شروط التبليغ والتواصل الذي يقصد إليه الناطقون في استعمالهم اللغة[٥].

---

(١) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، محمود أحمد نحلة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠١١م.

(٢) أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية – تأسيس نحو النص، محمد الشاوش، المؤسسة العربية للتوزيع – تونس، جامعة منوبة – كلية الآداب – منوبة، ط١، ٢٠٠١م.

(٣) الاعتذار بالجهل بالقانون – دراسة تأصيلية تحليلية مقارنة، محمد وجدي عبد الصمد، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٩٧٢م.

(٤) الاقتضاء في التداول اللساني، الدكتور عادل فاخوري، عالم الفكر، المجلد ٢٠، العدد ٣، الكويت، ١٩٨٩م.

(٥) التداولية، جورج يول، ترجمة الدكتور قصي العتابي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٠م.

من هنا كان اللقاء المعرفي بين حقلي اللسانيات[1] والقانون ضروريا لمعالجة هذا النمط من الإشكاليات ؛ أقصد إشكالية: المسافة بين المنتوج الكمي للخطاب وقصدية الخطاب ، المتمثلة في أنَّ المتكلم قد يقصد شيئاً أقل أو أكثر من المعنى الذي ينصّ عليه ، وأنَّ ما يقوله لا يحدِّد ما يقصده تماماً.

أولاً : سعة الكم الخطابي

يُؤطَّر مبدأ الكم في الإمداد بمعلومات مضبوطة لا زيادة فيها ولانقصان[2] ، فهو يقرر أن المتكلم يتحدث على قدر الحاجة. ويتم خرق هذا المبدأ في لغة الخطاب القانوني أحياناً ؛ ذلك أنَّ كمية المعلومات التي تدل عليها العناصر الوضعية قد تكون أكثر ممّا يقصده المشرِّع القانوني.

ويُرمَّم هذا الخرق بالحدّ من سعة ألفاظ النص وحصرها في النطاق المطابق لإرادة المُشرِّع ، بحيث لا تتجاوزها إلى غيرها من المعاني التي تتحملها تلك الألفاظ التي تبدو أنَّها داخلة في نطاقها من حيث الظاهر ، مع أنَّها في حقيقة الأمر تخرج عن نطاق الإرادة التشريعية[3].

ومن الأمثلة التي قال فيها النصُّ القانوني أكثر ممّا أراد ما جاء في قانون العقوبات من أنَّه: ((يُعاقب بالحبس كلُّ من علم بارتكاب جريمة من الجرائم المنصوص عليها في هذا الباب ولم يبلغ أمرها إلى السلطات العامة))[4] ، فصيغة هذا الخطاب تُلزِم مَن علم بمشروع الجرائم المذكورة بأن يبلغ السلطات بذلك أياً كان مصدر علمه ، أي سواء علم بالمشروع من الصحف أو الإذاعة أو من نشرة صدرت عن السلطات المختصة

---

(١) التداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٧م.

(٢) تفسير النصوص الجزائية – دراسة مقارنة بالفقه الإسلامي، كاظم عبد الله حسين الشمري، أطروحة دكتوراه، كلية القانون – جامعة بغداد، ٢٠٠١م.

(٣) دلالة الألفاظ، الدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، د ط، د ت.

(٤) دليل السوسيو لسانيات، فلوريان كولماس، ترجمة الدكتور خالد الأشهب و الدكتورة ماجدولين النهيبي، مراجعة الدكتور ميشال زكريا، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٩م.

نفسها. وهذا هو المدلول اللغوي للخطاب ، وهو((من السعة لدرجة لا يقبلها العقل ولا يستسيغها العمل ، لهذا كان لا بُدَّ من الالتجاء إلى الأسلوب المنطقي للتفسير للحد من غلواء العبارات المستخدمة في النص بحيث يصبح المدى اللغوي للنص مطابقاً لمداه المنطقي ، ولا يتحقق هذا إلا إذا قلنا إنَّ المُشرِّع لا يقصد من وراء التجريم في هذه المادة إلا أن يتناول بالعقاب من يكتم علمه عن السلطات المختصة التي لا تكون قد علمت بعد بمشروع الجريمة))[1].

ومن ذلك ، النصُّ على أنّه:

((يُعاقب بالإعدام كل من سعى لدى دولة أجنبية معادية أو تخابر معها أو مع أحد ممّن يعملون لمصلحتها لمعاونتها في عملياتها الحربية ضد العراق أو للإضرار بالعمليات الحربية لجمهورية العراق وكل مَن دبّر لها الوسائل المؤدية إلى ذلك أو عاونها بأي وجه على نجاح عملياتها الحربية))[2]. فلفظ(كل) هو من ألفاظ العموم ، ويشمل العراقي والأجنبي ، ولمّا كان الأجنبي الذي يعاون العدو في عملياته الحربية يعدّ(أسير حرب) إذا وقع في أيدي السلطات العراقية ويُعامل بهذه الصفة وفقاً لقواعد القانون الدولي العام التي تحميه ، وليس من المتصوَّر أنَّ المُشرِّع العراقي قد أراد الخروج عن هذه القواعد ، ومن ثَمَّ ، يجب - من أجل المواءمة بين النطاقين اللغوي والمنطقي للخطاب - القول إنَّ تطبيقه مقصور على كل عراقي وكل أجنبي لا يعدّ مُحارِباً في جيش العدو[3].

ومن ذلك – أيضا - النصّ على معاقبة:

((مَن وقف بواسطة نقل... في... أو الساحات العامة بين غروب الشمس وشروقها دون إضاءة مصباح على كل من جانبيها))[4] ، فالدلالة اللغوية للألفاظ – هنا- تفضي

---

(١) شرح قانون العقوبات – القسم الخاص، فخري الحديثي، مطبعة الزمان، د.ط، ١٩٩٦م.

(٢) شرح قانون العقوبات – القسم الخاص، ماهر عبد شويش، الموصل، ط٢، ١٩٩٧م.

(٣) علم التخاطب الإسلامي – دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، الدكتور محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٦م.

(٤) في أُصول الحوار وتجديد علم الكلام، الدكتور طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط٤، ٢٠١٠م.

إلى القول بأنَّ العقاب ينطبق على إيقاف واسطة النقل في الساحات العامة المخصَّصة لمبيت السيارات بين غروب الشمس وشروقها من دون إضاءة المصباح على كل من جانبيها ، بَيْد أنّ ذلك لا يمكن القول به لانتفاء المصلحة التي يُراد حمايتها هنا ، والتي تقتصر على وسائط النقل التي تقف في الساحات العامة بين غروب الشمس وشروقها من دون إضاءة مصباح على كل من جانبيها حفاظاً على السلامة وانتظام حركة المرور.

ومن الأمثلة على ذلك ، النصُّ على معاقبة:

((مَن أطفأ مصباحاً مستعملاً لإضاءة الطريق أو ساحة عامة أو نزعه أو أتلفه))[1] ، فيُستفاد من ألفاظ النص أنَّ العامل المكلَّف بإطفاء ذلك المصباح بعد شروق الشمس أو في النهار أو مَن يقوم بنزعه بعد عطبه لإبداله بمصباح جديد أو يقوم بإتلاف ذلك المصباح المعطوب ؛ يُعاقب على وفق هذه المادة ، ولا يُمكن الأخذ بهذا المعنى ؛ لأنَّ قصد الخطاب هو المحافظة على المصابيح التي تنير الطرق والساحات العامة ليلاً لتأمين الرؤية وانتظام السير وحفظ الأمن ؛ لذلك فالشخص المقصود بالعقوبة هو مَن يُطفئ المصباح ليلاً أو ينتزعه أو يتلفه قبل عطبه[2].

واعتماد مبدأ سعة الكم الخطابي إجرائياً بوصفه مدخلاً أو عنصراً تأسيسياً في بناء الخطاب القانوني ، يتساوق مع مبادئ الدرس التداولي ، التي تقرِّر أنَّه((لا يمكن للمتكلمين أن يعبِّروا عن كل ما يريدون أن يبلغوه ويجب أن يعتمدوا على فهم محاورهم للسياق للتزود بكثير من المحتوى الذي يريدون أن يدركه محاورهم))[3].

---

(١) القاموس الموسوعي للتداولية، جاك موشلار، آن ريبول، ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين من الجامعات التونسية، إشراف عز الدين المجدوب، مراجعة خالد ميلاد، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠١٠م.

(٢) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، أوزوالد ديكرو، جان ماري سشايفر، ترجمة منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط٢، ٢٠٠٧م.

(٣) قانون العقوبات العراقي رقم ١١١ لسنة ١٩٦٩ وتعديلاته مع كافة القرارات التشريعية من ٢٠٠٣ – ٢٠٠٥، إعداد القاضي نبيل عبد الرحمن حياوي، ط٤، المكتبة القانونية، بغداد، ٢٠١٠م.

ثانياً: ضمور الكم الخطابي

يُخرق مبدأ الكم الخطابي في اللغة القانونية –أيضاً– إذا كانت الدوال اللغوية للخطاب قاصرة في التعبير عن قصد المُشرِّع ، الأمر الذي يدعو إلى استخدام الأدوات المنطقية واللغوية لمدّ حكم النص إلى غير ما جاء فيه ، ومن ثَمَّ ، يُلجأ إلى المواءمة بين النطاقين اللغوي والمنطقي للوصول إلى المدلول الذي أراده المُشرِّع[1].

من ذلك ما جاء في قانون العقوبات العراقي في سياق النص على الأحكام الخاصة بجريمة التزوير ، فكان أن ذَكَرَ أنَّ من طرقه((وضع إمضاء أو بصمة إبهام أو ختم مزور))[2] ، فلو قام شخص بوضع ختم صحيح لغيره على مستند ، من دون موافقة صاحبه فهل يعدّ ذلك تزويراً؟. يبدو بحسب الدوال اللغوية أنَّ هذا السلوك لا يعدّ تزويراً ؛ لأنَّ الختم المستعمل صحيح والنص المذكور يلزم لوقوع الجريمة أن يكون الختم مزوراً.

لكن الواقع يقدِّم تقريراً آخر ، فبمقتضى التفسير المنطقي لهذه المادة ، يعدّ الختم مزوّراً عندما يُنسب إلى صاحب إرادة لم يعبّر عنها ، فليست العبرة في أنَّ ذلك الختم هو الذي يستعمله الأخير فعلاً[3].

ومثال ذلك النص على أنّه:

((يُعاقب... مَن فاجأ زوجته أو إحدى محارمه في حالة تلبسها بالزنا أو وجودها في فراش واحد مع شريكها فقتلهما في الحال أو قتل أحدهما))[4] ، فالتلبس لايقف

---

(١) قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية – البنية التحتية أو التمثيل الدلالي والتداولي، الدكتور أحمد المتوكل، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠١٣م.

(٢) اللسانيات والمنطق والفلسفة، طه عبد الرحمن، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، العدد ٢، السنة ١٩٨٨م.

(٣) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الدكتور طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط٢، ٢٠٠٦م.

(٤) اللسانيات الوظيفية – مدخل نظري، الدكتور أحمد المتوكل، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، ط٢، ٢٠١٠م.

عند حدود حالة ارتكاب الزنا ، بل ينصرف إلى مشاهدة المرأة الزانية وشريكها في ظروف تُخبر بذاتها وبشكل لا يُثير شكاً بأنَّ جريمة الزنا قد وقعت أو ستقع. أما عبارة (فراش واحد) فلا تنصرف إلى ما هو متعارف عليه للفظ(فراش) ، وإنما تدل على كل خلوة مريبة سواء أ كانت في البيت أم في السيارة أم في مكان منعزل[1]. ومن ذلك أيضاً ، النصُّ على أنَّه:

((إذا رأت المحكمة في جناية أن ظروف الجريمة أو المجرم تستدعي الرأفة جاز لها أن تبدل العقوبة المقرَّرة للجريمة))[2] ، فالمدلول اللغوي لعبارة(ظروف الجريمة أو المجرم) ينصرف في ظاهره إلى الظروف المتزامنة مع وقت ارتكاب الجريمة ، كالاستفزاز الخطير من المجني عليه من دون وجه حق –مثلاً- في جناية القتل إلا أنَّ المدلول المنطقي أو المعنى المقصود لتلك العبارة له مدى أوسع من المدلول اللغوي ، إذ يشمل زيادة على الظروف المتزامنة ، تلك التي تسبق وقت ارتكاب الجريمة ، مثل الماضي الحسن للمجرم ، أو التي تعقب وقوع الجريمة مثل إصلاح الجاني لأضرار جريمته ، فهذه الظروف السابقة واللاحقة لارتكاب الجريمة شأنها شأن الظروف المتزامنة[3].

في هَدي ما تقدَّم ، يمكن وضع اليد على ثلاث دوائر للمعنى لدى القانونيين ، دائرة المعنى الوضعي ، ودائرة المعنى المقصود ، ودائرة المعنى المحمول. ويتأسس على هذا المثلث ، مقاربة السؤال الآتي: أي دائرة من هذه الدوائر ترسم للخطاب القانوني رسالة تواصلية ناجحة؟. أو بصيغة أخرى: متى يعدّ الخطاب القانوني رسالة تواصلية ناجحة؟.

يحقّق الخطاب نجاحاً تواصلياً حين يفكك السامع (المتلقي) الرسالة نفسها التي

(١) ما التداولية؟ (مقال)، شاوزهونغ ليو، ترجمة سمير الشيخ، مجلة الأديب الثقافية، السنة الثانية، العدد ٨٩، أيلول، ٢٠٠٥م.

(٢) مدخل إلى اللسانيات، الدكتور محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

(٣) المعنى وظلال المعنى – أنظمة الدلالة في العربية، د. محمد محمد يونس علي، دار المدار الإسلامي، بيروت – لبنان، ط٢، ٢٠٠٧م.

يركبها المتكلم(المنشئ) ، وذلك عندما يتفق المعنى المحمول مع كلا المعنيين: الوضعي والمقصود ، بمعنى تحصل المماثلة بين العناصر الثلاثة الآتية: فهم المتلقي ودلالة العبارة وقصد المتكلم ، وهنا يكون الكلام من قبيل الحقيقة. كما يحقّق الخطاب نجاحاً تواصلياً حين يتفق المعنى المقصود مع المعنى المحمول ، ويخالف المعنى الوضعي ، وحينئذٍ يكون الكلام من قبيل المجاز[1] ، وهنا يكتشف السامع (المتلقي) ذلك اعتماداً على المعلومات السياقية الكافية التي يُراعيها أطراف الخطاب[2].

ويمكن القول ، إنَّ الخطاب القانوني كلما كان متمشياً مع مبدأ التعاون — الذي يقرِّر أنَّ المتخاطبين يقبلون ويتبعون عدداً معيناً من القواعد الضمنية اللازمة لاشتغال التواصل - كان النجاح حليف التواصل به ، فقد فَطِن كرايس — صاحب هذا المبدأ — إلى أنَّ المتكلم قد يقصد أكثر ممّا يقول ، وقد يقصد عكس ما يقول ، فاتجه إلى إيضاح الفرق بين ما يُقال وما يُقصد من خلال مفهوم "الاستلزام الحواري" ، ((فما يُقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية ، وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع على نحو غير مباشر ، اعتماداً على أنَّ السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال))[3].

فمثَّلت إشكالية المسافة بين ما يُقال وما يُقصد إنتاجاً وفهماً ، مشغلاً أساسياً لكرايس ، دعته إلى أن يجعل ضمن مبدأ التعاون((تسعة أصول جمعها في أربع مجموعات على النحو التالي:

المجموعة الأولى: قاعدتا الكم

- الأصل الأول: اجعل في كلامك ما يكفي من الإخبار

---

(١) المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة الدكتور سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، د.ط، ١٩٨٦م.

(٢) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، الدكتور محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت — لبنان، ط١، ٢٠٠٤م.

(٣) نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة العربية، الدكتور مصطفى حميدة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت — لبنان، ط١، ١٩٩٧م.

- الأصل الثاني: لا تجعل في كلامك أكثر إخباراً من اللازم

المجموعة الثانية: قاعدتا النوع

- الأصل الثالث: لا تقل ما تعتبره خاطئاً

- الأصل الرابع: لا تقل ما لم يتوفر لك ما يكفي من الأدلة لاعتباره صادقاً

المجموعة الثالثة: قاعدة العلاقة

- الأصل الخامس: ليكن كلامك مفيداً مناسباً للقصد

المجموعة الرابعة: قواعد الكيفية

- الأصل السادس: تجنب الغموض

- الأصل السابع: تجنب اللبس

- الأصل الثامن: أوجز

- الأصل التاسع: كن منظماً))(١).

فهذه المبادئ ترسم للمشاركين ما يجب عليهم أن يقوموا به لتسهيل عملية التخاطب ، وتحقيق التعاون الذي من شأنه أن يجنبهم فهم غير المراد من قصد كلام المتكلم.

ويمكن أن يُشار في هذا السياق إلى أنَّ الانفصال الملحوظ على المستوى الحسي بين الذات الفاعلة(منشئ الخطاب) والذات المنفعلة(متلقي الخطاب) لا يبقى له وجود – في الأغلب - على مستوى بناء الملفوظ وتأويله بسبب علاقة الاشتراك بين طرفي الحوار((فما تكلم أحد إلا وأشرك معه المُخاطَب في إنشاء كلامه كما لو كان يسمع كلامه بإذن غيره ، وكان الغير ينطق بلسانه. فيكون بذلك إنشاء الكلام من لدن المتكلم ، وفهمه من لدن المُخاطَب عمليتين لا انفصال لأحدهما عن الأخرى ، وانفراد المتكلم بالسبق الزمني ما كان ليلزم عنه انفراد بتكوين مضمون الكلام ، بل ما إن

---

(١) النظريات اللسانية الكبرى – من النحو المقارن إلى الذرائعية، ماري آن بافو، جورج إليا سرفاتي، ترجمة محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٢م.

يشرع المتكلم في النطق حتى يقاسمه المُخاطَب دلالاته ؛ لأنَّ هذه الدلالات الخطابية لا تنزل على ألفاظها نزول المعاني على المفردات في المعجم ، وإنما تنشأ وتتكاثر وتتقلب وتتعرف من خلال العلاقات التخاطبية))[1].

والمتكلم يُنشئ خطابه – عادةً – في ظلال العلاقات العرفية التي تسود بيئته ، وهو يتوقع من المتلقي فهم تلك العلاقات ؛ انطلاقاً من أنَّ الأصل في التواصل اللغوي أن يكون المتكلم والمتلقي منتسبين إلى بيئة واحدة ذات علاقات عرفية مشتركة ، أي بينهما ما يُعرف بـ(المعرفة المشتركة) أو (الأفكار السياقية المتبادلة)[2].

الخاتمة:

١-أدرك القانونيون حقيقةً لسانيةً تداوليةً ترتبط بمبدأ الكم الخطابي ، حين لاحظوا إمكانية أن تكون كمية المعلومات المراد إبلاغها بالكلام أكثر من أن تحتملها الدوال الوضعية ، كما أنَّ كمية المعلومات التي تدل عليها العناصر أو الدوال الوضعية قد تكون أكثر مّما يقصده المتكلم ، وقد عبَّروا عن ذلك بالعبارتين الآتيتين: (النصُّ قال أكثر مّا أراد) و(النصُّ قال أقل ممّا أراد).

٢-أشار القانونيون إلى أنَّ دلالة الملفوظات لا تقف عند فهم المعنى الحرفي ، بل تتخطاه إلى المعنى الاستعمال التواصلي الذي يقصده المتكلم ، يكشف هذا التوجّه اهتمامهم الكبير بمفهوم "القصدية" ؛ إذ اعتدّوا به وقدّموه على البنيات اللغوية إذا طرأ عليها ما يَخِلُّ بأدائها الإنجازي.

٣-إنَّ الخطاب القانوني كلما كان متماشياً مع "مبدأ التعاون" التواصلي الذي يقرِّر أنَّ المُتخاطبين يقبلون ويتبعون عدداً معيناً من القواعد الضمنية اللازمة لاشتغال التواصل ، كان النجاح حليف التواصل به.

---

(١) النظرية العامة للقانون الجنائي، الدكتور رمسيس بنهام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط٣، ١٩٩٧م.

(٢) نظرية الفعل الكلامي بين علم اللغة الحديث والمباحث اللغوية في التراث العربي والإسلامي، هشام عبد الله الخليفة، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠٠٧م.

دلالة (تأويل الأحاديث) عند يوسف الصديق (عليه السلام) في ضوء منهج المدونة المغلقة

أ.م.د.حسن عبد الغني الأسدي
جامعة كربلاء/كلية التربية للعلوم الإنسانيّة

ملخص البحث:

يعمل البحث على توضيح القدرة التي كانت محور حياة نبيّ من أنبياء الله تعالى المبرزين وقد أنزل الله تعالى فيه سورة كاملة سمّاها باسمه؛ استعرضت حياته على نحو مفصّل؛ وهو أمر لم يشركه فيه مثله نبيّ من أنبياء الله تعالى ورسله، وذلك النبيّ هو يوسف الصديّق(عليه السلام). واصطلح القرآن الكريم على تلك القدرة بـ(تأويل الأحاديث)؛ وقال المفسِّرون فيها: إنّها(تأويل الأحلام والرؤيا). فيا تُرى هل يكون للأحلام مثل هذا الأثر العظيم في مسار حياة نبيّ من أنبياء الله تعالى، وحياة من أرسل إليهم! ، والأحلام لا تعدو أن تكون حدثاً افتراضيّاً ، يدخل الإنسان مجاله وهو نائم ، ولا يمتلك الإنسان فيه تصرّفا ، فهو خارج عالم الوعيّ والتكليف؟!. ، وللإجابة عن هذا التساؤل؛ كانت وقفتنا ههنا للكشف عن الدلالة القرآنية لهذا التركيب ، معتمدين التصورات المنهجيّة التّي أسسناها للدلالة القرآنية في(منهج المدونة المغلقة) المشفوعة بتفسير القرآن بالقرآن. ويرتكز على البيئة اللغوية التي تمثلها طائفة الألفاظ القرآنية التي تتعالق معاً لصياغة سياقات هذا الاستعمال القرآني الذي اقتصر فيه على سورة يوسف. وقد اشتمل البحث على تمهيد منهجيّ وثلاثة مطالب:

المطلب الأوّل: الرؤيا في المنام والأحلام.

المطلب الثاني: النوم والمنام في القرآن الكريم ورؤيا يوسف الصديق u .

المطلب الثالث: الدلالة القرآنية للفظة الأحاديث.

توطئة منهجيّة:

قال تعالى:(أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً)

(النساء٨٢)

لعل من أبرز الخصائص النصيّة التّي يمتاز بها القرآن الكريم ، وأشارت إليها الآية الكريمة تضافر أجزائه(الألفاظ والآيات) في تأكيد الترابط الدلاليّ بينها ، وتعاضد بعضها مع بعض. والآية بعد ذلك دالّة على أنّ فهم القرآن الكريم بالْقُرْآنَ نفسه ، وهي صفة يمكن أن يُحقق القرآن الكريم أقصى مدياتها ، ولقد اشتهرت عند المفسرين بـ(تفسير القرآن بالقرآن) ؛ ولكن يلحظ أنّ هذا الضرب من التفسير - على الرغم من تصدره في تراتبية المناهج التفسيرية ، وما يحوطه المختصون من أوصاف دالّة على رجاحته على كلّ المناهج الأخرى لتفسير القرآن- إلّا أنّه لم يشغل المساحة العلميّة التي يستحقها ، ولعل مردّ ذلك عائد إلى عدم وجود خطوات منضبطة تكون آلية منهجيّة تحفظ لهذا التفسير كيانه وتمنع اختلاطه مع غيره من ضروب التفسير. وعلى هذا كان السعيّ نحو وضع صياغة منهجيّة لفهم القرآن من القرآن نفسه ، ومعنى ذلك أن تكون خطوات هذا المنهج مستقاة من الآيات القرآنية ؛ لأنّ القرآن يعضّد بعضه بعضا ويشرح بعضه بعضا كما يفهم من الآية المذكورة ، وآيات غيرها. وقد سبق لنا تقديم الصياغة المنهجيّة لهذا التفسير في بحث مستقل[1].

هذا المنحى من فهم القرآن الكريم ومعرفة الدلالة القرآنيّة بمستوياتها المتعددة أعطت النصّ المنزلة الأولى في الكشف عن معانيه ، ومن ثَمَّ فنجاح النص وحيويته تكمن في قدرته على اكتناز معارفه داخله. ولعل الآليّة التي يحفظ بها النصّ لفظيّا

(١)

ودلاليّا من التحريف ، وما يعتريه من الانحياز الى فهوم متعددة وتداعيات مناهج الحداثة كالتأويليّة(الهرمنيوطيقا) - تكمن في هذه الخاصيّة سمة الحفظ الذاتيّ عبر شبكة التعالق اللفظي والدلالي بين مكوناته: مفردات وتراكيب.

إنّ مثل هذا التصوّر لفهم القرآن لا يتمّ إلاّ عبر عملية غلق منهجيّ ، يدلّ عليها مفهوم التفسير القرآني للقرآن وهو ما رجّح لي اعتماد روحيّة بعض مناهج النظر اللغوي المعاصر ، وإطلاقها ههنا ببعدها العلميّ الشامل للمنتج اللغوي ليكون منهجا عاما لفهم النصوص(مكتوبة أو مسموعة) وهو منهج(المُدَوَّنة المُغْلَقَة)[1] ؛ بوصفه إجراءً منهجيّاً لقراءة المدونات يسعى إلى أن يعطي المدوّن الحقّ في أنْ يتحدث عن نفسه ، ويحدد كيفيّة هذا الإعطاء. وهي نزعة قريبة من نزعة الآثاريّ الذي لا تحكم به الأفكار المسبقة عن أثره إلا بحدود موضوعية عامّة أما التفاصيل فذلك الأثر هو وسيلته لإظهارها وهذا الرفض للمسبقات يمثل حصانة للنص من أن يتمّ فهمه أو توظيفه لبعض التوجهات الخارجية. فهذا المنهج يرفض الانتحاء الأيديولوجي للفهم ، ويوجب أن تكون قراءة المدوّنة نابعة من المدونة نفسها ، لا من خارجها[2].

لقد مثلت أداتنا المنهجيّة إطاراً تحليليّاً للسياقات اللفظيّة ، نستوحي به مفهوم التّفسير القرآنيّ للقرآن ، الذي نجمل خطواته أو اعتباراته المنهجيّة بما يأتي[3]:

١- إنّ فهم القرآن الكريم يكون بالْقُرْآنَ نفسه ، وهي صفة يعطي النصّ حقّه في إظهار معانيه والقرآن الكريم هو المدوّنة الأكثر جدارة في تحقيق هذه الصفة من أيِّ مدوّن آخر ، وقد اشتهرت هذه الميزة عند المفسرين بـ(تفسير القرآن بالقرآن)[4].

٢- واحديّة الدّلالة القرآنيّة: فللفظة القرآنيّة الدلالة واحدة أينما استعملت في

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

القرآن الكريم مع نفي التّشارك الدّلالي بين لفظة وأخرى.

٣- إنّ واحديّة الدّلالة تنحو بنا إلى خاصيّة منهجيّة أخرى للقرآن الكريم تكمن في أنّ دلالة ألفاظه تتأتّى في ظلّ النّظر إلى سياقها اللفظيّ (أو سياقاتها اللفظيّة المتعدّدة).

٤- السّياق اللفظيّ: ههنا مسألة مهمة فما دام النّظر يتمّ إلى المدوّن فالسّياق الوحيد المعتمد في هذا المنهج هو السّياق اللفظيّ(اللغويّ) ؛ لأنّه السّياق الذيّ تكوّنه المدوّنة ، وهو هيأتها اللفظيّة وتآلف مكوناتها ، وتعالقها بعضها ببعضها الآخر ؛ لاسيَّما أنّنا في ظلّ بعض من التّصوّرات النّحويّة لكيفيّة تكوين الجمل وامتدادها في العربيّة وجدنا أنّ هناك لفظة مركزيّة في الآية تسلك مسلك المولِّد لهذا السّياق لا العكس ممّا تعارف عليه السّياقيّون. وتتجلى مركزيّة اللفظة نحويًا بقدرتها على استدعاء ما يناسبها لبناء جملتها عبر تكوين المجالات النّحويّة لتشغلها الألفاظ المناسبة للتّعبير عن الوظائف النحويّة المختلفة على نحو يجعل المسند متحكِّما بالألفاظ التي تظهر في إثره[1].

٥- فاللفظة القرآنيّة تمثّل بؤرة دلاليّة تتجمَّع حولها طائفة من الألفاظ التي تنسجم معها دلاليّاً. ويعني ذلك أنّ في الآيات ألفاظاً تسلك في مواضعها مسلكاً تكون به لفظة رئيسة ، لها القدرة على استدعاء الألفاظ الأخرى ممّا تتسق معها دلاليًا. والسياق ههنا يتجلّى عبر كلّ الموارد التي استعملت فيها اللفظة في القرآن الكريم. وأضيف إلى ذلك أن السياق القرآنيّ سياق متّسع يشمل مانسميه(سياق المدوّنة) ، فيشمل سياقات اللفظة المدروسة كلها ، وكذا سياقات الألفاظ التي تظهر مع تلك اللفظة ، على نحو يشبه المسارات الشبكيّة التي تنسجم ، وما يتيحه الاستعمال القرآني لإظهار تلك الشبكة الدلاليّة.

٦- سياق المدوّنة: يتجلّى السّياق اللفظيّ عبر الموارد كلّها التي استعملت فيها اللفظة في القرآن الكريم. أضيف إلى ذلك أن السياق القرآنيّ سياق متّسع

---

(١)

يشمل ما نسميه(سياق المدوّنة). فيشمل سياقات اللفظة المدروسة كلّها ، وكذا يشمل سياقات الألفاظ المقترنة أو المصاحبة لتلك اللفظة ، على نحو يشبه المسارات الشّبكيّة التي تنسجم مع يُتيحُه الاستعمال القرآنيّ لإظهار تلك الشبكة الدلاليّة.

المعنى اللغوي الأوليّ: يُعير البحث الاهتمام للكشف عن المعنى اللغويّ الأوليّ للفظة موضع البحث محاولاً أن يُرجعِ تعدّد المعاني اللغويّة التي ظهرت في مجالات التداول اللغوية أو في المعجم إلى معنى واحد هو أساس تلك المعاني. وإدخال المعنى اللغوي في منهجنا يعتمد الدليل القرآني في قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللّهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ){إبراهيم٤}. فالوسيلة هي لسان القوم(لغتهم ، وركائز مخاطباتهم الجمعيّة). ويعدّ هذا المعنى موطئاً تقام عليه الدّلالة القرآنيّة ، التّي قد تكون بدلالة التّداول في حقبة النزول وقد لا تكون ، فللقرآن مجاله الإبداعيّ ، ولله فيه المثل الأعلى ؛ وأقرب الأمثلة لما نقوله ههنا ما عرف بالألفاظ الإسلاميّة ، وهي الألفاظ التي تغيّرت مدلولاتها في العصر الإسلاميّ عمّا كانت عليه في العصر الجاهليّ[١]. ونرى أنّه بسبب من خصوصيّة القرآن فإنّ مفهوم الألفاظ الإسلاميّة سيشمل ألفاظ القرآن كلّها ، فهناك مستوًى من الدّلالة جديد هو الدَّلالة القُرآنيّة.

(١)

الرؤيا في المنام والأحلام

قال الخليل: ((الحلم: الرؤيا ، يقال: حلم يحلم إذا رأى في المنام. وفي الحديث "من تحلم ما لم يحلم" أي تكلف حلما لم يره ، والحلم: الاحتلام ، ويجمع على الاحلام ، والفاعل حالم ومحتلم))[١]. وفي الصحاح: ((الحُلُم بالضم: ما يراه النائم. تقول منه: حَلَم بالفتح واحتلم. وتقول: حلمت بكذا ، وحلمته أيضا... والحِلم: بالكسر الاناة. تقول منه: حَلُم الرجل بالضم. وتحلم: تكلف الحلم))[٢]. وفي لسان العرب((الحُلْمُ والحُلُم الرُّؤْيا والجمع أَحْلام يقال حَلَمَ يَحْلُمُ إذا رأَى في المَنام ابن سيده حَلَمَ في نومه يَحْلُمُ حُلُماً واحْتَلَم وانْحَلَمَ قال بشر بن أَبي خازم: أَحَقٌّ ما رأَيتَ أَمِ احْتلامُ؟ ويروى أَم انْحِلامُ وتَحَلَّمَ الحُلْمَ استعمله وحَلَمَ به وحَلَمَ عنه وتَحَلَّم عنه رأَى له رُؤْيا أَو رآه في النوم وفي الحديث من تَحَلَّم ما لم يَحْلُمْ كُلِّفَ أَنْ يَعقِدَ بين شَعيرتين أَي قال إنه رأَى في النوم ما لم يَرَهُ وتَكَلَّفَ حُلُماً لم يَرَه يقال حَلَم بالفتح إذا رأَى وتَحَلَّم إذا ادعى الرؤْيا كاذباً... والحُلْمُ الاحتلام أَيضاً يجمع على الأَحْلامِ وفي الحديث الرؤيا من الله والحُلْمُ من الشيطان والرؤيا والحُلْمُ عبارة عما يراه النائم في نومه من الأَشياء ولكن غَلَبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن وغلب الحُلْمُ على ما يراه من الشر والقبيح ومنه قوله أَضْغاثُ أَحْلامٍ ويُستعمل كلٌّ واحد منهما موضع الآخر وتُضَم لامُ الحُلُمِ وتسكن الجوهري الحُلُمُ بالضم ما يراه النائم وتقول حَلَمْتُ بكذا وحَلَمْتُه أَيضاً))[٣]

---

(١)

(٢)

(٣)

وقد كان مصطلح الحلم غير حاسم عند المحدثين فقد جاء في المعجم الطبي النفسيّ قوله: ((تصارع الناس كثيرا مع هذا المصطلح ، ببساطة: إنّه تصور **imagery** خلال النوم ، يبدو أن الحلم خلال النوم تراود الكثير من الكائنات الحيّة))(١).

وجاء في الويكيبيديا الموسوعة الحرة على شبكة الانترنيت: ((الحلم والرؤية هو سلسلة من التخيلات التي تحدث أثناء النوم ، وتختلف الأحلام في مدى تماسكها ومنطقيتها ، وتوجد كثير من النظريات التي تفسر حدوث الأحلام ، فيقول سيجموند فرويد: إن الأحلام هي وسيلة تلجأ إليها النفس لإشباع رغباتها ودوافعها المكبوتة خاصة التي يكون إشباعها صعبا في الواقع ففي الأحلام يرى الفرد دوافعه قد تحققت في صورة حدث أو موقف ، والمثل الشعبي القائل الجوعان يحلم بسوق العيش ، خير تعبير على هذا ، ولكن غالباً ما تكون الرغبات في الحلم مموهة أو مخفية بحيث لا يعي الحالم نفسه معناها ، ولذلك فإنّ كثيراً من الأحلام تبدو خالية من المعنى ، والمنطق شبيهة بتفكير المجانين على عكس أحلام اليقظة التي تكون منطقية جدا.

ودراسة الأحلام وجدت لها آثار على الألواح الحجرية التي ترجع إلى سومر أقدم حضارة عرفتها البشرية ، واعتقدت بعض الشعوب القديمة مثل الإغريق أن الأحلام عموما هبة من الآلهة لكشف معلومات للبشر وزرع رسالة معينة في عقل الشخص النائم))(٢).

ورأى ألفرد أدلر((أن للحلم وظيفة توقعية أي أن النائم يتنبأ من خلال الحلم بما يمكن أن يواجهه في المستقبل. كارل يونغ يرى أن الحلم ليس فقط استباقاً لما قد يحدث في المستقبل ولكنه ناتج عن نشاطات اللاوعي ، وهو يرى أن الأحلام تقدم حلولاً لمشكلات الشخص في محاولة لإعادة التوازن إلى الشخصية))(٣).

وعلى هذا يمكننا القول انّ الأحلامً: أحداث لا تتجاوز ذاكرة الإنسان ؛ تقع في

---

(١)

(٢)

(٣)

مجاله الذهنيّ(وهو حيّز أشبه ما يكون بالحيّز الافتراضيّ) ، يدخله الإنسان عند نومه. ومن المعروف أنّ الإنسان يخرج بالنوم من حيز الوعيّ والتكليف والإرادة إلى عالم آخر مختلف ليس له فيه إلاّ كونه متعلّقا به على نحو ما. والمتأمل في البعد الاجتماعي للأحلام بعدّها وسيلة للمعرفة يجد أنها بذلك قد وظفت توظيفا أعطاها منزلة أكثر بكثير ممّا تستحق. وكانت موضعا لمبالغات متعددة الاتجاهات لا تمتّ للسبيل العلميّ بسبب ؛ وحسبنا في بيان صغر مكانتها في المعرفة أنّ الرؤيا في المنام لم تشغل من النبوة إلا جزءاً يسيراً منها ، وقد جاءت الروايات لتوضّح ذلك ففي بحار الأنوار عن أبي سعيد أيضا عنه صلى الله عليه وآله قال: ((الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة))[1]. وفي الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم بسنده : ((عن ابن عمر قال: قال رسول الله(صلى الله عليه[وآله] وسلم): الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة))[2].

وفيه أيضا: ((عن أبي سعيد أنّه سمع رسول الله{صلى الله عليه وسلم} يقول الرؤيا الصالحة جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة))[3]. وورد في اللسان في كَذِبُ الكاذب في منامه يزاد في عُقوبته ووعيده وتَكليفه عَقْدَ الشعيرتين؟ فأُجيب((قيل قد صح الخَبَرُ أن الرؤيا الصادقة جُزْءٌ من النُّبُوَّة والنبوةُ لا تكون إلاَّ وَحْياً والكاذب في رؤياه يَدَّعِي أن الله تعالى أراه ما لم يُرِه وأعطاه جزءاً من النبوة ولم يعطه إياه والكذِبُ على الله أعظم فِرْيَةً ممن كذب على الخلق أو على نفسه))[4]. على أنّ المتبادر إلى فهم الحديث أن الرؤيا عند الأنبياء لا غيرهم تكون جزء من سبعين جزءاً من النبوة ، لا عند مطلق الناس.

ويلحظ أنّ الرؤيا الصالحة خصت بكونها جزءا من سبعين جزءا من النبوة لا من الرسالة وهو أمر له اعتباره ، إذ الرسالة فيها توجّه نحو الاتباع وما يفترض عليهم

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

من تكليف ، على حين أن النبوة لا ينظر اليها إلا في ظل الإطار الشخصي لنبي الله ، على ما يقتضيه الاستعمال القرآني من موارد استعمال النبوة والنبيّ[1] في قبالة الرسالة والرسول ؛ بل جاءت الروايات لتوضّح أن ما يراه النائم يمكن أن يحور باتّجاه الخير والشّر على وفق ما يعبّر المعبّر عنه ؛ من ذلك: جاء في وسائل الشيعة للحرّ العامليّ بسنده قال: ((سمعت أبا الحسن(عليه السلام) يقول: ربّما رأيت الرؤيا فأعبرها ، والرؤيا على ما تعبّر))[2]. وفيه أيضاً: ((سمعت أبي قتادة يقول: كنت أرى الرؤيا في مرضني حتى سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول: الرؤيا الصّالحة من الله ، فإذا رأى أحدكم ما يحبّ فلا يحدث به إلا من يحب ، وإذا رأى ما يكره فلا يحدث به ولينقل عن يساره وليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ومن شر ما رأى فإنّها لن تضره))[3] ، وأيضا روى الشيخ المفيد في كتاب الاختصاص قول أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال: ((إذا كان العبد على معصية الله عزّ وجلّ وأراد الله به خيرا أراه في منامه رؤيا تروعه فينزجر بها عن تلك المعصية ، وإن الرؤيا الصادقة جزء من سبعين جزءا من النبوة))[4].

وللإمام جعفر بن محمّد الصادق(عليه السلام)(ت١٤٨هـ) بيان جلي بخصوصها أورده فيما أملاه على بعض تلامذته وقد عرف هذا الإملاء بتوحيد المفضل وذلك قوله: ((فكر – يامفضّل- في الأحلام كيف دبّر الأمر فيها فمزج صادقها بكاذبها فإنّها لو كانت كلّها تصدق لكان الناس كلّهم أنبياء ، ولو كانت كلّها تكذب لم يكن فيها منفعة ، بل كانت فضلا لا معنى له ، فصارت تصدق أحيانا فينتفع بها الناس في مصلحة يُهتدى لها أو مضرة يُتَحذر منها ، وتكذب كثيراً لئلا يعتمد عليها كل الاعتماد))[5]. تلك إذن منزلتها فهي تصدق أحيانا وتكذب كثيرا ، وهي لصاحبها

---

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

دليل الى منفعة تطلب أو مضرة تُتجنب؟! ومن هنا لا يمكن أن تكون الأحلام من الوسائل العلمية اثبات ونفيا لما يطرأ عليها من كثير عدم الصدق.

النوم والمنام في القرآن الكريم
ورؤيا يوسف الصديق u

وعلى الرغم ممّا جاء في القرآن من وصف النوم بالسّبات ، وقرب الإنسان النائم من الموت كما سيأتي إلاّ أنّنا نجد أنّ المفسرين أعطوا لها أثراً عظيماً في مسار حياة النبيّ يوسف **u** وحياة من أرسل إليهم ؛ بذهابهم إلى أنّ تأويل الأحاديث التي علّمها الله تعالى نبيه يوسف **u** هي تفسير ما يراه النّائم في أحلامه؟! ومن ثمّ وجدنا له مساحة كبيرة في مختلف العلاقات الاجتماعية ولا سيّما ما تعلق منها بالجانب الدينيّ ، فتحول رؤية المنام في بعض حالاته الى أشبه ما تكون بالهبة الإلهيّة للشخص لترسم له طريق الخلاص أو تجعله يرتدع عن شيئ ما ، ونحو ذلك.

وقد شغل تفسير الأحلام وما تعلق بها حيزاً واسعاً من اهتمام المعنيين على الصعد الاجتماعية والدينية والنفسية والتاريخيّة. ولقد اشتمل ما كتب عن سير كثير من الشخصيات المهمة في مجتمعاتها على ذكر بعض أحلامهم التي كان لها الأثر في حياتهم وحياة أتباعهم.

وعلى العموم فإن ما ذكر آنفا على اختصاره لم يكن هو مثار هذه الدراسة الدلاليّة لهذه المصطلح القرآني(تأويل الأحاديث) ، ولم يكن هو الموجّه لجوانب البحث ، بل ذكرناه استئناسا بفائدة فيها بيان واقع التعامل مع الأحلام ، ومدى التعويل عليها. ويبدو أن حمل تأويل الأحاديث على ما جرى من تفسير الرؤيا الواردة الوارد في سورة يوسف(عليه السلام) ، وفي آيات أخرى ممّا حدث مع أبيّ الأنبياء ابراهيم الخليل(عليه السلام) قد اكتسب الأحلام رصيدا إضافيّا في رفع التعويل على

الأحلام وخضوع الحس الشخصي والاجتماعي لما تشتمله.

إنّ الملاحظة الأولى التي نقدمها ههنا فيما يخصّ(تأويل الأحاديث) أنّ تعليمها يوسف(عليه السلام) أسند إلى الله تعالى ، وهي معرفة وصلت إلى منزلة الإعجاز ، وكانت الطريق الذي تبوَّأ به يوسف الصديق(عليه السلام) منزلة عند ملك مصر وأهلها بما ذكره الله تعالى: (وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ){يوسف٥٤} عندما استطاع تأويل رؤيا الملك. وبتلك المعرفة استطاع أنْ يتلافى المجاعة التي كانت ستحلّ بأهل مصر ، فكان يوسف بذلك سفينة نجاة المصريين في تلك الحقبة[١].

من هنا يأتي التساؤل عن الدلالة القرآنية لـ(تأويل الأحاديث) ؛ فأنّى يكون للأحلام ورؤيا المنام هذه المكانة مع ما تقدّم من سبات النوم ، وعدم التّكليف به؟!. لذا كان الجهد هو التّوجّه نحو الكشف عن دلالة المصطلح القرآنيّ لهذا المركب الاسميّ(الإضافي). وهل هو بمعنى تفسير الأحلام ، أم أنّه بمعنى آخر غاب عن المعنيين في ظل غياب منهج محكم لفهم القرآن ، والتباس هذه المعرفة بما حدث من تفسير للأحلام ممّا جاء ذكرها في السورة المباركة؟.

المَنامُ فِي القُرآنِ الكَرِيمِ

ولم يرد استعمال لفظة(الحلُم) في القرآن الكريم وورد استعمال جمعه(الأحلام) مرتين في قوله تعالى: (قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ){يوسف٤٤} ، وهي استعملت حصراً في السورة نفسها التي استعمل فيها (تأويل الأحاديث). وقد نصّت الآيات على أن النوم حالة سبات يدخلها الإنسان بل هو سنة عامّة ؛ قال تعالى:(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا){الفرقان٤٧} ، وقال تعالى: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا*وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا*وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا){ النبأ٩-١١}.

---

(١)

فالنَّوم مرحلة حياتيّة هي إلى الموت أقرب منه إلى الحياة. وقد جرتْ سنةُ الفقهاءِ في استدلالاتِهم على استثناء النَّائم من الأحكام التي يكلّف بها وهو مستيقظ ، تبعا لأحاديث شريفة واستدلالا عقليا راجحاً. وقد تعالى الله تعالى عن الصفة التي هي صفة الضعف والحاجة التي لا تليق به ، فقال تعالى: (اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ...الآية){البقرة٢٥٥}.

ومن استعمالات هذه المادة في القرآن لفظة(مَنَام) فقد جاء(الْمَنَامِ ، ومَنَامُكُم ، ومَنَامِهَا) التّي يلحظ فيها دلالتها على الموضع لكونها على صيغة اسم المكان(مَفْعَل) ؛ ولعل هذه الصيغة أقرب في الدلالة على الفعل الخاصّ الذي يؤدّى في حالة الاختيار ، فهو يصحُّ أنْ يقع في اللّيل وفي النّهار ، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ){الروم٢٣} ؛ وقد أضيف إلى فاعله(كُمْ). وقد عبّر عنه بأنّه آية من آيات الله تعالى ، وجاء بعد ذكر طائفة من آيات الله: خلق الإنسان من تراب ، وخلق الأزواج ، وخلق السّموات والأرض ، واختلاف الألسنة ؛ قال تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ){الزمر٤٢}.

رؤية المنام عند الأنبياء:

ذكر في القرآن الكريم ما يظهر بوضوح أنّ هناك رؤيا في المنام تكون عبارة عن أمر من الله تعالى لنبيه أو بيان حادثة ما تقع في الحال أو ستقع في المستقبل ؛ وذلك خاصّ بمن ذكر من أنبيائه تعالى ، وفيما يأتي تفصيل ذلك:

١-فأوّل ذلك ذكرا كان مع النّبيّ إبراهيم u بذبح ابنه اسماعيل(عليه السلام) ؛ قال تعالى: (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ* فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ*وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ*قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ){الصافات١٠٢-١٠٥}.

٢- ثمّ ما ذكره القرآن بخصوص نبيِّنا r وآله بقوله تعالى: (إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ){الأنفال٤٣}(١).

ويلحظ أنّ الصِّياغة القرآنيّة كانت دقيقة في أن الرؤيا حدث في المنام لقوله:(أَرَى فِي الْمَنَامِ ، وَيُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ).

٣- وممّا حمل على الرؤيا في المنام موضعان آخران هما قوله تعالى في نبيّنا r وآله: (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا){الإسراء٦٠}. وقوله تعالى:(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا){الفتح٢٧}.

فهاتان الرؤيتان لم تخصصا بكونهما تمّتا في منام رسول الله r وآله ، إذن فهي على مثال رؤية يوسف التي سنأتي على ذكرها معاينة لا في منام ، وهما رؤيتان تكشفان عن حدثين سيقعان في قابل الأيام. ويظهر في سياق الآيتين ما يبعد الرؤيا الحلمية ، ففي الآية الأولى قوله: (وَنُخَوِّفُهُمْ)!. فلا معنى لخوف هؤلاء الذين يزدادون طغيانا من رؤيا في المنام ، إلا إذا كان الأمر حتما لا بدَّ واقع!. وفي الآية الثانيّة(فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا) فهو علم كما أنّ تأويل الأحاديث علم علّمه الله يوسف u ، ودلالته على حقيقة رآها النبيّ r وآله ستقع في قابل الأيام وهي من دلائل ارتباطه بالله تعالى.

٤- ثمّ تأتي الآية موضع البحث وهي الموضع الّذي أشتهر بأنّه رؤيا رآها يوسف u في منامه وهو في مقتبل عمره ، قال تعالى: (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ* قَالَ

(١)

يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ){ يوسف٥}.

نلحظ في هذا المورد الأمور الآتيّة:

أوّلاً: الرؤيا حدثت قبل نبوة يوسف u إذ رأى ذلك في صغره ، كما يظهر من الآية وكذا بقية آيات السورة.

ثانياً: لم يرد في الآية ، وما تعلّق بها من آيات ما يقطع بحدوث الرؤيا في أثناء نوم يوسف كما هو الحال مع النبيين العظيمين عليهما وآلهما وعليه الصلاة والسلام ، لنقول إنّ رؤيا يوسف كانت في أثناء نومه أو منامه. ما يعني أنّها رؤيا في حالة اليقظة. وما دام الأمر متعلقاً برؤيا وقع ما يصدّقها في مستقبل الأيام ، فالرؤيا لها خصوصيتها التّي تميّزها عن رؤية العادية.

ثالثاً: إنّ في تكرار يوسف u للفعل(رأيت) في كلامه مع أبيه u له خصوصيَّته في الدّلالة على أنّ ذلك كائن في حال يقظة منه لا نوم ، ولقد كان في تكرار الفعل رأيت ما يذهب بنا إلى أنّه تكرار لبيان وقوع الرؤية على نحو المعاينة لا الرؤيا المناميّة[1]. ولا سيما أنّ تتبع استعمال هذا الفعل يُظهِر أنَّ الرؤية البصريّة البصريّة سمة أساسيّة لهذا الفعل مع سمة الإدراك. ولقد وقع التكرار باستعمال هذا الفعل في آية أخرى بقوله تعالى: (وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا) {الإنسان٢٠}. إذ يبدو أنّ تكرارها للدلالة على رؤية العين لذلك النّعيم والملك الكبير ، ومع(ثَمَّ) بإشارتها الدالة على الظرفية المكانيّة.

رابعاً: إنّ قول يعقوب u :(لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ) لا نصّ فيه على أنّ رؤيا يوسف كانت حلماً رآه في منامه ؛ فلقد استعمل الفعل تقصص الذي تظهر موارد استعماله وبقية فروعه المشتقة(قصَّ ونقصّ ويقصون والقصص) تشترك في دلالة كل منها على وقائع حدثت في الحياة ، وهي وقائع متعلقة بسيرة الرسل مع أقوامهم ، وسيرة تلك الأقوام وعصيانها ، وإنفاذ أمر الله تعالى فيها. وقد

---

(١)

جاءت في إطار الممدوح من الله تعالى ومن آياته ، والآيات هي قوله تعالى:

[١](فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ* إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللّهُ وَإِنَّ اللّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ){آل عمران٦١-٦٢}.

[٢] (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) {النساء١٦٤}.وينظر الآية {غافر٧٨}.

[٣] (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ) {الأنعام١٣٠}.

[٤](وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ){الأعراف١٧٦}.

[٥] (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ){الأعراف٧}.

[٦] (يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ){الأعراف٣٥}.

[٧] (تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ) {الأعراف١٠١}.

[٨] (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ){هود١٠٠}.

[٩] (وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ){هود١٢٠}.

[١٠] (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ* لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي

الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) {يوسف/١١١}.

[١١] (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) {النحل١١٨}.

[١٢](نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى){الكهف١٣}.

[١٣] (ذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا){طه٩٩}.

[١٤](إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ){النمل٧٦}.

[١٥](فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ){القصص٢٥}.

فالسمة التي تبرزها الآيات في استعمالها المقصود لهذه الألفاظ هي حدوث الشيء فيما مضى. ومع موارد أخرى تنحو إلى أنّ النبيّ يعقوب **u** باستعماله للفعل تقصص كان في إطار معرفته أنّ يوسف يكلمه عمّا رآه حدثا لابدّ واقع ؛ لا يتخلف لذا يمكن أنْ نفهم وجه هذا الحذر اليعقوبيّ وخشيته على يوسف بنهيه أن يحدّث به أخوته ، إذ لا شكّ عنده من معرفتهم الأكيدة أن يوسف بهذه الرؤيا هو النبيّ بعد أبيهم وله الولاية عليهم لسجودهم وسجود أبويهم له!. ولو كان الأمرُ أمرَ حلمٍ يراه من هو في نظرهم صبيّ صغير ، لم يكن ليتّضح ذلك هذ الكيد الذي يكيدوه له(فهو كيد مطلق الحدود). ولاسيما مع معرفة يعقوب التّي تستبطنها الآيات أنّهم لا يعرفون مقام أخيهم يوسف على حقيقته ؛ لذا فالرؤيا بحدّ ذاتها ستظهر لهم بما لا يقبل الشكّ عندهم أن أمر نبوة يوسف محسوم من الله تعالى وهذه الرؤيا دليل ذلك.

يمكن أنْ نضيف إلى ما سبق في دلالة تقصص أنّ القرآن الكريم قدّم لنا ما يشبه

المعنى اللغوي للمادة قصص فهو التتبع الدقيق للشيء ، على نحو الرجوع والعودة إليه ؛ ويظهر في سياق ذلك (الفعل ارتدّ ، وآثار). ففي رحلة نبيّ الله موسى u وغلامه للقاء العبد الصالح ؛ بعد أن أكتشفا أن حوتهما قد اختفى ، فكان العلامة التي ينتظرها موسى u للمكان الذي سيلتقي فيه بالعبد الصالح ، قال تعالى: (قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا){الكهف٦٤} كما تظهر دلالة التتبع الدقيق في قوله تعالى: (وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ){القصص١١}.

ثم إنّ سمة دلاليّة أخرى تظهر في السياق اللفظيّ للرؤيا ، وذلك باستعمال الفعلين(أفتوني ، وتَسْتَفْتِيَانِ ، وأفتنا) على لسان ملك مصر ، وعلى لسان يوسف u والأخيرة لصاحبه الذي نجا من السجن ؛ قال تعالى:

[١](وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ){يوسف٤٣}.

[٢] (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ){يوسف/٤١}.

[٣] (قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ*وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ*يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ){يوسف٤٤-٤٦}.

فلو كان الأمر حلماً أو رؤيا مناميّة لما كان لهذا الفعل مناسبة دلالية معها ، فالرؤيا في المنام بحاجة إلى تعبير لا إفتاء ، فقال الملك: (أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُون) لكنه لا يدري حقيقة ما رآه فقال أفتوني لمن ظنّ أنّهم يعبّرون الرؤيا ؛ على حين أن يوسف u استعمل(تَسْتَفْتِيَانِ) ، وصاحبه الذي كان قد عرف بأمر يوسف وعلمه فقال(أَفْتِنَا). ويُعضَّد هذا بأنّ الفعل أفتوني من حقل آخر أكبر وأكثر

أهميةً من حقل تعبير الأحلام. ويمكن أن نستوضح دلالته القرآنية عبر آية أخرى ، وذلك في قوله تعالى حكاية على لسان بلقيس ملكة سبأ: (قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ){النمل٣٢}. فهي تطلب الرأي من أعوانها لتبتّ (قَاطِعَةً أَمْرًا) في الردّ على رسالة سليمان u ، وكذا هو الرأي البات للتعامل مع وقائع وحالات موجودة كما يظهر في قوله تعالى:

١) (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاء قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاء...){النساء١٢٧}.

٢) (يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُواْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاء فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ){ النساء١٧٦}.

وكان نبي الله الصدّيق u قد استعمل مع الفعل تَسْتَفْتِيَانِ ما يبرز سمة البتّ أو الوقوع الحتميّ لما أخبرهم به ، بقوله:(قُضِيَ الأَمْرُ) ؛ قال تعالى: (يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ){يوسف٤١}. فهل يكون هذا الكلام على هذا النحو لو كان الأمر عبارة عن معرفته بتفسير الأحلام. وسيأتي في هذه الآية تتمَّة عمّا قريب.

المطلب الثالث

الدلالة القرآنية للفظة الأحاديث

لم تستعمل(الأحاديث) المعرفة بـ(أل) منفردة بل جاءت في مواردها الثلاثة مضافة إلى تأويل وهي حصراً في سورة يوسف(u) ، وجاء استعمال(أحاديث) النكرة في موردين هما:

١. قوله تعالى: (ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّمَا جَاء أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ){المؤمنون٤٤}.

٢. قوله تعالى: (فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ){سبأ١٩}.

وفي البدء نرى أنّ السمة الدلالية في هذه اللفظة تنسجم مع دلالة القصص ويقصّ وغيرهما التي دلّت على حكاية الأحداث التي وقعت في الأمم السابقة. على انّها بسبب من تنكيرها وتعريف الأحاديث سيجعل من اللفظة الأخيرة ذات دلالة مختلفة عن مقابلتها النكرة ، ولّما كان منهج بحثنا يعتمد المدوّن في إقامة العلاقات بين الألفاظ لا الجانب الاشتقاقيّ فنرى التوجه نحو مواضع أخرى تزيد من تحديد دلالة هذه اللفظة.

وإذا كان الآيات القرآنية لم تستعمل(الأحاديث) في موضع آخر غير ما ورد في سورة يوسف فإنّها قد استعملت ما نطلق عليه[المفرد اللفظي][1] للأحاديث وهي لفظة الحديث المعرّف بأل ، وهو استعمال له أهميته في بيان الدلالة القرآنية للأحاديث ؛

---

(١)

فقد استعمل الحديث في ستة موارد سُبق في أربعة منها باسم الإشارة(هذا) وهو للقريب ، وهي أقرب الموارد إلى لفظة الحديث لأفرادها الواضح وسنقصر الكلام على هذه الموارد دون بقية الستة لأنّها جاءت فيها مضافة لا مفردة ، والموارد الستة[1] هي قوله تعالى:

١) (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً){الكهف٦}.

٢)(أَزِفَتْ الْآزِفَةُ*لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ*أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ*وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ*وَأَنتُمْ سَامِدُونَ){النجم٥٧—٦١}.

٣) (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ* لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ* تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ* أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ* وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ){الواقعة:٧٧—٨٢}.

٤)(يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُونَ* خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ*فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ) {القلم ٤٢-٤٤}.

٥)(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) {الزمر٢٣}.

٦)(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ){ لقمان٦}.

إنَّ التأمل في الموارد الأربعة ، ولاسيما في الموردين: الثاني والرابع يجد ارتباطهما بما يحدث في المستقبل فمع السياق الآزفة الدّال على المستقبل. ويظهر أنّ للآزفة يوماً خاصّاً موسوماً بها وهو ممّا ينذر منه ، فقد جاء في مورد آخر قوله تعالى: (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ){غافر١٨} ، فالحديث يتوجّه نحو ذلك اليوم المستقبلي ، وكذا الحال في قوله

تعالى: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ...). فإنّ لفظة الحديث تتوجه إلى ذلك اليوم ، وهو يوم في المستقبل كما هو واضح.

أمّا المورد الأول فقد كانت صبغة المستقبل بارزة بقوله تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا* قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا* مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا* وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا* مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا * فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا){الكهف١-٦}. فالحديث متوجّه نحو الكتاب الّذي يشتمل على الإنذار من بأسٍ شديد ، يبشّر وينذر مما سيأتي.

وكذا المورد الثالث فلفظة الحديث متعلقة بكتاب مكنون المذكور. وقد جاءت لفظة(رِزْقَكُمْ) مع الفعل المستمر في قوله تعالى: (تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ) لتحيلنا إلى مصاحبة اُستعملت في سورة يوسف بقوله: (لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا...){يوسف٣٧}. ويمكن القول بأن هذا السياق يفترض أن دلالة(تُكَذِّبُونَ ، ويُكَذِّبُ) متعلّقة بأمر ما يحدث في المستقبل ، كما أن ينذر أيضا متعلق بذلك أيضاً. وهو أمر جلل لورود لفظة(تعجبون) في(النجم٥٩). وجاء في هذا الصدد استعمال اللفظين(عجبوا) و(عجباً) متعلّقا بالشخص الذي يختاره الله تعالى لينذرهم عندما يكون المعني هذه الأمة ؛ وتوجّه التعجب نحو الرسالة لا الشخص المرسَل في الأمم السابقة باستعمال(عجبتم)[1]. وقد صحبها دلالة الإنذار ، ونذكر هنا موردا واحدا وهو قوله تعالى: (وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ){ص٤} إذ يظهر توجه عجبهم من منذر منهم. ويبدو أنّ استعمالهم للفظة(سَاحِرٌ) في هذه الآية وفي آية أخرى{يونس٢} ما يشير إلى أنهم رأوا من المنذر(r وآله) شيئاً وجدوا أن أقرب ما يشنّعون به عليه أنْ يسموه بهذه اللفظة مع كَذَّابٌ. وقد سبق التنويه إلى استعمال تكذّبون مع لفظة الحديث ، ليؤكّد أن هناك علاقات متشابكة داخل النظم

---

(١)

القرآني ترتكز إلى تعالق الألفاظ وتعاضدها في إظهار دلالة بعضها ببعضها الآخر.

ويكشف تركيب آخر ما نعضّد به الدلالة القرآنية للفظة الحديث بتعلقها بما سيحدث في المستقبل وهو التركيب الجمليّ(أنذر الناس) الوارد مع لفظة الحديث في(يونس٢) الآنفة الذكر ؛ وهو موضع لم يذكر فيه من أي شيء ينذر الناس به ، ولكن هذا الإبهام يزول عبر التفصيل الذي وجدنا في موضع آخر من القرآن ؛ فأظهرت الآية الآتية ما ينذر منه الناس(١). قال تعالى:

(وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُواْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ* وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ* وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ* فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ){إبراهيم٤٤-٤٧}.

فإنذار الناس من ذلك اليوم الذي يأتيهم فيه العذاب ، فاليوم هو المُنذَر منه بما سيأتيهم فيه لا أن يكون اليوم ظرفا للإنذار كما يظهر من صياغة الآية ، ويظهر في الأفعال دلالتها على المستقبل ، وهي [يَأْتِيهِمُ ، وفَيَقُولُ]. وهو وعد الله لن يخلفه. ومن الملاحظ أنّ(يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ) جاء في ثلاثة موارد أخرى هي:{النحل٤٥ ، والكهف٥٥ ، والزمر٥٥} ؛ منها قوله تعالى: (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ* أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ){النحل٤٥—٤٦}. وهو إسناد مستقبليّ يدل على أنّ هذا العذاب يتسم بالحركة ، وهو متوجّهٌ نحو (الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ). وهم المعنيون أيضاً بقوله: (وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ){إبراهيم٧٦} الآنفة الذكر. ويبدو أنّ هذا العذاب ليس عذاب يوم القيامة ، فقد ورد في سياقه: (مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ، وفِي تَقَلُّبِهِمْ) فهو يأتيهم وهو في أفعالهم ومكرهم.

وجاء في الكهف: (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا

---

(١)

أن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا){الكهف٥٥}. فقد يأتيهم ما جاء الأقوام السابقة ممن رفضوا إتّباع رسلهم. أو قد يأتيهم العذاب الذي يبدو أنه عذاب بعينه لم يأت من سبقهم ، وإلّا فلماذا أداة التخيير(أو) وهل سنة الأولين إلا ما حلّ بهم من عذاب.

وقد جاء في سورة فاطر ما يوضح سُّنة الأولين وذلك بقوله تعالى: (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا* اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا*أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا){فاطر٤٢-٤٤}.

فمع ما يظهر من تناظر لفظي بإيراد مجموعة من الألفاظ التي ظهرت في الآيات التي أوردناها من قبل ، تظهر سنة الأولين التي لا بدّ حادثة في هذه الأمة ، وهو عذاب لعدم إطاعة النذير يحلّ بهم في الدنيا كما حلّ بالأمم الماضية.

ويمكن أنْ تعضد دلالة لفظة(الحديث) من تتبع تركيب قرآنيٍّ آخر ، ففي المورد الرابع الآية: (ذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ...الآية){النجم٤٤} فقد اُستعمل تركيب(من يكذّب) في موضع آخر يبيّن الطابع المستقبلي لما يقترن به هذا التركيب وذلك بقوله تعالى: (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ) {النمل٨٢-٨٣}.

فهنا(إِذَا) وهو شرط مستقبليّ سمته البارزة في الاستعمال القرآني أن ما بعده حتمُ الوقوع ، وهناك حشر بعد خروج الدابّة ، وهو حشر خاصّ(مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا) فهو جماعة معينة ، فالحشر ليس عامّاً ، كما هو واضح. ومع وجود لفظة الأرض وهذا الحشر الخاصّ يتّضح أنّ هذا ليس أمراً في القيامة بل هو أمر في الدنيا ، وعلى هذه الأرض.

ولا يقف الأمر عند ذلك فهناك علاقات لفظية متداخلة نحتاج لتتبعها إلى ما يتجاوز حدود بحثنا هذا ؛ لذا فإنّنا نكتفي هنا بالقول أنه ظهر مما سبق بروز دلالة الحديث أنها مما يتعلّق بأخبار الغيب مما سيقع في المستقبل ، وعدا ووعيدا ، وإن غلب على ذلك صفة الوعيد ، للتكذيب الذي يواجهه ، وللإنذار ، وسنة الأولين وغيرها.

أمّا مورد سورة الكهف وهو قوله تعالى: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً){الكهف٦} فيظهر المعنى العام للآية أنّ هناك أمراً إلهيّاً ترك هؤلاء الإيمان به ، فكأنّهم آمنوا بما سبقه من أمور أتى بها رسول الله(r وآله) ؛ لكنهم أعرضوا عن هذا الأمر ، فظهر من رسول الله(صلى الله عليه وآله) شدّة أسفه من عدم إيمانهم ههنا. وجاءت لفظة(آثَارِهِمْ) لتربط هؤلاء بالظالمين المعرضين عمّا جاء به الأنبياء(عليهم السلام) ، فقد اقترن الاستعمال القرآني لـ(آثَارِهِمْ) بهؤلاء في مواردها السبعة[1].

وتكررت ألفاظ الشطر الأول من الآية السابقة في آية أخرى ، وذلك قوله تعالى: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ* إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ* وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ* فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون){الشعراء٣–٦}.

إذ يلاحظ أن أجواء هذه الآيات أجواء مستقبلية قريبة من تلك الأجواء التي تدور فيها موارد ذكر لفظة الحديث ، والعذاب مع بروز ألفاظ: (يَأْتِيهِم ، وكَذَّبُوا ، وفَسَيَأْتِيهِمْ ، ومُحْدَثٍ) ، ولفظة(مُحْدَثٍ) تشترك مع لفظة الحديث في الجذر اللغويّ.

كما ظهر استعمال آخر لمحدث مع اقترانه بوصفهم أضغاث أحلام في قوله تعالى:

(مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّواْ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ * قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاء وَالأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ){الأنبياء٥}.

---

(١)

مّا سبق يمكن القول أنّ دلالة(الأحاديث) أكثر سعة مما اشتمل لفظ الحديث ، فاذا كان الحديث هو ما يحدث في المستقبل من حدث خاصّ ستكون دلالة الأحاديث على مجمل تفاصيل ما سيحدث في المستقبل ، وفي كلام يوسف الصديق(u) ما يعضّد ذلك ، فهو إلى جانب معرفته بحوادث المستقبل تظهر معرفته بالأرزاق والآجال كما يظهر في قوله تعالى: (لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي){يوسف٣٧}. وفي قوله مما علمني ربيّ تناظر مع أنّه تعالى(علمه من تأويل الأحاديث) ، ودلّت بعض الآيات أن يوسف الصديق عُلِّم علوماً أخرى متعلقة بالحوادث الآتيّة وكيفيّة إدارة الموارد ومعرفته بمصادر ثروات الأرض بطريقة تعدّ في وقتها خارج الإمكانات الاعتيادية للبشر ، لذا طلب أن تسند إليه إدارة أحوال مصر عند حصول سنوات الجدب ، فقال تعالى: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ){يوسف٥٥}. فاستعمل الصفة المشبهة الدالة فعيل(أي: حَفِيظٌ عَلِيمٌ) أشار إلى معرفته بكيفية حفظ ما تحت يديه وعليم بكيفية إدارتها يقيناً.

إذن فتأويل الأحاديث عند يوسف u هي قدرته التي علمه الله إياها بمعرفة تفاصيل ما سيقع في المستقبل[1] من وجوه متعددة. ولعل شيئا من ذلك بدا من يوسف(u) في مرحلة ما قبل سجنه ، وكان سببا في أن يعمدوا إلى ذلك ، بل كان سببا في قيامهم بسجنه ؛ قال تعالى: (ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ){يوسف٣٥}. وقد وردت لفظة الآيات في القرآن الكريم في إطار الدعوة إلى التدبر فهي آيات بيّنة ومفصّلة ، كما يفهم من سياقاتها القرآنية ؛ ولم يرد في سياق ذكرها[2] استعمال صيغ الكفر والاستهزاء والتكذيب معها(كما هو الحال مع لفظة آياتنا) ؛ ما يدعو إلى القول بأنّ هذه الآيات لا مجال لنكرانها أو إخفائها وهو أمر يجعلها قريبة من القدرة التي عرفت عند يوسف(u) بـ(تأويل الأحاديث)!.

---

(١)

(٢)

نتائج البحث

لقد توصل البحث إلى النتائج الآتية:

١) إن المنهج الذي ينبغي التوجه إليه في فهم القرآن وتفسيره ، يجب أن يستوحي روحية منهجية غلق المدونة التي تقوم بتفعيل تفسير القرآن بالقرآن في ظل تصورات تزيل ما علق بهذا النوع من التفسير من إشكاليات منهجا وتطبيقا.

٢) إنّ يوسف u قصّ على أبيه ما رآه في يقظته لا منامه ، فلا دليل على أنّ الرؤيا حدثت في المنام ومثل هذه الرؤيا حدثت لنبينا في موردين كما أشارت الآيات القرآنية.

٣)الأحاديث لها دلالة قرآنية هي ما سيحدث في المستقبل بتفاصيل متعددة ، ومن ثمّ فتأويل الأحاديث هي قدرة من الله تعالى علمها يوسف u بمعرفته ما سيحل في المستقبل.

٤) لقد تمّ تعضيد هذه الدلالة عبر ملاحقة الاستعمالات القرآنية لمجموعة من الألفاظ المتعلقة بهذه اللفظة التي استعمل بعضها في سورة يوسف وبعضها الأخر في بقية السور ومنها المفرد اللفظي للأحاديث أي الحديث ، وألفاظ تقصص والقصص ونقص و أنذر الناس وأحاديث ، وأفتنا وتستفتيان ويأتيهم العذاب ، وغيرها.

٥) إن البحث القرآني في دلالة هذا التركيب أظهر أن للقرآن الكريم شبكة تقترن بها الألفاظ القرآنية بعلاقات دلالية تعضد انتمائها إلى حقل تنسجم فيه مع ألفاظ أخرى داخل ذلك الحقل.

مصادر البحث

١. القرآن الكريم.

٢. الاختصاص، للفقيه الشيخ محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغداديّ المعروف بالشيخ المفيد(ت٤١٣هـ)، تحقيق علي أكبر غفاري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت،١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٣. الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ المُنزَل، الشَيخ نَاصِر مَكارم الشِيرازي، نشر مدرسة الإمام علي بن أبي طالب، مطبعة سليمانزاده، قم، ايران، ط١،١٤٢٦هـ.

٤. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، العلامة المولى الشيخ محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ط٢، ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣م.

٥. التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تحقيق وتصحيح :أحمد حبيب قصير العاملي، موقع الجامعة الاسلامية، [الكتاب مرقم آلياً موافق للمطبوع]
http://www.u-of-islam.net/uofislam/maktaba/Qran/kotob.htm

٦. وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، الفقيه المُحْدّثِ الشيخُ مُحمّدْ بن الحسن الحُر العاملي (ت١١٠٤هـ)، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث، قم المشرّفة، مطبعة: مهر، قم ط١، ١٤٠٩هـ.ق.

٧. توحيد المفضّل، إملاء الإمام أبي عبدالله الصادق(ع) على المفضل بن عمر الجعفي، علق عليه كاظم المظفر، مطبعة الداوري، الطبعة الثالثة، قم أيران.

٨. الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم، محمد بن فتوح الحميدي، تحقيق :د. علي حسين البواب، دار النشر / دار ابن حزم، بيروت، الطبعة: الثانية ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٩. الزينة في الكلمات الإسلاميّة العربية، أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي(ت٣٢٢هـ)، حققه: حسين بن فيض الله الهمدانيّ، مركز الدراسات والبحوث اليمنيّ، صنعاء، ط١، ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م.

١٠. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد

الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.
١١. القرآن الكريم وكفى مصدرا للتشريع الاسلامي، د.أحمد صبحي منصور، بلا معلومات، والكتاب موجود على شبكة المعلومات العالمية.
١٢. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط١.
١٣. المتشابه والمحكم في القرآن الكريم(بحث في دلالة الألفاظ القرآنية)، د.حسن عبدالغني الأسديّ، مجلة جامعة كربلاء، مج٧، العدد١، إنساني،٢٠٠٩.
١٤. المعجم الطبي النفسي،آرثر أس.ريبر وإيملي ريبر، ترجمة د. عبدالعلي الجسماني، ود. عماد الجسماني، نشر الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط١، ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.
١٥. مفهوم الجملة عند سيبويه، د.حسن عبد الغني الأسديّ، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ٢٠٠٧م.
١٦. منهج الدلالة القرآنية للألفاظ(مدخل إلى تفسير القرآن بالقرآن)، د.حسن عبدالغني الأسدي، مجلة آداب المستنصرية، العدد٤٩، ٢٠٠٩.
١٧. منهج المدونة المغلقة والدّلالة القرآنيّة لفظة(تأويل) أنموذجا، د.حسن عبدالغني الأسدي، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، ومجلة الكلية الاسلامية الجامعة، بحوث المؤتمر الثالث عشر، آذار،٢٠١٥. وهو قيد النشر.
١٨. الميزان في تفسير الميزان، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
١٩. الويكيبيديا الموسوعة الحرة على شبكة الانترنيت ورابطها: الحلم
http://ar.wikipedia.org/wiki/

فهرس الكتاب

نظرية المثلث الدلالي	أ.م.د. كيان أحمد حازم / كلية الآداب / بغداد	
البنيوية التكوينية في التلقي العربي بين النظرية والتطبيق	أ.م.د. حيدر فاضل عباس /كلية الآداب / بغداد	
المصوتات الطويلة بين العربية ولهجات شبه الجزيرة العربية / المصوتات الطويلة في اللغة العربية	أ. د. ولاء صادق محسن /كلية التربية للبنات / جامعة بغداد	
علم اللغة الاجتماعي وكيفيات تفاعل اللغة مع المجتمع	أ.م.د.ميساء صائب رافع /كلية التربية للبنات/بغداد	
النقد اللساني وتحليل البنى السردية	أ.م. د. سعيد عبد الهادي المرهج/كلية التربية للبنات/بغداد	
ملكة النطق عند الفلاسفة المسلمين في ضوء	اللسانيات م.د. كريم عبيد علوي /كلية التربية للبنات / بغداد	
العلامة اللغوية والاتجاهات السيميائية	أ.م.د.أثير محمد شهاب/ كلية التربية للبنات/جامعة بغداد	
اللسانيات والتراث العربي، أية علاقة؟ لسانيات النص أنموذجا	م.د.خالد حميد صبري /كلية التربية ابن رشد / بغداد	
في اللسانيات القانونيةمقاربة تداولية لمبدأ الكم الخطابي في لغة القانون	م.د. مرتضى جبار كاظم	
دلالة (تأويل الأحاديث) عند يوسف الصديق(عليه السلام) في ضوء منهج المدونة المغلقة	أ.م.د. حسن عبد الغني الأسدي /كلية التربية للعلوم الإنسانيّة /جامعة كربلاء	